



هانيبال

تأليف

العقيد محمد أسد الله صفا

دار النفائس

أعلام الحرب
(٢)

هانيبال

تأليف
العقيد محمد أسد الله صفا

دار النفائس

الطبعة الأولى
١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

دار النفائس
بيروت - ص.ب: ١١/٦٣٤٧ - هاتف: ٨١٠١٩٤ - برقياً: دانفايسكو

بسم الله الرحمن الرحيم



هانيبال عام ٢١٨ق م
قبيل تحركه على رأس حملته الى ايطاليا



موجز عن تاريخ قرطاجة

الموقع والتأسيس

قامت قرطاجة على الساحل الشمالي لأفريقيا ، على شبه جزيرة في خليج تونس ، قريباً من مدينة تونس اليوم . كانت تدعى باللاتينية « قرطهجو » ، اشتقاقاً من التسمية الفينيقية التي تعني البلدة الجديـدة ، بالمقابلة مع البلدة القديمة « عتيقة او أوتيكا » . وقد تأسست قرطاجة ، كما تقول التقاليد ، من قبل الملكة « ديدو » ، التي قدمت هاربة من صور في القرن التاسع قبل الميلاد . وسريعاً ما تحولت هذه المستوطنة الجديدة الى « مدينة ـ دولة » تجارية ، ولتبدأ في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد بالعمل على بسط سيطرتها على غرب البحر المتـوسط . وقام تجـارها ومستكشفوها ببناء شبكة تجارية واسعة ، كان من نتائجها ان أصبحت قرطاجة مدينة ـ دولة مزدهرة تنعم بالغنى والثراء العميم .

نظام الحكم

وقعت هذه المدينة ـ الدولة ، منذ مولدها ، تحت سيطرة محكمة لطبقة أرستقراطية من النبلاء والتجار الأثرياء . ورغم انه كان هناك نوع من مجلس دولة ، وتمثيل شعبي على أساس جمعية وطنية ، لكن هذا النظام سريعاً ما فقد كل سلطة لصالح مؤسسات أوليغارشية ، لتمر السلطة الحقيقية إلى عهدة

قاضيين منتخبين . وكان إلى جانبهما أيضاً مجلس شيوخ صغير العدد لكن عظيم النفوذ والسلطة . وكانت نقطة الضعف الكبرى في هذا النظام ، منذ تأسيس المدينة وقيام الدولة ، خضوع السكان إلى كتلتين متنافستين من العائلات المتنفذة ، كانت كل كتلة تتبع تقليدياً سياسة معارضة للكتلة الأخرى . كانت كتلة تميل إلىٰ التوسع والانتشار عبر اليابسة ، وكانت الكتلة الثانية تفضل البحر وأساطيل البحار . وكان هذا التباين هو موضوع الاختلاف والتعارض الدائم بين الفريقين ، وكان الحكم والسيطرة ، أغلب الأحيان ، بيد الكتلة البحرية .

الأحـداث

توصل القرطاجيون ، عند نهاية القرن السادس قبل الميلاد ، الى التمركز قوياً في جزيرتي سردينيا ومالطة وجزائر الباليار . وقد أبحر الربان حانو ، في أوائل القرن الخامس كما يظن ، نزولاً على طول الساحل الأفريقي ، حتى سيراليون . وتوصل السياسي ماكو الى عقد معاهدات مع الأتروسكيين والرومان وبعض اليونانيين . إلّا أن جزيرة صقلية ، الواقعة على عتبة قرطاجة تقريباً ، لم تقع قط يوماً تحت السيطرة الكاملة للقرطاجيين . وقد بدأ الاستيطان في هذه الجزيرة ، في القسم الغربي منها ، ليتوقف عام ٤٨٠ق م ، عندما مني الجنرال القرطاجي هاميلكار بالهزيمة على يد جيلون ، طاغية سرقوسة ، في معركة هيميرا . وبنتيجة هذا الانتصار أمكن للمدن ـ الدول اليونانية ان تحافظ على وجودها . إلّا أنّ التهديد القرطاجي ظل ماثلاً ، وأخذ يتزايد مع تعاظم القوة القرطاجية .

وفي عام ٤٠٩ق م ، قام هانيبال (وهو غير هانيبال موضوع كتابنا) حفيد هاميلكار السابق الذكر ، بتدمير هيميرا ونهبها ، وتبعه زميله هيميلكو فاستولى على مدينة أكراكاس (أكريكنتو المعاصرة) ونهبها كذلك ، عام ٤٠٦ق م . وقد امتنعت سرقوسة على الغزاة . وبعد مضي قرن من الزمن ، ٣١٠ ـ ٣٠٧ ، تعرضت قرطاجة نفسها إلى التهديد بالغزو ، بنزول أغاثوكلس طاغية سرقوسة

مع جيشه على سواحل أفريقيا . ولكن قـرطاجـة توصلت ، بعـد موت أغاثوكلس ، إلى بسط سيطرتها التامة على كامل الحوض الغربي للبحر المتوسط .

الحروب البونية

كانت روما ، بحلول القرن الثالث قبل الميلاد ، قد سيطرت على جزء كبير من أراضي شبه الجزيرة الايطالية ، وأخذت تنظر إلى قرطاجة كمنافسة لها في البحر الأبيض المتوسط ، وبدأت تتحدى السيطرة والنفوذ القرطاجي في هذا البحر . وقد أدى هذا التحدي الى نشوب حروب طويلة بين الدولتين ، حروب تعرف باسم الحروب البونية ، نسبة الى بوني ، وهي كلمة تعني النسبة إلى فينيقيا ، وهي التسمية التي أطلقها الرومان على القرطاجيين .

نشبت الحـرب البونيـة الأولى عام ٢٦٤ ، واستمـرت حتى عـام ٢٤١ق م ، وخسرت قرطاجة بنهايتها جميع ممتلكاتها في صقلية . وقد وقع ، حالاً على أعقاب هذه الحرب ، تمرد كبير للجنود المرتزقة التابعين لقرطاجة ، ٢٤٠ ـ ٢٣٨ . وقد تمكن هاميلكار برقة من وضع نهاية لهذا التمرد ، وعوض عن خسارة الممتلكات الصقلية بعملية توسع استيطاني في اسبانيا ، واستمر هذا التوسع في عهد خلفه وصهره أسد رويال .

بعث التوسع القرطاجي في اسبانيا القلق والتخوف لدى حكام روما ، واستغلوه مناسبة لاشعال نيران الحرب البونية الثانية ، ٢١٨ ـ ٢٠١ . ورغم أن القرطاجيين كانوا يحاربون بقيادة القائد الخطير الجنرال هانيبال ، فقد هزموا آخر الأمر ، رئيسياً بسبب الانقسام المميت في صفوف العائلات المتنفذة الحاكمة في قرطاجة نفسها ، الأمر الذي حال دون الاهتمام الواجب والجدي بحملة هانيبال في إيطاليا ، وبخاصة دون إرسال الإمدادات اللازمة اليه . وبعد معركة زاما ، ٢٠٢ ، التي انتصر فيها الرومان بقيادة الجنرال شيبيو الملقب بالأفريقي ، اضطرت قرطاجة الى الرضوخ الى شروط الحرب القاسية التي فرضها المنتصر .

فقدت قرطاجة ، نتيجة للحرب البونية الثانية ، جميع سفنها الحربية وكل ممتلكاتها خارج أفريقيا ، لكنها سرعان ما استعادت عافيتها التجارية ، وحققت قدراً عظيماً من الازدهار والثروة . بيد ان روما الساهرة اليقظة ، وبخاصة الشيخ كاتو الكبير ، رأيا بذلك خطراً على مستقبل الدولة الرومانية ، وكان من جراء ذلك أن نشبت الحرب البونية الثالثة والأخيرة ، ١٤٩ - ١٤٦ق م . وقد آلت هذه الحرب إلى زوال الدولة القرطاجية ، وإلى تدمير مدينة قرطاجة ودرسها وتسويتها بالأرض ، على يد الجنرال شيبيو الصغير ، حفيد شيبيو الأفريقي بطل معركة زاما . وقد حاول الرومان أنفسهم ، بعد مدة ، عام ١٢٢ق م ، أن يعيدوا بناء المدينة ، غير أن هذه المحاولة فشلت . ولا توجد اليوم من أثر للمدينة القرطاجية الفينيقية سوى بعض آثار اكتشفت حديثاً ، منها مقابر وبقايا تحصينات وهياكل وثنية .

موجز تاريخ روما
حتى بداية الحروب البونية

روما المدينة

قامت المدينة على الضفة اليسرى لنهر تيبر ، مبنية على سبع تلال ترتفع وسط الأراضي السبخة الواطئة في منطقة كامبانيا . وكان نهر تيبر ، منذ الألف الأول قبل الميلاد ، يفصل ، من ناحيتي الشمال والغرب ، الأقوام الإيطالية عن الأترورريين. وكانت تقوم الى الشمال، على بعد قليل ، الحدود بين السابانيين واللاتين . وكان السابانيـون على اتصال بالحياة الرومانية منذ وقت مبكر . كانت الملاريا لعنة على سكان المنطقة ، لكن تلال روما كانت خالية من هذا الوباء ، وكانت لذلك مكاناً صحياً وخالياً من الأمراض بصورة نسبية ، وكانت نقطة اجتماع للاتين والسابانيين والاترورريين .

المدينة ـ الدولة

في القرن الثامن قبل الميلاد،قام الاترورريون فاستولوا على القرى الصغيرة الموزعة على التلال السبعة ، وجمعوا بينها ووحدوها في كيان دولة ـ مدينة . وتقول الأسطورة ان روما قد بناها رومولوس ، في العام **٧٥٣**ق م ، بالاشتراك مع العائلة « تاركوين » ، العائلة المالكة في اترووريا . والمعتقد ان الحكم الاتروري هو الذي مدّن روما وأهلها للهيمنة على اللاتين .

في العام ٥٠٠ ، نجح سكان روما فطردوا حكامهم الغرباء ، وأسسوا جمهورية رومانية دامت أربعة قرون .

نظام الحكم

كان الحكم بيد طبقة ارستقراطية ، لكن كان من حق بقية الشعب ان ينتخب قنصلين يمارسان السلطة سوية . وكانت حيوية النبلاء ونشاطهم متميزاً ومدعاة للتقدير والاعجاب ، واستمر أصحاب الخبرة منهم على حكم روما زمناً طويلاً بعد ان حصلت الجماهير على السلطات السياسية .

وبحصول الأغلبية الشعبية على سلطاتها ، واستمرار الأرستقراطية على ممارسة الحكم ، أخذ الشعب يطالب ويحصل على امتيازات جديدة ، امتياز تلو آخر ، وكان من أهم هذه الامتيازات وأعظمها حق الشعب بانتخاب التريبيونات[1] وتصنيف القوانين. ومع نمو المدينة ، وتضاعف واجبات القناصل ، كان لا بد من وظائف جديدة : القسطور (للمالية) ، والبريتور (للقضاء)[2] والسنسور (لمراقبة الأخلاق) .

وكانت هناك ثلاث جمعيات (او لجان) شعبية . وقد أخذت هذه الجمعيات ، مع الوقت ، تتطور بصورة تدريجية ، الى ان انتهت فجردت النبلاء من سلطة التشريع . وكان هناك ، أيضاً ، مجلس شيوخ ، وكان نظرياً أعلى سلطة في الدولة ، فأخذ يتقوى بصورة مضطردة ، الى ان انتهى ، في القرن الثالث قبل الميلاد ، الى السيطرة الكاملة على الحكم وعلى القناصل .

وليس صحيحاً ان جمهورية روما كانت ديمقراطية حقيقية في أيّ وقت من الأوقات . ويمكن أن نقول انها ابتدأت بأرستقراطية النبلاء وانتهت بأن تكون أوليغارشية باسم مجلس الشيوخ .

---

(١) التريبيون : قاض ينتخبه الشعب لمراقبة أعمال الحكومة والقضاة ، ومن حقه أن يفرض العقوبات على القضاة وموظفي الدولة ، وأن ينقض أحكامهم عند الحاجة . وقد أضيف ، في القرن الثالث ق م ، حق دعوة مجلس الشيوخ الى الانعقاد ، وحضور جلساته ، ومطالبته النظر بالأمور التي يعرضها عليه .

(٢) البريتور : ـ قنصل في الأصل ، ثم قاض . . وكان هناك بريتور حضري لأمور المواطنين والبت في قضاياهم ، وبريتور جوال للنظر والبت في قضايا الأجانب . وكان البريتور الحضري يقوم بمهام القنصل في حال غيابه ، كما كان البريتور الجوال يحل مكان القنصل الذي يمارس قيادة عسكرية عند تغيبه . وكان من مهام البريتور ، أيضاً ، توفير الألعاب والمباريات الشعبية .

التوسع والانتشار

ان تاريخ الجمهورية الرومانية ، في مختلف نواحيه ، هو تاريخ الادارة السناتورية (سيناتور = شيخ) . وقد بدأت رومـا ، تحت حكم مجلس الشيوخ ، مسيرتها الى السيطرة العالمية . بدأت فبسطت سيطرتها ، في القرن الرابع قبل الميلاد ، على منطقة اللاتين الغربية وجنوب أترووريا. وفي هذا القرن والذي تلاه دخلت روما في تماس كامل مع الحضارة اليونانية ، فتأثرت بهذه الحضارة في تفكيرها ومعيشتها الى حد عظيم . وقد نهب الغاليون روما في العام ٣٩٠ق م ، وترك هذا الحادث أثراً لا يمحى في نفوس الرومان ، وربما كان هو الدافع الى تطلب الطاقة والقدرة كي لا يتعرضوا الى مثله مرة أخرى .

وتم لروما اخضـاع السامـانيين بعد حـروب استمرت حتى العـام ٢٩٠ق م ، وكذلك سكان بيشنوم ، أومبريا ، أبولا ، لوكانيا وأترووريا. وكانت سياسة روما ، في اخضاع ايطاليا ، هي سياسة السيد تجاه الأرقاء . وفي حصار روما لتارانيوم بقصد اخضاعها ، عمدت هذه المدينة الدولة الى الاستنجاد ببيروس ملك أبيروس اليوناني ، فانتصر هذا على الرومان في هيراقليا عام ٢٨٠ق م ، وفـي سكولوم عام ٢٧٩ق م ، ولكنه تخاصم بعد ذلك مع حلفائه الطليان ، فتركهم وعاد الى اليونان ، تاركاً الرومان أسياداً على جنوب ايطاليا ووسطها .

كانت روما حتى ذلك التاريخ دولة برية ، لكنها أخذت بعدئذ بالتطلع نحو البحر . وجزيرة صقلية ، التي كانت بمثابة أهراءات قمح للعالم القديم ، كانت الهدف الطبيعي التالي لروما . الا ان استمرار الرومان على الفتح والتوسع ما كان ليمرّ دون ان يصطدم بطموحات قرطاجة السيدة في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط . وهكذا فإن الحروب بين الدولتين كانت لا مفر واقعة بصورة حتمية ، وهي الحروب التي قررت مصير كل من روما وقرطاجة .

المقـــدمـــة

كان هانيبال في الرابعة والستين من عمره ، عندما تناول السمّ منتحراً ، في مملكة بيثينيا[1] ، في آسيا الصغرى . كان هذا الرجل المهيب ، والقائد العسكري المغلوب ، قد وصل أخيراً الى نهاية المطاف ، بعد ان استنفد كل مدّخره من طاقة وارادة على الحياة . كانت السنة ١٨٣ق م ، وكان جنود عدوته اللدودة ، روما ، قد أحاطوا بمنزله ، وقد جاؤوا مصممين على قتله ، ان لم يستطيعوا بالأحرى اقتياده أسيراً الى العاصمة الرومانية، حيث يكون المشهد الرئيسي المثير في احتفال نصر روماني، وليصار الى قتله بعدئذ، تشفّياً وانتقاماً.

لقد غادر وطنه قرطاجة ، لكي لا يقع أسيراً في قبضة الرومان . وجاء الى هذه المملكة النائية ، التي يحدها البحر الأسود من الشمال ، وبحر مرمرا من الغرب ، ضيفاً على العاهل بروسياس ، ملك البلاد . لم يكن يخطر على البال ان يوجد مكان أبعد وأهدأ من ذلك المكان في ريف بيثينيا ، ليكون نقطة رحيل من هذا العالم ، لرجل كرس حياته لوطنه ، حياة كانت بمثابة اعصار زعزع عالم البحر الأبيض المتوسط ، من شمال أفريقيا حتى اسبانيا وفرنسا وايطاليا واليونان . والآن ، على الحدود النائية للعالم المعروف ، في بقعة يكتنفها ظلام الجهل والنسيان ، كان هذا القرطاجي النبيل ، الذي يصفه البعض بأنه أعظم قائد عسكريّ عرفه التاريخ ، على وشك تناول السمّ الزعاف

---

(١) Bithynia .

ليموت ، فيرتاح ويريح .

كان الرومان ، أعداؤه الألداء ، قد تتبعوا أثره حتى عزلته النائية تلك ، فلم يكن ليهدأ لهم بال ما بقي حياً . فهذا القرطاجي قد حارب روما مدة تزيد عن ١٦عاماً ، ووصل بدولة الرومان وعاصمتهم الى حافة الانهيار المادي والبدني والخلقي . لقد ألحق بجيوشهم هزائم عديدة ، وقتل في فترة ظهيرة واحدة ، في موقعة « كانّه » ، على ساحل بحر الادرياتيك في ايطاليا ، من جندهم أعداداً تزيد عن قتلى أية معركة حربية أخرى في التاريخ المدون كله .

لكنه هزم في النهاية . وقد استطاع ان يفلت من مطارديه . لقد انفرط عقد جيوشه منذ زمن ، وعاش بعد ذلك ، في هاتيك الأقطار، شرق البحر الأبيض المتوسط ، وهي أقطار لم تكن قد خضعت بعد لسيطرة روما . وقد حذّر حكام هذه الأقطار من مغبّة الوثوق بروما ومهادنتها ، والاّ خسرت بلدانهم الحرية والسيادة واحدة تلو أخرى .

كان في أواخر أيامه ، يعيش منعزلاً في قرية ليبيسا ، على شاطىء جون صغير يمتدّ حتى نيكوميديا ، عاصمة بيثينيا . ورغم انه كان ضيفاً على الملك بروسياس ، الاّ انه كان يقيم ويعيش خارج العاصمة ، طلباً للستر والعزلة وراحة البال . كان يعلم انه قد شُهّر به عدواً للرومان ، في مختلف أنحاء العالم المعروف ، وأعلنت روما انها لا تسمح لأيّ كان ، شخصاً عادياً او ملكاً او حكومة او قبيلة ، ان يمنحه الملجأ والمأوى . لكن الملك بروسياس ، وقد ظن ان مملكته بعيدة جداً عن روما ، ونائية حتى عن ظلال الرومان الآخذة بالتضخم ، قبل فأضاف هانيبال ، وهو يعتقد انه لن يعلم أحد بوجوده في ضيافته . زد على ذلك ان الملك كان يتطلع الى مشورة هذا الجندي السياسي ، في أمور تتعلق بتنظيم المملكة وقواتها المسلحة .

الويل للمغلوب ! .

وحدث بعد زمن ، ان اشتبكت بيثينيا في حرب مع دولة بركاموم ، وكانت هذه مدينة مزدهرة ، صديقة وحليفة لروما . وكان ان دُحرت قوات

بروسياس ، وتوجه الملك الى هانيبال يطلب النصح والمشورة . وكان حريّ بهانيبال ، مهما كان وضعه حرجاً ، ان يعقل ويتجنب العمل كمستشار لملك يخوض حرباً ضد عميل لروما الظافرة المتغطرسة . غير انه كان قد نذر نفسه ، منذ سن التاسعة ، في معبد ملكارت في قرطاجة النائية ، وأقسم ، بناء على طلب من أبيه هاميلكار ، ان لا يكون أبداً صديقاً لروما ، ولا محباً للشعب الروماني . وقد استطاع هانيبال ، بمشورته ، ان يغير مجرى الحرب ، ولو موقتاً ، لصالح بيثينيا . وقد فعل ذلك بواسطة تدبير بسيط كان من البراعة والتأثير ، بحيث ان بحّارة بركاموم ما ان جوبهوا به حتى انهارت معنوياتهم ، وولوا عن القتال مدبرين .

لقد خطر لهانيبال ان لا شيء أدعى لهلع النوتية ومشاة البحر ، في سفن نصف مكشوفة ، من ان تنفجر ، داخل كل سفينة ، قنبلة محشوّة بالثعابين السامة . وعلى هذا الأساس فقد عمد الى تنظيف أرياف بيثينيا من الأفاعي والثعابين وكانت كثيرة ، لتوضع محبوسة في جرار من فخار . وعندما اشتبك الأسطولان ، سارع البيثينيون الى قذف جرارهم الى داخل سفن الخصم ، ليتحطم فخارها وتتحرر محتوياتها البغيضة السامة ، ناشرة الرعب في كل سفينة معادية . وهكذا انتصر البيثينيون .

وكانت روما ، ككل دولة امبراطورية يقظة واعية ، تعتمد في فرض هيبتها وطاعتها على ولاء الدول الصغيرة الدائرة في فلكها ، وعلى شعور هذه الدول بالمنعة والأمن ، بفضل تبعيتها لروما . ولم تكن من عادة هذه الأخيرة ان تسكت او تتغاضى عن هزيمة تلحق بدولة صديقة او تابعة . وهكذا حدث انه بعد وقت قصير من تلك المعركة البحرية الثعبانية ، التي لعبت فيها الحيات والثعابين دور الحسم والفصل ، فقد استُدعي مبعوثو الملك بروسياس الى روما ، ليقدموا تفسيراً مقبولاً عن أسباب نزاعهم المسلح مع بركاموم . كان الملك بروسياس قد احتفظ بوجود هانيبال في بلاده سراً ، لكن أحد مبعوثيه الى روما لم يكن كتوماً حافظاً لأسرار مليكه . وما ان عرف مجلس شيوخ روما بالأمر ، حتى بعث يطالب بتسليم هذا العدو للشعب الروماني . وكان من

جملة من عرف بالأمر ، القائد الروماني فلامينيوس ، المختص بشؤون الشرق ، فعزم ان لا يمكن هذا القرطاجي من الافلات مرة أخرى . وقد صمم ان يتعقب هانيبال لأسره أو قتله ، مهما كلّف الأمر .

كان هانيبال يعلم المصير الذي ينتظره لو يقع في قبضة الرومان . كان يعتقد بعدالة قضيته ، وقد حارب روما للطريقة المهينة التي عاملت بها قرطاجة عند نهاية الحرب البونية الأولى . ولقد انطلق من قاعدته في أسبانيا ، يقود جيشاً اجتاز به بلاد ما هو فرنسا اليوم ، عابراً عدة أنهار كبيرة ، ومجتازاً لجبال الألب في طريقه الى ايطاليا ، ليجعل من هذه البلاد ساحة حرب طيلة ١٦عاماً . وقد سحق عدداً من جيوش روما بصورة مهينة او تكاد . وها هو الآن يطّلع من خدمه ان منزله قد أحاط به الجند ، فيقول : « حان الوقت لوضع حد لقلق الرومان وانشغال بالهم . . انه لواضح انه لم يعد بوسعهم التريث والانتظار حتى وفاة رجل مسنّ قد ابتلاهم بكثير من المخاوف وانشغال البال»! لقد استمر على السخرية بأعدائه حتى الرمق الأخير . فعندما اقتحم الجنود الرومان بيته ، وجدوا هذا الخصم العظيم ممدداً وقد فارق الحياة . . لقد أفلت من أيديهم للمرة الأخيرة .

ان قصة هانيبال رواية محزنة ، ومأساة لمرحلة أخيرة من صراع على الحياة والبقاء ، بين أمة ناشئة متوثبة وزعامة قادرة بعيدة النظر ، وبين دولة تجارية قد شاخت وهرمت وأجدبت ، وابتليت بالجشع والفساد وسوء الادارة وقصر النظر . . بين روما الحيّة الفتية الناشئة ، وبين قرطاجة العاجزة بفعل التخمة وثقل السنين والرضى بادارة الطفيليين وزعامتهم .

وهي تأريخ لأحداث جسام وحروب خطيرة كان لها دورها الحاسم في تكوين العالم القديم ورسم صورته وتحديد معالمه . انه تاريخ عام مفيد لطلاب المعرفة وعشاق الحقيقة ، وضرورة للعسكريين الذين يرغبون في توسيع مداركهم وزيادة معارفهم ، والذين هم في أشد الحاجة الى المعرفة والالمام بما كان حقاً من تاريخهم ، وبما لدى الآخرين وما فعلوا ويفعلون ، وذلك حتى يعرفوا أنفسهم وقدراتهم ، ويستطيعوا ان يقدروا أعمال الأجيال

السابقة بميزان المعرفة وضوء المقارنة . ان الشعوب التي لا تقرأ التاريخ ، ولا تكتبه بقصد الدرس والعبرة ، بأمانة وتجرد ، لشعوب تعيش متقوقعة على ذاتها ، تجتر مغالية ما تتناقله من أخبار عن أعمال السلف ومنجزاته ، تخلط بين الحقيقة والخرافة ، ولا تفرق بين الحبة والقبة ! .

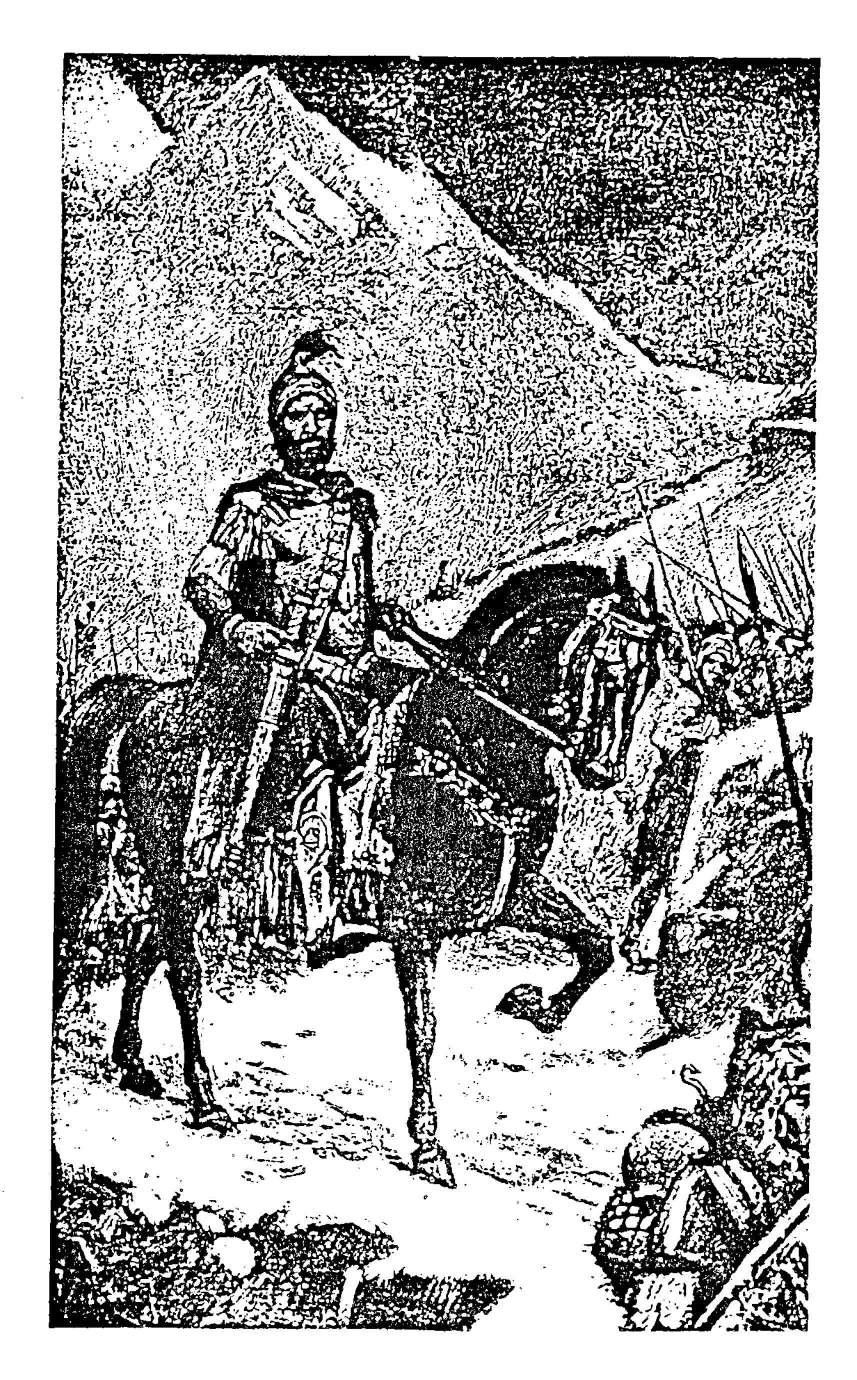
ان الطريق الى المعرفة والنضوج طويل ، أول خطوة فيه هي التواضع ، وهي قراءة التاريخ وكتابته بقصد الافادة والاستفادة ، دون تأثر بعصبيات عنترية او عنجهيات جاهلية . وقد أتينا ، في قصة هانيبال وتاريخه ، على تدوين الوقائع والأحداث وتقييمها بأمانة واخلاص ، هادفين الى تسهيل الأمر على القارىء الكريم لاستخلاص الدرس والعبرة بنفسه ، والى تقييم البطل القرطاجي على أساس الوقائع ، مع الاستئناس بآراء الخبراء والمختصين .

ومع ان هذا الكتاب هو رواية تاريخية لحروب هانيبال ، الا أنّه كان لا بدّ ، تيسيراً لتفهّم الأحداث واستيعابها ، من الاتيان على شيء من خلفية ورواسب الحرب البونية الأولى ، فقد كانت هي الداعي والمسبب والمدخل الى الحرب البونية الثانية . وكان لزاماً لذلك ان بدأنا قصتنا بموجز عن تاريخ قرطاجة ، بصورة عامة ، وعن الأحداث التي قادت ، بصورة حتمية تقريباً ، إلى أعظم تحدّ واجهته روما في صعودها الى السيطرة العالمية .

ونحن ، في عرضنا لتاريخ هانيبال وتقييمنا لما كان من أعماله وانجازاته ، فإننا نعرض في نفس الوقت ، بصورة مختصرة ، شيئاً عن تاريخ شيبيو الأفريقي ، خصم هانيبال في زاما والمنتصر في تلك المعركة التاريخية المصيرية . وهذا الكتاب يحمل اسم هانيبال ، ويأتي الثاني في سلسلة أعلام الحرب ، لكن لا يعني ذلك شرطاً ان هانيبال هو الثاني بعد الاسكندر الكبير في ترتيب قادة التاريخ العظام ، ذلك ان شيبيو الأفريقي ، في رأيي ، هو الأجدر بهذه الدرجة ، وقد استأثر بها القائد القرطاجي لأسباب وبواعث لا تمت الى الواقع العسكري والحدث التاريخي بصلة مجردة عن التحيّز والأهواء .

ان الاسم الفينيقي لبطل قصتنا هو هنيبعل . وقد جرى تحريف هذا الاسم ، وصار يعرف عالمياً بلفظة هانيبال . اننا نحتفظ بهـذه التسمية المحرفة ، لأنها هي التسمية السائدة اليوم في كل مكان .

وكلمة هنيبعل تعني بالكنعانية الفينيقية ، كما نظن ، شيئاً شبيهاً بمعنى مختار الله ، او عبد الله .



هانيبال قبيل زاما



الفصل الأول

نشوء قرطاجة وتاريخها حتى الحرب البونيـة الأولى

التأسيس ـ التطور والاتساع ـ العسكرية ـ سياسة أمبريالية ـ الخلاصة والعبرة

OOOOOOOOO

التأسيس

قامت المدن الفينيقية ، في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ، وبخاصة صيداء وصور ، بدور رائد في الحضارات القديمة . كان الفينيقيون بحارة لم يعرف العالم القديم مثيلاً لهم في الشجاعة والإقدام والمغامرة ، وفي المهارة والحذق في ركوب البحار . كانوا ، منذ فجر التاريخ ، يمخرون بسفنهم عباب البحار المجهولة ، متـاجرين ومستكشفين ، مقـاتلين عند الحاجة ، ومقيمين محطات تجارية ، وأحياناً مستوطنات صغيرة حيث تدعو الضرورة والمصلحة .

هؤلاء الفينيقيون هم أول من عبر مضائق هرقل ـ جبل طارق فيما بعد ـ وأول من توغل في بحر الظلمات ـ الأطلسي ـ حتى بريطانيا ، حيث أسسوا تجارة رابحة للقصدير . وقد وضع حجر الأساس في بناء قرطاجة عام ٨١٤ ق م كما يظن ، مباشرة من قبل بعض أهل صور ، أو من قبل أوتيقه (عتيقة) المستوطنة الفينيقية المجاورة . وقد أطلق على المستوطنة الجديدة ، بالفنيقية اسم « قريات حديثات » ، أي البلدة الجديدة أو القرية الحديثة . ومع

مرور الوقت صارت تعرف عند اليونانيين باسم « كارشدون » ، وعند الرومان باسم « كارتاجو » ، وتدعى بلغة اليوم باسم قرطاجة .

اختير موقع المدينة بدقة وعناية . كان شبه جزيرة صغيرة ، عميق المياه جيد الوقاية ، داخل مرفأ طبيعي هو خليج تونس . وكانت المنطقة المحيطة خصبة ، وفيرة المياه لقربها من نهر بقراده ـ نهر مجردا اليوم ـ . وقد أقيم أول بناء في المدينة على رأس صخري مطلّ على الميناء ، وعرف هذا البناء فيما بعد باسم القلعة . وكانت قرطاجة ، منذ ولادتها ، لا تختلف عن سواها من مراكز التجارة الفينيقية . وقد انتشرت هذه المراكز في صقلية وسردينيا ، وعلى طول الساحل الشمالي لأفريقيا ، وبعيداً حتى قادش ، حيث تتلاطم أمواج الأطلسي مع شواطىء شبه الجزيرة الايبيرية[1] . اختير موقع قرطاجة وفقاً للمبدأ الذي عملت بموجبه صور وسواها من المدن والمؤسسات التجارية الفينيقية ، في مكان صالح للدفاع ضد الهجمات البرية ، وفي موقع يتمتع بتسهيلات لرسو السفن التجارية في أشهر الصيف ، وبمرفأ منفصل لرسو السفن الحربية الحامية للسفن التجارية .

كان الفينيقيون بحارة لا جنوداً . ولكن بدلاً من أن تظلّ قرطاجة محطة تجارية ، فقد تطورت بسرعة لتغدو أكبر مدينة تجارية على ضفاف البحر الأبيض المتوسط . وفي هذا النموّ السريع تأكيد للرواية القائلة بأن بناء المدينة كان بطلب ودعم من الملكة المنفية اليسا وطائفة من مرافقيها من أعيان صور ، وذلك لأنه لم يكن من الممكن أن تنشأ مدينة وتتوسع بمثل تلك الصورة المتسارعة دون أن يكون وراء ذلك مال كثير ونفوذ كبير .

وكان الخليج الصغير ـ القرم[2] ـ المحميّ برؤوس أرضية داخلة في البحر ، هو الموقع المبدئي للمتجر الجديد . وكانت الشواطىء الرملية الطويلة مثالية لتسحب السفن عليها وتكون في مأمن من عصف ريح الشمال .

---

(١) اسبانيا والبرتغال اليوم .

(٢) El - Kram .

وقليلاً الى الداخل، بعيداً عن الخليج ، أقام المستوطنون مرفأ اصطناعياً لسفنهم الحربية ، حيث كانت في مأمن طوال أيام السنة . كان هذا المرفأ دائرياً ، بقطر طوله ألف قدم ، وفي وسطه جزيرة بنيت عليها المقرات الادارية البحرية . ثم أقيم مرفأ مماثل ، لكنه كان تجارياً مربع الأضلاع ، واقعاً لجهة البحر بالنسبة الى المرفأ الأول ، ومتصلاً بالمرفأ الحربي ، وقد ستر هذا الأخير بحائط مزدوج . لم يكن باستطاعة أحد ، حتى ولا من العاملين في المرفأ التجاري ، أن يرى ما كان جارياً في المرفأ المسور من إعمار واصلاحات . هذان المرفآن ، مع الأبنية المحيطة ، والمخازن والأرصفة ، كانوا قلب المدينة وجوهر وجودها . وكان يقوم بالقرب هيكل « تانيت » المقدسة ، هذه المعبودة الكنعانية رمز الخصوبة ، التي اتخذت في قرطاجة أهمية كبيرة لم تتمتع بمثلها في المشرق . وربما كان ذلك لأنها اندمجت مع معبودة محلية ، أو لأن الأرض المحيطة بقرطاجة كانت في غاية الخصب ، بحيث أن الفينيقيين ، الذين كان جلّ اهتمامهم موجهاً للتجارة والصناعة ، وللسيطرة على البحار المملوءة بالأسماك ، ما لبثوا أن أخذوا يولون هذه الأرض كثيراً من عنايتهم ، ويعودون بسبب خصوبتها وخيراتها الى رضى المعبودة وبركتها . وقد امتد نشاطهم الزراعي هذا شرقاً على طول الساحل الى ليبيا وبرقة ، وغرباً حتى الأرض المزروعة في الجزائر والمغرب ، وقد حولوا هذه الأراضي الى مزارع ، لا بعرق جبينهم ومهارة أيديهم ، وانما بالعمل الجبري من قبل السكان المحليين .

وكان القرطاجيون ، بتأثير أراضيهم الغنية ، بالاضافة الى سيطرتهم على طرق البحار الغربية ، ومهارتهم الصناعية ، وكفاءتهم الموروثة كأعظم المغامرين في العالم القديم ، قد عزلوا أنفسهم عن أسلافهم . لقد صاروا كلاً قائماً بذاته ، وحولوا محطتهم التجارية الى أكبر مدينة في ذلك الزمن . تراجعت قرطاجة من رأس البر الصغير والمرافىء الاصطناعية باتجاه رابية « بيرصا » التي كونت القسم الداخلي من القلعة . وهنا قامت معابد وهياكل للألهة الأخرى ، وقصور الوجهاء ، والبنايات المتعددة الطوابق حيث يسكن

التجار والفعلة والحرفيون ، في أمة كان اعتمادها ، للمعادن والمواد الخام ، على مناجم ومصادر تبعد كثيراً عنها لجهة الغرب . وكانت أغنى هذه المناجم والمصادر في اسبانيا ، في شبه الجزيرة الأيبيرية التي تراجع القرطاجيون اليها على مر السنين ، منسحبين أمام زحف اليونانيين . وقد حافظ القرطاجيون بحرص شديد على هذا الكنز الخاص الثمين وسريته .

كان مناخ قرطاجة بارداً في الصيف ، بفضل رياح الشمال . لكن المدينة كانت تنوء أحياناً بالزوابع الشرقية ، وترهق بالحر بفعل أرياح السموم القادمة من الصحراء الكبرى ، الى الجنوب . كانت المدينة ، على رابيتها وشبه جزيرتها ، تشبه جزيرة أو تكاد . كانت كعالم صغير قائم بذاته ، يحده البحر والجبال والصحراء ، معزولاً بالبعد والرمال عن القارة الأفريقية العملاقة .

التطور والاتساع

مع ازدهار التجارة ، أخذت المدينة تتسع وتنتشر ، وعم البناء السواحل والضواحي ، حتى بلغ محيط المدينة قرابة ٣٥ كيلومتراً ، وبلغ تعداد السكان ، حسبما تقول المصادر ، ما يربو على ٧٥٠ ألف نسمة .

كانت الحياة ، في الأيام الأولى لقرطاجة ، تجري على النمط المألوف في كل مستوطنة فينيقية ، أي في التجارة والزراعة بالواسطة ، وفي بعض الصناعات الخفيفة ، ثم طرأ تبدل في أسلوب المعيشة والحياة ، في منتصف القرن السادس قبل الميلاد . ففي ذلك الوقت أخذت المدينة ، بزعامة رئيس يدعى مالكوس ، تستولي على المناطق المجاورة ، وتتحكم بالأفارقة سكان البلاد الأصليين ، وكذلك بالمدن الفينيقية الصغيرة ، التي كانت تنتشر على طول الساحل ، وعلى ضفاف نهر بقراده . وقد فرضت قرطاجة ، في عهد مالكوس وخلفائه ، هيمنتها على مناطق واسعة ، وعاملت الأفارقة المحليين معاملة الأقوام المغلوبة المستعمرة ، مع قليل من الحقوق وكثير من الواجبات والضرائب الباهظة ، في حين سمحت ببعض الاستقلال الذاتي للمدن

الفينيقية الأخرى ، لكن بعد أن دمرت حصونها ومحت أسوارها ، وحرمتها من كل سياسة خارجية . ولقد دفعت قرطاجة ، فيما بعد ، ثمناً فاحشاً لهذه المعاملة الجائرة الطائشة . كان الغازي الأجنبي يجد دوماً نوعاً من المساندة ، والأرزاق والمعلومات الوفيرة لاستعماله لدى السكان المحليين ، وكانت المدن الفينيقية ، حتى لو أرادت ، عاجزة عن القتال والمقاومة .

بعد أن انتهت قرطاجة من فرض هيمنتها على جميع المناطق الأفريقية المحيطة بها ، أخذت عندئذ تتطلع بأنظارها وطموحاتها عبر البحار ، وتخطط لفرض سيطرتها على جميع المستوطنات الفينيقية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ، على طول الساحل الأفريقي ، وجنوب اسبانيا ، وعلى جزر سردينيا وصقلية وكورسيكا . وكان لزاماً عليها لذلك أن تتجهز بأسطول بحري قوي ، للتصدي لقراصنة البحر من جهة ، ولردع الأمم الأخرى عن منافستها ومنازعتها على أسواقها التجارية . وقد أدت هذه السياسة ، الأولى في تاريخ قرطاجة ، الى حصول نوع من الاحتكاك مع روما ، الدولة الايطالية الناشئة ، والى توقيع معاهدة منعت بموجبها السفن الرومانية من الأبحار في حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي ، وتكرس هذا الحوض كبحيرة قرطاجية .

لا يعلم أحد ، على وجه الضبط ، شيئاً عن نوع وطبيعة المؤسسات السياسية التي كانت تدير قرطاجة وتحكمها ، وذلك لغياب المصادر والوثائق الخطية الصحيحة . لكن الشائع أن نظام الحكم بدأ ملكياً ، ثم استبدل بعد وقت ما بمجلس رئاسي يتكون من بعض زعماء العائلات القوية ووجهاء الفعاليات الاقتصادية . والشائع كذلك أنه كان هناك مجلس تشريعي ، أو مجلس يدعى سوفيتس ، ويتكون من ٣٠٠ عضو ، ومجلس ثان يتألف من ١٠٠ عضو ينتخبهم مجلس الثلاثمئة ، أو كان هيئة مستقلة تماماً عن هذا المجلس ، ويتولى السلطة التنفيذية .

العسكرية

إن العائلات القرطاجية ، التي كانت المصدر لرجال الإدارة ، لم تكن كما يبدو هي نفسها التي تقدم قادة الجيوش والأساطيل ، لكن كان لها الاشراف والسلطة على هؤلاء القادة . وكان القائد الفاشل يمثل أمام مجلس المئة ، فيبرأ أو يصلب إذا لم تكن أجوبته مقنعة . وكان من المحتمل أيضاً لقائد عظيم النجاح أن يلقى مصير الفاشل ، خوف أن يحمله نجاحه على أحلال نفسه مكان المجلس الحاكم . ولكن ما من دليل على أنه قد حدث شيء من هذا القبيل. وكانت هذه المعاملة الصارمة للقادة العسكريين معوّضة وموازنة بكثير من حرية التصرف في القيادة ، بعكس الحال مع القادة الرومانيين . ولا توجد أدلة على أنه كان للتخوف من عقاب الفشل تأثير على عمل القادة القرطاجيين وتصرفاتهم .

وفي حين كان استخدام الأجانب لقاء الأجر قاعدة التجنيد لقوات قرطاجة البرية ، فان البحرية كانت على عكس ذلك عملاً قومياً داخلياً صرفاً . ولم يكن ذلك بغريب على أمة بتلك الخبرة والشهرة في عالم الملاحة . كانت البحرية القرطاجية تسيطر سيدة على حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي ، وكانت سفن الحرب الفينيقية ، عندما بدأ النزاع مع روما ، مكونة من خمس طبقات ، وتحمل مئتي جذاف وحوالي ١٢٠ من جنود البحر ، وكان سلاحها الرئيسي كبش دكّ عظيم الفاعلية . وكانت هذه السفن خفيفة الحركة ، سهلة التشغيل والمناورة ، وقد برع بحارتها في الملاحة والحركات المعقدة المطلوبة لمعركة بحرية .

الى شمال قرطاجة ، عبر ١٥٠ كيلومتراً من المياه المالحة ، تقع جزيرة صقلية الخصبة التربة . كانت هذه الجزيرة ، منذ عصور التاريخ الأولى ، محط أنظار اليونانيين والفينيقيين على السواء . وكانت سواحلها مزروعة بمحطات الفينيقيين التجارية ، وبالمستوطنات اليونانية ، والقتال بين الفريقين قائم بصورة متقطعة ، منذ قرون . وقد طرأ تغيير على هذا الوضع ابتداء من عام ٤٨٠ ق م .

سياسة أمبريالية

صارت صقلية ، منذ عام ٤٨٠ ق م ، نقطة انطلاق لقرطاجة في سياسة توسع أمبريالية على نطاق واسع . كانت قرطاجة كنسيج عنكبوت من المتاجر والمواصلات المنتشرة شرقاً حتى مصر والمشرق ، وغرباً حتى أماكن لا تخطر على بال ، الى ما وراء اسبانيا . لقد زرع القرطاجيون ، بعد أعمدة هرقل ، حيث يلتقي البحر الأبيض المتوسط بالمحيط العظيم الذي يلتف حول العالم كله ، محطاتهم التجارية متناثرة حتى بريطانيا والبلطيق ، وكذلك حتى جزر الكناري ، والكمرون ، وربما حتى جزائر الخالدات . وفي البحر الأبيض المتوسط ، باستثناء كورسيكا ، كانت جزر مالطة والليباري مرافىء قرطاجية ، وكان في دائرة نفوذ قرطاجة كل من سردينيا وصقلية وجزائر الباليار .

ولكن حدث ، في نفس ذلك التاريخ،عام ٤٨٠ ق م ، أن أخذ جيلون ، دكتاتور سراقوسة ، يقوم بنشاط عظيم في محاولة لتوحيد صقلية تحت زعامته ، مهدداً بذلك مصالح القرطاجيين في غرب الجزيرة وجنوبها . ولمواجهة هذا الخطر ، عمدت قرطاجة الى ارسال حملة عسكرية بأمرة قائد يدعى حانّو . ومن المحتمل أنه كان قد خُطط لهذه الحملة للتزامن مع قيام أحشورش ، امبراطور الفرس ، بغزو اليونان ، وقيام جيلون بارسال حملة لمساعدة اليونانيين ضد الفرس .

أبحر حانّو على رأس حملة كبيرة ، كانت كما يظن أضخم حملة عسكرية ترسل الى ميدان القتال في تاريخ قرطاجة . وقد وصل حانّو مع حملته الى الجزيرة ، ونزل الى البر في بانوروس ، وكان قد أصيب في عرض البحر ببعض الخسائر ، بسبب الأنـواء وسوء الطقس . وما لبث بعد وصوله الى الجزيرة أن لقي هزيمة ساحقة على يد جيلون ، في بلدة هيمارا ، في نفس الوقت الذي انهزم فيه الفرس في معركة سالاميس البحرية . وهكذا منيت محاولة قرطاجة الرئيسية الأولى ، في صقلية ، بكارثة كانت من الحجم والنتائج بحيث حل بقرطاجة الضعف وانحسار النفوذ طيلة عدة عقود من الزمن .

استعادت قرطاجة قواها عند العام ٤١٠ ق م ، واستطاعت تلك السنة أن تجمع ما يكفي من القوى للتدخل في صقلية مرة أخرى . بعثت هذه المرة حملة صغيرة ، بقيادة قائد يدعى هانيبال ، وهو غير هانيبال موضوع كتابنا ، وكان حفيداً لحانّو الذي تقدم ذكره قائداً للحملة السابقة . وقد توفقت حملة هانيبال هذا ، فاستولت على بلدتي هيمارا وسبلينوس ، وعادت بعد ذلك الى قرطاجة مع كثير من الغنائم والأسلاب ، لكن دون أن تقوم بأي اشتباك مع سراقوسة ، العدو الرئيسي لقرطاجة في صقلية . ولذا فقد اضطرت قرطاجة ، بعد أربعة أعوام ، الى معاودة الكرة ، الى ارسال حملة جديدة تألفت من ألف سفينة نقل ، ومن مئة وعشرين سفينة حربية . وكانت هذه الحملة بالتأكيد حملة ضخمة بمعايير ذلك الزمن . ولكن يبدو أن القرطاجيين كانوا مبتلين بسوء الطالع ، إن لم نقل بسوء الادارة وفساد الأنظمة الصحية ، اذ تفشى الوباء في صفوف الحملة وفتك بها ، وكان من ضحاياها قائد الحملة ، هانيبال حفيد حانّو ، أثناء حصار مدينة أكريكنتم . وقد تمكن خلفه ، المدعو هاميلكو ، من احتلال مدينة « جيلا » ، ملحقاً في الوقت نفسه هزيمة بحملة نجدة بعث بها ديونيسيوس ، الحاكم الجديد لسراقوسة . بيد أن الوباء عاود الكرة ، فاتكاً من جديد بقوات قرطاجة ، مما اضطر هاميلكو ، عام ٤٠٥ ق م ، الى توقيع صلح مع ديونيسيوس ، والابحار مع ما بقي سالماً من حملته ، عائداً الى قرطاجة .

بعد ثمانية أعوام من ذلك التاريخ ، خيل لديونيسيوس أنه قد صار لديه من الامكانات ما يكفيه للعودة الى الحرب ، فزحف على الموقع القرطاجي القوي في « موتيا » ، واستولى على هذه المدينة . وقد ردّت قرطاجة بارسال حملة جديدة ، بقيادة هاميلكو ، فاستطاع هذا أن يستعيد « موتيا » ، وأن ينهب « مسّينا » ، وأن يضرب الحصار على العاصمة سراقوسة نفسها بعد انتصار بحري حاسم . لكن ، وبالرغم من كل هذه الانتصارات ، فقد انتهت الحملة آخر المطاف بكارثة تامة ، وتبدد شملها كله تقريباً ، وأعقبتها ثورة عارمة لدى الأفارقة التابعين لقرطاجة ، ثورة اقتضت للتغلب عليها تضحيات كثيرة وخسائر باهظة ثقيلة . وكان من جراء ذلك أن صارت صقلية منذئذ بمثابة هاجس مقيم

لقرطاجة ، التي عمدت ، عام ٣٣٩ ق م ، الى القيام بمحاولة أخرى للسيطرة على الجزيرة ، ففشلت ، وانتهت الحملة الجديدة أيضاً بهزيمة وكارثة . الا أنّ عدم الاتفاق بين خصوم قرطاجة سمح لهذه بالاحتفاظ بنقطة ارتكاز ، في الزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة .

وفي عام ٣١١ ق م ، قام أغاثوكلس ، دكتاتور سراقوسة ، باجتياح الممتلكات القرطاجية المتبقية في الجزيرة ، لكن ليمنى آخر الأمر بفشل ذريع ، ويردّ على أعقابه حتى سراقوسة عاصمته نفسها ، وتقع الجزيرة بمعظمها في قبضة القرطاجيين . وقد رد أغاثوكلس على هذا الفشل بمجازفة اليائس ، اذ أبحر مع ١٤ ألفاً من جنوده ، في ٦٠ سفينة ، متوجهاً الى البر الأفريقي ، آملاً من وراء هذا التعرض الاستراتيجي المعاكس أن ينقذ موقفه . وقد نجح في هذه المجازفة ؛ فقد هزم على الأرض الأفريقية جيشاً لقرطاجة ، وراح يعيث في الأرياف الغنية والمدن المفتوحة ، الى أن اضطرت قرطاجة الى استدعاء قواتها من صقلية لمعالجة هذا الموقف . وقد انتهى الأمر بعقد صلح بين الطرفين ، عام ٣٠٧ ق م ، تاركاً لقرطاجة سيطرة على النصف الجنوبي من الجزيرة .

لقد سبق فذكرنا أن قرطاجة كانت قد دمرت دفاعات وحصون المدن الفينيقية الأخرى على الساحل الأفريقي ، وكانت هي وحدها المدينة المحصنة في تلك المنطقة ، الأمر الذي مكّن لأغاثوكلس من أن يسرح فيها ويمرح على هواه . وكان حريّاً بقرطاجة أن تتعظ بهذا الدرس وتعتبر به ، وتحتاط لمنع تكراره ، فتكف عن معاملة سكان البلاد الأصليين معاملة المستضعفين المستغلين ، وعن معاملة المدن الفينيقية الأخرى معاملة الأيتام على موائد اللئام ، فتجمع الكل وايّاها في كيان قومي واحد ، ومصلحة مشتركة واحدة ، مؤلفة منهم جميعاً ، فينيقين وأفارقة ، أمة واحدة ، ودولة واحدة ، فيكونون من جراء ذلك عوناً لها وسنداً متيناً عند الحاجة . بيد أن الزعامة القرطاجية كانت ، كما يبدو ، مصابة بالبلادة وقصر النظر ، فاستمرت على غطرستها وعلى التفرد بالمصالح والمنافع ، لتظل كما بدأت جزيرة معزولة في خضم

واسع من الكراهة والحقد . لقد أمهلتها الأقدار بعد أغاثوكلس حوالي مئتي عام ، علها تعقل وتتطور ، فلم تفعل ، وكان لذلك حقاً عليها أن تلقى عقاباً ، وأن تدمر عام ١٤٦ ق م .

كان على قرطاجة أن تواجه عدواً آخر ، قبل أن يرتفع الستار عن نزاعها مع روما . ففي عام ٢٨١ ق م ، عمدت مدينة تارانتوم اليونانية ، الكائنة في ايطاليا ، في الجزء الذي كان يعرف باليونان الكبرى ، الى طلب المساعدة من بيرّوس ، ملك أبيروس اليوناني ، وكان قائداً مرتزقاً بارزاً ، وذلك لصد هجوم من قبل دولة روما الآخذة آنذاك بالتوسع والانتشار . وقد أفلح بيرروس فهزم الرومان في موقعتين ، لكن لقاء ثمن باهظ الخسائر ، بحيث صار انتصاره مضرباً للمثل بقولهم « انتصار على طريقة بيرروس » . وقد تأزمت بعدئذ علاقات بيرروس مع أهالي تارانتوم ، اذ أثارهم ضده عندما دعاهم الى الاشتراك في القتال معه بأنفسهم . وكانت بنتيجة ذلك الخلاف أن تحول بيرروس ، عام ٢٧٨ ق م ، بعملياته الى صقلية ، محارباً لصالح المدن اليونانية في هذه الجزيرة ضد قرطاجة . وهكذا عادت الحرب فاشتعلت في صقلية ، ونجحت روما بالتالي في الاستيلاء على مدينة تارانتوم ، وفي بسط سيطرتها ونفوذها على الساحل البحري عند الكعب الايطالي ، متواجدة من جراء ذلك ، لأول مرة ، وجهاً لوجه مع قرطاجة .

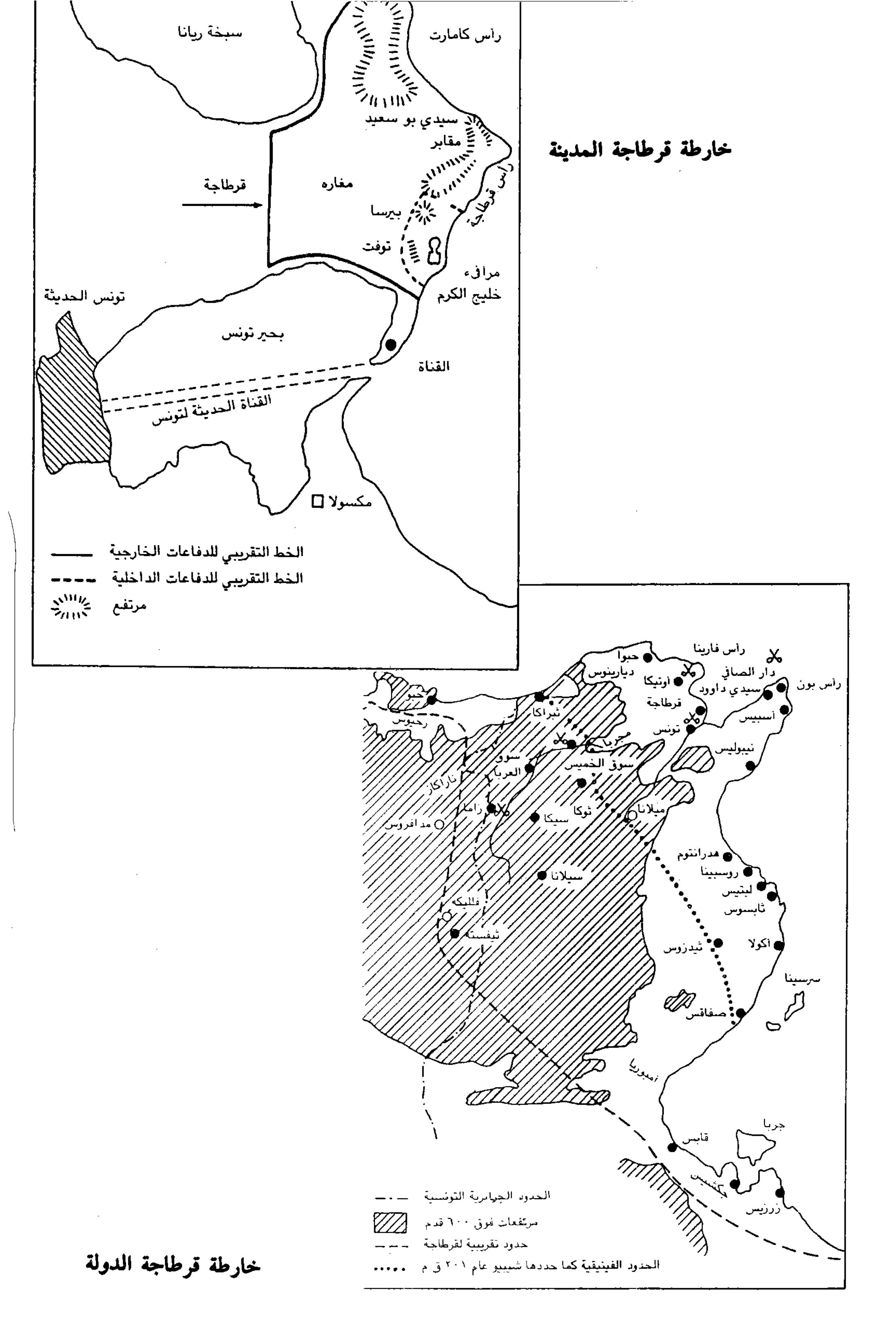
الخلاصة والعبرة

لا يسعنا الاّ أن نستخلص ، مما تقدم ، أن قرطاجة كانت ، كمدينة ودولة ، أنانية متغطرسة ، تحكمها طغمة أرستقراطية فاسدة . وقد استمرت قرابة ستة قرون تسيء معاملة الأفارقة سكان البلاد الأصليين ، فلم تمتزج بهم ويمتزجوا بها ، قائمة بينهم جسماً غريباً في خضم من الحقد والبغضاء وعدم الثقة . وكذلك كان حالها مع المدن الفينيقية الصغيرة ، التي كانت منتشرة على طول ساحل أفريقيا الشمالية . فقد حرمت قرطاجة هذه المدن من استقلالها ، ومن سيادتها واستطاعة الدفاع عن نفسها وعن قرطاجة ذاتها عند

الحاجة ، ولم تحاول يوماً أن تكسب ولاء هذه المدن ، فتضمها اليها كعضو شقيق مشارك في كيان سياسي واحد .

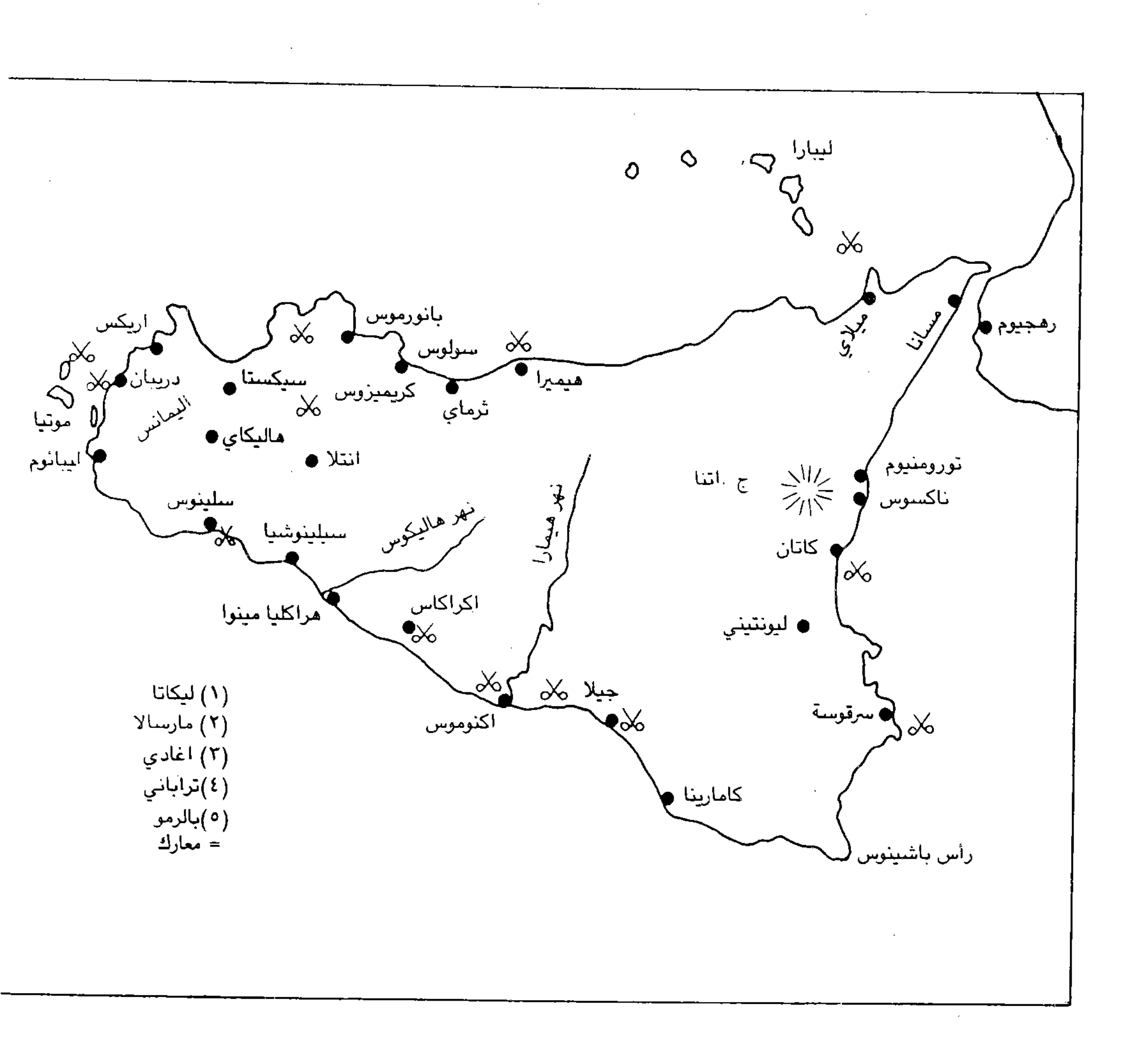
وكذلك لم تكن قرطاجة لتحسن اختيار قادة جيوشها وأساطيلها ، ولا كان لها من بعد النظر والادراك العميق اليقظ للأمور بحيث تتعرف على مواطن الخطر قبل استفحاله ، ومعالجته قبل فوات الأوان . ان بقاء ساحل الشمال الأفريقي ، والمدن الفينيقية غير القرطاجية ،والأرياف المحيطة بقرطاجة نفسها على ما كانت عليه من ضعف وانفتاح في وجه كل غاز أجنبي ينجح في النزول الى البر الأفريقي ، وخاصة بعد حملة الدكتاتور أغاثوكلس الناجحة ، لدليل على فساد الزعامة في قرطاجة ، وعلى عدم أهلية هذه المدينة الدولة للتعامل بنجاح مع دول وشعوب تعلو بمستواها عن مستوى الأقوام البدائية المتخلفة والمجتمعات القبلية . كان القرطاجيون ، على ما يبدو ، رجال تجارة وبحارة ، لكن بنفسية جشعة وعقلية جامدة مغلفة بمظاهر حضارية سطحية . كان همهم التأثير على الأقوام البدائية بالمظاهر البراقة ، واستغلالها لا تحضيرها ورفع مستواها ، وهكذا جلبوا على أنفسهم الخراب والدمار ، وما كان الرجال الذين ظهروا بطريق الصدفة أن جاز التعبير ، من أمثال هانيبال وأبيه هاميلكار ، بقادرين على تغيير هذا المصير الذي جلبه القرطاجيون على أنفسهم .

إن قيام دولة روما لم يكن مفاجئاً ، ولا دون مقدمات . وقد ظهر منذ الساعات الأولى أن الرومانيين أكثر براعة وأشد دهاء من جميع الأقوام التي اعتاد القرطاجيون أن يتعاملوا معها من قبل . وكان لزاماً عليهم لذلك أن يتطلعوا الى هذا الحدث بعقلية متفتحة ، وعيون تنظر الى أبعد من أنوفهم . إن أول عمل كان يجب عليهم أن يعملوه ، هو أن يغيروا من معاملتهم لذلك الخصم البشري المعادي ، المحيط بهم ، من فينيقيين وأفارقة .



خارطة قرطاجة المدينة

خارطة قرطاجة الدولة


ليبارا
بانورموس
اريكس
سولوس
دريبان
سيكستا
كريميزوس
هيميرا
ثرماي
موتيا
اليمانس
هاليكاي
انتلا
ليبائوم
رهجيوم
مسانا
ميلاي
تورومنيوم
ناكسوس
ج. اتنا
سلينوس
نهر هاليكوس
سيلينوشيا
نهر هيمارا
كاتان
هراكليا مينوا
اكراكاس
ليونتيني
جيلا
سرقوسة
اكنوموس
كامارينا
رأس باشينوس
(١) ليكاتا
(٢) مارسالا
(٣) اغادي
(٤)ترابانی
(٥)بالرمو
= معارك

جزيرة صقلية



الفصل الثاني

الجيش القرطاجي

طبيعة الجيش القرطاجي ـ التسليح والتشكيل ـ سلاح الفيلة

OOOOOOOOO

ينظر الى الجيش القرطاجي ، عادة ، على انه كان مجموعة متنافرة من الأجناس والعناصر المرتزقة . وقد كان هذا صحيحاً في العصور الأولى من تاريخ قرطاجة ، لكنه لم يكن كذلك بكليته في فترة الحرب البونية الثانية . لم يكن من الممكن ، على كل حال ، اعتبار الجيوش القرطاجية كجيوش مواطنين يتجندون ويقاتلون دفاعاً عن وطن ، مثلما كان الحال لدى منافسة قرطاجة القوية ، روما . الا ان هذا الجيش لم يكن مرتزقاً بمعنى تكوينه من عناصر مأجورة غريبة عن قرطاجة ، وانما كان يتشكل اثناء هذه الحرب من عناصر مأخوذة ، الى حد كبير ، من الأقاليم التي تحكمها قرطاجة او الخاضعة لنفوذها . وهو بهذا المعنى أقرب ما يكون الى جيش محترف لقاء المعاش ، شبيه بالجيوش التي تتبناها الامبراطوريات عادة ، كالجيش الذي شكله الاسكندر الكبير بعد ان نادى بنفسه امبراطوراً على فارس ، وكالجيش الامبراطوري البريطاني ، الذي كان يتجند من أقاليم الهند والمناطق المجاورة . وقد كان لدى قرطاجة ، بالمعاش ، مجندون من خارج الأقاليم التي كانت تحت حكمها ، الآ ان هؤلاء كانوا قلة ، لأن الطاقة البشرية كانت متوفرة للدولة في ممتلكاتها الخاصة .

كان الجيش القرطاجي ، في أوائل تاريخه ، مؤلفاً من نواة صغيرة من المواطنين ، لكن هذه النواة أخذت تتضاءل مع كبر قرطاجة واتساعها وازدياد قوتها ، وذلك لأن القرطاجيين صاروا حالئذ يبحثون ، لصرف وقتهم واستعماله ، عن مجالات أفضل من مجال عمل متعب وخطر كالمحاربة . الاّ ان تنظيم الميليشيات الوطنية استمر قائماً ، وكان بمثابة احتياط للطوارىء والأزمات . لكن مستويات الشجاعة واللياقة والتدريب كانت تسير ، مع ازدياد الغنى والترف وفساد الحكم ، متدنية من جيل الى جيل ، بصورة مضطردة ، بحيث غدت تشكيلات القرطاجيين الوطنية الشعبية ، المعدة للنجدة في الحالات الطارئة ، على قدر ضئيل من الكفاءة والجاهزية ، كما كُتب لهانيبال ان يلمسه بيديه في أواخر أيامه .

كان لقرطاجة ، قبل حروبها مع روما ، وحدة نواة من المقاتلين الأشداء ، منتقاة ومنظمة وعاملة تماماً على نحو مماثل للأسس التي قامت عليها العصبة المقدسة في ثيبا[1] . وكان العام ٣٣٩ق م آخر زمن تحدثت فيه الأخبار عن هذه الوحدة . ولذا يحتمل انها صارت ، في شيخوخة قرطاجة وهرمها ، نوعاً من حرس للزينة والأبهة والمظاهر الفارغة .

التسليح والتشكيل في أفريقيا :-

كانت الميليشيا الوطنية القرطاجية منظمة ومسلحة كتشكيلة مشاة ، وسلاحها رمح ثقيل وسيف . وكان الفرد يلبس خوذة ، ودرعاً للساق يغطيها من الكعب حتى الركبة ، ويحمل ترساً كبيراً مدوراً قطره ٣ أقدام ، وفي وسطه عقدة ورزة . هناك اختلاف على نوع اللباس ، والغالب انه كان قميصاً فضفاضاً يصل حتى الركبتين ، ولم يكن جندي المشاة يجهز بدرع للصدر .

وإذا كان القرطاجيون ، في أيام هانيبال ، قد عافوا تعاطي الجندية ولّم

(١) لا ندري اذا كان هذا التماثل قد اشتمل ، كما في ثيبا ، على ممارسة العملية الجنسية بين الرفيقين المثيلين .

يقبلوا عليها كمواطنين مسؤولين ، فهناك أدلة كثيرة على ان بعض علية القوم كانوا يشكلون نواة الخيالة الثقيلة ، لكن بعدد صغير نسبياً . كان هؤلاء الخيالة يلبسون سترة ضيقة ، وحذاء عالي الساق مفتوح الأصابع ، وصدرية مدرعة ، وخوذة معرفة بالأسود والأبيض ، ويحملون ترساً مدوراً قطره قدمان . وكان السلاح رمحاً قصيراً ، ومزراقين ، وسيفاً اسبانياً . وكانت هذه الخيالة القرطاجية معززة دون تحديد بخيالة من تجنيد ليبي وفينيقي ، وكان سلاح هذه الخيالة مماثلاً لسلاح القرطاجيين ولو أقل تألقاً وكلفة . كانوا ينتظمون ، كاليونانيين ، في كوكبات من ٦٤خيالاً ، وكانت الكوكبة تصطف عادة على ثمانية صفوف ، كل صف من ٨ خيال .

كانت المشاة الليبية الأفريقية تشكل العمود الفقري للقوات التي أرسلت بادىء الأمر الى اسبانيا ، ثم أخذ عددها يتضاءل ويستبدل بمجندين اسبانيين بأعداد أخذت تتزايد باضطراد . كان الأفراد في هذه المشاة مسلحين ومجهزين كميليشيا المواطنين ، لكن هانيبال ، بعد انتصاراته الأولى في ايطاليا ، عمد فأعدهم وجهزهم على الطريقة الرومانية . كان التشكل المعتاد للقتال تشكيل الفالانج اليونانية ، هوبليت ، بعمق ثمانية صفوف ، يفصل بين الجندي والذي يليه على الجانب ٣أقدام ، وبينه وبين الذي يأتي بعده خلفاً ٣أقدام أيضاً ، وكانت هذه المسافة تخفض الى النصف في الدفاع .

وكان الليبيون يقدمون أيضاً المشاة الخفيفة ، سلاحها المزاريق ، ولباسها قميص بلا أكمام ، وتحمل ترساً صغيراً من الجلد . وكانوا يتميزون بشعور رؤوسهم ، كل قبيلة تحلق الرأس بطريقة تختلف عن الأخرى ، وكان بعضها يضع ريش النعام على رأسه .

ولكن أهم العناصر ، التي كانت تتمثل في الجيش القرطاجي ، كانت تأتي من نوميديا ، الجزائر اليوم . فالنوميديون كانوا أفضل خيالة في عصرهم ، يعيشون مع الخيل ، يركبون ظهورها عارية منذ نعومة أظفارهم . كانوا يلبسون قميصاً بلا أكمام ، ويتمنطقون عليه بحزام ، ويحملون ترساً صغيراً من جلد . وكان المزراق سلاحهم الرئيسي ، بالاضافة الى خنجر او فأس للالتحام

القريب . كانت خيولهم صغيرة الجسم ، هزيلة عجفاء ، لكن صبورة على المشاق الى درجة لم تكن تبلغها الخيول الثقيلة او المتوسطة في تشكيلات الخيالة الثقيلة . كانوا في الالتحام القريب أدنى منزلة من خيالة الرومان ، لكن كانوا متفوقين في الاستطلاع والمناوشة ، لا مثيل لهم في أعمال الكمين ، وفي البحث عن العلف والمؤونة ، وكانوا ينتظمون في كوكبات من ٦٤ خيالاً في الكوكبة ، تماماً كما في الخيالة النظامية ، الاّ ان قتالهم كان بالجماعات المتفردة . لقد كانوا جزءاً أساسياً مندمجاً في الجيش القرطاجي . وكان لانصرافهم عن هانيبال ، وانضمامه الى الرومان ، التأثير الكبير في هزيمة قرطاجة ، في معركة زاما ، ٢٠٢ ق م .

ومن نوميديا أيضاً ، علاوة على الخيالة ، كان في الجيش القرطاجي كذلك مشاة خفيفة ، بنفس تسليح وتجهيز مواطنيهم الخيالة ، لكن دون منزلة هؤلاء في التأثير والفاعلية .

في اسبانيا :-

كانت اسبانيا لقرطاجة بمثابة أرض خصبة للتجنيد . بيد ان استعمال المجندين الاسبان في بلادهم لم يكن مضمون العاقبة . ومع انه لم تقم دلائل على وقوع حوادث نقص في الولاء والاخلاص لهانيبال من قبل جنوده الاسبان ، في ايطاليا ، فإن هناك عدة حالات فرار من العناصر الاسبانية في جيشي روما وقرطاجة ، في اسبانيا بالذات . ومن المحتمل كما يترجح ان الولاء او عدمه كان رد فعل لشخصية القائد وقدرته في التأثير على جنوده .

كان المجندون الاسبان يلبسون قميصاً مفتوح العنق على شكل العدد (٧) ، ناصع البياض ، بحاشيات قرمزية او أرجوانية . وكانت المشاة ثلاثة أنواع : النوع الأول ، المشاة الخفيفة ، وكانت تدعى « كائتراتوس » ، وتحمل ترساً مدوراً ، وعدة مزاريق خفيفة ، وسيفاً قصيراً . وكانت هذه المشاة ممتازة في أعمال المناوشة ، وقد استعملت لذلك من قبل القرطاجيين ومن قبل

الرومان من بعدهم . والنوع الثاني ، كان المشاة الثقيلة ، وكانت تتميز بمعطف أسْود ، وتحمل ترساً بيضاوياً مضلّعاً ، وسلاحها مزاريق حديدية ثقيلة ، وسيف قصير للقطع والطعن . كانت اسبانيا في ذلك الوقت متقدمة في انتاج الحديد ، ولذا كان الجنود الاسبان يلبسون خوذات حديدية بـدل الخوذات البرونزية الشائعة الاستعمال في ذلك الزمن . اما النوع الثالث فكان المقلاعيين ، حملة المقاليع ، وكانوا بمعظمهم من جزر الباليار . كان عددهم في الجيش قليلاً ، بضع مئات ، لكن كانوا رماة حجارة ماهرين ، يستعملون أنواعاً متعددة من المقاليع ، للرمي البعيد والرمي القريب .

كانت الخيالة الاسبانية موزعة ايضاً الى ثقيلة وخفيفة . كان سلاح الخيالة الخفيفة المزاريق والسيف وترساً صغيراً مدوراً ، وسلاح الخيالة الثقيلة السيف ورمحاً طويلاً للطعن ، وترساً كبيراً مقوساً نوعاً ما ، ومكوناً من ثلاثة ألواح خشبية ملصقة .

وبعد ان دخل هانيبال بجيشه الى ايطاليا ، أخذ يستعين بكثير من المجندين الغاليين . كان الغاليون شجعاناً بواسل ، لكنهم لم يتوصلوا قط إلى بلوغ مستوى الاسبانيين والأفارقة في الجيش . فقد كان الغاليون مفرطين في الأنانية ، كل لنفسه ، لا يستجيبون باخلاص وطيب خاطر للنظام والانضباط . كان هانيبال يستعمل الغاليين كمواد مَستهلكة وفيرة محلياً ، ويحتفظ بخيرة عناصره للمهام الأفضل . كان الغاليون في الأساس مشاة ، يقاتلون عراة الصدر ، مع الاحتفاظ أحياناً بمعطف فضفاض . وكانوا يحملون مزاريق ، لكن سلاحهم الرئيسي كان سيفاً طويلاً حاد الرأس ، من حديد ، صالحاً للقطع فقط ، ومن مادة رديئة بحيث كان يلتوي بسهولة . ولما كان من اللازم لسيف القطع متسع من المجال ليحسن استخدامه ، لذا فإن المشاة الغالية كانت تغدو شبه مشلولة عند مرحلة القتال بالكتل المتراصة . وكان الترس الغالي كبيراً وتعوزه الرشاقة واتقان الصنعة . كان الغاليون يشكلون اول ما يهجمون منظراً مرعباً ، لكن الثبات في وجههم سريعاً ما كان يفل عزيمتهم ويثبط هممهم ، وكانوا معروفين على وجه العموم بالتقلب وعدم الاعتمادية .

وقد انضم الى جيش هانيبال ، في ايطاليا ، عدد كبير من السكان المحليين الناقمين على رومـا . وقد سلحهم هانيبال وجهزهم من مخلفات الجيوش الرومانية ، فأخلصوا العمل معه ، وانتهوا فصاروا كالغاليين جزءاً تكاملياً مندمجاً في الجيش القرطاجي .

وأخذ هانيبال عن اسبانيا عادة استعمال مركبات النقل الخفيفة القوية ، المجرورة بالثيران ، وخصصها في الجيش لقطار التموين .

نصل الآن الى آخر العناصر وأكثرها اثارة في الجيش القرطاجي ، الى فيل القتال . ان الخبراء العسكريين ، اليوم ، يميلون الى رفض الفيل كسلاح صالح في زمانه ، ويرون انه كان على العكس مصدر خطر على صاحبه أكثر من خطره على العدو . ولكن الفيلة كانت تشكل جزءاً هاماً في جيوش الشرق الأوسط والأقصى والهند منذ مئات السنين . وما كان العسكريون بالجهلة في ذلك الزمن ، ولذا فيبدو ان الفيل كان سلاحاً له قيمته الكبيرة ، لكن بعد بذل الكثير من التعب والجهود والتكاليف في تربيته وتدريبه وحياته اليومية .

بدأ استعمال الفيل كسلاح في الهند على الأرجح ، وكان يوجد في هذه البلاد بأعداد كبيرة . ان الفيل الهندي وديع ، وأسهل على التربية والتدجين من الفيل الأفريقي ، بصرف النظر عن كونه أصغر من هذا الأخير حجماً . يبلغ الفيل الهندي ١١ قدماً من رجله حتى كتفه ، بينما يصل الفيل الأفريقي الى ١٣ قدماً . وقد تعرض الأروبيون الى أول مواجهة لهم مع الفيل في ميدان القتال ، عندما غزا الاسكندر الكبير الهند ، وتحارب مع الملك الهندي بـوروس ، عند نهر هيداسبس . لكن هناك أدلة على ان الفرس الأخيمينيين قد استعملوا الفيلة في جيوشهم ، وقد أشـرك بعضها في معـركة كـوكميلة (أربيل) ، بين الاسكندر الكبير وداريوس الثالث ، لكن لم يكن لها تأثير على سياق تلك المعركة التاريخية . ويبدو ان الاسكندر لم يؤخذ بقيمة الفيلة كسلاح ، وذلك بالرغم عما قد لحقه منها من الازعاج الكثير في موقعة هيداسبس ، كما لم يعرف عنه انه كان في نيته انشاء وحدات من هذه الحيوانات .

لكن الفيلة ، في عهد خلفاء الاسكندر ، أدخلت للعمل في الجيوش اليونانية . فالقائد سلوكس ، الذي كان يسيطر على القسم الشرقي من امبراطورية الاسكندر ، هو الذي ينسب اليه انه كان أول من استعملها . فقد أخذ ٥٠٠فيل هندي مقابل تخلّيه عن كامل المنطقة الواقعة شمال نهر السند . وقد التقى مع هذه الكتلة من الفيلة بأنطيوخوس ، الذي كان حتى ذلك الالتقاء يطالب بتاج الاسكندر ، وهزمه في ايبسوس ، ولم يخل جيش يوناني ، خارج أوروبا ، من الفيلة منذ ذلك التاريخ .

تألفت تشكيلات الفيلة من كتائب من ٦٤ فيلاً في الكتيبة ، موزعة على سريتين من ٣٢ فيلاً في كل سرية . وتتوزع السرية بدورها الى فصيلتين من ١٦ فيلاً في الفصيلة ، والفصيلة الى حضيرتين من ٨ أفيال للحضيرة ، والحضيرة الى زمرتين من ٤ أفيال للزمرة . وكان لكل فيل اسم خاص ينادى به ، وسائس مختص يرعاه ويعتني به منذ طفولته ، ويعمل على ان تقوم وتنمو إلفة ومعرفة بينه وبين الحيوان .

كان الرومان قد واجهوا ، قبل الحرب البونية الأولى ، الفيلة في حربهم مع بيرروس دكتاتور ابيروس . وقد استعملت قرطاجة الفيلة منذ وقت مبكر ، ويبدو أن قليلاً من فيلتها كانت هندية . فالهند كانت بعيدة ، ولائحة الطالبين للفيلة الهندية طويلة ، وقرطاجة في ذيل هذه اللائحة ، وما كانت لتحصل على طلبها من الهند الاّ بصعوبة وبالثمن الفاحش . ولذا اتجهت بأنظارها الى فيل الغابات الأفريقية ، الذي يكاد ينقرض اليوم . كان الفيل موجوداً في وديان جبال الأطلس ، وعلى السواحل المغربية . وكان ارتفاعه ٨أقدام فقط ، أقل طولاً وارتفاعاً من الفيل الهندي ومن الفيل الأفريقي الضخم ، لكنه كان مع ذلك حيواناً يدعو الى القلق والخشية .

كانت الفيلة ، تكتيكياً ، تصطف على نسق عبر جبهة الجيش ، وتستعمل لافتتاح الهجوم . وكانت تحشد أحياناً عند أحد الأجنحة ، او عند بعض نقاط الجبهة اذا كانت قليلة العدد . كان استعمالها ضد خيالة العدو ممكناً فقط اذا كانت هذه الخيالة غير مدربة على العمل مع الفيلة او ضدها .

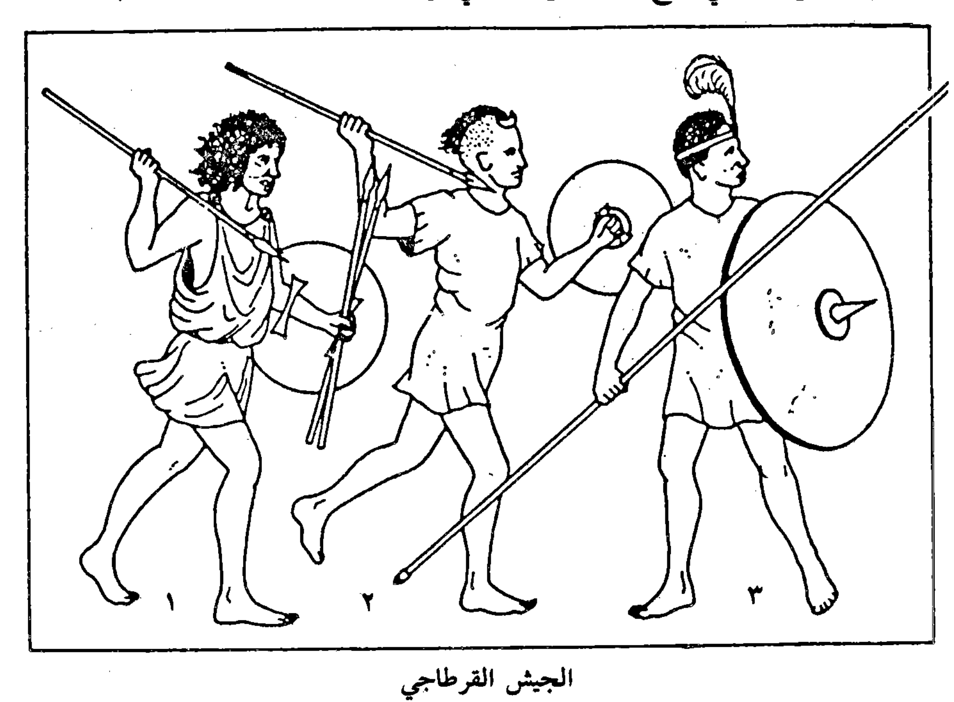
وكانت تفصل بين الفيل والآخر مسافة ١٠٠قدم تقريباً ، وذلك حسب الظروف . وعندما كانت الفواصل أكبر ، والفيلة قليلة ، فقد كانت توضع في الفواصل مشاة خفيفة مختصة بالعمل مع الفيلة وحمايتها من رماة العدو وقذائفه . وكان سلاح الفيل الأقوى هو الرعب الذي كان يبعثه في نفوس الأعداء ، ممن لم يكونوا قد واجهوا فيلة من قبل . الاّ أن الفيلة سريعاً ما تفقد خطرها اذا استطاع المرء ان يسيطر على أعصابه . وهي تصاب بالذعر بيسر وسهولة ، وكان أكثر ما يحدث لها ذلك بفعل الضجيج المفاجىء ، كما وقع لفيلة هانيبال في زاما . وكانت الفيلة أيضاً كثيرة الاعورار بالقذائف النارية .

وللاختصار فإن باستطاعتنا ان نقول ان استعمال الفيلة في الحرب كان نوعاً من مقامرة ، وخاصة اذا كانت ناقصة التدريب والمران ووجهت بجنود وقادة من ذوي الخبرة والحيلة . ولكنها كانت على كل حال ، عند هجومها ، منظراً يقتضي لمواجهته كثير من الشجاعة والعزم وقوة الارادة .

ونقول ، للايجاز أيضاً ، ان الجيش القرطاجي ، بتشكيلته الأممية ، لم يكن ليستطيع التوازن مع جيش مواطنين ، إلاّ إذا كانت قيادته من نوع متميز وفوق العادة ، وكانت القيادة في جيش المواطنين دون المستوى المطلوب . ان الجيش المرتزق ، المتعدد الأجناس واللغات ، الذي يتجند لقاء أجر وليس في سبيل وطن او عقيدة ، يكون مزاجي السلوك والتصرف ، الا في ظروف خاصة كما تقدم فقلنا ، عندما يتوفر النهب والسبي والغنائم ، بالاضافة الى ادارة وقيادة متميزة .

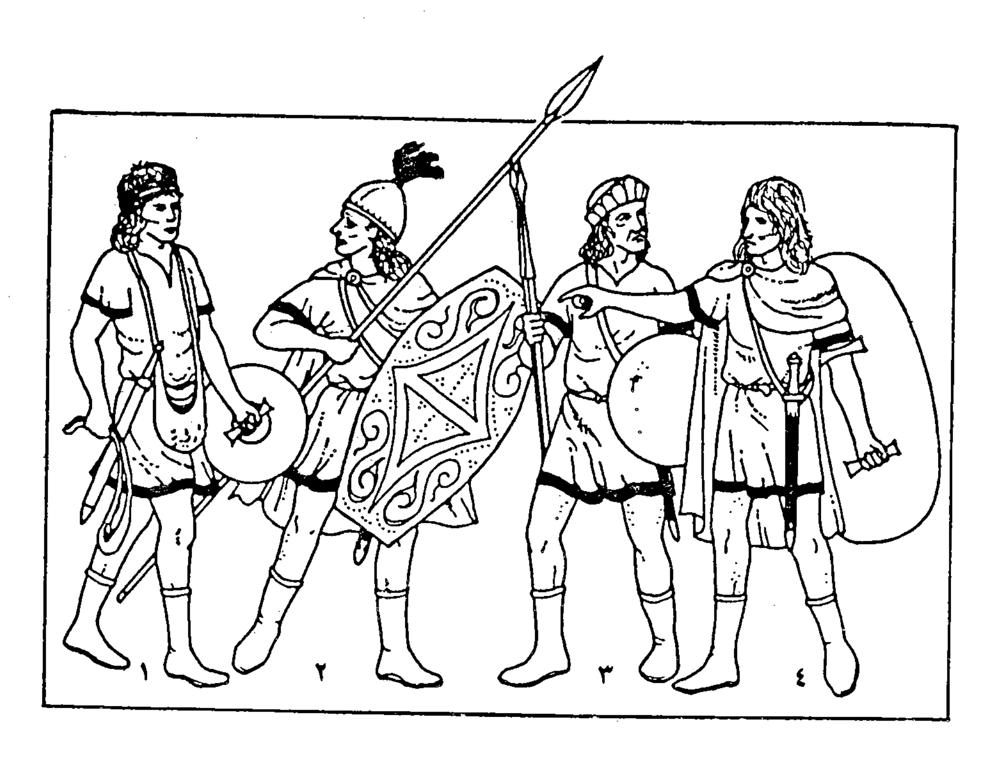
الجيش القرطاجي

(١) مواطن قرطاجي رمّاح (٢) فارس قرطاجي من طبقة النبلاء (٣) خيال من جنوب غاليا .



الجيش القرطاجي

(١) خيالة نوميدية خفيفة حملة المزاريق (٢) ليبي من حملة المزاريق (٣) ليبي رمّاح .



الجيش القرطاجي

(١) مقلاعي بالياري (٢) خيال اسباني وسطي (٣) اسباني من الخيالة الخفيفة

(٤) اسباني من الخيالة الثقيلة .

الفصل الثالث

قيام دولة روما وتوسعها

قيام دولة روما ـ توسعها ـ الجيش الروماني ـ تنظيم اللجيون
الخيالة الرومانية والتشكيلات الدنيا ـ القيادة العسكرية لدى الرومان

OOOOOOOOO

كفاءة سياسية وادارية

سيتضح جلياً ، مع سياق استعراضنا لمختصر عن تاريخ روما ، ان الرومان كانوا يتمتعون بالكفاءة السياسية والادارية الى درجة عالية ، وذلك في تنظيم فتوحات قادتهم العسكريين ، وفي الاحتفاظ بهذه الفتوحات وتوطيد قبضتهم عليها لصالح الجمهورية ، ولصالح الامبراطورية فيما بعد . وكانت الكفاءة من هذا النوع مفقودة او ضئيلة لدى اليونانيين والقرطاجيين . وسيتضح كذلك كيف تفاعل التطور الاجتماعي مع التنظيم العسكري ، بتأثير متبادل عميق ، يتعاظم مع توسع روما وتحولها من مدينة دولة الى دولة من عدة مدن وأقاليم ، ومن ثم الى امبراطورية عظيمة واسعة الأرجاء .

تأسست روما ، وفقاً للأسطورة ، عام ٧٥٣ ق م . لقد بدأت دولة متواضعة ، بين عدد كبير من المدن الدول الأخرى . وتوصلت ، بعد خمسة قرون ، الى السيطرة على شبه الجزيرة الايطالية بكاملها ، واستطاعت بعد ٧٥٠سنة من ذلك التاريخ ، ان تحكم الغرب الأوروبي وعالم البحر الأبيض المتوسط . لقد صارت روما ، سيدة مطلقة في ايطاليا ، وفقاً لسياق عملية

طبيعية ، وتبعاً لقانون الحياة : البقاء للأصلح . لقد كان اضطرارها للعيش في خوف مقيم على سلامتها ، وللمطالب المستمرة لضرورات الدفاع والأمن ، والاعتداءات المتواصلة من قبل أقوام كانت تحسن الاستفزاز والعنتريات أكثر من حسنها لأعمال الحروب ، كل ذلك عمل على اشراب روما ، بصورة لا تتوقف ، بروح العسكرية ومنطق العدوانية .

استطاعت روما ، على مر الزمن ، ان تتغلب على الأتروسكيين والفولشيين والسمنيين والاستيلاء على أراضيهم ، وان تصد غزوات الغاليين ثم تحتل بلادهم . وقد أُصيبت بهزيمة مذلة ، في كودين فوكس ، عام ٣٢١ ، لكنها ثأرت لنفسها فيما بعد ، بالانتصار على تحالف من الغاليين والسمنيين ، في سنتينوم، عام ٢٩٥ق م . وقد أعطاها هذا الانتصار سيطرة على الوسط الايطالي ، وأعطاها انتصارها على بيرروس ، في بينفينتوم ، سيطرة مماثلة على الجنوب .

الرومان والتنظيم العسكري

لا يُعلم الكثير عن الجيش الروماني ، في عصر ما قبل القرن الرابع قبل الميلاد . ولكننا نعلم انه في القرن السادس قبل الميلاد ، قام ملك أتروسكيا ، سرفيوس توللوس ، ببناء أول تحصينات في روما ، وبتنظيم الدولة على قاعدة عسكرية . وقد أصبح الرومان بنتيجة ذلك أمة تحت السلاح ، كل مواطنيها الذكور ، من سن ١٧ حتى سن ٤٦ ، مكلفون الزامياً بالخدمة العسكرية الفعلية ، والمواطنون ، من سن ٤٦ حتى سن ٦٠ ، متاحون كاحتياط .

كان للجيش يوم في السنة يعرف باسم يوم الجيش . في هذا اليوم ، كان المواطنون يدعون ، على دق الطبول والأبواق ، الى الاجتماع في ميدان مارس إلّه الحرب ، عند تلة الكابيتول ، احدى تلال روما السبع القديمة . في هذا الاجتماع كان يجري انتقاء المدعويين للخدمة العسكرية حسب السن والقامة ، وتوزيعهم الى ثلاث فئات : الفرسان ، فالأكبر سناً ، فالأصغر سناً .

كان الأصغر سناً يؤلفون القوة الرئيسية الضاربة ، وكان الموسرون منهم يتجهزون على نفقتهم بعدّة المشاة الثقيلة الكاملة ، عدّة مشاة الهوبليت ، وكانت تتكون من خوذة برونزية ، وترس ، ودرع للصدر ، ودرع للساق ، ورمح وسيف . وكان قائد كل لجيون يأتي مع أعوانه العسكريين ، التريبيونات[1] ، فيختار العدد الذي يلزمه ويوافقه . ومع اتساع رقعة دولة روما ، وازدياد عدد المواطنين ، تعرض هذا الأسلوب الى بعض التغيير ، لكن القاعدة الأساسية لم تمس . وهكذا فإن الجيش الروماني كان جيش مواطنين ، يتجندون دفاعاً عن وطن وليس ارتزاقاً ، ويخدمون في الجيش لفترات قصيرة .

كان تكتيك الرومان ، في أول أمرهم ، نفس تكتيك الهوبليت التقليدي المقتبس عن المكدونيين ، وكانت الفالانج التشكيلة التكتيكية الكبرى . ولكن في عام ٣٩١ق م ، وعلى أثر هزيمة كبرى على يد الغاليين ، رأى الرومان انهم بحاجة الى أفكار ونظريات جديدة . وفي غضون الجيلين التاليين ، وبتوجيه وايحاء من ماركوس فوريوس كاميليوس ، أعيد تحصين روما وتنظيم الجيش . بقي الجيش جيش مواطنين ، يتلقى أفراده تعويضاً أثناء خدمتهم الالزامية ، الاّ ان تشكيلة الفالانج أخلت المكان لتشكيلة اللجيون الجديدة .

ان كلمة اللجيون تعني الوحدة المختارة . وكانت اللجيون بحق تشكيلة مختارة ممتازة، اذ لم يكن يقبل في صفوفها سوى أفضل المواطنين . وكانت تعد ، حسب الظروف ، ما بين ثلاثة الى ستة آلاف ، وهي بمثابة الفرقة في التنظيمات العسكرية الحديثة . وكانت لا تتألف الاّ من مواطنين كما أسلفنا ، والمواطن هو فقط من كان له ملكية خاصة .

كانت القوة الرئيسية في اللجيون هي المشاة الثقيلة . وكانت تحتوي أيضاً على مشاة خفيفة ، وعلى خيالة . وكانت روما ، في أول عهدها ، تجند لجيونتين . الاّ انه مع مرور الزمن ، وتكاثر الحروب والأزمات ، أخذ هذا العدد بالتزايد . وكانت اللجيون في أول الأمر منظمة ومسلحة ومجهزة على

---

(١) جمع تريبيون ، وهو لقب لضابط كبير ينتخب من قبل الشعب .

نموذج الفالانج المكدونية . ولكن هذا التنظيم ، في ترتيبه المرتص وتشكيله الجامد ، أخذ يتمخض عن عيوب ونقائص خلال حروب روما المتكررة ضد بيرروس والغاليين ، وربما ايضاً في مستهل الحروب البونية ، مما استدعى الأمر اجراء تغييرات جذرية . ولذا فإنه ليس من المستطاع ان يُحدد التنظيم والتجهيز في ذلك العهد المبكر ، نظراً لأنه كان عصر تغيير واختبار . ولكن يبدو ، مع ابتداء الحرب البونية الثانية ، ان اللجيون كانت قد استقرت على تنظيم نهائي ، مع استمرار على تغيير في التجهيز ، تغيير كان معظمه حاصلاً للخبرة في اسبانيا ، حيث ظهر النموذج الجديد للسيف الروماني ، مع أدوات أخرى .

تنظيم اللجيون

كانت المشاة ، في اللجيون ، أربعة أصناف . الصنف الأول كان الهستاتوس ، ويتألف من أصغر المجندين سناً . كان المواطنون الموسرون يتجهزون على نفقتهم ، وكان الفقراء يتلقون تجهيزاتهم من الدولة . وكانت هذه التجهيزات عبارة عن درع برونزي للصدر فوق جلباب يصل حتى الركب . وكان الاغنياء يستبدلون هذا الدرع بقميص من الزرد او من حلقات حديدية . وكان الجميع يلبسون الخوذة الايطالية البرونزية مع عرف من ثلاث ريش طويلة ، ويحملون ترساً عريضاً بيضوياً او نصف أسطواني ، بعرض قدمين وخمسة عشر سنتيماً ، وطول أربعة أقدام ، مصنوعاً من صفائح خشبية ، مغطى بالجلد ومحبوكاً بالحديد . وهناك اختلاف حول ما اذا كان الجندي يرتدي درعاً لكل ساق ، وقيل انه كان يلبس درعاً واحداً لوقاية ساقه اليسرى . وكان السلاح الرئيسي سيف الطعن ومزراقين ثقيلين .

كان الصنف الثاني من المشاة هو البرنسبس ، ويتألف من متوسطي الأعمار ، وكان له تجهيز الهستاتوس ، مع فارق بأنه كان أول الأمر مزوداً برمح طويل للطعن عوضاً عن المزراق الثقيل . وكان الصنف الثالث هو الترياريوس ، ويتألف من الأكبرين سناً ، وبالتالي من المحاربين القدماء الذين

اشتركوا في حملات وحروب سابقة . وكان تجهيز هذا الصنف مماثلاً لما سبق ، لكن مع رمح طويل عوضاً عن المزراق .

أما الصنف الرابع والأخير من هذه المشاة فكان الفيليت ، او المشاة الخفيفة . لم تتبن روما الحربة قط ، وكانت مشاتها الخفيفة ، المأخوذة عادة من أفقر المواطنين، تعتمد أساساً على المزراق كسلاح قذف رئيسي . كان الجندي في هذه المشاة يلبس جلباباً خفيفاً ، ويحمل ترساً كبيراً دائري الشكل . وكان سلاحه الكلي عدداً من المزاريق الخفيفة وسيفاً قصيراً .

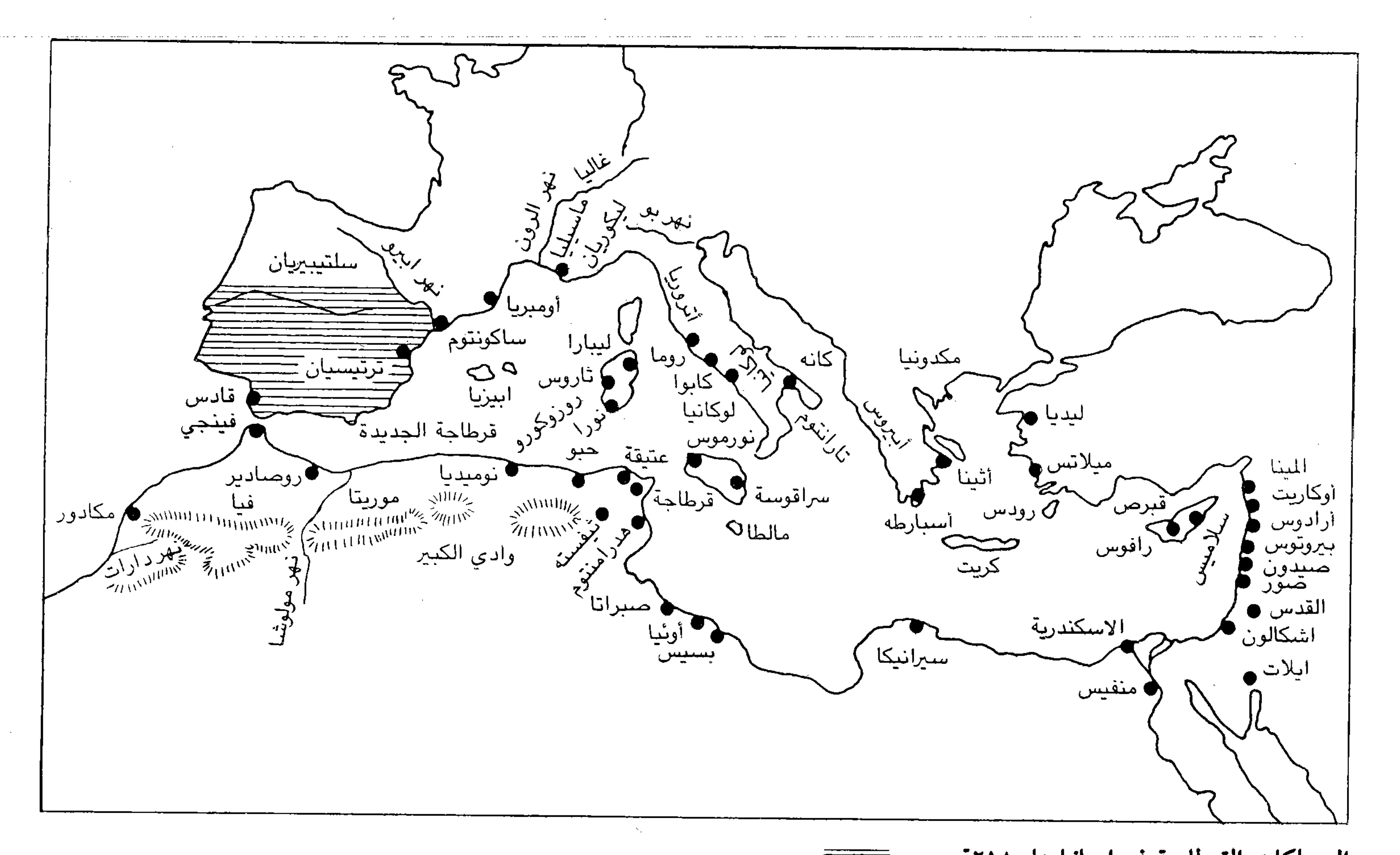
وكان الترتيب للقتال هو ترتيب الأصناف ، على ثلاثة أنساق : الهستاتوس في المقدمة ، فالبرنسبس ، فالترياري . وكانت المشاة الخفيفة تتوزع في الفواصل والفجوات بين هذه الأنساق ، وكان الترتيب العام يشبه شكل رقعة الشطرنج . كان كل نسق يتألف عمقاً من أربعة صفوف . وكان النسقان الأولان ، الهستاتوس والبرنسبس ، يتألفان من ١٢٠٠مقاتل لكل منهما ، في حين كان النسق الثالث ، الترياري ، يتألف من ٦٠٠مقاتل فقط . وكان جنود المشاة عموماً ينتظمون في سرايا او منيبلس ، كل سرية من ١٠٠ - ١٢٠فرداً ، وكانت خيالة كل لجيون تعد ٣٠٠خيال موزعين على ١٠كوكبات . وكان مكان الخيالة ، في الترتيب للقتال ، على الأجنحة . وقد زيد عدد اللجيون فيما بعد إلى حدود ٦٠٠٠ ، وأخذ التجنيد من الحلفاء يجري بصورة متزايدة . وعندما تشكلت الكونفدرالية الايطالية بزعامة روما ، صار من واجب أعضاء هذه الكونفدرالية ان يساهموا في الحرب بلجيون واحد مقابل كل لجيون تبعث بها روما الى الميدان .

كانت الغاية من التشكيل بالسرايا ، او المنيبلس ، ان يكون الدفاع حركياً والهجوم مرناً ، سواء ضد الفالانج الاغريقية الجامدة ، او ضد الحشد الفضفاض للغاليين . وكان الاشتباك يبدأ بالمشاة الخفيفة ، عاملة بالمناوشة السريعة ، ومغطية لتقدم المشاة الثقيلة . وعندما كان الهستاتوس يصلون الى مدى رمي مزاريقهم ، كانوا عندئذ يبدأون الرمي ، ثم يندفعون للالتحام مع العدو بسيوفهم .

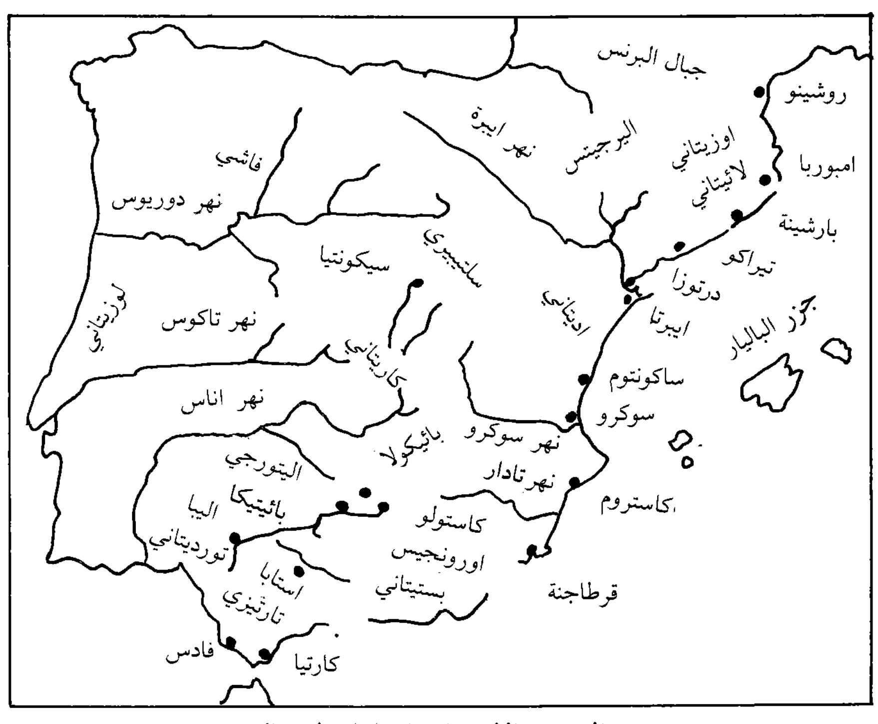
كان كل صف سنداً للصف الذي أمامه ، وكان الجنود والأصناف مدربين للقيام بمناورات التناوب ، بحيث كان كل صف في النسق يحل محل صف آخر ، وكل نسق مكان النسق الذي يتقدمه . وعندما كانت الأمور تجري على غير ما يرام ، فقد كان باستطاعة الهستاتوس ، والبرنسبس ان يتحدوا في نسق واحد ، وينسحبوا من خلال فواصل الترياري . وقد قاتل الرومان بهذا النظام ، بدرجة عالية من النجاح والانضباط .

كان أصغر الجنود سناً يؤلفون صنف الهستاتوس ، ويوضعون دائماً في النسق الأمامي ، وهو موجة الهجوم الأولى ووضع الدفاع الأول كذلك ، والسبب انه كان للقوة العضلية الحساب الأكبر في القتال . كان الجنود الأكبر سناً يؤلفون صنف الترياري ، ويحتلون النسق الثالث من التشكيل ، معفين هكذا من القتال في حال تحقيق انتصار سريع ، وجاهزين في كل وقت كاحتياط للدعم والمناورة . هذا النظام بالنسق الثلاثي ، او الموجات المتعاقبة ، كان جيداً للمعنويات ، من حيث انه كان يحتفظ بثلثي المقاتلين خارج منطقة الخطر أطول مدة ممكنة ، ويعطي للنسق المشتبك ، اذا انهزم ، نسبة معقولة من امكان الانسحاب بأمان ، في حماية الأنساق التالية .

كان أفراد الهستاتوس والبرنسبس يجهزون بخوذة برونزية ودرع للصدر ، وبترس بيضاوي مستطيل . كان الترس مصنوعاً من طبقتين من الخشب ومغطى بالقنب والجلد ، وقد أُطرت أطرافه بالحديد لتصمد لسيوف الغاليين الطويلة . وكانت أسلحة الفرد مزراقين ، وخنجراً ، وسيفاً مروساً بحدين وطول قدمين ، اسباني الأصل . وكان تسليح أفراد الترياري مماثلاً ، باستثناء رمح للقذف عوضاً عن المزاريق . اما تسليح المشاة الخفيفة فكان سيفاً ومزراقين ، وترساً مدوراً بعرض ٣ أقدام ، وغطاء للرأس من جلد الذئاب . ومن المحتمل ان يكون الرومان قد أخذوا مزراقهم عن الغاليين ، وكان بطول ٦أقدام ، برأس من الحديد المسنن يتقوس عند الصدمة ، بحيث لا يستفيد منه العدو للحال في المعركة الدائرة . وكانت الخيالة الرومانية ضعيفة التسليح ، وكان سلاحها رمحاً وسيفاً وترساً من جلد .



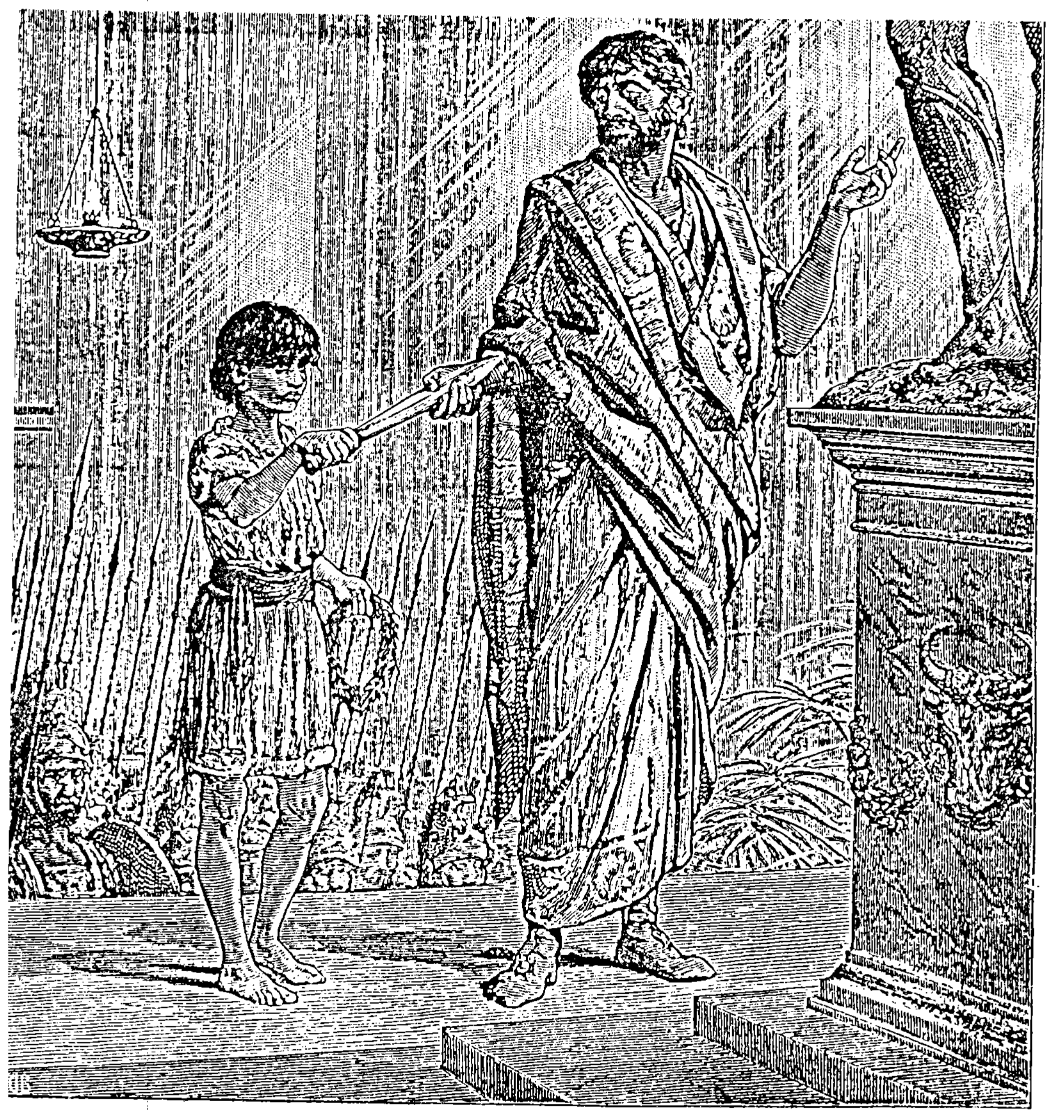
الممتلكات القرطاجية في اسبانيا عام ٢١٨ق م



شبه الجزيرة الايبيرية (اسبانيا والبرتغال)

كان الرومان ، برأي الجنرال فوللر ، الكاتب العسكري المعروف ، أحسن جيوش التاريخ خندقة دفاعية . كانت اللجيون ، في توقفها وقتالها ، تستند دائماً على معسكر محصن . وكانت ، عند الضرورة ، تنصب معسكراً جديداً محصناً في نهاية كل يوم ، ولو كان ذلك على حساب خفض وقت المسير ، والاكتفاء بمسير ثلاث ساعات او أربع ساعات يومياً في الصباح ، وتخصيص كل بعد الظهر لأعمال الحفر والتخندق . وكان حجم المعسكر وشكله يختلفان باختلاف الارض ونوعها ، وكان عادة مستطيلاً كبيراً ، يتسع للجيونتين . وكان يحاط بخنادق وسياجات ومتاريس .

كان الرومان يتعبون ويجهدون في اقامة هذه المعسكرات المحصنة لسببين : أولاً لاعتقادهم بفوائد الأمن والراحة ؛ فقد كانوا يقضون معظم وقتهم في المعسكرات في التدريب والرياضة البدنية ، ويعملون على غرس وتنمية صفات العزم والصلابة والضبط والنظام ، وهي خصال كانت في نظرهم حيوية



هانيبال مع والده هاميلكار في طريقه الى اداء القسم بالعداوة الأبدية لروما

للقتال بتكتيك اللجيون ، وأساسية كميزة للجندي الروماني . وثانياً ، لأنه كان تكتيك اللجيون ان لا تخوض معركة الاّ قريباً من نقطة محصنة ، ليجري الانسحاب اليها في حال تحوّل القتال لغير صالح الرومان . وكان لهذا السبب ان الهزائم ، التي كانت تلحق بجيوش روما ، نادراً ما كانت بمستوى كارثة .

كان حمل الجندي أثناء المسير ، بالاضافة الى أسلحته ، ثقيلاً بما فيه

أدوات التخندق وأواني الطبخ والاطعام . ولم يكن الطعام ليوصف بالجودة عادة . كان من النادر ان يطعم الجندي لحماً ، وكان طعامه الرئيسي في المعسكر هو الخبز غير المختمر ، المصنوع من القمح ، والمخبوز على الأحجار المحمّاة او على الجمر .

الخيالة الرومانية والتشكيلات الدنيا

كانت الخيالة الرومانية ، منذ أول أمرها ، قليلة العدد ، ومن نوع فقير ، وكانت مقتصرة على أولاد الأغنياء ، ويلبس أفرادها درعاً معدنياً ، ويحملون ترساً مسطحاً مدوراً . وكان سلاحهم المزراق او رمح القذف وسيف الفرسان الطويل . وكان هذا الضعف معوضاً بخيالة الحلفاء الطليان ، الذين كان عليهم ان يساهموا بقوة من الخيالة تكون ثلاثة أضعاف خيالة روما .

وفي الحرب البونية الثانية ، في اسبانيا بالذات ، قام شيبيون الأفريقي ، كما سنرى ، بجهود عظيمة لتطوير الخيالة وتحسينها . فقد عمد الى تجهيزها على الطريقة الاغريقية ، فألبسها الدرع ، وحملها الترس المستطيل ، وسلحها بالسيف المعكوف والرمح ومزاريق القذف . وكان اهتمامه بتدريبها ومرانها كبيراً ، واستطاعت الخيالة بقيادته ان تحقق درجة عالية من المهارة والقدرة على الحركة والمناورة . كانت الخيل مجهزة بالعنان واللجام ، لكن السرج لم يكن قد ظهر بعد ، ولا الركابات بطبيعة الحال . كانوا يستعملون ، على ظهور الخيل ، غطاء مزدوجاً من القماش او الجلد ، يثبت بحزام ومذيلة وصدرية . وكانت الخيل بلا نعل ، لكن فكرة وقاية الحوافر بواسطة اصطناعية كانت قد ظهرت ، وكانوا لذلك يلبسون حيوانات النقل ، للمسافات الطويلة ، نعلاً يثبت على الحافر بسيور جلدية . وليس من المؤكد فيما اذا كانت الخيالة الرومانية قد استعملت مثل هذه النعال في المعركة ، الاّ ان هناك ما يحمل على الظن بأن الرومان كانوا يستعملونها للمسيرات الطويلة .

كانت تشكيلة الخيالة تبدأ بالتورماي ، وهي مجموعة من ٣٠ خيالاً

موزعين الى ثلاث جماعات من عشرة . وكان يلحق بكل لجيون ١٠ تورماي . اما أصغر تشكيلة في المشاة فكانت المئة ، بقيادة ضابط يحمل رتبة ولقب المئوي ، ثم تأتي تشكيلة المنيبل بعدئذ ، وتتألف من مئتين . ولكن كان من النادر ان يتجاوز عدد تشكيلة المئة ستين فرداً ، وان تتجاوز المنيبل عدد ١٢٠ . وكان قادة المئات بمثابة العمود الفقري لكل لجيون خلال التاريخ ، تماماً كما كان حال ضباط الصف الألمان ، الدعامة الأساسية للجيوش الألمانية في القرنين التاسع عشر والعشرين . وكان قائد اللجيون يدعى بلقب لكيت[1] ، ويساعده عدد من الضباط ممن يحملون لقب تريبيون ، ويشكلون هيئة أركان اللجيون ، وكانوا عادة شباناً ينحدرون من العائلات المتنفذة . وكان مجلس الشيوخ ينتخب عادة قادة الجيوش ، اي القناصل ، من هؤلاء الضباط التريبيونيين ، ولذلك كان القناصل دوماً على شيء من المعرفة والخبرة السابقة بأمور القتال .

لم يكن لدى الرومان ضباط أعوان من طبقة النبلاء . وكان ضابط المئة وضابط المنيبل عسكريين متمرسين محترفين ، ومن نفس الخلفية الاجتماعية للجنود . وبهذا فقد كانت التدريبات والعمليات التكتيكية في اللجيون تحت سيطرة محترفين مجربين واشرافهم ، وكان الانضباط شديداً قاسياً ، والقصاص صارماً لا هوادة فيه ، والمكافئات عادلة سخية . كان الضباط الأعوان شجعاناً يتحلون بالصبر ورباطة الجأش ، يعرفون المحاربة ويفهمونها ، ويتعاطون العسكرية والمقاتلة بقناعة واخلاص . وكانت هذه الاستطاعة لدى روما ، على انتاج نوع ممتاز من الجنود والضباط الأعوان ، هي التي كان لها الفضل الأول والعميم فيما تحقق من انتصارات عسكرية على مدى قرون .

القيادة العسكرية لدى الرومان

كان أسلوب القيادة لدى الرومان بسيطاً . ففي كل سنة ، كان مجلس

---

(١) Legate .

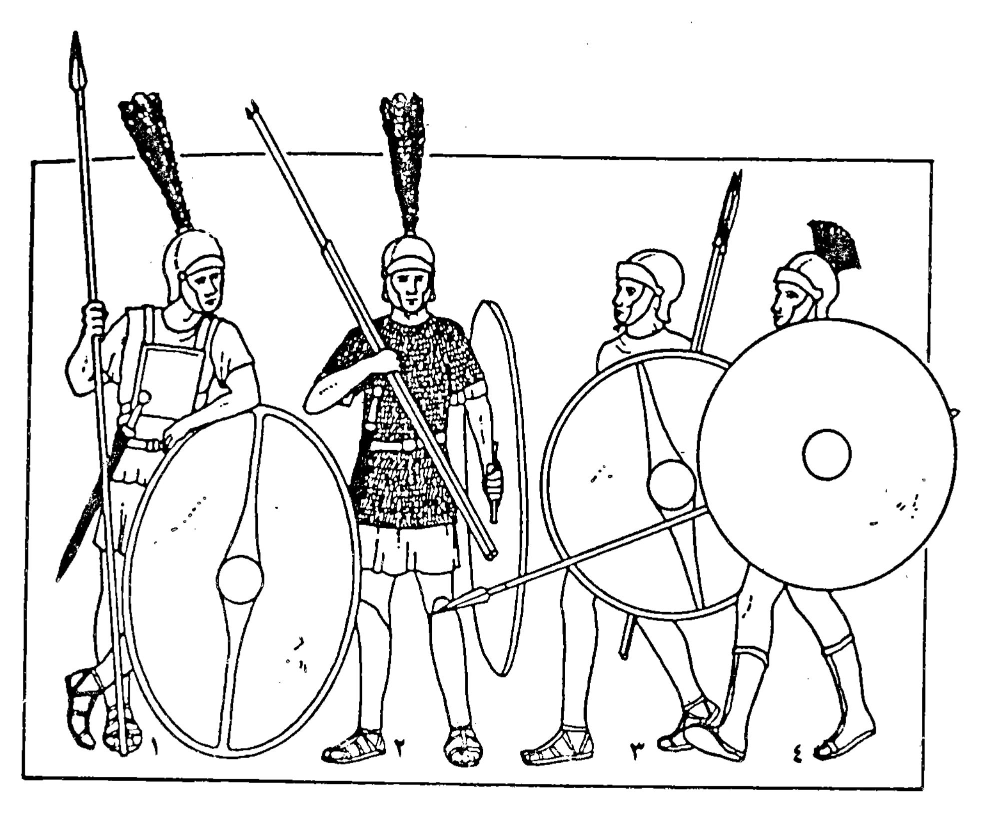
الشيوخ ينتخب قنصلين لقيادة قوات الجمهورية. كان كل قنصل يقود أثناء الحرب ، عند الضرورة ، بنفسه جيشاً قنصلياً يتألف عادة من لجيونتين رومانيتين ، ولجيونتين حليفتين . واذا اتسع نطاق الحرب واقتضى الأمر تجنيد أكثر من جيشين ، فقد كان من الممكن استدعاء قناصل السنوات السابقة ، لتسليمهم قيادات ثانوية . كان هذا الأسلوب موضوع سخرية من لدن البعض ، بدعوى انه لم يكن عمل اختصاص بالمرة ، وانه يعهد بشؤون الحرب وادارتها الى مدنيين لم تسبق لهم ممارسة على قيادة الجيوش . ولكن الأخذ بهذا القول هو بمثابة القبول بوجهة نظر مبسطة وسطحية . فلكي يصبح المواطن قنصلاً ، كان عليه ان يكون قد خدم قبلاً بصفة تريبيون في اللجيون مدة من الزمن ، وهكذا فإنه لم يكن يصل إلى مرتبة القنصل من كان حدثاً مبتدئاً . زد على ذلك ان اللجيون كانت أداة تدريب وقتال ممتازة ، ولم تكن تحتاج ، في معظم الحالات ، لأكثر من قائد يكون على درجة مقبولة من اللياقة والكفاءة . وقد وفر هذا الأسلوب لروما عدداً كبيراً من القادة ، وكذلك استطاعة على القيام بالتبديل والاختيار والانتقاء ، وهو شيء لم يتوفر مثله لقرطاجة . ولربما كانت روما محظوظة بمعنى أنها ، في كل تاريخها الطويل ، لم تواجه الّا نادراً بخصم يتمتع بدرجة عالية من الابداع والكفاءة ، وهكذا فإن كثيراً من الميزات كانت متوفرة لها منذ البداية .

كان لذلك الأسلوب العسكري ، بطبيعة الحال ، عيوبه ونواقصه . فتغيير القيادة كل سنة يعني ، في حرب طويلة ، عدم استمرارية وتواصل في التخطيط والتوجيه والتنفيذ ، ووقتاً غير كاف للتعلم واكتساب الخبرة . كان هذا النقص يتعوض ، في اعتبار الرومانيين ، بواقع انه لم يكن لدى القائد ايضاً وقت كاف لاكتساب حب الجنود وتعلقهم به وولائهم لشخصه ، واتخاذ ذلك واسطة للوثوب على السلطة والاطاحة بالنظام الجمهوري . لقد كان هذا التخوف هاجساً مستمراً مقيماً في ذاكرة أعضاء مجلس الشيوخ ودخيلتهم . وفي حين ان هذا الأسلوب العسكري ما كان لينتج غير القليل النادر من القادة البارزين ، فإنه مع ذلك لم يحل دون ان يكون معظم القادة ، أيام

الجمهورية ، أكفاء لما فيه الكفاية . هذا بخلاف ما كان عليه الأمر في قرطاجة ، التي لم تنتج ، طوال الحروب البونية كلها ، سوى ثلاثة قادة أكفاء ، كان آخرهم وأفضلهم هانيبال برقة .

وكان الرومان ، أثناء الطوارىء والأزمات العصيبة ، كما حصل خلال الحرب البونية الثانية ، يعلقون تطبيق حرفية هذا الأسلوب السنوي في انتخاب القادة ، لفترات قصيرة وموقتة . وكان البديل ، في هذه الحالة ، قيام مجلس الشيوخ بانتخاب دكتاتور يتسلم القيادة العسكرية لمدة ستة أشهر . وكان المجلس يحتفظ بحقه في الغاء الوظيفة والمهمة ولو قبل انتهاء مدتها ، وذلك في حالة الفشل او زوال الطارىء . وكان يعيّن دائماً للدكتاتور نائب ومراقب بصفة مساعد ، باسم سيد الخيل . ومن البدائل الأخرى ، التي لم تمارس كثيراً ، التمديد للقائد الناجح لأكثر من سنة ، كما حدث لصالح شيبيو في اسبانيا وأفريقيا . وهكذا نرى ان مجلس الشيوخ الروماني كان هيئة حكم مرنة ، ولا يتصف عادة ، كما يزعمون ، بالجمود والتصلب .

يتضح مما تقدم ان الجيش الروماني كان أحسن أداة قتال في عصره . لقد كان مرناً ، عالي الاعداد والتدريب ، قادراً على المناورة والاحتراب في كل مكان ، وعلى كل أنواع الأراضي . وكان الجنود الرومان مواطنين شجعاناً ، محبين لوطنهم ، معتادين على الفوز والانتصار . وكان القادة والضباط أكفاء ضمن الحدود والقواعد الموضوعة لهم . لقد كان ذلك الجيش ، بكل تأكيد ، أقوى قاعدة ، وأعلى مستوى من الجيش القرطاجي المتعدد العناصر والأجناس واللغات . وما كانت الانتصارات التي أحرزها القرطاجيون في ايطاليا الّا نتاجاً لعبقرية قائد فرد ، وكان الجيش القرطاجي لذلك معلق المصير بحياة ذلك القائد الفرد واستمرار قدرته ونبوغه على الابتكار والابداع في الرأي والعطاء .



الجيش الروماني

(١) البرنسيس والترياري (٢) الهستاتوس (٣) الفيليت ، المشاة الخفيفة (٤) الخيالة الثقيلة .

الفصل الرابع

الحرب البونية الاولى
(٢٦٤ - ٢٤١)
ق.م

مرتزقة بلا عمل - العمليات الحربية - المعارك البحرية
هاميلكار برقه - نهاية الحرب البونية الأولى - التعليق

OOOOOOOOO

مرتزقة بلا عمل

بعد موت أغاثوكلس ، دكتاتور سراقوسة ، وجد عدد كبير من مرتزقته أنفسهم بلا عمل . وعوضاً من أن يعودوا الى بيوتهم ، عمدوا على العكس ، عام **٢٥٩** ق م ، الى الاستيلاء على مدينة مسينا الغنية ، في صقلية ، والمواجهة عبر المضيق لرأس القدم الايطالي ، وجعلوها قاعدة لهم ، للصوصية وقطع الطرق ، ناشرين الرعب في الأرياف المجاورة . لكن الحاكم الجديد ، الذي خلف أغاثوكلس في سراقوسة ، واسمه هيارو ، لم ينتظر طويلاً قبل أن يقرر العمل ضدهم . وفي تحول تاريخي غريب ، عمد الى اتخاذ تدابيره لذلك بالاتفاق مع القرطاجيين . وكان أولئك المرتزقة السابقون ، اللصوص فيما بعد ، والذين أطلقوا على أنفسهم اسم « أبناء مارس » إله الحرب عند الوثنيين ، منقسمين على أنفسهم الى فريقين : فريق يحبذ الاستسلام الى قرطاجة ، وفريق يدعو الى طلب الحماية من روما ، وقد بعث الفريقان لذلك بسفارات الى كلا البلدين .

كان العمل ، بالنسبة لقرطاجة ، أمراً لا مفر منه . فهي قد كافحت قروناً

عدة من أجل السيطرة على صقلية . وكان العمل على تحقيق هذا الهدف ، بسياسة ايجابية ، نوعاً من طبيعة ثانية لديها . وفيما يتعلق بروما ، من الجهة المقابلة ، فقد جوبهت بموقف محرج ، وكان عليها أن تتخذ بشأنه قراراً خطيراً . فالتدخل في صقلية كان ولا بد مؤد الى الحرب مع قرطاجة ، مع كل ما قد يترتب عن ذلك من العواقب في نزاع بين دولة برية ودولة بحرية . ولكن هل كان في استطاعة روما أن تخاطر فتترك لقرطاجة فرصة السيطرة على ما قد يكون الخطوة التمهيدية الى البر الايطالي ؟ وكان طبيعياً أن ترفض روما مثل هذه المخاطرة ، وتقرر أن تتدخل . ومع أنه لم يجر للحال اعلان حالة الحرب بصورة رسمية ، فقد اعتبر ذلك التاريخ بداية للحرب البونية الأولى .

العمليات الحربية

في حين كان مجلس شيوخ روما يتخذ قراره بالتدخل ، ويأمر القنصل أبيوس كلوديوس بالعبور الى صقلية ، كان الحزب القرطاجي في مسينا قد توصل الى السيطرة والهيمنة على المدينة ، يساعده في ذلك مرأى السكان ، خارج أسوار المدينة ، لجيشين كان أحدهما سيراقوسي والثاني قرطاجي . وكنتيجة لذلك فقد دخل أسطول قرطاجي الى مرفأ المدينة ، بينما استقرت حامية قرطاجية في قلعتها .

كان الرومان قد أبطأوا في الحركة . لكن القائد القرطاجي « حانّو » ، كان كما يبدو مخبولاً أو عديم الادراك والخبرة والمعرفة . فقد استطاع القائد الروماني كلوديوس أن يقبض عليه ، وأن يقنعه باخلاء المدينة واستبدال الحامية القرطاجية بحامية رومانية . ولا يعرف كيف استطاع عشرون ألف جندي روماني أن يعبروا البحر الى صقلية مع وجود الأسطول القرطاجي في مضائقها ، لكن المعلوم أن ذلك الحدث كان فضيحة بالنسبة لقرطاجة . وكان من جراء ذلك أن جرى اعدام حانّو صلباً ، واستبدل للقيادة بآخر من نفس العائلة . الا أنّ هذا الأخير لم يكن أفضل من قريبه وسابقه . فقد تمكن كلوديوس ، منطلقاً من مسينا ، من دحر الجيشين القرطاجي والسراقوسي ،

بمهارة وتفوق ، الأمر الذي حمل هيارو ، حاكم سراقوسة ، على انعام الفكر والروية ، وكان أن جنح الى مسالمة روما وانقلب حليفاً لها . وما كان باستطاعته أن يفعل الاّ ذلك ، بعد ما رأى من عجز الأسطول القرطاجي في المضائق ، حيال دولة معادية بلا أسطول ، ومن بلاهة أو خيانة حانّو الأول ، ومن تقصير وعدم كفاءة من جانب حانّو الثاني .

شرعت روما عقبئذ باحتلال صقلية ، ونجح القنصل بوستوموس والقنصل مكسيميليوس في التقدم حتى مدينة أكريكنتم ، على الشاطىء الجنوبي للجزيرة ، وحصارها ، وكانت ثانية مدن صقلية أهمية وقاعدة قرطاجية هامة . كانت قرطاجة في هذه الأثناء عاملة على تجنيد جيش من المرتزقة ، وعلى تحصين أكريكنتم وتعزيز حاميتها ، بقيادة عسكري ممتاز يدعى هانيبال جسكو . لم يحقق الرومان أية نتيجة من حصار استمر خمسة أشهر ، لكن مؤونة المدينة كانت قد قاربت النفاد، وأرسل هانيبال يطلب المعونة والمدد من قرطاجة . وجاءه المدد بجيش قرطاجي جديد ، بقيادة حانو . لكن هذا الجيش وقائده أصيبا ، في المعارك التي أعقبت نزوله الى الجزيرة ، بهزيمة ساحقة ، فاضطر هانيبال جسكو ، وقد فتك الجوع بجنده ، الى مغادرة المدينة والانسحاب مع ما كان قد بقي من قواته عبر هيليلوس ، تاركاً أكريكنتم تحت رحمة الرومان .

كانت الحرب ، حتى الآن ، سلسلة من الانتصارات لروما ، وما كان من المنتظر لهذا السياق أن يتوقف أو يتغير . وقد أدركت روما بعد وقت انها لا تستطيع الاستيلاء نهائياً على صقلية بكاملها ، وذلك ما ظل الأسطول القرطاجي مسيطراً على البحار . وكان هذا الأسطول يثبت وجوده ، في هاتيك الأثناء ، بتجواله على طول سواحل صقلية وايطاليا ، وبنقله مؤناً وقوات قرطاجية جديدة الى الجزيرة . كانت المسألة ، بالنسبة لروما ، هي كيف يمكن تحدّي هذا الأسطول والتغلب عليه ، أو تعطيل فاعليته ؟ وكان لهذه المسألة حل واحد ولا غيره ، ألا وهو بناء أسطول روماني وايجاد بحارة له ، وما كان ذلك بالأمر السهل لدولة لم تمارس شؤون البحر عسكرياً من قبل .

وكان من حسن طالع روما أن وقع بيدها نموذج لسفينة حربية قرطاجية ، كانت قد ضلت طريقها لتصطدم بالساحل الايطالي وتقع في الأسر . وقد اتخذ الرومان من هذه السفينة أساساً للمحاكاة والتقليد ، وأخذت أحواض السفن الايطالية في تقليدها وانتاج نسخ عنها . أما مسألة ايجاد الجدافين والملاحين فكانت أكثر صعوبة .

المعارك البحرية

لم يلق الجهد الروماني بادىء الأمر ، في ايجاد بحرية رومانية ابتداء من لا شيء ، كل ما كان يرجى من ورائه من نجاح . ففي ربيع عام ٢٦٠ ق م ، وجهت روما الى صقلية أسطولاً من ١٠٠ سفينة . وكان من سوء قيادة هذا الأسطول ، أن انفصل عنه قائده ، القنصل كورنوليوس شيبيو ، مبتعداً مسافة كبيرة على رأس ١٧ سفينة . وبينما كان راسياً مع هذه السفن في ميناء ليباري ، فوجىء بعشرين سفينة قرطاجية ووقع في أسرها مع سفنه . لكن هذه البداية السيئة سريعاً ما تعدلت نوعاً ما ، وذلك عندما قام أمير البحر القرطاجي بالتحرك بكثير من الاهمال وعدم اليقظة ، ليقع متخبطاً داخل الأسطول الروماني بكامله ، فيخسر ٥٠ سفينة قبل أن ينجح في الافلات والنجاة بنفسه وباقي سفنه .

كان الرومان ، قبل التقاء الأسطولين ، قد اخترعوا سلاحاً سرياً . فقد كان يواجه الرومان أمر يتطلب حلاً . لقد كانوا جنوداً محاربين من الدرجة الأولى ، لكن في البر ، وما كان لهم أن يأملوا بأن يكونوا ، على سطح البحر وأمواجه ، أنداداً للبحارة وجنود البحر القرطاجيين ذوي الخبرة الواسعة والتراث البحري العريق . كان الحل بسيطاً . وكان « الكورفوس » ، أو الجسر العبّارة ، الذي جرى تصميمه بقصد تحويل المعركة البحرية الى شيء شبيه ، الى حد ما ، بمعركة برية . كان الكورفوس لوحاً خشبياً بطول ٣٦ قدماً ، وعرض ٤ أقدام ، ينتهي رأسه بخطاف كبير من حديد ، وقد أثبتت قاعدته متحركة حول سارية قائمة في قيدوم السفينة . كان هذا اللوح ، في الأحوال

العادية ، ينتصب عمودياً مربوطاً بالسارية . وكان في القتال ، عند الاقتراب من سفينة معادية ، يلقى به أفقياً بحيث يمسك الخطاف بسفينة الخصم ، مكوناً بذلك عبارة أو جسراً هوائياً بين السفينتين ، فيعبر عليه الجنود الرومان منقضين الى مهاجمة السفينة المعادية وكأنهم في معركة .

اصطدمت الأساطيل ، بعد معركة ليباري ، عند « ميلاي » ، في آب عام ٢٦٠ ق م . كان أمير البحر القرطاجي هو نفسه هانيبال جسكو ، الذي ورد ذكره سابقاً في حصار أكريكنتم . ويظهر أن القرطاجيين لم يكونوا يرون تمييزاً بين قيادة برية وقيادة بحرية . كان الأسطولان متعادلين هذه المرة تقريباً . وكان هانيبال كما يبدو منتفخاً اعجاباً بنفسه ، قليل التقدير والاهتمام بخصمه ، وقد قام بالهجوم متسرعاً قبل أن يقوم بتعبئة أسطوله في وضع مناسب للمعركة . وكانت نتيجة الغرور والتسرع أن راحت سفن الطليعة القرطاجية كلها ، وعددها ٣١ سفينة ، ضحية للكورفوس . وقد رد هانيبال على ذلك بأن جمع بقية سفنه وهاجم السفن الرومانية بعنف ، ونجح فتوغل داخل ترتيب السفن الرومانية . غير أن أمير البحر الروماني ، ديليوس ، كان قد استعد لمثل هذه الحركة من قبل خصمه ، واحتفظ لذلك تحت يده بعمارة قيد الاحتياط . وهكذا فما كاد القرطاجيون يلتحمون مع سفن أعدائهم ، حتى سارع الاحتياط الروماني بدخول الحلبة بدوره على غير انتظار ، ليستعمل الكورفوس ويدمر ١٤ سفينة قرطاجية أخرى . وقد انتهت هذه المعركة بانفكاك هانيبال عن القتال وانسحابه . ومنذ ذلك التاريخ لم يعد بمقدور قرطاجة أن تعتبر نفسها سيدة على البحار ، ولا أن تتصرف على هذا الأساس .

استمرت الحرب متواصلة طوال السنتين التاليتين ، جارية لصالح روما . فالرومان لم يتفوقوا في صقلية فحسب ، حيث حصرت قرطاجة ضمن عدد من الحصون والقلاع على الساحل الغربي للجزيرة ، بل وقاموا أيضاً بغزو جزيرتي كورسيكا وسردينيا ، وبالاغارة على الشاطىء الأفريقي نفسه . ولكن الأحداث مع ذلك لم تكن تجري وكأنها واصلة بالحرب الى نهاية عاجلة . وبناء على ذلك فقد قرر مجلس الشيوخ في روما أن ينقل القتال الى أفريقيا بالذات . لا

يحتمل أن يكون الرومان قد فكروا بالاستيلاء على قرطاجة أو تدميرها في ذلك الوقت المبكر ، لكنهم كانوا يأملون ولا شك في حمل قرطاجة ، بتهديدها مباشرة ، على تنازلات في ممتلكاتها عبر البحار .

حشدت روما ، في صيف عام ٢٥٦ ق م ، أسطولاً كبيراً وجيشاً من ٤٥ ألف مقاتل ، بقيادة القنصلين مانيليوس وريكولوس ، وكانت حملة تعتبر من أكبر الحملات العسكرية في التاريخ القديم . أقلعت هذه الحملة من مسّينا ، وكان الأسطول القرطاجي على علم بها وبهدفها ، وقد اعترضها عند رأس « أكنوموس » .

كان الأسطول الروماني ، المثقل بسفن النقل ، معبئاً على تشكيل مثلث ضخم ، أو اسفين ، وقد التقى بالأسطول القرطاجي بقيادة هاميلكار جسكو ، وكانت معركة انتهت بانتصار كامل للرومان ، الذين أغرقوا ٣٠ سفينة قرطاجية ، وأسروا ٦٤ سفينة ، وذلك مقابل غرق ٢٤ سفينة رومانية .

نزلت القوات الرومانية ، عقب ذلك النصر ، الى البر الأفريقي ، دون أن تواجه بأيّة مقاومة . ولمرة أخرى ، وكما حدث يوم غزو أغاثوكلس ، فقد عملت معاملة القرطاجيين السيئة للسكان المحليين وللمدن الفينيقية المجاورة غير القرطاجية لصالح الغزاة ، فلم يلق هؤلاء مقاومة ، وعاثوا في الريف الغني تخريباً وافساداً كما شاء لهم الهوى . وكانت قرطاجة على علم مسبق بالغزو ، اذ كان القائد حانو قد عاد مسرعاً من هزيمة اكنوموس يحمل أخبار المعركة ، لكن قرطاجة لم تكن لتستطيع شيئاً ، لأنه لم يكن لديها جيش جاهز للوقوف في وجه الرومان . لكن شاء حظ قرطاجة أن يرتكب مجلس شيوخ روما خطأ فادحاً،فيأمر القنصل مانيليوس بالعودة الى ايطاليا مع نصف الجيش ، والقنصل ريكولوس بالاحتفاظ بالنصف الباقي وتمضية الشتاء في أفريقيا . وبهذا لم تمنح قرطاجة الوقت لتجنيد قوات جديدة فحسب ، بل وان الجيش الذي واجهته في الربيع التالي كان مؤلفاً من ٢٠ ألف مقاتل عوضاً عن ٤٠ ألفاً . كما كان القرطاجيون قد أفلحوا أخيراً بالعثور على قائد كفء

لقواتهم ، بشخص الاسباني كزانثيوس. وقد اصطدم الفريقان ، وكان القنصل الروماني ريكولوس قد وضع قواته في تشكل انتحاري تقريباً ، بأن حشرها كلها في كتلة واحدة متضامة في مواجهة الفيلة ، التي كان كزانثيوس قد وضعها في المركز أمام جبهته . لم ينج من الرومان سوى ألفين بالكاد ، وقد هلك هؤلاء بدورهم ، عندما تحطمت السفن التي كانت تقلهم ، بعاصفة عنيفة في عرض البحر .

أما القنصل ريكولوس ، فقد وقع أسيراً واستيق الى قرطاجة . وقد عومل معاملة كريمة ، وعمد مجلس شيوخ قرطاجة فأرسله الى روما يحمل عرضاً بالسلم وانهاء الحرب . ولكن ريكولوس ، بدل أن يكون رسول سلام ، عمل على العكس ، عند وصوله الى روما ، على حث مجلس الشيوخ على متابعة الحرب ، بدعوى أن طلب قرطاجة للصلح كان مرده الضعف وخوار العزيمة . وقد ارتكب هانيبال ، بعد نحو من ٤٠ سنة ، وهو على مقربة من روما ، خطأ مماثلاً ، عندما أرسل يعرض السلام على لسان أسير كان مطلعاً على أحوال جيشه بعد أن أمضى في الأسر مدة ، كما أن عرض السلم من جانب واحد يؤول عادة بمثابة بادرة ضعف ، ودليل على التعب والملل وسوء الحال ! .

وكما كان منتظراً ، فقد رفضت روما عرض قرطاجة بالسلام ، رغم الكارثة الأفريقية ، وتابعت الحرب بمزيد من العزم والاصرار . فقد جندت قوات جديدة ، وبنت أسطولاً جديداً كذلك . وقد استمرت المعارك في صقلية ، من عام ٢٥٤ حتى عام ٢٥١ ق م ، وأسفرت عن انحسار الوجود القرطاجي في هذه الجزيرة ، واقتصاره على مدينتين حصينتين فقط ، هما ليليبائوم(١) ودريبانوم(٢) الساحليتين ، وكانتا كلتاهما تحت الحصار الروماني من ناحية البر .

وفي البحر ، في هذه الأثناء ، أصيب الرومان بهزيمتين بحريتين ،

---

(١) Lilybaeum .

(٢) Drepanum .

الأولى عند مرفأ دريبانوم ، والثانية عندما جاء أسطولهم ينقل المواد والمؤ ن للقوة التي كانت تحاصر ليليبائوم . وقد برز في غضون هذه الأحداث ، لأول مرة ، رأس تلك العائلة الكبيرة ،التي قدر لها أن تلعب دوراً عظيماً في تسيير الأحداث وتقرير مصيرها ، وأن تسيطر على ما كان قد تبقى من عمر ذلك النزاع بين روما وقرطاجة ، ألا وهو هاميلكار برقه .

هاميلكار برقه

قدمت عائلة برقه ، في الأصل من مقاطعة برقه . وكانت في مجتمعها عائلة قوية ، لكن لم تكن في هذا الوقت من عداد العائلات الأولى في قرطاجة . لا يعلم شيء عن الماضي السابق لهاميلكار ، الاّ أنه كان دون شك على قدر كبير من الخبرة في أمور القيادة ، ومتمتعاً بموهبة اكتساب ثقة من يعملون تحت أمرته ومحبتهم ، أعواناً وأتباعاً .

قدم هاميلكار الى صقلية عام ٢٤٧ ق م ، قائداً لأحد الأساطيل ، واستطاع في ظرف مدة قصيرة أن يثبت وجوده ويعلن عن نفسه ، بأن أخذ يعيث في الساحل الايطالي نهباً وتخريباً ، ثم يستولي على الموقع المسيطر على الساحل الصقلي والمدعو اركته[١] ، القائم بين ليليبائوم وبانورموس[٢] جاعلاً منه حصناً منيعاً ومركز انطلاق للغارة والكمين . هذا الموقع هو تلة تعلو حوالي ألف قدم على الساحل ، ولا يمكن الصعود اليها الاّ من جانب واحد ، الجانب المواجه لمدينة بانورموس . وكان المكان ، علاوة على مناعته ، وفير المياه ، وله خليج صغير مستور كانت تأوي اليه وتنطلق منه سفن اغارة قرطاجية خفيفة . وفي هذا المكان ، لمدة ثلاث سنوات ، استطاع هاميلكار برقه أن يتحدى الجهود الرومانية لزحزحته عنه ، عاملاً في ذات الوقت على ارسال الغارات على الأرض الايطالية ، براً وبحراً .

---

(١) جبل بلليكريني اليوم .

(٢) Panormus .

استطالت الحرب ، والجانبان عزوفان عن توظيف الأموال والجهود الكافية سعياً الى نتيجة حاسمة . وفيما يتعلق بهاميلكار ، فانه لم يتلق أي دعم من حكومته في قرطاجة . وأنه لدلالة على مستواه الرفيع كقائد ان استمر مسيطراً على جنوده المرتزقة وقد تراكمت رواتبهم المتأخرة راتباً بعد راتب . وقد اضطره هذا الاهمال والنسيان آخر الأمر ، عام ٢٤٤ق م ، الى التخلي عن موقعه الحصين في اركته ، والانتقال الى موقع آخر ، حصين كذلك ، لكن معزولاً عن البحر ، في جبل اريكس[١] ، حيث كان أقرب الى الحاميات القرطاجية المحاصرة في قلعتي ليليبائوم ودريبانوم الساحليتين .

وبعد سنتين ، بعد أن أدركت روما أن القلاع القرطاجية الساحلية لن تسقط أبداً للحصار ما دام تموينها مؤمناً عن طريق البحر ، قررت عندئذ ولمرة أخرى أن تبني أسطولاً بحرياً جديداً . وقد بذلت في سبيل ذلك جهوداً كبيرة ، ونجحت فبنت ٢٠٠ سفينة . وفي عام ٢٤٢ ق م ، ظهر الأسطول الروماني أمام ليليبائوم ودريبانوم، قاطعاً بالفعل كل امداد وتموين عن هاتين القلعتين وعن هاميلكار . وقد أخذت قرطاجة بالمفاجأة الرومانية كلية . فقد كانت خلال كل ذلك الوقت مهملة ولا همّ لها الاّ البحث عن طرق للتخفيف من نفقات الحرب ، وقد حملها على الشعور بالأمان تخلّي روما عن العمل بحراً في بادىء الأمر، وقامت لذلك فوضعت سفنها على اليابسة، وأطلقت سراح البحارة ، وتركت أساطيلها تروح طعماً للتآكل والبلى بفعل الأنواء والعبث والاهمال . ولذا فلم يكن بامكانها أن تبعث بنجدة الى صقلية الاّ في الربيع التالي ، أي بعد مضي سنة على عودة الأسطول الروماني الى اثبات وجوده على سطح البحار .

نهاية الحرب البونية الأولى

توفرت للأسطول الروماني سنة كاملة للتدريب وممارسة العمل

---

(١) Eryx .

بالفريق ، وللوصول بالبحارة والجدافين الى مستوى عال من المران والاستعداد . أما الأسطول القرطاجي ، من جهته ، فكان مكوناً من سفن تجارية محوّلة ، ضعيف التجهيز ، مسيّراً بمجندين أحداث ، ومثقلاً بالتجهيزات والمؤ ن . وكان حانّو ، أمير البحر القرطاجي ، قد توجه بالأسطول الى جزائر ايغادا[١] ، لغرض الاتصال مع هاميلكار ، وتفريغ حمولة أسطوله من التجهيزات والمؤ ن ، واركاب بعض جنود هاميلكار معه ، وذلك قبل أن يتوجه الى الاشتباك مع العدو .

أما أمير البحر الروماني ، لوتاتيوس كاتولوس ، فقد عمل على أن لا ينجح الأسطول القرطاجي في مهامه ، ونجح في ذلك . فقد تعرض للقرطاجيين قرب أكوزاي[٢] ، ونشبت معركة بين الأسطولين كان التفوق فيها للسفن الرومانية الأخف والأحسن ملاحة وتشغيلاً وقيادة . وكانت نتيجة المعركة غرق ٥٠ سفينة قرطاجية ، وأسر ٧٠ سفينة أخرى ، وتلاشى كل أمل بانجاد هاميلكار .

كانت هذه الهزيمة البحرية ، في الواقع ، نهاية للحرب . فقد كانت قرطاجة وقتئذ عاجزة عن القيام بأي مجهود حربي آخر ، وفي حالة عجز وافلاس بالرجال والمال والسفن . وعليه فقد تقدمت تطلب الصلح مرة أخرى ، لكن من وضع المهزوم هذه المرة . وكان من حسن حظ قرطاجة أن روما ، رغم انتصارها ، لم تكن اقتصادياً أحسن حالة من قرطاجة ، واستطاع هاميلكار برقه ، الذي كان يفاوض مندوباً عن بلاده ، أن ينتزع من روما شروط صلح أفضل مما كان متوقعاً . ولكن الصلح كان في حد ذاته ضربة مؤلمة وعبئاً ثقيلاً على قرطاجة . فقد تخلت عن جميع حقوقها في صقلية ، واعترفت بمطالب هيارو في سراقوسة والمناطق المحيطة بهذه المدينة ، وتعهدت بأن تدفع ٢٢٠٠ طالن[٣] كغرامة حربية في غضون ١٠ سنين . كانت شروط

(١) Aegates .

(٢) Aegusae .

(٣) وحدة وزن قديمة تساوي من ٢٠ الى ٢٧ كيلوغراما . . وكانت كذلك وحدة نقد تساوي وزن الطالن ذهباً أو فضة .

الصلح قاسية ، وبدا وكأن قرطاجة قد تحولت الى دولة من الدرجة الثانية . لكن روما وضعت حساباتها دون أن تحتاط لعبقرية هاميلكار برقه وسعة حيلته .

التعليق

يبدو ، على ضوء ما تقدم ، أنه لم يكن لدى قرطاجة سلاح بحري مستقل ، وأنها ما كانت قوة بحرية بالمعنى العسكري لمفهوم القوة ومرماها ، وإنما كانت بحرية بالمعنى التجاري الصرف . ويبدو كذلك أن مفهوم القرطاجيين للمحاربة البحرية كان مقتصراً على الوقاية من قراصنة البحر ، وعلى حراسة السفن والبضائع من تعديات الأقوام البدائية سكان الممتلكات الواقعة تحت السيطرة القرطاجية . وهذا هو التفسير الوحيد المعقول لقيام دولة برية ناشئة ، روما ، بهزيمة قرطاجة على سطح البحار ، وهي المفروض فيها العراقة في الملاحة وشؤون البحر من مئات السنين .

وأن الانتصارات البحرية ، التي أحرزتها روما ، وهي الدولة البرية التي لم تكن لها مطلقاً معرفة ولا ممارسة سابقة بالملاحة البحرية وصناعة السفن ، والمحاربة بها ، هي ، ان دلت على شيء ، فعلى أن قرطاجة ، مجتمعاً ودولة ، لم تكن أكثر من شركة تجارية محتكرة ، محصورة بأيدي طغمة من العائلات المتنفذة ـ جسكو وحانو الخ ـ يتوارثونها أباً عن جد ، ويديرونها بمنطق القوة ومفهومها .

كانت قرطاجة ، مادياً وجغراسياً ، تتفوق على روما أضعافاً . وقد تكشفت في هذه الحرب ، وهي الدولة والأمبراطورية القائمة منذ قرون ، عن مارد بأرجل من فخار ، وأبانت عن عجز وتقصير وفساد ادارة وقصر نظر وقحط في الزعامة السياسية والقيادة العسكرية الى درجة لم تكن لتخطر على بال انسان . ورغم خسارتها لهذه الحرب ، فقد استمرت على هذه الحال من النواقص والعيوب حتى تدميرها التام ، أي طوال قرن ويزيد ، وهي مدة طويلة

لا يمكن أن تعتبر كلها فترة هرم وشيخوخة ، كما يحلو لبعض من يكتبون التاريخ أن يفسروا ذلك السلوك القرطاجي الغريب المعيب .

لقد بدأت قرطاجة فينيقية ، وظلت فينيقية وانتهت فينيقية . ولم يعرف عن الفينيقيين أنهم كانوا رجال دولة وبناة شعوب . كانوا تجاراً فقط ، وتجاراً قصيري النظر ، يتوخون الربح السريع ، ولا يقبلون بتوظيف المال والجهد بقصد الاستثمار على المدى البعيد . وكانوا عنواناً للفردية والأنانية ، ولذا فإنهم لم يتوحدوا في وطن كبير ، ولا قامت لهم حضارة خارج حدود التبضع والمتاجرة وبعض الصناعات الخفيفة وما يستتبع ذلك من كتابة ومحاسبة .

الفصل الخامس

ثورة المرتزقة وامبراطورية في اسبانيا

ثورة المرتزقة ـ وامبراطورية في اسبانيا ـ خطة هاميلكار ـ العلاقات داخل اسبانيا ، اسد روبال وروما ـ هانيبال السياسي ـ هانيبال القائد ـ الخلاصة والاستنتاج

OOOOOOOOO

ثورة المرتزقة

أجرى هاميلكار ، على مدى سبع سنين ، محاربة بارعة من قلعته الحصينة في جبل اريكس ، في غرب صقلية . بيد أن الهزيمة الساحقة لأسطولها البحري فرض على قرطاجة أن تطلب السلم . كان القرطاجيون ، بسبب نقص في الكفاءة والاخلاص للمسؤولية ، قد أُنهكوا بحرب كلفت أموالاً طائلة وخسائر باهظة بالرجال والممتلكات ، وخلفتهم عزلاً على ظهر البحار . وكان بنتيجة ذلك أن سحبوا هاميلكار برقه ، وعقدوا الصلح مع روما عام ٢٤١ ق م . وكان الرومان على علم باستمرار سيطرة هاميلكار على قسم من داخل صقلية ، لكن لما كانوا هم أيضاً تواقين الى السلم بعد حرب طويلة ، فقد كانوا لذلك على استعداد للسماح للقائد القرطاجي وجيشه بمغادرة الجزيرة مع كامل أسلحته وتجهيزاته .

تخلت قرطاجة لروما عن جزيرة صقلية ، وعن جميع الجزر الواقعة ما بين صقلية وأفريقيا ، بما في ذلك جزيرة مالطة وموانئها الممتازة . وكذلك

تخلت قرطاجة لروما عن جزر ليباري الواقعة شمال صقلية ، والمسيطرة على الطرق التجارية شمال بحر تيرينيان . وتحتم على القرطاجيين ، في نفس الوقت ، أن يدفعوا غرامة كبيرة كتعويض تغطية لنفقات الحرب .

وكان هاميلكار ، وقد توقع أن تعجز قرطاجة عن الوفاء بجميع ديونها المستحقة ، قد حرص على اعادة مرتزقته الى العاصمة بمفارز صغيرة الى حد ما ، بحيث يكون من الممكن دفع رواتبهم المستحقة بأقساط متتالية . الاّ أن الحزب الحاكم في قرطاجة ، صادقاً مع نفسه وجشعه ، أخذ يماطل ويماحك ويساوم مع الجنود ، ويتباطأ في اجراءات الدفع ، الى أن عاد الجيش كله من صقلية . وربما كان هذا الأسلوب مقبولاً في التجارة والسمسرة ، لكنه مهلك في مثل هذه الأمور العسكرية . وكان بنتيجة ذلك أن ثار المرتزقة ، وتبعهم الأرقاء ، وبعض رجال القبائل الأفريقية

اشتعلت الثورة بقيادة اثنين من زعماء المرتزقة ، هما سبانديوس وماتو . وقد استمر مجلس الشيوخ ، حتى أثناء تلك الفترة الحرجة ، على سياسة الأمور بغباء وعدم تحسب للعواقب. فقد عهد بقيادة العمليات ضد الثائرين الى ابن الذوات القائد حانّو ، وكان كما سبق ورأينا قائداً فاشلاً . وكنتيجة لسوء تصرف هذا القائد وفساد تخطيطه وتفكيره ، فقد سارت الأمور من سيء الى أسوأ ، واستمر الحال كذلك الى أن اضطر مجلس الشيوخ ، بدافع اليأس لا المصلحة ، الى استدعاء الرجل الوحيد الذي كان قادراً على معالجة الموقف ، هاميلكار برقه

بدأ هاميلكار بتجنيد ١٠ آلاف من سكان قرطاجة ، وقد ضم هؤلاء الى من كان قد التحق بلوائه من المرتزقة حالما علموا بخبر تعيينه . وقد سار بهذه القوات الى ملاقاة الثائرين ، فهزم سبانديوس ، وفك الحصار عن قرطاجة . ولم تكن الحرب قد انتهت بعد . ومع ذلك فقد سارع مجلس الشيوخ واعتبرها منتهية ، واعتقد أنه صار في أمان ، فبادر واستدعى أثيره القائد الفاشل حانّو ليشارك هاميلكار في قيادته . وما إن شاع هذا الأمر حتى عمدت كل من مدينة

أوتيقه[1] ومدينة حبو زاريتوس[2] الفينيقيتين ، وكانتا قد بقيتا حتى تلك الآونة مواليتين لقرطاجة ، الى العصيان واعلان الثورة ، والتحقتا للحال بالثوار .

واضطر مجلس الشيوخ ، لمرة أخرى ، الى تنحية القائد حانو ، والى الاحتفاظ بهاميلكار على رأس القيادة لمفرده . وبعد حرب قاسية استمرت ثلاث سنين ، ارتكب الطرفان فيها أفظع الأعمال ، استطاع هاميلكار ، عام ٢٣٨ ق م ، أن يطفىء آخر جذوة للثورة . لقد أثبت عن اخلاصه وكفاءته في خدمة بلاده ، في الوطن وما وراء البحار ، وبرهن على أنه كان أعظم جندي قرطاجي في زمانه . وكان ولده هانيبال يصحبه في حروبه ، ويترعرع وضجيج الحرب دائماً في أذنيه ، يرى مآثر والده في صقلية ، ويشهد عن قرب دوره في القضاء على الثورة الكبرى ، ثورة المرتزقة ، متطبعاً هكذا كجندي منذ سنواته الأولى .

ما كادت الثورة تخمد في أفريقيا ، حتى اشتعلت في جزيرة سردينيا ، التي أصيبت بعدوى التمرد والعصيان ، فثارت الحاميات القرطاجية فيها ، وبعثت تعرض تسليم الجزيرة الى روما . وقد جهز التجار الرومان هؤلاء العصاة بالسلاح والطعام . وما أن عاد الأمن والنظام الى أفريقيا ، حتى شرعت قرطاجة في تجهيز حملة لاسترداد الجزيرة . وفجأة ، وفي هـذا الوقت بالذات ، قامت روما بخطوة لم تكن متوقعة . كانت معاهدة السلام قد نصت على تخلّي قرطاجة لروما عن صقلية ، وعن جميع الجزر الواقعة بين صقلية وأفريقيا . ولكن روما تطالب الآن بانسحاب القوات القرطاجية من سردينيا وكورسيكا ، بحجة أنهما تقعان ضمن الجزر المتفق على اخلائها ، وتدعي بأن قرطاجة قد خرقت المعاهدة بارسالها قوات عسكرية الى سردينيا . ولما احتجت قرطاجة ورفضت هذا الادعاء ، بادرت روما فأعلنت حالة الحرب من جديد . كانت قرطاجة في حالة افلاس بالمال والرجال ، وليس باستطاعتها أن

---

(١) Utica .

(٢) Hippo Zarytus .

تخوض الحرب ، لذا اضطرت ، رغم ما كانت تعانيه من احساس بالمذلة والمهانة ، الى التوقيع على معاهدة صلح جديدة ، تخلت لروما بموجبها عن جزيرتي سردينيا وكورسيكا ، وتعهدت بدفع غرامة اضافية قدرها ١٢٠٠ طالن ، وذلك كتعويض عن خرقها للمعاهدة الأولى . وقد استحقت قرطاجة هذا المصير السيء والمعاملة المهينة ، وذلك لتسببها بثورة المرتزقة ظلماً وعدواناً ، ولسوء تصرف الطغمة الحاكمة فيها ، الممثلة أباً عن جد بمجلس الشيوخ ومحاسيبه من أبناء الذوات من أمثال المدعو حانو .

كانت خسارة صقلية وسردينيا كارثة بالنسبة لقرطاجة ؛ فقد كانتا عظيمتي الأهمية استراتيجياً ، لوقوعهما على طرق المواصلات البحرية الغربية ، وكذلك لأنهما كانتا مصدراً هاماً للذهب والأخشاب . كان شرق البحر المتوسط ، منذ زمن طويل ، محرماً الى حد ما على القرطاجيين من قبل اليونانيين . أما الآن ، وبعد خسارة صقلية وسردينيا وكورسيكا ، فان الحوض الغربي لهذا البحر ، الحيوي بالنسبة لمصالح قرطاجة في اسبانيا وما وراءها ، قد أصبح بدوره مهدداً بالاغلاق والحرمان .

هاميلكار وخطته

بعد هذه الأحداث التي تقدم ذكرها ، أخذت الطغمة الحاكمة في قرطاجة تنادي مطالبة بالسلم مهما كان الثمن . كانت هذه الطغمة لا تهتم الاّ بمصالحها التجارية الخاصة ، ومستعدة للتحالف مع العدو الروماني ضد هاميلكار وعائلته وأصدقائه . لقد كان لعائلة برقه وأصدقائها أعداء بين العائلات المتنفذة ، كمثل عائلة الجنرال حانو القائد الفاشل . ولكن كانت هناك كتلة أخرى معارضة لجماعة « السلم مهما كان الثمن » ، وكانت تقف الى جانب هاميلكار ، وترى أن قبول قرطاجة بالهزيمة والاستسلام سيعرضها الى الزوال والفناء . وكان لهاميلكار تأييد في صفوف أبناء الشعب ؛ فهو لم يخرج من الحرب في صقلية برصيد كبير فحسب ، بل انه أنقذ أيضاً مدينة

قرطاجة نفسها من المرتزقة وحلفائهم ، في وقت كانوا فيه يهددون حياة المدينة بالصميم .

كان هاميلكار وبعض أنصاره ، وكان البعض منهم من عائلات متنفذة ، ومن ضمنهم أسد روبال الملقب بالبديع والذي صار فيما بعد زوجاً لابنة هاميلكار ويده اليمنى ، يرون أن قرطاجة ، ما بقيت في قبضة أصحاب نظرية « السلم مهما كان الثمن » ، فانها آيلة حتما الى الزوال كدولة وكأمة . فقد صار واضحاً ، بعد أن وقع الاعتداء على سردينيا وكورسيكا ، أن كلمة روما وعهودها لم تعد موضع احترام وثقة . وكذلك ، وبعد أن صار وسط البحر الأبيض المتوسط واقعاً تحت سيطرة روما ، بالاضافة الى سيطرتها على البحار الأخرى ، فان غزو رومانيا لشمال أفريقيا قد أضحى مسألة ظروف ومناسبات ، وغدا متوقعاً في كل حين ولحظة ، تبعاً لمشيئة روما وتوقيتها .

وقد أدرك هاميلكار أن قرطاجة ، وقد فقدت صقلية وسردينيا والجزر الأخرى ، لم يعد باستطاعتها أن تكون دولة لها شأنها ان لم تكف عن الاهتمام بالحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ، واذا هي لم تتوجه ، عوضاً عن ذلك ، بأنظارها وجهودها غرباً الى السواحل التي هي حالياً الجزائر والمغرب ، وبخاصة الى شبه الجزيرة الايبرية (اسبانيا والبرتغال اليوم) . ففي وسط اسبانيا ، وفي المستوطنات القرطاجية على الساحل الأطلنطي ، كقادش[١] ، حيث لم يكن الرومان ولا اليونانيون قد وصلوا بعد ، فقد كان بوسع القرطاجيين أن يجدوا في هذه المناطق موارد غنية وطاقة بشرية متوفرة ورخيصة ، وأسواقاً وثروات طائلة تكون بديلة عما فقدوه بسوء ادارتهم في شرق البحر الأبيض المتوسط وأواسطه ، وقد يتمكنون مع الزمن ، وبالجد والعمل ، من تحقيق سيطرتهم على شبه الجزيرة وترويضها ، وبالتالي بناء امبراطورية ثانية يكون باستطاعتها تحدي روما ووضع حد لتوسعها واعتداءاتها .

---

(١) وتلفظ أيضاً « قادس » .

جعل هاميلكار من هذا التصور هدفاً له وغاية . وقد نجح وأصدقاؤه في حمل مجلس الشيوخ على توليته قيادة جيش ، وتكليفه باخضاع مناطق القبائل على طول ساحل أفريقيا الشمالية . وقد وافق هذا المجلس على ذلك الطلب ، لا اقتناعاً بفكرة صحيحة واستجابة لمصلحة قومية عليا ، وانما لابعاد هاميلكار وأنصاره الأقربين عن مسرح الأحداث في قرطاجة . وكان القرار مرض للطرفين : لمجلس الشيوخ بابتعاد هاميلكار عن قرطاجة ، ولهاميلكار الذي كان يهدف الى بناء قرطاجة جديدة ، وعالم جديد ، واستخدامهما فيما بعد لاصلاح أوضاع قرطاجة وتقويمها .

غادر هاميلكار قرطاجة على رأس جيش صغير ، متحركاً على طول الساحل ، تواكبه بحراً بعض السفن التجارية لنقل مستودعاته وتجهيزاته . وقد استمر يسير على ذلك الطريق الى أن بلغ جبل طارق ، الذي كان يعرف وقتئذ باسم « أعمدة هرقل » ، ولم يعرف أنه اشتبك في معارك ذات شأن أثناء ذلك المسير . لم يرافق هاميلكار بسفن مقاتلة ، اذ لم يكن متبقياً لدى قرطاجة سفن من هذا النوع ، فالحرب الأخيرة وسوء الادارة قد عملا على تدمير البحرية القرطاجية بصورة تامة .

ترك هاميلكار ، في بيت العائلة في قرطاجة ، زوجته وبناته وولديه الأصغرين أسد روبال وماكو . أما ولده البكر ، هانيبال ، وعمره يومئذ ٩ سنوات ، فقد رافق والده في رحلته الى الأرض الجديدة . وقد شرح هانيبال ، بعد سنين من ذلك التاريخ ، وكان يعيش منفياً في بلاط الملك السوري أنطيوخوس الكبير ، الظروف التي حملته على مرافقة والده وهو في مثل تلك السن المبكرة . قال :

« عندما كان عمري تسع سنوات ، اصطحبني أبي معه الى معبد ملكارت ، مع الضباط والأعوان الذين كانوا سيرافقونه الى اسبانيا ، وذلك لأداء القسم قبل الرحيل ، كما كانت العادة في اعطاء هذا القسم أمام إلّه المدينة إلّه صور ، الإلّه الذي نذر هاميلكار نفسه اليه». وتابع هانيبال يقول:

«أخذني أبي من يدي ، وقادني حتى الهيكل ، حتى الضحية التي كانت قد قدمت قرباناً للإِلّه . وهنا أخذ بيدي الأخرى ووضعها على الضحية ، وطلب مني أن أقسم بأن لا أكون أبداً صديقاً لروما ، وقد فعلت ، وحافظت دوماً على قسمي» . وتلك هي قصة القسم الذي سيتخذ منه بعض المؤرخين حجة على أن هانيبال هو الذي تسبب في اشعال الحرب البونية الثانية عن سبق عمد وتصميم . وهي حجة مقبولة في نظري ، وأعتقد أن أساسها صحيح . لقد كانت خسارة صقلية وسردينيا بمثابة جرح دام مزمن في نفس هاميلكار الأبية . وكان يقول أنهم اضطروا الى تسليم صقلية بتأثير يأس سابق لأوانه ، وأن الرومان قد استولوا على جزيرة سردينيا ، وأنهم لم يكتفوا بذلك بل ذهبوا حتى فرض غرامة على القرطاجيين الغارقين في مشاكلهم الأفريقية يومذاك .

امبراطورية جديدة

في صيف عام **٢٣٦** ق م ، عبر هاميلكار بقواته من أفريقيا الى أوروبا . وقد عرف الفينيقيون مدينة قادش ، منذ مئات السنين ، كمستودع تجاري وميناء رئيسي على طريق التنك والقصدير . وقد انطلقت المدينة ابتداء من جزيرة صغيرة ، مفصولة بذراع ضيق من البحر عن البر الرئيسي ، تماماً كما كانت صور قبل أن يدمرها الاسكندر الكبير . وكان البحارة الفينيقيون قد وصلوا اليها قادمين من أفريقيا .

وكان وضع هاميلكار ومن رافقه من القرطاجيين يختلف الآن عن وضع أسلافهم . لقد جاؤوا للاستيطان وليس لمجرد التجارة . كانت شبه الجزيرة الايبرية ، أو اسبانيا الكبرى ، مقسمة في ذلك الوقت الى ثلاثة أقسام . كان القسم الأول يتألف من المناطق الممتدة على طول السواحل الجنوبية والشرقية ، وكانت مناطق عامرة وتحتوي على عدد كبير من المدن ، وكان سكانها خليطاً من الفينيقيين واليونانيين والاسبان . وكان القسم الثاني يتكون من أواسط اسبانيا ، حيث كان الغاليون الأوائل قد امتزجوا مع السكان المحليين ليشكلوا مجتمعاً قبلياً من الفرسان والمحاربين الأشداء ، مجتمعاً

مزاجياً عاطفياً يثور لأقل بادرة ، متنقلاً بين النقيضين ، الصداقة والعداوة بسرعة ، ما بين اللحظة والأخرى . وكانت من أهم قبائله قبائل توردتاني[1] ، وتتحكم في المنطقة الواقعة بين كوادیانا[2] ، والوادي الكبير ، وقبائل قربتاني[3] ، في وسط اسبانيا ، حول مدينة توليدو اليوم ، وقبائل فكائي[4] ، وكانت تقيم حول منابع نهر دورو (دوريوس) . أما القسم الثالث والأخير فكانت تسكنه أحدث الهجرات الغالية ، التي لم تكن قد امتزجت بعد ببقية السكان ، وأهم قبائله كانت السيديتاني[5] ، والسوسيتاني[6] والأوزيتاني[7] على طول الساحل ، والسلتيبرس[8] والأليركيتس[9] الى أعلى في الشمال .

كانت قادش ، حتى ذلك التاريخ ، المركز الرئيسي لقرطاجة في اسبانيا، وتقع على مصب الوادي الكبير، وسط أرياف خصبة مزدهرة ، وعلى مقربة منها ، عند منابع النهر ، تقوم الجبال الفضية[10] الغنية بمناجم الذهب والفضة . وقد توقف هاميلكار مدة قصيرة من الزمن في قادش ، ثم غادرها صاعداً على ضفاف النهر ليستولي على حصن كاستولو ويجعل منه مقراً له . ومن ثم أخذ ، ابتداء من هذا المقر ، باحتلال الهضبة الوسطى ، عاملاً على اخضاع القبائل لسلطته بقوة السلاح في معظم الأحيان .

عمل هاميلكار بجد ودأب ، على مدى تسع سنين ، على اكمال الاحتلال القرطاجي لوسط اسبانيا . لقد استعمل التفوق بالسلاح ، والعسكرية النظامية كواسطة لتحقيق امبراطورية استيطانية . كانت الرهائن تؤخذ كضمان للولاء ، والاتاوات تفرض على القبائل المقهورة ، والملوك تصلب لاخلالها بالعهود أو عبثها بالأمن والنظام . كانت أساليب هاميلكار القاسية ربما صالحة للعمل على المدى البعيد ، لكنها ما كانت لتجعل قرطاجة ، للحاضر وعلى المدى القريب ، عزيزة على قلوب القبائل ، حتى ولو غرست في النفوس جنوحاً الى الأمن والسلام تخوفاً من صرامة القصاص .

---

(١) Turdetani .
(٢) Guadiana .
(٣) Carpetani .
(٤) Vaccaei .
(٥) Sedetani .
(٦) Seussetani .
(٧) Ausetani .
(٨) Celtiberes .
(٩) Ilergetes .
(١٠) Sierra Morena .

وكان من نتائج هذه السياسة أن اغتيل هاميلكار عام ٢٢٨ ق م . لا يعرف بالضبط كيف وقع الاغتيال ، لكن المعروف أن هاميلكار راح ضحية لمكيدة . فقد خدع بقبول دعوة الى اجتماع مع بعض رؤساء القبائل ، ليقع وهو في الطريق في كمين ويقتل . وقد اجتمع ضباطه فور مصرعه ، وانتخبوا صهره أسد روبال ، الملقب بالبديع ، خلفاً له في القيادة .

كان أسد روبال البديع يعتمد على الدبلوماسية أكثر من اعتماده على قوة السلاح . وقد نجح في بسط السلطة القرطاجية وتوسيع دائرة نفوذها ، بأن أقام علاقات ود وصداقة مع الأمراء المحليين ، وباستمالة القبائل المعادية بطريق التعارف والودّ لا المحاربة . وبالتدريج ، وبهذا النوع من السياسة الحاذقة ، انتشر النفوذ القرطاجي عبر شمال اسبانيا ، من قادش حتى البحر الأبيض المتوسط ، وشمالاً حتى نهر ابرو . وقد ازدهرت اسبانيا في عهده ، وعم فيها الرخاء والاستقرار . وقد أسس قرطاجة الجديدة على البحر الأبيض المتوسط ، قرطاجنة الحالية ، واتخذها مقراً لقيادته . كان اختيار المكان موفقاً ؛ فهو مرفأ طبيعي ممتاز ، يذكر بالقواعد القرطاجية الجيدة التي فقدتها قرطاجة في أواسط البحر الأبيض المتوسط ، وتتوفر فيه قاعدة للسفن التجارية والحربية على السواء ، وتحيط به الأراضي المشجرة . وكانت المنطقة غنية بالمعادن والغلات الزراعية ، وبالأشجار الحرشية التي تجعل من صناعة السفن مشروعاً طبيعياً وعملاً مربحاً ، كما كان الحال سابقاً في صقلية وسردينيا .

العلاقات الداخلية

لننظر الآن في علاقات القرطاجيين مع رعاياهم من الاسبانيين ، ومع الأقوام المختلطة الأخرى في شبه الجزيرة . انها علاقات تستحق الدرس والاهتمام . كانت نموذجاً لنوع من التعامل قلده الأوروبيون بعد عدة قرون ، عندما انتشروا عبر العالم مسلحين بالثورة الصناعية ، في الملاحة والمكننة والمعادن وأسلحة القتال خاصة .

وكذلك كان حال القرطاجيين في ممتلكاتهم في أفريقيا وعبر البحار .

كان لهم أول كل شيء تفوق في تقنية صناعة المعادن ، وبالتالي تفوق في صناعة الأسلحة . وكانوا ثانياً قد جاؤوا متمتعين بخيرات الأبجدية التي اخترعها آباؤهم ، وورثة لعدة قرون من التجارب في العسكرية النظامية وما ينجم عنها من ضبط وربط في القتال . كان المحليون ، في جنوب اسبانيا ، وهم جزئياً من أصل بربيري أفريقي ، شجعاناً لكن عاجزين عن الصمود في وجه الخيالة والمشاة والقوى العسكرية الأخرى التي جاء بها القرطاجيون ضدهم .

كان القرطاجيون يؤلفون طبقة الضباط ورجال الادارة وأصحاب التجارة ، وكانوا يختلفون عن رجالهم بالثقافة ، والتربية والخلفية ، ويدركون انهم لا يستطيعون لوحدهم تقديم الطاقة البشرية اللازمة للمحاربة على نطاق كبير . وكانوا ، من ناحية الدين ، ورثة لمجموعة من الآلهة الوثنية التي تناقلوها عن أسلافهم الكنعانيين ، والتي كانوا يقدمون لها القرابين البشرية . كان هناك عدد من النبلاء ، من أمثال هاميلكار وولده هانيبال وبعض القادة الآخرين ، ممن كانوا قد تأثروا بالثقافة اليونانية . وكان هانيبال قد درس اليونانية على مؤدب يوناني ، وكان في وقت متأخر ، أثناء حروبه ، يستعمل كاتبين يونانيين في هيئة أركان حربه .

ويبدو ان الحضارة القرطاجية كانت مادية صرف ، واسطة فقط الى المتاجرة وتحقيق الربح ، ولم تكن لتهتم كثيراً بالعقل والنفس والقيم الانسانية . ومع ان قرطاجة قد عاصرت الحضارة الاغريقية ، لكن لم يعرف عن مواطنيها انهم انتجوا شيئاً في مجال العلوم العقلية والنفسية ، كما فعل الاغريق .

وان تراجع القرطاجيين ، الذي لم يتوقف ، أمام الزحف الاغريقي الاستيطاني والتجاري ، وتخليهم لليونانيين عن مناطق الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ، وكذلك هزائمهم المتتابعة المتواصلة أمام روما ، على مدى قرنين من الزمن تقريباً ، كل ذلك لمما يحمل على الاعتقاد بأن قرطاجة ،

مجتمعاً ودولة وامبراطورية ، لم ترتفع قط عن مستوى شركة تعاونية محدودة ، ولم تفكر يوماً في بناء وطن كبير ونشر حضارة وحمل رسالة انسانية متقصدة .

أسد روبال وروما

حكم أسد روبال ٨أعوام . وقد ازدهرت اسبانيا القرطاجية في عهده ، وخاصة مدينة قرطاجة الجديدة ، التي سريعاً ما غدت مركزاً تجارياً هاماً . وقد أثار ازدهار المدينة الجديدة اهتمام مدينة مسيليا (مرسيليا الفرنسية حالياً) ، وغيرتها وتخوفها على مستقبلها التجاري من منافسة كانت ولا بد قادمة ، فعمدت لذلك بالشكوى الى روما ، وكانت لها صديقة وحليفة .

قبل مجلس شيوخ روما شكوى مسيليا ، وأمر بإرسال سفارة الى اسبانيا ، للطلب الى أسد روبال ان يتوقف بنشاطه وتوسعه عند بعض حدود عينت له . وقد استقبل أسد روبال سفارة روما بحفاوة ، ووافقها على ان لا يتجاوز بجيشه حدود النهر . لكن أيّ نهر ؟ يقول بعض المؤرخين انه نهر ايبر (ابرو الحالي) ، وهذا شيء منطقي ، اذ كان هذا النهر حداً طبيعياً ، وكان القرطاجيون لم يبلغوه من جنوبهم بعد ، ولمسيليا الى شماله عدد من المراكز التجارية . لكن روما ادعت فيما بعد ان هانيبال قد أخل بالاتفاق المعقود بينها وبين أسد روبال ، بعبوره مع جنده لنهر ساكونتم ، الواقع سبعين كيلومتراً الى الجنوب من نهر ابرو . فهل كانت دعوى روما صحيحة ؟ وهل كان الحد المتفق عليه هو نهر ابرو ام نهر ساكونتم ؟ هذا التساؤل هو على كل حال شكلي لا أكثر ، فالاصطدام مجدداً بين الدولتين كان واقعاً لا محالة ، وكانت مسألة عبور النهر مجرد ذريعة ، وكان اعلاماً بمدى ما كانت روما على استعداد للذهاب اليه تحقيقاً لأطماعها التوسعية ! . كانت قد بدأت ترى في قرطاجة الجديدة شيئاً بمثابة خنجر مسنن موجه شرقاً صوب ساحل ايطاليا ! .

لقد انتُقد أسد روبال البديع لاتفاقه مع روما ، ونزوله عند شروطها . ولكن هل كان باستطاعته ان يرفض ؟ ! . فوضع قرطاجة في الداخل

والخارج ، وفي اسبانيا بالذات ، كان لا يزال هشّاً ضعيفاً ، وما كان باستطاعتها حينذاك قط ان تدخل في نزاع جديد مسلح مع روما . ولو ان أسد روبال رفض النزول عند مطالب الرومانيين لكانوا اتخذوا من ذلك حجة لاعلان الحرب ، ولكانت قرطاجة قد تعرضت الى مهانة جديدة ، وربما الى الانسحاب كلياً من اسبانيا . ان أسد روبال ، باعطائه ذلك التعهد ، قد ربح لنفسه مزيداً من الوقت لترسيخ وجود بلاده في غرب اسبانيا وأواسطها ، وتجنب كذلك حرباً لم يكن بالامكان ربحها . ولربما كان يخطط ويعمل ليوم يقوم فيه ، هو او من يخلفه ، بتلقين روما درساً يكون من ورائه تعويض عما لحق ببلاده على يديها من الهزائم والمذلات . وسنرى فيما بعد ان هانيبال لم يكن على مستوى صهره ، من حيث التأني والصبر والقرارات الحكيمة .

عاش أسد روبال ، بعد توقيعه على ذلك الاتفاق ، خمس سنوات متابعاً سياسته الحكيمة في اكتساب القبائل وربطها في تحالفات ، عاملاً بصورة تدريجية ذكية على نشر نفوذ قرطاجة وسلطتها داخل اسبانيا . وقد أقامت هذه الأعوام من التوغل السلمي قاعدة قوية في الظاهر ، لكن قاعدة مزاجية ، بطبيعة متقلبة ، وعقلية قبلية انتهازية ، بحيث ان القوة الحقيقية لقرطاجة في اسبانيا لم تكن أكثر من واجهة سطحية براقة خادعة ، يتوقف تأثيرها ونفعها على النفوذ الشخصي والدبلوماسية الحاذقة . وقد قدر لهانيبال ، فيما بعد ، ان ينخدع بهذه الواجهة ، فيدفع من جراء ذلك ثمناً باهظاً ، ويؤدي ببلاده إلى العدم والانقراض . كانت اسبانيا القرطاجية مستعمرة ولا شيء سوى ذلك ، ولا شيء يدل على ان القرطاجيين كانوا يعملون لأن يجعلوا منها أكثر من مزرعة للاستغلال وتسخير الطاقة البشرية الرخيصة ، كما كان ذلك دأبهم مع ممتلكاتهم خلال كل أدوار تاريخهم الطويل .

اغتيل أسد روبال ، عام ٢٢٠ق م ، من قبل أتباع أحد زعماء القبائل ، وكان قد حكم على ذلك الزعيم بالاعدام . وعلى الفور اجتمع الضباط القرطاجيون في مجلس عام ، وانتخبوا هانيبال بن هاميلكار برقه خلفاً لزوج اخته في القيادة العامة . وقد رفضت قرطاجة الموافقة على هذا الاختيار في

بادىء الأمر ، لكنها اضطرت في النهاية الى القبول به ولو على مضض ، وذلك نظراً لتمسك الضباط بقرارهم ورفضهم لأيّ حلّ سواه .

هانيبال

ولد هانيبال عام ٢٤٧ق م ، اي ست سنوات قبل انتهاء الحرب البونية الأولى . وكان الابن البكر لهاميلكار برقه كما أسلفنا . وبرقه اسم لعائلة بارزة من عائلات قرطاجة ، وتعني الصاعقة بالفينيقية ، وتعود بنسبها الى الملكة اليسا (ديدو) المؤسسة الأسطورية للمدينة الكبرى في أفريقيا الشمالية . وهناك قول بأن هانيبال قد ولد في جزيرة مالطة ، وكانت مستعمرة قرطاجية في ذلك الوقت ، لكن الأرجح انه ولد في قرطاجة نفسها . وكان لأبيه قصر أنيق بين القصور البيضاء المنتظمة على أكمة بيرسا ، في المدينة الكبيرة . كان القصر يطل على مياه خليج تونس العميقة ، ويشرف على مياه المتوسط المتموجة ، أبعد الى الشمال .

عاش هانيبال سنوات طفولته في قرطاجة . أما سنوات الصبا واليفاعة والشباب والكهولة فقد قضاها بعيداً في ايطاليا واسبانيا . وقد كتب عليه ان يرى قرطاجة مرة أخرى ، لكن في ظروف تعيسة وأوضاع مؤلمة . وكان يومئذ قد خسر قضيته ، وباء بالفشل ، ومهد الطريق لتدمير بلده وزوالها من دنيا الوجود . كانت قرطاجة هي دافعه الى قيادة جيوشها ضد روما ، والى عبور جبال الألب ونقل الحرب الى ربوع ايطاليا ، لمدة ١٦عاماً ، هذه الحرب التي يصفها مؤرخو الرومان بأنها أشد حروب التاريخ رسوخاً في الذاكرة .

مارس هانيبال مهنة السلاح منذ صغره ، واطلع على تاريخ المحاربة لدى الاغريق والرومان . كان سنة ٢٦عاماً عندما انتخب للقيادة في اسبانيا ، وكان قبلئذ يمارس قيادة ميدانية منذ ثلاثة أعوام . كان قد أمضى كل صباه وشبابه في اسبانيا تقريباً ، وترعرع على حب هذه البلاد وأهلها ، وكان يعرف هؤلاء خيراً من معرفته لمواطنيه في قرطاجة . كان يلبس لباس الاسبان المريح المتين ، ولا شيء يميزه عن الآخرين سوى رجولته البارزة وشبابه الفياض ،

وكذلك جودة أسلحته وحلة جواده الفخمة . وقد تزوج الأميرة اميلكا ، وكانت ابنة لأحد شيوخ القبائل الاسبانية ، وربما كان ذلك الزواج زواج حب ، او زواجاً بدافع سياسي ، او كان الاثنين معاً .

كان هانيبال شخصية محبوبة ، يبتسم للنكتة الحلوة المؤدبة ، وينجح في استخراج الأحسن من لدن الآخرين . وكان قوي الجسم متين العضل ، صبوراً على الحر والبرد ، جريئاً مقداماً ، وخيالاً ماهراً ، معتدلاً في الطعام والشراب ، قليل النوم . وقد اعترف خصومه الرومان بأنه كان موهوباً حاذقاً مدبراً ، ومقاتلاً ممتازاً وخصماً شريفاً ، يشارك جنوده المشاق والأخطار والحرمان ، ولا يتباخل عليهم في طعام او شراب او تسلية . اما عن بنيته البدنية ومظهره الخارجي فلا شيء يعرف عنهما غير ما توحي به التماثيل وقطع النقود القديمة . يوجد له اليوم تمثال نصفي في كوبنهاكن عاصمة الدانمرك ، وتمثال نصفي آخر في مدريد ، العاصمة الاسبانية ، وقد اكتشف له عام ١٩٤٤ تمثال نصفي آخر من البرونز . ويستدل من هذه التماثيل ، ومن قطع النقود ان هانيبال كان شاباً حليقاً ، برأس مستدير ، عريض الجبهة نافرها ، بارز الحاجبين ، طويل الأنف معكوفه وينتهي بمنخرين كبيرين ، وله فم صغير بزوايا ذاهبة إلى أسفل ، وشفتين مليئتين ، الشفة السفلى مائلة قليلاً الى الداخل ، بالاضافة الى ذقن قوي . وكل هذه السمات ميزات أفـريقية اغريقية ، تدل على وراثة فينيقية أفريقية مع مزيج يوناني .

هانيبال القائد

أخذ هانيبال ، فور استلامه للقيادة ، يواصل ما بدأه أبوه هاميلكار وصهره أسد روبال . كان الأول يعمل بقوة السلاح ، والثاني بوسائل الدبلوماسية . اما هانيبال فقد استعمل مزيجاً من الأسلوبين معاً ، السلاح والدبلوماسية ، يهزم القبائل في ميدان القتال عند الحاجة ، ويوطد مكتسباته بدبلوماسية حاذقة . بدأ عملياته باخضاع قبائل الألكادس[١] بصورة تامة . وفي الربيع التالي توغل

(١) Olkades .

داخل البلاد ، عبر سييرا كواداراما[1] ، عاقداً محالفات وصداقات ، ومجنداً متطوعين ، وهكذا الى ان وصل الى اقليم الفكائي[2] . وقد قوبل هنا بمقاومة ضارية ، واضطر الى اقتحام مدينتي الاقليم الرئيسيتين ، هرمنديكا وأربوكالا بالقوة . ورغم ذلك فقد استمر الفكائيون على المقاومة ، ونجحوا فأثاروا قبائل الكاربتاني الى جانبهم ، وكانت هذه على سلم شكلي مع هانيبال . جمعت هذه القبائل قواها ، وهاجمت هانيبال ، بحشود تفوقه عدداً ، عبر نهر تاكوس[3] . وقد قابل هانيبال هذا الهجوم بالتراجع ، متظاهراً بالضعف ، فانخدعت القبائل بتكتيكه ، واندفع محاربوها على أعقابه عبر النهر ، ملقين بأنفسهم في مياهه الهائجة ، بفوضى تامة . وكان هانيبال قد ركز مشاته الثقيلة على الضفة الثانية ، بانتظار ذلك الهجوم الذي كان يتوقعه ، تساند هذه المشاة قوة من ٤٠ فيلاً ، ثم دفع بخيالته الثقيلة الى الماء ، على أجنحة القبائل ، تمعن فيها طعناً وتقتيلاً . ولما أخذت القبائل في التراجع متقهقرة ، عبرت المشاة القرطاجية والأفيال النهر بدورها ، بترتيب ونظام ، لتشارك الى جانب الخيالة في القتال حتى الانتصار التام . وبعد أيام من تاريخ تلك الموقعة ، تقدم الكربتاني بطلب الصلح ، فأجابهم هانيبال سريعاً الى ما طلبوا ، منقلباً للحال من محارب الى دبلوماسي ، واكتفى بفرض غرامة شكلية رمزية ، وبمؤونة لجيشه ، وضمّ عدداً من المتطوعين الى صفوف هذا الجيش .

وصل السلطان القرطاجي في اسبانيا، بذلك الانتصار، الى أوجه، ودخلت جميع المناطق الواقعة جنوب نهري ألدورو وابرو، تحت نوع من الاشراف والسيطرة . ومع ان السواحل هي فقط التي كانت تعتبر بمثابة مراكز قرطاجية متينة ، فإن القبائل قد غدت تعترف لقرطاجة بنوع من التبعية ، فتدفع الضرائب ، وتبعث بشبابها الى الخدمة العسكرية . ولكن عند النظر الى الموضوع بصورة اجمالية ، فإن هذا البناء الزاهي الفخم لآل برقه في اسبانيا ، ما كان في الواقع

---

(١) Sierra Guadarrama .
(٢) Vaccaei .
(٣) Tagus .

قائماً إلّا على أساسات مزعزعة ،مثبتة الى بعضها بعضاً بشخصية هانيبال الساحرة ، وما كان صالحاً كقاعدة لمخططات عريضة وحرب طويلة مع دولة روما الفتية القوية .

الخلاصة والاستنتاج

يتضح مما تقدم ان قرطاجة لم تتعظ ولم تعتبر بما منيت به من الهزائم والكوارث والتراجعات المتواصلة المهينة ، في وجه اليونانيين اولاً ، ومن ثم في وجه الرومان ، وبقيت تداوم على سياسة أمورها بنظام حكم فاسد ، وتعهد بقياداتها ومقاديرها الى من لا كفاءة لهم ولا جدارة ، اللهم الاّ بناء على صلات النسب والقربى . وفي نزوح هاميلكار وصحبه الى اسبانيا ، ويأسه من امكان اصلاح الأوضاع في المدينة الأم ، دليل واعتراف بأنه كان لا أمل يرجى من قرطاجة ، ولا اعتماد عليها في توخّي جلائل الأعمال .

ولا نرى ، في اسبانيا القرطاجية ، بناء قوياً وقاعدة مستقرة مضمونة . وقد نجح هاميلكار وأسد روبال في نشر النفوذ القرطاجي وتقوية سلطانه ، لكن ليس الى الحد الذي يكفي لقيام الاستقرار وتعميمه على قواعد متينة وأسس ثابتة . وقد وُلّي هانيبال أمر المنطقة بعد صهره ، وأخطأ فاعتقد ، بعد سنتين من هذه الولاية ، ان اسبانيا صارت دياراً مضمونة ، وان بوسعه ان يعتبرها كقاعدة أساسية لحملته التي كان يعدها ضد روما .

وكما كان الحكم والسلطان في قرطاجة محصوراً بأيدي بعض العائلات ، فإنه كان كذلك في اسبانيا ، محصوراً في عائلة هاميلكار برقه وأنسبائها ، كما لو كان الأمر نظاماً وراثياً ! .

الفصل السادس

الحرب البونية الثانية ٢١٨/ ٢٠٢ق.م
والحرب البونية الثالثة ١٤٦/ ١٤٣ق.م

توتر العلاقات بسبب ساكونتوم ـ اشتعال الحرب
قرار هانيبال بمهاجمة روما في عقر دارها ـ هذا القرار بين محبذ ومعارض
الطريق الى ايطاليا ـ الحركة ـ الاستعدادات الرومانية للحرب
المعارك أثناء الطريق بين هانيبال والقبائل في غاليا وجبال الألب

OOOOOOOOO

سفارة رومانية أخرى

عندما رجع هانيبال الى مقره في قرطاجة الجديدة ، في شتاء عام ٢٢٠ ـ ٢١٩ ق م ، وجد بانتظاره سفارة من روما . حملت هذه السفارة لهانيبال ، من مجلس الشيوخ في روما ، رسالة تطلب منه ان لا يتدخل في شؤون ساكونتوم[١] ، وكانت مدينة صغيرة على الساحل الشرقي ، بين نهري أوكار وابرو ، وقد سبق لها ان وضعت نفسها تحت حماية روما . وكانت هذه الحماية هي الأساس الذي استند عليه المؤرخون الرومانيون في محاولتهم تحميل هانيبال لمسؤولية الحرب التي نجمت عن ذلك .

وكانت العادة ، في كل مدينة من أصل يوناني ، كما كان حال ساكونتوم ، ان يكون السكان مختلفين فيما بينهم . في ساكونتوم ، كان

(١) Saguntum .

الحزب الميال الى روما قد تغلب على جميع معارضيه وأبادهم . وكان هذا الحزب ايضاً في نزاع مع القبائل المحيطة ، وهي قبائل كانت تدين بالولاء لقرطاجة . وكان هانيبال يعتبر مدينة ساكونتوم داخلة في دائرة نفوذه ، وقد صرح بذلك لأعضاء سفارة مجلس شيوخ روما ، وأفهمهم بوضوح ان سياسة قرطاجة كانت ، على زعمه ، ان تمد دائماً يد العون والمساعدة الى الشعوب المضطهدة ، وقد عني بذلك القبائل المقيمة حول ساكونتوم ، والتي كانت على خصومة مع هذه المدينة . ولكن نظراً لما دأبت عليه قرطاجة من معاملة سيئة للقبائل الأفريقية وللمدن الفينيقية على ساحل أفريقيا الشمالي ، فإن ذلك الزعم من هانيبال ، حول عون قرطاجة للشعوب المضطهدة ، لم يكن الّا نوعاً من اللغو الدبلوماسي . وقد تابع هانيبال حديثه مع أعضاء السفارة ، فقال لهم انه لا سلطة لديه تخوله البت في هذا الموضوع بالذات ، وان على السفارة ان تبحثه مع الحكومة المركزية في قرطاجة .

وبالفعل ذهب الوفد الروماني إلى أفريقيا ليطلب من قرطاجة قراراً بالموضوع . وقد انقسم القرطاجيون ، في هذا الصدد ، الى فريقين ، فريق يتزعمه آل حانّو ، ويطالب بالتفاهم مع روما مهما يكن الثمن ، وفريق آل برقه المتشدد في موقفه ، والذي نجح بحمل قرطاجة على تفويض هانيبال بأمر البت في القضية تبعاً لتقديره واجتهاده . وهكذا عادت الكرة الى ملعب هانيبال مرة أخرى . وكان من الواضح انه اذا لم يستجب لمطالب روما ، وهاجم ساكونتوم ، فالحرب لا بد واقعة بين الدولتين . وكان العقل والحكمة يفرضان الاستجابة الى مطالب روما ولو على مضض ، بقصد اكتساب الوقت ، بانتظار تدعيم السلطة القرطاجية في جنوب اسبانيا ووسطها ، وتحويل هذه البلاد الى قاعدة قوية فعلاً ، وأكثر استقراراً وولاء .

لكن هانيبال لم يعمل بهذا الرأي ؛ لقد رفض مطالب السفارة ورد الوفد خائباً ، فأجاب هذا وأعلمه حالئذ ان حالة الحرب صارت بنتيجة موقفه قائمة بين البلدين . يقول بعض المؤرخين ان هانيبال قد انساق بحماس الشباب واندفاعه ، وكذلك بتأثير العهد الذي قطعه على نفسه ، أمام والده ، لسبعة

عشر عاماً خلت . ويقول آخرون ، انه مع الأخذ بهذه العوامل بعين الاعتبار ، فإن هانيبال ربما كان يخشى انه إذا هو سمح لروما بالتدخل جنوب نهر الابرو ، فإن ذلك كان سيفتح الباب امام كل مدينة صغيرة ، او رئيس عشيرة ، داخل الأراضي القرطاجية ، للتوجه مستقبلاً الى روما وطلب حمايتها . وعلى افتراض ان روما لم تكن تنوي معارضة السياسة القرطاجية في اسبانيا في ذلك الوقت ، فإن تدخلها في المستقبل كان متوقعاً بل وشبه مؤكد . ولو عمد هانيبال الى المسايرة اكتساباً للوقت ، فإنه كان سيخسر ولا بد شيئاً من هيبته وسمعته لدى القبائل الاسبانية ، بل ربما كان ذلك مشجعاً لهذه القبائل على التحول بولائها الى الجانب الروماني عندما يتراءى لها انه الأقوى . كان الأمر ، بالنسبة لهانيبال ، اختياراً بين نقيضين ، فاما الحرب واما الرضوخ والاستسلام . اما الأمر بالنسبة الى التعقل والحصافة السياسية والتبصر بالعواقب ، فكان اختياراً واحداً لا غير ، وهو مهادنة روما وتجنب الحرب بأي ثمن . لكن هانيبال كان شاباً يكره روما ويحقد عليها ، ولم يكن قد عركته الأيام والتجارب بعد ، ولم يكن على مقربة منه من يستطيع التأثير عليه بنصح وارشاد ، ولذا تهور واختار الحرب .

في ربيع عام ٢١٩ق م ، زحف هانيبال على ساكونتوم ، وكان ذلك خطوة قادت الى زوال قرطاجة من عالم الوجود . ان الحجج والمبررات ، التي دفعت بهانيبال الى اتخاذ ذلك القرار المشؤوم ، كانت من وجهة نظره معقولة مقبولة ، ولكنها في الواقع كانت حججاً ومبررات سطحية متسرعة ، لم تدرس وتناقش بمعزل عن حماس الشباب وتهوره . فوضع هانيبال في اسبانيا كان ، استراتيجياً ، في منتهى الضعف ، وذلك بالرغم عما كان يتبدى له ولرفاقه من رأي مخالف ، ومن ثقة بالنفس والامكانات على أساس آلة عسكرية قوامها المزاجية القبلية والارتزاق . لم تكن هذه الآلة مستندة على قاعدة صلبة ولا على مؤخرة مضمونة ، لا في اسبانيا المستعمرة ولا في قرطاجة الوطن الأم ، هذا الوطن الذي كان متفسخاً واهناً ، والذي كان هاميلكار ورفاقه قد غادروه يأساً من أوضاعه وقنوطاً من امكان معالجة فساده واعوجاجه .

كان وضع هانيبال ضعيفاً استراتيجياً ، وضعيفاً تكتيكياً كذلك . فكل شيء لديه كان معلقاً على شخصه ، وما كان ذلك كافياً كبديل عن القاعدة المضمونة والمواصلات الأمينة والامدادات المتوفرة بصورة مؤكدة ، ولا أعتقد أنه كان لديه نظرة استراتيجية شمولية . كان يتحرق لأن يعطي روما درساً مؤلماً واحداً أو اثنين ، وربما كان يظن أن ذلك سيكون كافياً لحمل روما على الرضوخ والاستسلام . لقد كان ، تكتيكياً وعند ميدان المعركة ، بمثابة لاعب شطرنج لامع ، وربما اعتقد أن مهارته في هذه اللعبة ، وتفوقه كقائد ميدان في ساحة المعركة كافيان لوحدهما لفتح الطريق أمامه وايصاله الى حيث يبغي ويريد .

اقتحام ساكونتوم

لم تكن ساكونتوم مدينة من حجم كبير ، لكنها كانت قوية التحصين . وما كان الأهالي بقادرين على منازلة هانيبال في ساحة قتال مكشوفة ، ولكنهم كانوا وراء أسوارهم ، وقد قاتلوا عليها ودافعوا عنها باصرار وثبات ، يزيدهم عناداً وعزما اعتقادهم بأن روما في طريقها الى نجدتهم ، الا أنه خاب هذا الاعتقاد ، ولم تصل النجدة المأمولة ، وقد صمدت المدينة قرابة ثمانية أشهر ، نجح هانيبال بعدها في اختراق الأسوار . غير أن الأهالي استمروا رغم ذلك يقاتلون بشجاعة وضراوة فائقتين ، وقد اضطر هانيبال ، اكتساباً للوقت وحقناً للدماء ، أن يعد المدافعين بالأمان اذا هم توقفوا عن القتال واستسلموا ، وبالسماح لهم بعدئذ بمغادرة المدينة ومع كل منهم ثوبان لا غير . ولكن زعماء المدينة ، مدفوعين امّا بعنفوان لا حدود له ، أو غير واثقين من وعود هانيبال ، فضلوا الموت على الذل والاستسلام ، فعمدوا الى احراق المنطقة الوسطى من المدينة ، ثم ألقوا بأنفسهم في نيرانها . وفي سياق الفوضى التي أعقبت ذلك ، تغلب الجيش القرطاجي على ما كان متبقياً من دفاعات المدينة ، وأمعن في التقتيل والتدمير . كانت الغنائم عظيمة ، وكانت عظيمة كذلك خسائر القرطاجيين بالقتلى والمصابين ! .

وهكذا بدأت ساكنتوم معارك الحرب البونية الثانية ، وكانت كذلك السبب ، أو أحد الأسباب التي حملت هانيبال ، فيما بعد ، على النفور من مهاجمة الحصون والمدن المنيعة ، وعلى خطئه الكبير في عدم التوجه الى مهاجمة روما ، وكان على مقربة منها عقب انتصاره الساحق في معركة « كانه » ، وذلك اعتقاداً منه بقوة أسوارها وحصونها ، وبأن حصارها أمر ميؤوس من نتائجه . لقد ظلت ساكنتوم ماثلة في مخيلته كما يبدو . فاذا كان قد اقتضى ثمانية أشهر لاقتحامها وهي المدينة الصغيرة ، فكم كان يا ترى يقتضي لاقتحام مدينة كبيرة كروما ؟! . ومن المحتمل أيضاً أنه كان يتطلع الى الحصون والأسوار بنظرة الخيال ومنطقه ، والخيالة لا تحب أبداً مهاجمة المواقع المحصنة ! .

ونتساءل لماذا تركت روما حليفتها تتدمر وتحرق دون أن تمد لها يد المساعدة ؟ هناك ثلاثة أسباب محتملة لذلك . الأول ، وهو أناني ولا أخلاقي محض ، ويعني أن روما أرادت أن تتخذ من اقتحام هانيبال لساكنتوم سبباً ملموساً لتبرير اعلانها الحرب على قرطاجة ، وأن ساكنتوم لم تعد بعد ذلك بذات فائدة . والسبب الثاني أن روما ، في تلك الأثناء ، كانت متورطة كلية في حرب مع الغاليين ، وما كان باستطاعتها لذلك أن تبعث بجيش الى اسبانيا ليصل في الوقت المناسب . أما السبب الثالث والأخير فهو أن الفريق الذي كان يتبنى فكرة الحرب مع قرطاجة لم يتوصل الى فرض رأيه والحصول على موافقة مجلس الشيوخ الّا متأخراً ، وبعد أن سقطت المدينة بيد هانيبال ، وربما كان هذا السقوط قد ساعده على اكتساب أغلبية المجلس لرأيه . وربما كان السبب الحقيقي خليطاً من هذه الأسباب كلها مجتمعة . فقبل هجوم هانيبال على ساكونتوم وأثناءه كانت جيوش روما منهمكة في عمليات ضد القبائل الغالية في وادي نهر بو . وبعد أن أمكن تهدئة هذه القبائل ، ولو مؤقتاً ، وتم وضعها تحت المراقبة ، حدث ما صرف الانتباه الى الليريا[1] ،

(١) في بلغاريا اليوم .

واشتبك الرومان في القتال مع الالليريين . ومع أنه كان بالامكان رغم ذلك ارسال قوة ما لنجدة ساكونتوم ، لكن كان من المشكوك فيه أن تكون كافية للوقوف في وجه القوات القرطاجية في اسبانيا .

إن الحرب البونية الثانية ، **٢١٩ ـ ٢٠٢** ق م ، نظراً لما كان لها من تأثير كبير في تاريخ العالم ، ولما تمخضت عنه لدى الجانبين من بروز قتالي وفن قيادي ، هي لذلك جديرة بالمعرفة والدراسة . كانت روما وقرطاجة متعادلتين في القوى ، ظاهرياً الى حد ما ، لكن روما كانت تتفوق في النوعية والمعنوية ، وكانت تعرف ما تريد ، وتدفع الثمن اللازم لذلك من عزم وجد وأموال ودماء . وكان هذا بعكس قرطاجة ، التي قامت نوعيتها واعتمادها على أكتاف شخص فرد لا غير ، والتي كانت تجهل حقيقة نفسها وقوى خصمها ، وكانت الأنانية والمحسوبية والدرهم والدينار يعميها عن إدراك مصالحها الحقيقية ، وعن التخطيط والعمل بمنطق سليم وتدبير حكيم وادارة قادرة ! .

سفارة ثانية

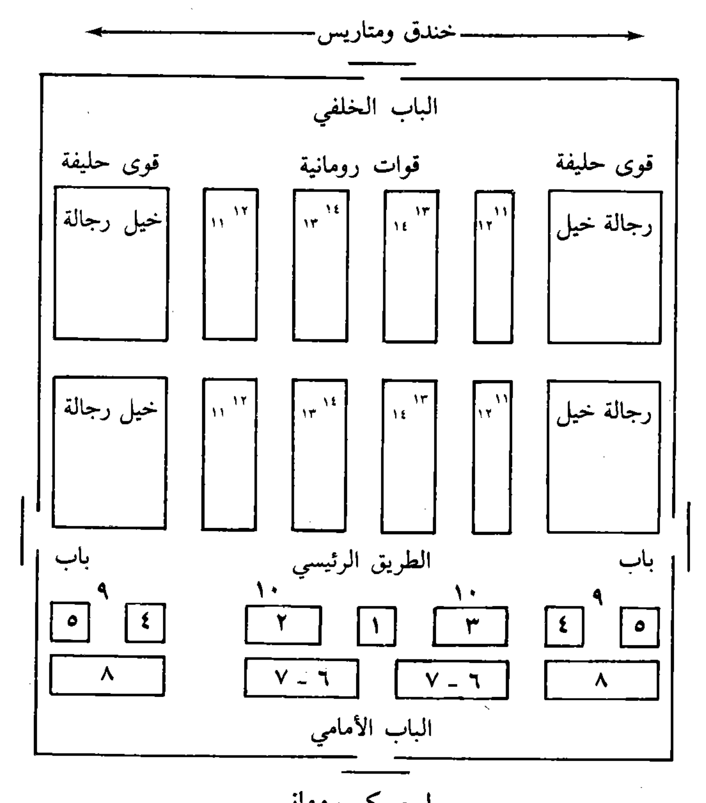
وصلت الأخبار الى روما بسقوط ساكونتوم وتدميرها ، بعد قليل من عودة السفارة الرومانية التي سبقت الاشارة اليها . وقد وقعت هذه الأخبار على حكام روما وقوع الصاعقة ، وساعدت على انتصار سياسة فريق الحرب في مجلس الشيوخ ، وعلى انتخاب قنصلين من أنصار هذا الفريق ، هما القنصل كورنيليوس شيبيو والقنصل سمبرونيوس لونكوس . لم يكن الفريق الآخر ، الفريق الفابياني ، يمانع في اعلان الحرب على قرطاجة ، لكنه كان يدعو الى تأجيل ذلك بانتظار تصفية الأمور العالقة في الليريا ومع فيليب الخامس ملك مكدونيا ، وقد دافع عن موقفه بضراوة ، ونجح فحمل مجلس الشيوخ على اتخاذ قرار بارسال سفارة أخيرة الى قرطاجة قبل أن يبدأ باجراءات الحرب . وقد ذهبت هذه السفارة لتطالب بتسليم هانيبال وضباطه الى روما ليعاقبوا على جرائمهم ، وبدفع تعويضات واخلاء ساكونتوم . ومع أن الفابيين قد نجحوا الى هذا الحد ، الاّ أنهم لم يكونوا من التأثير بحيث يحولون دون تأليف أعضاء

السفارة الأخيرة بغالبية ٣ الى ٢ من الأعضاء المتحمسين للحرب . وكان طبيعياً أن ترفض قرطاجة القبول بتلك المطالب المهينة ، وكان ان رجعت السفارة الرومانية من مهمتها خائبة ، واشتعلت الحرب .

بعد ساكونتوم

بعد سقوط ساكونتوم ، رجع هانيبال الى قرطاجة الجديدة ، ووزع الجيش على منازله الشتوية . ورغم أنه لم يكن يعرف بالتأكيد ماذا سيكون رد روما بعد ساكونتوم ، فقد كان في قرارة نفسه واثقاً من أن الحرب لا بد واقعة . والرأي الغالب هو أنه كان يستعد لهذه الحرب منذ أن استلم القيادة العامة في اسبانيا . واذا كان هذا القول صحيحاً ، ففيه تأكيد ولو جزئي لحقيقة الاتهامات الموجهة ضده ، والقائلة بأنه المسؤول عن الحرب . ويرد أنصاره على هذه الاتهامات بقولهم أن الاستعداد بقصد الجاهزية ومواجهة الطوارىء ليس هو بمنزلة الاعتداء ، وأنهم هم الحمقى الذين لا يستعدون للطوارىء والمفاجئات . ان التأهب لرد العدوان لشيء يختلف تماماً عن تعمد فرض الحرب على طرف آخر غير راغب فيها ، وهي السياسة التي انتهجتها روما ضد قرطاجة . وأيّا كانت الحقيقة في هذا الموضوع ، فان هانيبال كان على كل حال مصمماً على أن لا يتكرر الخطأ التي وقعت فيه قرطاجة ، في الحرب البونية الأولى ، ألا وهو الوقوف على الدفاع ، وترك المبادرة كلية في يد روما . لقد كان عازماً على فرض الأحداث هذه المرة ، وعلى نقل الحرب الى الأراضي الرومانية ، الى ايطاليا بالذات .

ان اتخاذ قرار بهذا المعنى قد يكون أمراً بسيطاً في ظاهره ، لكن تنفيذه ما كان ليقوم على شيء من البساطة بالمرة وقد تباينت الآراء واختلفت حول هذا الموضوع . فهناك من يقول بصحة هذا التفكير ، محبذاً قرار هانيبال ، وداعماً لوجهة نظره . لقد كان من الممكن ، حسب تفكيره ، بعد وصوله الى ايطاليا ، أن يعتمد على مساعدة معظم القبائل الغالية في الشمال ، وهي قبائل لم تكن روما قد أخضعتها بعد ، وكان قد اتصل برؤسائها وحصل منهم



مرسم لمعسكر روماني

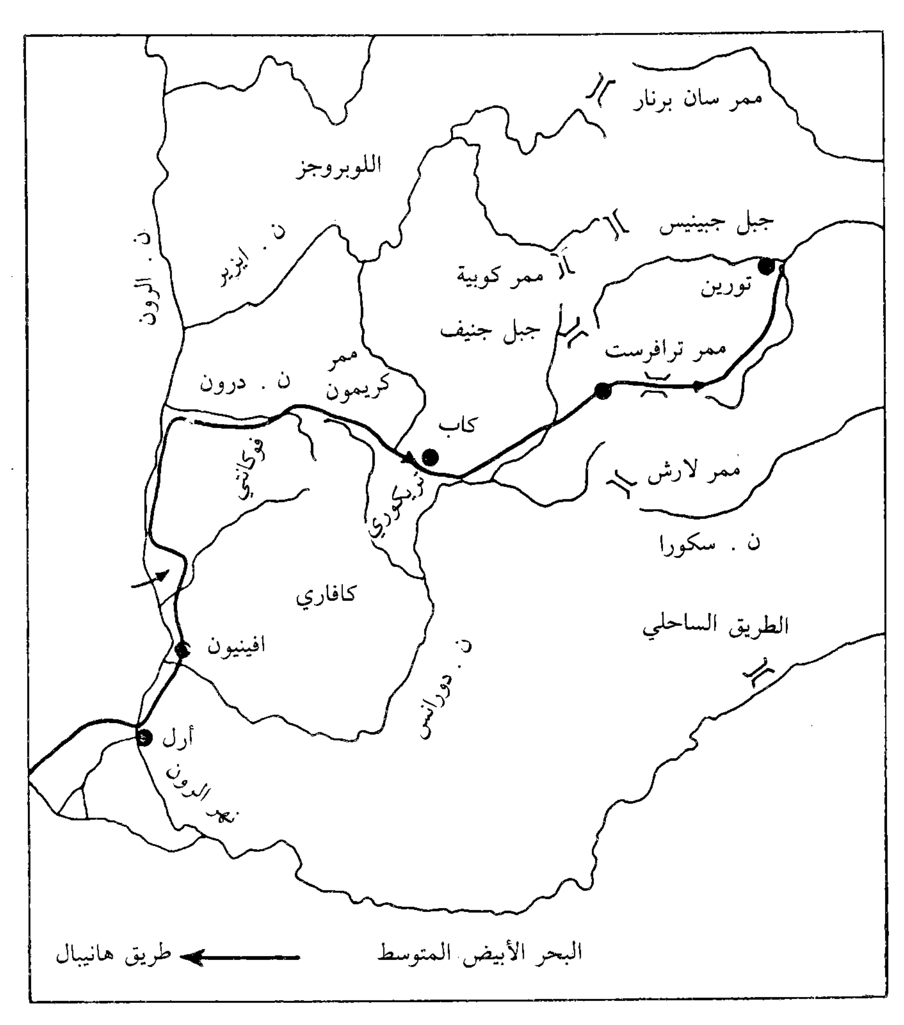
مقر القائد	1	الاحتياط	8
محاسبة	2	خيم للضباط	9
ميدان	3	خيم تريبيونات	10
حرس خاص	4	هاستاتي	11
جيش خاص	5	برنسيبلس	12
وحدة خيالة خاصة	6	ترباري	13
وحدات مشاة خاصة	7	خيالة	14

على وعود عون ومساعدة بالمؤ ن والرجال . كانت روما ، في العام الماضي والذي قبله، قد أخذت في زراعة المستوطنات في مناطق الغاليين الجبلية، مستفزة بذلك القبائل ، ومستثيرة فيهم مشاعر الغضب والنقمة في كل مكان . صحيح أن هذه القبائل كانت كثيرة التقلب والتلون ، ولكن كان من الممكن ، الى حد معقول ، أن تكون قاعدة عمليات أمينة لهانيبال . وهو بغزوه لايطاليا



أسلحة رومانية

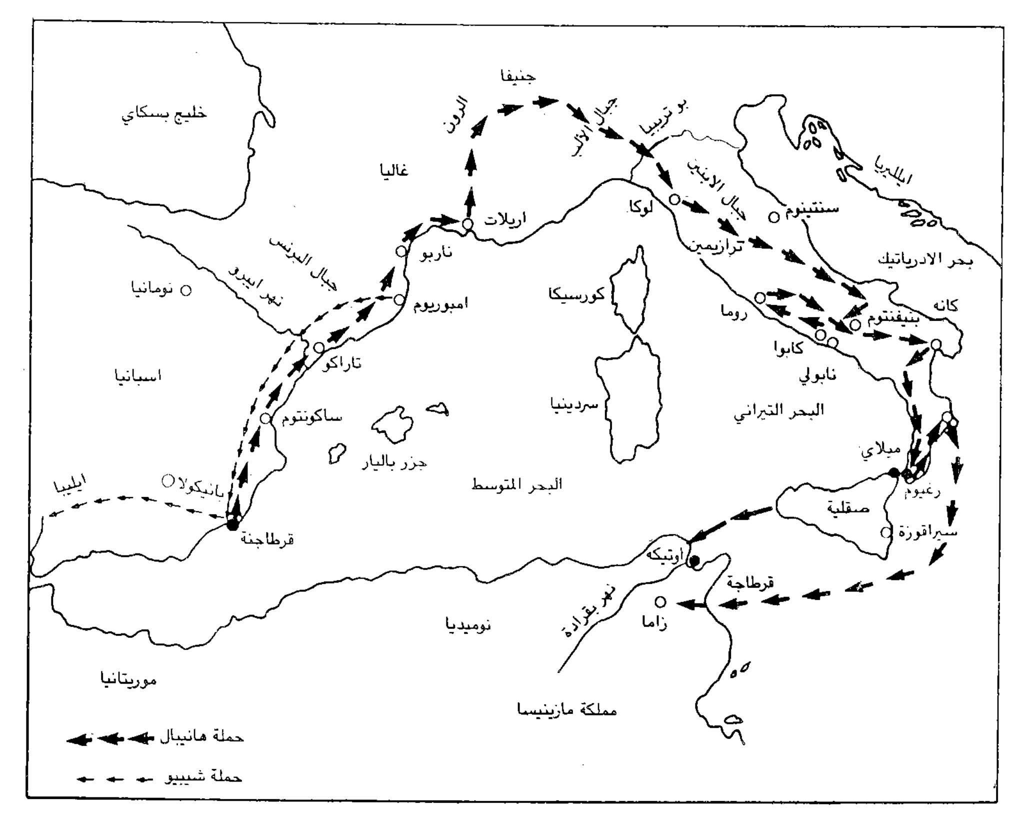
قد صرف اهتمام روما عن اسبانيا وأفريقيا ، أو بالأحرى كان يأمل أن يحول أنظارها عن هذا الاتجاه ولو الى حين . كان نقل الحرب الى ايطاليا عملاً عسكرياً له ، في تفكير هانيبال ، ما يبرره من الناحيتين الاستراتيجية والتكتيكية ، وكان يأمل أن يتوصل من ورائه الى تحقيق مشروع سياسي على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة لقرطاجة . لقد كان يأمل ، بغزوه لروما في عقر دارها ، أن يحطم الفدرالية الايطالية التي كانت روما تتزعمها ، وأن يستبدلها بفدرالية أخرى جديدة ومتعددة الأطراف ، تدخل فيها كل ايطاليا بما في ذلك الغاليون في الشمال ، بزعامة قرطاجة . كان ذلك تفكيره ، ولربما



عبور هانيبال لجبال الالب

كان هذا التفكير بمثابة حلم من الأحلام ، لكنه ربما كان حلماً قابلاً للتحقيق .

هذا ملخص لما يقوله المدافعون عن تفكير هانيبال وتخطيطه وعملياته . وهناك الذين يرفضون الأخذ بهذه الأقوال ، ويرونها خاطئة في كثير من النواحي . ومعظم هؤلاء هم من العسكريين والنقّاد المختصين في القضايا والدراسات العسكرية . ان نقل الحرب الى ايطاليا كان مقامرة ، وكان خاطئاً من الناحية الاستراتيجية خاصة . فالحرب في كل زمان ومكان كانت ولا تزال



حملات هانيبال وشيبيو

قواعد وامكانات ولوجستيك ، ولم يكن لهانيبال قـواعد مضمـونة ، ولا لوجستيك سليم ، ولقد انخرط في مقامرة وليس في يده أية أوراق رابحة ، باستثناء الجيش ، لكن هذا الجيش نفسه ، كانت قيمته رهناً بشخصية هانيبال ووجوده ، أي قيمة تقوم على أكتاف شخص واحد .

وفيما يتعلق بالقواعد ، فقد اعتمد هانيبال على قرطاجة الأم ، وعلى اسبانيا . وكانت قرطاجة لا تشكل قاعدة مضمونة ، لأنه لم يكن لديها الرغبة والاخلاص في دعم هانيبال ومساعدته ، ولا القدرة على ذلك لعجز جهاز الحكم فيها واستعصائه على كل اصلاح وتقويم . وقد أثبتت الأحداث صحة هذه التوقعات فيما بعد . وكانت قاعدته في اسبانيا ضعيفة ومكشوفة ، في وسط قبلي متقلب يميل مع الأهواء والأرياح كيفما مالت ، وفي عهدة شقيقه

الثاني ، أسد روبال، وكان حدثاً لا خبرة له، ولا شبه مع شخصية هانيبال وهيبته ومقدرته . كانت القبائل في اسبانيا وغاليا وايطاليا متقلبة لا يركن الى أقوالها ووعودها، والسكان اللاتين في ايطاليا أوفياء مخلصون لروما، وكانت المستوطنات الرومانية حصوناً تمسك بالنقاط الاستراتيجية ونقاط العبور الاضطرارية . أضف الى ذلك أن قرطاجة فيما لو أخلصت وأرادت المساعدة ، فانه لم يكن باستطاعتها ذلك بسوى طريق البحر ، ولكنها أثبتت في الحرب البونية الأولى أنها عملاق بأرجل من فخار ، وهي حالة لم يكن قد طرأ عليها أي تغيير عند اشتعال الحرب البونية الثانية . كان هانيبال ولا شك يعرف كل ذلك ، أو بالأحرى كان المفروض فيه أن يعرفه ، فكيف اذن قامر بخوض حرب بعيداً عن قواعده ، في عقر دار دولة قوية وأمة قومية وطنية ، اعتماداً على مثل هذه الأسس الواهية ؟! .

نأتي الآن الى موضوع الجيش القرطاجي ، جيش هانيبال. كان هذا الجيش يتفوق بشخصية هانيبال فقط لا غير . وفيما عدا ذلك ، فقد كان أفراداً وضباطاً ، دون مستوى الجيوش الرومانية وطنية واخلاصاً ومعنوية . لم يكن لجنود هانيبال رسالة ! . كانوا خليطاً متعدد الأجناس واللغات ، وكان هدفهم الأول أسلاباً وغنائم ، وذلك بعكس الجنود الرومانيين الذين كانوا يقاتلون دفاعاً عن وطن وعرض وكرامة ! .

كان نقل الحرب الى ايطاليا ، بالشروط والامكانات التي كانت متوفرة يومئذ لهانيبال ، شروط وظروف وامكانات غير كافية ، عملاً متهوراً ، ومقامرة لا تجوز الّا حين تسد جميع الأبواب الأخرى. لقد قامر هانيبال بمستقبل قرطاجة بكامله ، فأما نجاح رائع تام ، واما الفشل والعدم والفناء ، وهذا شيء مرفوض عندما يتعلق الأمر بمصير أمة ! .

الطريق الى ايطاليا

كان الطريق الى ايطاليا واحداً من اثنين ، فأما البر وأما البحر ، وقد اختار هانيبال طريق البر . لقد قيل أنه لم تكن لديه حرية الاختيار ، بدعوى أنه

كانت لروما سيطرة كاملة على البحار ، وهي دعوى غير صحيحة . صحيح أن العمارة البحرية التي كانت تحت تصرف هانيبال لم تكن تتجاوز خمسين قادساً[1] ، في وقت كان لروما ، عام ٢١٨ ق م ، لا أقل من ٢٢٠ سفينة حربية عاملة . ولكن صحيح أيضاً أن قرطاجة ، لو أرادت أن تقوم بالجهد اللازم لحالات كهذه ، لكان باستطاعتها أن تجهز أسطولاً اضافياً بما لا يقلّ عن ١٠٠ سفينة أخرى . لم يكن بمقدورها في ذلك الوقت أن تجاري روما وتتعادل معها في القوة البحرية ، بيد أنه كان من العسير جداً في ذلك الزمن الوصول الى سيطرة كاملة على البحر ولو بأسطول متفوق ، زد على ذلك أن الأسطول الروماني كان موزعاً على عدة مناطق ، منطقتين أو ثلاثة ، بحيث أنه لو قامت قرطاجة بحشد أسطولها كله لكان بوسعها أن تتعادل مع أية قوة بحرية رومانية قد تعترضها ، هذا إن لم تحصل على تفوق موضعي على الرومان . وما من شك في أنه لو كان هانيبال قد قرر الحركة بحراً ، وأُعطي السفن اللازمة ، لكان وجد دون صعوبة جميع سفن النقل الكافية لحمل جيشه كله ، أو حمل قسم منه لا يقل عن العدد الذي وصل به الى ايطاليا بعد عبوره لجبال الألب .

في عام ٣١١ ق م ، قام أغاثوكلس دكتاتور سراقوسة ، يوم كانت قرطاجة سيدة على البحار ، بالابحار من صقلية الى ساحل أفريقيا الشمالية ، مع جيش من ١٤ ألفاً ، على ظهر ٦٠ سفينة ، ونجح بالوصول الى البر الأفريقي رغم وجود الأساطيل القرطاجية . وفي عام ٢٥٦ ق م ، نجح الرومان بانزال ٤٠ ألفاً على أبواب قرطاجة ، بعد أن هزموا في معركة بحرية أسطولاً قرطاجياً يفوقهم عدداً ، لكن أقل من أسطولهم مهارة في القتال . وفي الحرب العالمية الثانية ، كانت الأساطيل اليابانية أكبر عدداً وأعظم طاقة قتالية من طاقة الأساطيل الأمريكية ، ورغم ذلك فقد تمكن الأمريكيون ، بحشد قواهم ، من دحر الأساطيل اليابانية بالتتالي ، في مياه الباسيفيك ، لأنها كانت موزعة على عدة مناطق ، واستطاعوا أن يشتبكوا بكل فريق منها ، على حدة ، بقوات متفوقة .

---

(١) Galley .

ولا ندري ما الذي كان يمنع القرطاجيين من عمل ما سبق لأغاثوكلس وللرومان أن عملوه ونجحوا به ، والذي كان ولا شك قابلاً للتحقيق بدليل نجاحه على يد الأمريكيين بعد ٢٢ قرناً من الزمن ! .

لم تتوج البحرية القرطاجية رأسها بأكاليل الغار خلال الحرب البونية الأولى ، وما قام القرطاجيون بجهود مشكورة لتحسين هذه الصورة أثناء الفترة الفاصلة بين الحربين . لم يتفوق الجيش القرطاجي على البحرية في انجازاته أثناء الحرب الأولى، لكن كان باستطاعته على الأقل أن يتغنى ببعض الانتصارات في التعرض والمدافعة . وكان الجيش ، في عهد هانيبال في اسبانيا ، قد تحول الى أداة حرب متفوقة . ويخيل للمرء أن جهود آل برقه قد انصبت كلها على هذه الناحية ، وأنهم كانوا لا يميلون الى ركوب البحر ، ولم يهتموا بتجهيز قوة بحرية فاعلة . صحيح أن الأب هاميلكار كان قد قاد عمارة بحرية من القوادس ، لكن إعداده العسكري الشخصي كان أساساً للقتال براً ، وكذلك أولاده من بعده . وكانت مساهمة البحرية القرطاجية ضئيلة في احتلال اسبانيا ، واقتصر عملها على أعمال نقل عبر المضيق بين أفريقيا واسبانيا . والذي يتبادر الى الظن ، على ضوء ما تقدم ، أن هانيبال لم يكن يثق بنفسه كقائد ومقاتل على سطح البحر ، أو كان لا يثق بقدرة الأسطول القرطاجي واستطاعته على نقله وايصاله وقواته سالمين الى البر الايطالي .

ومما يستلفت الانظار والانتباه ذلك التماثل العجيب في السلوك والتصرف لدى القرطاجيين قبل ٢٢٠٠ سنة ، ولدى بعض سكان الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط اليوم . ففي الحروب بين قرطاجة وروما ، كانت خسائر قرطاجة وهزائمها نتيجة لفساد جهاز الحكم والادارة فيها ، واحتكار السلطة من قبل طغمة من التجار الجشعين والعائلات المتوارثة للسلطة أباً عن جد دون أي استحقاق . ومع ذلك فإننا نرى القرطاجيين الناقمين على هذه الأوضاع ، ومن ضمنهم هاميلكار برقه نفسه ، يتنكرون لهذه الحقائق ويلقون بتبعة انهيار دولتهم على عاتق روما ، أي أنهم يتنصلون وقومهم من كل تبعة ومسؤولية . وهم لو كانوا في زمنهم على علم بمصطلحات الأمبريالية والاستعمار القديم والجديد والشعوبية والغزو الثقافي ، لكانوا حتماً قد أضافوا

هذه المصطلحات والشعارات الى لسانهم في التفتيش عن كبش فداء يحملونه مسؤولية أخطائهم وسوء ادارتهم وفساد حكمهم ! .

الطريق البري والاستعداد للحركة

كان البديل للبحر طريقاً برياً ، عسيراً خطراً . . حوالي ١٣٠٠ كيلومتر على خط جوي مستقيم ، وربما أكثر ، مع عبور لنهر كبير ، ولعدة أنهار أخرى من حجم أصغر ، واجتياز لسلسلتين من الجبال الضخمة الشاهقة ، سلسلة جبال البرنس (البيرينه) بين اسبانيا وغاليا ، وسلسلة جبال الألب بين غاليا وايطاليا . وقد كان لهانيبال ولا شك عملاء على تماس واتصال مع بعض القبائل في المناطق التي كان على الجيش أن يجتازها ، وكان هؤلاء العملاء يمدونه بالمعلومات عن الناس والأرض ، كما كان يستقي معلومات من التجار والباعة المتجولين . لكن هذا الاستعلام لم يكن كافياً ، بدليل أنه مر خلال مناطق لم يكن هانيبال يعلم من أمرها شيئاً ، ولا كان قد احتاط للأمر فأرسل مسبقاً بعثات استكشاف لهذا الغرض . لا تبدو لنا هذه الطريق حالياً شاقة ، أما في عام ٢١٨ ق م ، فقد كان سلوكها بجيش كبير عملاً جسيماً ، وكان يستدعي أن يخطط له مسبقاً بكل عناية ، وبتدبير متبصر حكيم ، وهذا ما نشك في حدوثه قبل أن يتحرك هانيبال الى مقامرته .

ومع أنه كان بالامكان الحصول على قسم كبير من التموين أثناء الطريق ، بالشراء أو النهب أو القتال ، فقد كان لا مفر رغم ذلك من استصحاب بعض المؤن ، بالاضافة الى بعض أعتدة وتجهيزات القتال الجماعية ، الأمر الذي كان يستدعي الاستعانة بعدد من عربات النقل ودواب الجر والحمل من خيول وبغال . وكان التموين المخزون المحمول حيوياً لجيش كبير ، وخاصة للفيلة . ان الفيل يحتاج الى الماء مرتين في اليوم ، وحاجته اليومية تتراوح ما بين ١٥٠ و ٢٥٠ ليتراً من الماء ، وطعامه اليومي يبلغ ٧ كلغ من الحبوب و ١٠٠ كلغ من العلف الناشف . واذا كان الفيل الأفريقي لا يستطيع أن يحمل سوى ٤٠٠ كيلوغرام بالاضافة الى سائسه ، فبامكاننا أن نتصور مدى الصعوبة في التموين التي كانت تواجه تحرك الجيوش في ذلك

الزمن . والفيل لا يتحمل الحر الشديد ولا البرد الشديد كذلك ، ولا السير الطويل على أرض صخرية أو رطبة ، وكذلك كان الحال مع الخيل في الزمن الماضي . وكان الجندي الراجل بحاجة الى ألبسة شتوية ثقيلة وزوج حذاء اضافي . ونحن كلما أمعنا النظر والتفكير في ذلك المسير القرطاجي ، عبر اسبانيا وغاليا وجبال الألب ، كلما بدت لنا ضخامة ذلك العمل الذي أقدم هانيبال على ركوبه . ويقال أن صعوبة ذلك الطريق كانت من الأسباب الرئيسية التي حملت على اختصار رحبة الحرب الى حدها الأدنى ، على حساب أعتدة وتجهيزات الحصار بوجه خاص . وكان ذلك ، بالاضافة الى نفور هانيبال من مهاجمة المواقع المحصنة ، من العوامل الأولية التي جعلت بطلنا ، في ايطاليا ، عاجزاً عن اقتحام وتذليل حتى أبسط الحصون والقلاع .

وكان على هانيبال ، قبل أن يبدأ مقامرته ، علاوة على الاجراءات والتدابير الضرورية لمسيره ، أن يؤمن مؤخراته وينظم الادارة في المناطق التي يجتازها . كان من أولى اهتماماته أن يقيم في اسبانيا وأفريقيا حاميات مضمونة على سبيل الاحتياط، وذلك رغم أن أمله كان كبيراً بأن غـزوه للأرض الايطالية نفسها كان سيحمل روما على حشد معظم قواتها لمواجهته . الا أنه كان هناك احتمال كبير بأن تقوم روما مع ذلك بغزو اسبانيا ، واحتمال أقل بارسال حملة مباشرة الى أفريقيا ، كرد على غزو القرطاجيين لإيطاليا .

كان المجندون محلياً معرضين دائماً ، وهم في أوطانهم ، الى ارتكاب بعض المخالفات بتأثير المحيط والبيئة ، ومنها الفرار والتحول بالولاء . ولمواجهة هذا الاحتمال ، عمد هانيبال فأرسل دفعات كبيرة من المجندين الاسبان الى أفريقيا ، آخذاً الى اسبانيا بالمقابل دفعات مماثلة من المجندين الأفريقيين . لقد أرسل الى أفريقيا حوالي ١٤٠٠٠ جندي راجل ، و ١٢٠٠ خيال و ٨٧٠ مقلاعياً من جزر الباليـار . وقد جرى توزيع هذه العناصر الأجنبية ما بين الحاميات الأفريقية ، باستثناء منتخب خاص كان بتعداد ٤٠٠٠ مقاتل ، أفرز للدفاع عن قرطاجة نفسها . عهد هانيبال الى شقيقه أسد روبال بأمور الدفاع عن اسبانيا ، ووضع تحت تصرفه ١١٥٨٠ جندياً من المشاة الأفريقية

و ٣٠٠ مجند من ليكوريا ، و ٥٠٠ مقلاعي بالياري ، و ٢٥٥٠ خيالاً كان معظمهم من الأفريقيين ، و ٢١ فيلا . وكذلك وضع تحت تصرف شقيقه قيادة العمارة البحرية المؤلفة من ٥٠ قادساً . ونلاحظ هنا أن آل برقه لم يكونوا يهتمون بالبحرية بوجه عام ، ولا بانحطاط البحرية القرطاجية وتقهقرها بوجه خاص ، وفي هذا دليل على القصور الاستراتيجي بصورة غريبة . وكان من جملة القوادس الموضوعة تحت تصرف هانيبال ، والتي تخلّى عنها لشقيقه كما سبق ، ٣٢ قادساً معدة وجاهزة للعمل ، في حين كانت بقية القوادس ، وعددها ١٨ ، عاطلة وملقاة على الرمال ، عرضة للبلى والتآكل بفعل الأنواء والاهمال . وبالاضافة الى هذه القوى الموضوعة تحت تصرف أسد روبال ، فقد كانت تحت تصرفه أيضاً امكانات التجنيد الاسبانية الواسعة ، كلما دعت الحاجة الى ذلك .

هذه الاجراءات ، التي اتخذها هانيبال لضمان مؤخراته ، ضعيفة وغير كافية ، ولا نظن أنه كان يجهل ذلك ، ومن المحتمل أنه كان يعتقد أن غيابه عن اسبانيا لن يطول أكثر من عام أو عامين . ان القوى التي تركها خلفه ، في كل من اسبانيا وأفريقيا ، ربما كانت كافية لحفظ الأمن والاستقرار لمدة محدودة من الزمن ، ولكنها لم تكن لتكفي للدفاع ضد غزو روماني ، ثم ان الاعتماد على عناصر خارجية مستعمرة ، في مثل هذه الأمور الحيوية ، رهن دائماً بتوفر شخصيات قيادية نادرة الوجود عادة ، وقد أثبتت الأحداث أن الأشخاص الذين أوكل اليهم هانيبال أمر السيطرة على مؤخراته والدفاع عنها ، بمن فيهم شقيقاه ، لم يكونوا من مثل هذه الشخصيات النادرة .

بدأ هانيبال الاستعداد لمقامرته ، بارسال جنوده الاسبان لتمضية الشتاء مع عائلاتهم . وفي الربيع أخذ يضع خططه قيد التنفيذ . وقد تحرك عند حلول شهر أيار ، بعد أن هدأت فيضانات الأنهار ، وظهر العشب والكلأ على وجه الأرض . وهناك رواية غير مؤكدة تقول أنه عمد قبل أن يتحرك ، الى ارسال زوجته وولده الى قرطاجة حفاظاً على سلامتهما ، وأنه كان قد أسقط اسبانيا من حساباته فور أن بدأ حركته . هذه الرواية عسيرة على التصديق ، لأنها اذا كانت

رواية صحيحة ، فهي تعني أن هانيبال لم يكن يثق بشقيقه ومقدرته ، ولا بقيمة اسبانيا كقاعدة يعتمد عليها لنجدته وامداده . واذا كان ذلك ما كان يدور بخلده ، فلماذا اذن ترك في اسبانيا تلك القوى تحت تصرف أسد روبال ، وكان الأحرى به أن يأخذها معه ! .

لكن الاجراءات ، التي اتخذت لحماية اسبانيا وأفريقيا ، كانت على كل حال غير كافية. انها لم تكن تكفي لمنع روما عن غزو أيّ من المنطقتين ، أو غزو كليهما كما حصل بالفعل . وكان لدى هانيبال ٥٠ قادساً ، فتركها لتصرف شقيقه ، وما كان لهذا الأخير خبرة بالقتال على البحر وشؤونه ، أو كان لا يحب هذا السلاح أو لا يثق به . وقد كلف هانيبال شقيقه بالدفاع عن اسبانيا ، وأرسل قوات للدفاع عن أفريقيا القرطاجية وعن قرطاجة نفسها ، لكنه لم يتخذ ، على علمنا ، أيّ اجراء لمراقبة البحار للحيلولة ، عند اللزوم ، دون ابحار قوات رومانية باتجاه أفريقيا ! .

الحركـــة

تحرك هانيبال قاصداً ايطاليا ، بقوة مبدئية كان تعدادها ٩٠,٠٠٠ راجل ، و ١٢,٠٠٠ خيال ، و٣٧ فيلاً . وقد عبر نهر ابرو ، في منتصف شهر تموز كما يظن ، دون أي حادث يذكر . ولكنه دخل بعد هذا العبور وسط قبائل معادية وعلى علاقات طيبة مع روما . وقد واجهته عندئذ مدينتان صغيرتان تابعتان لمسيليا خصم قرطاجة وحليفة روما ، وهما أمبوريا ورود[1] . وأمضى هانيبال ، بعد عبوره لنهر ابرو ، ستة أسابيع يتحارب مع قبائل الليركيتس وبركوزي وأوزيتاني ، ويعطيها درساً ومذاقاً عن قوة قرطاجة وفاعلية قواتها المسلحة . لا تتوفر معلومات مفصلة عن عمليات الجيش القرطاجي في هذه المنطقة ، ولا عن مدى ما تحمله من الخسائر في هذه العمليات .

غير أن المعلوم أنه عندما شرع في اجتياز جبال البرنس ، فان عدد قواته كان قد انخفض الى ٥٠,٠٠٠ راجل ، و ٩٠٠٠ فارس . أما ما جرى للفارق

---

(١) Emporiae and Rhode

بين العددين ، هذا العدد والعدد المبدئي للقوات عند الحركة ، وهو ٤٠ ألف راجل و٣ آلاف خيال ، فالمعتقد أنه توزع بين الخسائر في المعارك مع القبائل شمال نهر ابرو ، وبين الحاميات التي تركها وراءه للحفاظ على الأمن والاستقرار لدى هذه القبائل ، وأخيراً بين عدد من المجندين الاسبان ، الذين رفضوا أن يتابعوا الطريق معه الى ما وراء جبال البرنس[١] ، وقد سرحهم لذلك وأعادهم الى ديارهم .

وكذلك لا تتوفر معلومات عن تفاصيل اجتيازه لجبال البرنس ، ولا عن مروره في غاليا حتى نهر الرون ، وقد اقتضاه ذلك حوالي ثلاثة أسابيع من السير الجاد المتواصل . والظاهر أنه لم يلق مقاومة جدية أثناء ذلك ، وكانت رسله تتقدمه للاتصال بالقبائل ، مطمئنة وحاملة اليها تحياته وسلامة نواياه ، وقد قوبل بترحاب معظم الأحيان . وقد يكون في هذا تأييد للزعم القائل بأنه كان يخطط لاقامة اتحاد فدرالي من غاليا وايطاليا واسبانيا . وكان يترك خلفه حاميات في المواقع الهامة ، كمعابر جبال البرنس ، بحيث أنه لم يبق من جيشه ، عند وصوله الى نهر الرون ، سوى ٤٨ ألف رجل راجل ، و٨ آلاف خيال ، وعدد غير معروف من الفيلة .

إن رفض قسم من العساكر الاسبانية لمتابعة الطريق معه ، الى ما وراء جبال البرنس ، يلقي ظلالاً من الشك على ولاء العناصر الأجنبية المجندة ، التي أفرزها وراءه لحماية عقد مواصلاته . ولم تكن هذه العناصر ، على كل حال ، بكافية لامساك وحماية مواقع هامة في مناطق غريبة جديدة عليها ، ولم تطرقها من قبل .

لا يعرف بالتأكيد من أيّ مكان كان عبور هانيبال لنهر الرون . المهم أنه لقي مقاومة شديدة من الغاليين المحليين ، وبخاصة من قبيلة فولكاي[٢] ، أكبر قبيلة في المنطقة ، وذلك عند محاولة العبور وأثناءه ، وقد عالج هانيبال هذه المقاومة على النحو التالي :

---

(١) Pyrenes .

(٢) Volcae .

ـ شرع باجراء استعدادات العبور ، عند النقطة الرئيسية التي وقع عليها اختياره ، من تجميع سفن وبناء طوّافات ، وذلك تحت سمع وبصر القبائل المعادية المتجمعة بانتظاره على الضفة المقابلة من النهر . وقد عمد في الوقت ذاته ، سرّاً ، الى ارسال مفرزة كبيرة من الخيالة الاسبان، بقيادة ضابط يدعى حانو بن هاميلكار ، الى مكان في أعلى النهر ، لتعبر الرون الى الضفة الثانية ، ومن ثم تتحرك باتجاه القبائل الغالية الواقفة في وجه هانيبال . وعند وصول حانو مع خيالته الى نقطة انطلاق متفق عليها ، أرسل اشارة دخانية، فما كان من هانيبال الاّ أن شرع حالئذ في العبور . وعندما تجمع الغاليون وتأهبوا على الضفة المقابلة ، فوجئوا بخيالة حانو تنقض عليهم من خلفهم ، فما كان منهم الاّ أن ولّوا هاربين في جميع الاتجاهات .

وبهروب القبائل ، صار باستطاعة هانيبال أن يتابع العبور بجيشه وجميع دوابه وقافلته . وقد جرى ذلك على أحسن حال ، باستثناء الفيلة ، التي احتاج عبورها الى تدابير خاصة ، للتغلب على نفورها من عبور الأنهار . وقد قام رجال هانيبال لذلك ببناء أرصفة تمتد الى داخل النهر ، ووصلوها بطوافات ضخمة ، وفرشوا الكل بالتراب والعشب لخداع الفيلة وايهامها بأنها تسير على امتداد طريق اليابسة ، ثم جاءوا بأناث الفيلة ، فوضعوها في المقدمة ، على الطوافات لتقود الذكور دون أن تشك بشيء ، وفصلت الطوافات بعدئذ عن الأرصفة . ورغم ذلك فان عبور هذه الحيوانات لم يمر دون حادث ؛ فقد وقع فيلان في الماء، الذي لم يكن لحسن الحظ عميقاً ، ولذا لم يصب الفيلان بسوى البلل . وبحلول الظلام كان العبور قد تم ، واجتمع الجيش بكامله على الضفة الثانية . وفي حادثة الفيلة هذه ، كما في سلوك هذه الحيوانات لدى القرطاجيين بوجه عام ، كما سنرى ذلك فيما بعد ، وبصورة خاصة في معركة زاما الحاسمة الفاصلة ، دليل على أن القرطاجيين لم يكونوا يحسنون تدريب الفيلة والمقاتلة بها ، وكانت لذلك عبئاً ثقيلاً عوضاً عن تكون سلاحاً يستفاد منه .

وجاءت الأخبار ، بعد العبور ، بأن أسطولاً رومانياً قد رسا عند مصبّ

نهـر الرون،وأن جيشـاً لرومـا يعسكر هنـاك،عند مسّيليـا،على بعد ٥٠ كيلومتراً تقريباً الى الجنوب من أرل[١] ، نقطة عبور هانيبال كما يظن .

الاستعدادات الرومانية للحرب

بدأ مجلس الشيوخ فأقر ، عـام ٢١٨ ق م ، مبدئيـاً تجنيد أربـع لجيونات ، للعمل في اسبانيا وأفريقيا . ولما كانت الأطراف الأخرى ، الأعضاء في الكونفدرالية الايطالية ، مجبرة على امداد روما بلجيون مقابل كل لجيون رومانية ، فهذا يعني أن روما قد بدأت استعداداتها للحرب بثماني لجيونات ، أي بحوالي ٥٠ ألف مقاتل راجل و ٢٥٠٠ خيال . وكان القنصلان القائدان في تلك السنة هما بوبيليوس كورنيليو شيبيو[٢] ، وسمبرونيوس لونكوس[٣] . وقد أجريت القرعة بين القنصلين ففاز شيبيو بقيادة الحملة الى اسبانيا ، وسمبرونيوس بقيادة الحملة الى أفريقيا . وكان من الواضح أن روما ، اعتداداً بنفسها واعتماداً على نجاحاتها في الحرب البونية الأولى ، كانت تتوقع أن تجري الحرب على نمط مماثل للذي جرت عليه أبان الحرب السابقة ، أي تكون روما مهاجمة وفي يدها زمام المبادرة ، بينما تبقى قرطاجة على الدفاع ، مسيرة لا مخيرة . ومن المستبعد أن يكون قد خطر لروما أي خاطر ولو غامض عن نوع الخصم الذي كان في طريقه اليها ، وبأنه كان ينوي نقل الحرب الى ديارها بالذات .

تألفت حملة شيبيون من لجيونتين ، و ١٤ ألف جندي راجل حليف ، و ١٥٠٠ خيال ، و ٦٠ سفينة من ذوات الطبقات الخمس[٤] . أما حملة سمبرونيوس فتألفت من لجيونتين ، و ١٦ ألف جندي راجل حليف ، و ١٨٠٠ خيال حليف ، و ١٦٠ سفينة حربية خمسية ، وأمر بالتوجه الى صقلية ، ثم

---

(١) ARLES.

(٢) Publius Cornelius Scipio والد شيبيو الأفريقي .

(٣) Sempronius .

(٤) Quinquereme : ٣٠٠ بحار و ١٢٠ جندياً بحرياً .

الانطلاق من هذه الجزيرة الى غزو أفريقيا . وقد حدث في روما ، في هذه الأثناء ، بعض التردد والارتباك بسبب أنباء سيئة جاءت من وادي نهر بو . كانت روما قد شرعت بزرع مستوطنين في بلاشنتيا[١] وكريمونيا[٢] ، في مناطق أخذت حديثاً من الغاليين . هذا الاستيطان ، بالاضافة الى مساعي رسل هانيبال وما حملته للغاليين من وعود ، أثارت قبائل البوئي[٣] والانسوبريي[٤] وحملتها على الثورة ، فقامت بمهاجمة المستوطنين الرومان ، وكان أن هرب السكان والتجأوا الى داخل أسوار موتينا[٥] . وقد تحرك البريتور [٦] مانليوس فاليو مسرعاً الى نجدة موتينا ، فوقع في كمين أثناء الطريق ، وأصيب بخسائر فادحة ، واضطر الى الالتجاء والتحصن في تانيتوم[٧] .

أبحر شيبيو مع قواته ، ماخرا بسفنه الحربية وسفنه الناقلة على محاذاة الساحل ، الى أن وصل الى ميناء مسيليا (مرسيليا اليوم) حليفة ايطاليا ، على مصب نهر الرون . وهناك توقف للتزود بالمؤن ، وللسماح لقواته ببعض الوقت للراحة واستطلاع المدينة . وفي مسيليا جاءت الأخبار بأن هانيبال ، الذي كان يعتقده موجوداً في اسبانيا ، كان على العكس يجتاز جبال البرنس في طريقه الى ايطاليا .

لم يقلق شيبيو لهذه الأنباء كثيراً . كان لا يزال حتى ذلك الوقت يبني أحكامه وتصوراته على أساس تجاربه السابقة مع الغاليين . وقد ظن أن هانيبال سيضطر الى شق طريقه بالقوة عبر غاليا ، وأن لديه لذلك مزيداً من الوقت لاعتراض الجيش القرطاجي حيث يريد . وقد بادر فأرسل مفرزة من الخيالة للاستطلاع حتى نهر الرون ، فاشتبكت هذه المفرزة مع خيالة هانيبال

---

(١) Placentia.

(٢) Cremonia .

(٣) Boii .

(٤) Insubrii .

(٥) Mutina .

(٦) وظيفة منتخبة تلي مرتبة القنصل أهمية .

(٧) Tannetum .

النوميدية ، وأعطى هذا الاشتباك كل طرف علماً بوجود الطرف الآخر . وقد خيل لشيبيون أن الجيش القرطاجي موجود عند نهر الرون ، فاستنفر قواته ، وسار شمالاً باتجاه النهر يقصد المعركة ، تاركاً سفنه عند مسيليا ، غير أنه وصل متأخراً . فقد علم عند وصوله الى النهر أن هانيبال قد سبقه بمسافة ثلاثة أيام . وهنا وجد القنصل نفسه أمام عدة خيارات : هل يلاحق القرطاجيين ليشتبك بهم ، أم هل يمضي متابعاً مهمته الأصلية الى اسبانيا ، أو هل يرجع أدراجه بحراً الى ايطاليا ليستعد لمواجهة هانيبال في حال نجاح هذا الأخير في اجتياز جبال الألب ؟! .

كان الاحتمال الأول غير جذاب . . كان يعني الحركة عبر أراضي لا يعرف عنها شيئاً ، وفي طلب جيش لا تعرف وجهته بالضبط . وقد توصل شيبيو بعد اعمال الفكر الى قرار كان صحيحاً من الناحية الاستراتيجية ، وذا تأثير حاسم على مصير الحرب لصالح روما ككل . لقد عمد فأرسل جيشه مع شقيقه الأكبر الى اسبانيا ، وقفل هو عائداً الى روما مع بعض الحرس ، لتنظيم الدفاع في مناطق ايطاليا الشمالية .

وهنا سؤال هام لا بد من طرحه ، وهو لماذا لم يحاول هانيبال تدمير جيش شيبيو ، قبل أن يتابع هذا الجيش طريقه الى اسبانيا ؟! . فقد كان القرطاجيون يتفوقون على الرومان عدداً. وعلى افتراض أن هانيبال لم يكن على علم بعدد قوات شيبيو ، بعد أن هزمت طلائعه كشافة الرومان ، لكن كان بوسعه أن يتوصل الى تقدير مقبول لقوة من مستوى جيش قنصلي . وعلى أساس هذا فانه لا يسع المرء الاّ أن يرى في تدمير ذلك الجيش الروماني عملاً استراتيجياً جيداً من مختلف الأوجه ، أهمها ازالة التهديد لخطوط مواصلات هانيبال ولقاعدته الاسبانية الحيوية ! . فلماذا لم يتعرض هانيبال لذلك الجيش ؟! . لا جواب لدينا على هذا التساؤل . . ولا شك أن هانيبال كان قد فكر وتمعن في الأمر . . وربما يكون قد ارتأى أنه ليس من الحكمة ، في هذه المرحلة ، أن يركب أية مجازفة مع جيشه . . لقد كان عند نهر الرون في أرض معادية ، ولا استطاعة لديه للتعويض محلياً عن خسائره . وكان يأمل ، بعد

اجتيازه لجبال الألب ، أن يمده حلفاؤه الغاليون هناك بما يعوضه عما قد يلحق به من خسائر بسبب مسيره عبر الجبال . . ولربما اعتقد أيضاً ، أنه بمتابعة سيره فانه سيجر جيش شيبيو خلفه ، فيدمره بالتالي في معركة يختار زمانها ومكانها بنفسه . الا أنه مهما كانت أعذاره ومبرراته ، فقد ارتكب على كل حال خطأ استراتيجياً وتكتيكياً كبيراً ، خطأ كان سبباً رئيسياً ان لم يكن السبب الأول في اخفاقه ، وفشل حملته وهزيمته مع بلده آخر الأمر ! . لقد كان عليه أن يجعل من تدمير جيش شيبيو شرطاً لمتابعة مسيرته وخططه صوب ايطاليا ! .

كانت أقصر الطرق الى ايطاليا ، اعتباراً من نقطة عبور هانيبال لنهر الرون ، تمر في وادي نهر دورانس ومضيق جبل جينيفر . الّا أن هانيبال لم يسلك هذا الطريق ؛ فهو يمتد على مقربة من الساحل الواقع تحت سيطرة مسيليا والأسطول الروماني ، ويؤدي الى دفاعات رومانية قوية عند الوصول الى الأرض الايطالية ، مبتعداً في ذات الوقت عن أراضي أصدقاء هانيبال من الغاليين . ولذلك فقد اختار الطريق الأبعد الى الشمال ، بناء على مشورة صديقه « ماكيل » ملك البوئيين ، الذي جاء اليه ، بعد عبوره لنهر الرون ، ليكون دليله .

عبور جبال الألب

اتجه الجيش القرطاجي ، بعد أن عبر الرون ، يساراً وسار شمالاً حتى نهر دورانس ، ليعبر من ثم هذا النهر عند مدينة « أفينيون » ، ويتابع المسير على نفس الاتجاه ، على الضفة اليسرى لنهر الرون ، الى أن التقى بنهر دورن ، فانعطف عندئذ يميناً ، وسار على الضفة الجنوبية لهذا الرافد الى أن عبره على مسافة من مضيق كريمون . كان الجيش قد اقترب الآن من جبال الألب ، وهي في هذه المنطقة مكونة من سلسلتين . كان على هانيبال أن يعبر أول سلسلة صعوداً حتى المنحدرات الشمالية ، ثم هبوطاً حتىٰ الوادي الواصل بين السلسلتين ، ثم يبدأ بعبور السلسلة الثانية صعوداً من جديد حتى خط المرتفعات الثاني ، وذلك قبل الشروع بالهبوط الأخير حتى الأرض الايطالية .

التقى هانيبال ، عند اقترابه من السفوح الرئيسية الأولى لجبال الألب ، بأول مقاومة جادة ، من قبل قبائل أللوبروجس[1] ، وكان من عادتها اعتراض المسافرين ونهبهم . وقد تحصن هؤلاء الجبليون في الممر الرئيسي ، وأقاموا ينتظرون يدغدغهم الأمل بصيد ثمين ، بغنائم القافلة القرطاجية . علم هانيبال من كشافته أن الجبليين يشغلون دفاعاتهم نهاراً ، وينسحبون عند الغسق الى مأواهم الليلي ، الى مدينتهم الواقعة في كعب الوادي . وقد عسكر هانيبال بجيشه ، وبات به أول ليلة ، ليحمل الجبليين على الاطمئنان والاحساس بالسلامة أثناء الليل . وفي الليل التالي ، أبقى هانيبال الأضواء والنيران في معسكره مشتعلة ، وخرج يقود بنفسه رتلاً من المشاة ، صاعداً جوانب المضيق ، ليستولي على المواقع المخلاة من أصحابها وقد ذهبوا الى فراشهم . كان الصعود عسيراً وخطراً ، وجرى على ضوء المشاعل ، ووقعت اصابات ، لكن بلغت القمة في النهاية وأُشغلت بقوة . أعطى هانيبال بعدئذ اشارة ضوئية ، فأخذ القسم الرئيسي من الجيش حالئذ في عبور المضيق . وقد استحال اتمام هذا العبور كاملاً قبل طلوع الفجر ، عندما بدأ الجبليون يفدون من منازلهم عائدين في طريقهم الى احتلال مواقعهم الدفاعية . وهكذا فوجىء القرطاجيون ، وأوقع الجبليون بقافلة الجيش أضراراً فادحة ، قبل أن ينقض عليهم هانيبال من عل ، لينزل بهم خسائر جسيمة ، ويتبعهم على الأعقاب الى داخل مدينتهم دون مقاومة جدية .

في هذه المدينة ، وجد هانيبال مواد وفيرة لتموينه عوضته عما فقده في القافلة ، واستراح فيها وجيشه يوماً وليلة قبل أن يتابع المسير . وقد خيل اليه ، في بادىء الأمر ، أن الجبليين قد اتعظوا بالدرس الذي تلقوه ، اذ جرى المسير في اليوم التالي دون حادث ، واستمر كذلك حتى مضيّ اليوم الرابع على مغادرة المدينة ، قبل أن يتعرض الجيش الى أي حادث مقلق جديد . ففي ذلك اليوم جاء الى هانيبال وفد من الجبليين يحمل الأغصان الخضراء كرمز للاستسلام والسلام ، ويعرض أدلاء ومرشدين ليسيروا به خلال الممرات

---

(١) Allobroges .

الجبلية المتبقية . ومع أن هانيبال كان يشك في نواياهم ، لكنه اضطر رغم ذلك الى قبول عرضهم ، لأنه كان حائلذ بلا أدلاء بعد أن غادره وفد قبائل البوئي ليسبقه الى قبائله ويعد لاستقباله . ولا يعرف لماذا لم يطلب هانيبال من هذا الوفد أن يترك معه بعض الأدلاء ، ولا كيف رضي أن يبقى بلا دليل يركن اليه ! .

رضي هانيبال مكرهاً أن يسير بهداية الجبليين الأللوبروجس ، مع القيام على الحذر والتحسب لكل طارىء . وهو لو استمر يسير على الطريق التي كان يسلكها قبل اصطدامه بالجبليين ، لكان اجتاز قمم السلسلة الثانية دون كبير عناء . لكن الذي حصل هو أن الجبليين ساروا به في طريق أخرى ، مباشرة الى كمين كانوا قد أعدوه له .

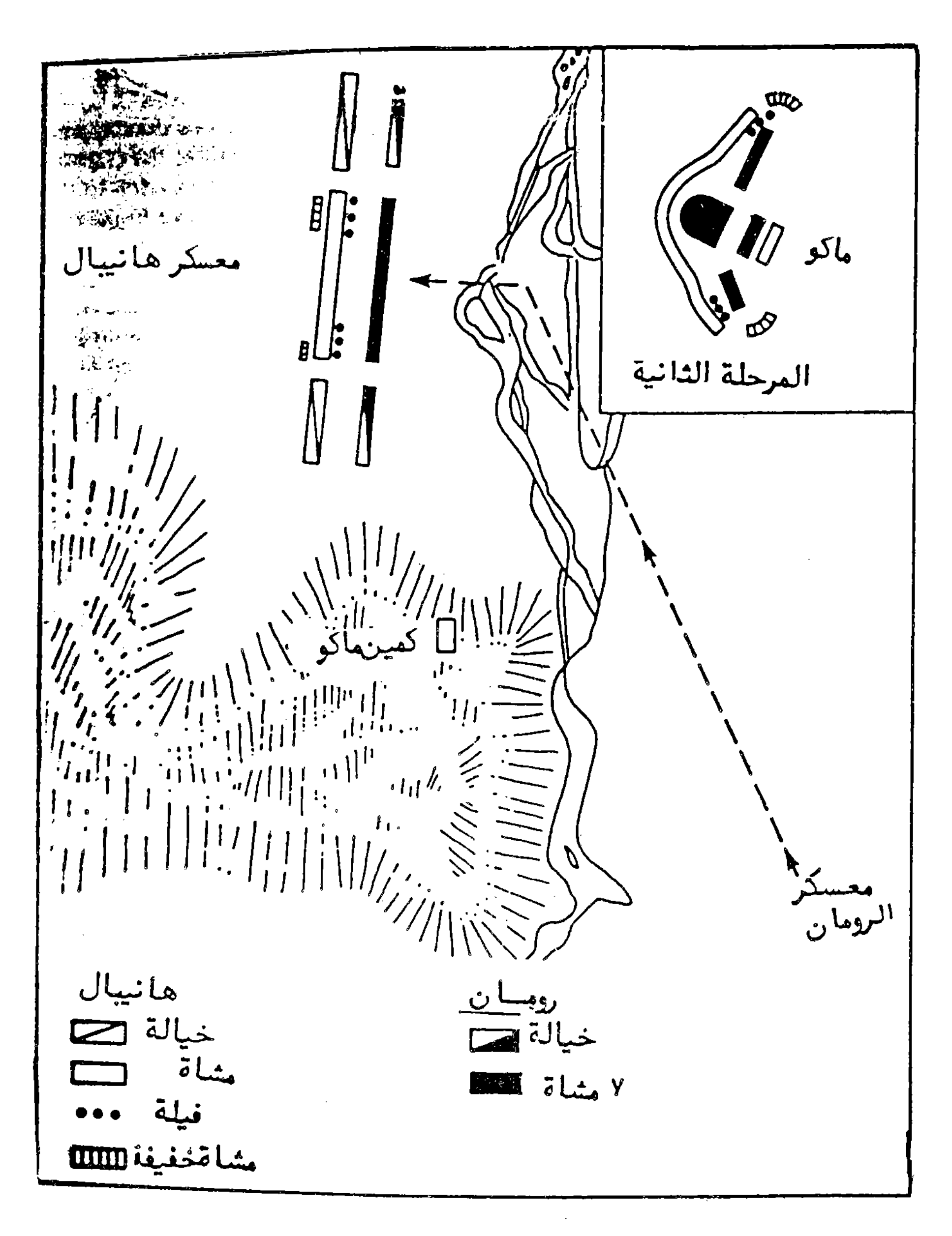
وهكذا ، وبينما كان الجيش ينساب بطيئاً شاقاً طريقه بمشقة وحذر خلال ممر ضيق ، بين جدار صخري مرتفع أملس من جهة ، وهاوية سحيقة من الجهة الأخرى ، واذ برجال الأللوبروجس ينقضون عليه . كانت ترتيبات المسير ، لحسن الحظ ، على مستوى الحدث . كانت الخيالة في المقدمة ، تتبعها العربات والدواب ، وكانت المشاة ، وهي القسم الأعظم من القوات ، تلي في المؤخرة . وقد استطاعت المشاة ، عند بدء الهجوم من قبل الجبليين ، أن تتقدم حتى مواضع تغطية للقافلة . ورغم ذلك فقد كانت الخسائر باهظة ، واستمر القتال طوال النهار التالي بكامله .

وأخيراً ، وبعد ثمانية أيام على مغادرة مدينة الأللبروجس ، انسحب هؤلاء من القتال ، وأمكن للجيش القرطاجي المنهك أن يتابع طريقه صاعداً حتى أعلى ممرات الألب . كانت السنة قد قاربت على نهايتها ، والقمم مغطاة بالثلوج ، والجو قارص شديد البرودة . إن الصعود حتى الذروة كان شديد الصعوبة في حد ذاته ، لكن المسير نزولاً على الجانب الآخر كان بمثابة كابوس . كانت الدواب والعربات تتزحلق وتنزلق على الجليد المتراص الغدار ، والمضيق في بعض النقاط مستحيل العبور ، مما كان يضطر الجيش الى الوقوف والانتظار الى أن يقوم المهندسون ، بكل صعوبة ، ببناء أو شق

طريق جديد . كانوا يزيلون الصخور بتحميتها بالنار وصبّ الخل عليها . ومن السهل أن نتصور مبلغ الصعوبة والمشقة في مثل هذا العمل،على ذلك الارتفاع ، لأناس لم يعتادوا العيش بين الجليد والصقيع ، وان استمرار الحركة ، في مثل هذه الشروط والظروف لدلالة على ما كان يتمتع به هانيبال من شخصية قوية ومن سيطرة على ضباطه وجنده .

عندما وصل الجيش القرطاجي الى الأرض السهل في الجانب الايطالي ، وخلص من محنته في جبال الألب ، لم يكن قد بقي من مجموع تعداده سوى ٢٠ ألفاً من المشاة ، و ٦ آلاف خيال . لقد كلف اجتياز الألب ١٨ ألفاً من المشاة ، وألفين من الخيالة ، وجميع الفيلة تقريباً . كانت تلك تكلفة لا تقل عن تكلفة هزيمة شديدة في معركة عنيفة . كان الجيش ، بعد اجتياز الجبال ، تعباً منهوكاً أشعثاً ، كأنه بقية هزيلة جديرة بالشفقة ، لا شبه له مع ذلك الجيش القوي المفعم حيوية ونشاطاً ، والذي عبر نهر الأبرو لأشهر خلت . كانت الخسائر بالفعل جسيمة ، لكن هذه البقية الباقية كانت نواة صلبة ، وأداة طيعة في يد قائدها الشاب . ولقد أمكن تعويض الخسائر بالتجنيد محلياً من لدن الغاليين سكان ما وراء الألب ، وكان هؤلاء حلفاء لهانيبال وراغبين في الاحتراب الى جانبه .

وهنا لا بد من ملاحظة مفارقة بارزة ، بين أسلوب الاسكندر الكبير في العمل وبين أسلوب هانيبال . كان الاسكندر يتقوى مع كل خطوة ومرحلة باضطراد ، منتقلاً من قوة الى قوة أكبر ، ومن طاقة الى طاقة أعظم ، على عكس هانيبال ، الذي كان ، كما رأينا ، ينتقل في القوى والطاقة من ضعف الى ضعف . وكان الاسكندر لا يتوجه الى أي مكان ، ولا يطرق أرضاً لم يطرقها من قبل ، الاّ بعد أن يحصل على المعلومات والخرائط الدقيقة المستفيضة ، وبعد أن يضع يده على الأدلاء الموثوقين . أما هانيبال فكان ، وهو في مستهل مغامرته ، تنقصه المعلومات عن الأرض المجهولة التي كان عليه أن يجتازها ، ويعتمد في مسيره على أدلاء لم يسبق له أن خبرهم وامتحن اخلاصهم ، ثم يقع في كمين يقوده اليه أعداء الأمس .



معركة تريبيا ۲۱۸ ق م

الفصل السابع

المعارك الأولى في ايطاليا

معركة تيشينوس - معركة تريبيا - مناقشة المعركة - بعد المعركة

OOOOOOOOO

وصل هانيبال أخيراً الى ايطاليا ، بعد ان عانى الكثير من الخسائر والمشقات . وكان ينتظر ان يلقى في استقباله صديقه ماجيل ، ملك البوئيين ، مع وفود غفيرة من الغاليين . ولكنه لم يجد في استقباله أحداً ، فلم يحط ذلك من عزيمته ، ورأى ان لا يضيع الوقت في الانتظار والاستفسار .

بدأ أولاً بمنح الجنود بضعة أيام للاستراحة والاستجمام من وعثاء السفر وعنائه . ثم انتقل بالجيش بعدئذ الى مناطق قبائل الأنسوبري ، ليجد ان الحرب مشتعلة بين هؤلاء وبين جيرانهم قبائل « توريني » . وقد حاول هانيبال ، بالاقناع في بادىء الأمر ، ان يصلح بين الفريقين ، لكن التوريني رفضوا كل تسوية . ولما يئس هانيبال منهم ، قام فزحف على منطقتهم وهاجم مدينتهم ، واقتحمها بعد حصار ثلاثة أيام ، جاعلاً من أهاليها طعماً لحد السيف . وقد أرهب بهذه العملية جميع قبائل غاليا فيما وراء الألب ، وحملهم على الاقرار بسلطانه .

وما كاد هانيبال ينتهي من هذه العملية ، حتى جوبه بخصم أشد وأخطر . كان بوبليو شيبيو قد توجه ، بعد مسيليا كما سبق ، مسرعاً لاستلام

قوات القنصل مانيليوس . وقد يكون قد فكر بعدئذ بالحركة لانتظار هانيبال عند خروجه من جبال الألب ، لكن يبدو انه عاد فغيّر رأيه بعد رو ية وامعان فكر . فقد كان عليه ، لو أصر على ذلك الرأي ، ان يسير في منطقة معادية ومجهولة ، في جو عاصف قاسي ، أضف الى ذلك ان قيادته الجديدة كانت ضعيفة عددياً ، ومنحطة المعنويات بفعل ما سبق من فشلها في ملاحقة الغاليين ومحاربتهم .

كانت حملة هانيبال ، حتى هذه اللحظة ، قد صرفت أنظار روما ، ولو مؤقتاً ، عن التفكير بغزو أفريقيا . وكان شيبيو ، حتى هذه اللحظة أيضاً ، لا زال على جهل بكل شيء عن القرطاجيين . وقد عبر بجيشه نهر بو عند مدينة « بلاشنتيا » ، وأخذ يتقدم بحذر شديد صوب نهر تيشينوس ، الذي يخرج من بحيرة ماجيورة ، ويصب في نهر « بو » قريباً من مدينة بافيا . وعندما وصل شيبيو الى هذه النقطة ، شرع في بناء جسر فوق تيشينوس ، وكذلك بناء دفاعات ميدانية لتغطيته . ولما انتهى من ذلك سار مبتعداً مسافة ٨كيلومترات ، ثم توقف ليعسكر . كان هانيبال ، في هذه الأثناء ، يتحرك نزولاً على الضفة اليسرى لنهر بو ، وفي نيته ان يحمل الرومان على خوض المعركة ، بقصد تدميرهم او ارجاعهم الى ما وراء النهر ، وذلك حباً في ان يظهر للغاليين انه الطرف الأقوى .

معركة تيشينوس

كان قد توفر الآن ، لكل طرف ، بعض البيانات والمعلومات عن أوضاع الطرف الآخر ومكان وجوده ، لكن بصورة غير دقيقة . وحدث ان قرر الطرفان ، في نفس اليوم ، القيام باستطلاع خيالة بالقوة ، وقد أدى ذلك القرار الى نشوب معركة تيشينوس .

كانت أعمدة الغبار أول الاشارات بوجود كلا الطرفين حيال بعضهما البعض ، فبادر القائدان الى التوقف ، والى الانتشار بقصد القتال . رتب شيبيو قواته ، فوضع مشاته الخفيفة القليلة العدد في المقدمة ، والخيالة خلفها ،

على نسق واحد من الكوكبات ، بفواصل بينها ، الفرسان الغـاليون في الوسط ، والفرسان الرومان على كلا الجانبين . اما هانيبال فقد وضع خيالته الثقيلة في الوسط ، على نسق بجبهة ٦٤خيالاً ، بفواصل بينهم ، ومنتشرين على عرض الجبهة الرومانية ، ووضع الخيالة النوميدية الخفيفة على كلا الجانبين ، متجاوزاً بهذا مجنبات الخصم . وما ان فرغ من ذلك حتى أمر بالهجوم .

أخذ القرطاجيون يتقدمون خفافاً سراعاً ، فما كان من المشاة الرومانية الا ان انفرط عقدها ، وراحت متراجعة الى الوراء دون ان تطلق اية قذيفة . لكن الخيالة الرومانية تقدمت بثبات واشتبكت مع الخيالة القرطاجية في التحام قريب . وكانت ملحمة قصيرة لكن دامية ، أصيب فيها شيبيو بجروح خطرة ، وكاد ان يهلك ، لولا ان أنقذه ابنه المنتصر فيما بعد في معركة زاما . وكان النوميديون في هذه الأثناء قد التفوا على جانبي الرومان ، ليفتكوا بمشاتهم الخفيفة ، وينقضوا بعدئذ على مؤخرة الرومان . وكان ان تقهقر هؤلاء ، الاّ أنهم استطاعوا ان ينسحبوا بانتظام .

كانت هذه المعركة ، في حقيقة الأمر ، اشتباكاً محدوداً ، أهميتها الوحيدة انها كانت أول اصطدام بين الطرفين على الأرض الايطالية ، وانها أعطت هانيبال انتصاراً سهلاً ، فرفعت معنويات جنوده ، وأثارت اعجاب الغاليين ، وبذلك حقق القرطاجيون كسباً معنوياً واحتراماً محلياً . وقد أخطأ شيبيو باقدامه على هذا الاشتباك نظراً لتفوق خصمه عدداً ، وقد قبل بذلك لإسرافه كما يبدو في الثقة بنفسه وازدراء خصمه ، وكان ان أصيب من جراء ذلك ولا شك بصدمة قاسية .

وكان رد فعل شيبيو ، بعد هذا الاشتباك ، في منتهى التطرف . فقد تخلى للحال عن كل أمل بعمل ناجح شمال نهر بو ، وكان حكيماً فى ذلك ، لتفوق هانيبال بنسبة كبيرة في الخيالة ، وبادر فانسحب بجيشه عبر نهر تيشينوس . ترك شيبيو عند هذا النهر مؤخرة من ٦٠٠ مقاتل ، مع تعليمات بتدمير الجسر الذي كان قد أقامه بكثير من التعب والجهد ، وتحرك متجهاً الى

جسر السفن مقابل مدينة بلاشنتيا ، ومن ثم ليعبر عليه قاصداً القسم الجنوبي من نهر بو . وكان هانيبال لا يتوقع ان يقوم الرومان بمثل هذا التراجع المتسارع ، ولذا كان يتحرك ببطء وحذر شديدين ، ويعتقد باحتمال وقوع اصطدام عام عند نهر تيشينوس نفسه . وقد تأخر من جرّاء ذلك عن اللحاق بشيبيو وحمله ، كما كان يأمل ، على خوض معركة بمعظم قواته . لكن هانيبال نجح بتدمير المفرزة التي تركها شيبيو وراءه لتقويض الجسر . وقد بلغت خسائر الرومان بنتيجة هذه الاشتباكات زهاء ألف قتيل . وقد عمل انسحاب شيبيو ، بتلك الصورة العاجلة المتسارعة ، على تحرير الغاليين من عقدة النقص والتخوف تجاه الرومان ، فتسارعت حشودهم الى المعسكر القرطاجي مرحبة ومؤيدة .

معركة تريبيا

بعد عبوره لنهر تيشينوس ، تحرك هانيبال غرباً ، صاعداً على الضفة اليسرى لنهر بو ، بحثاً عن نقطة عبور . وبعد مسيرة يومين ، وجد المكان المناسب فنصب جسراً من الطوافات ، وعبر الى الضفة الثانية ، ثم تحول شرقاً ، ليسير على ضفة النهر اليمنى ، طلباً لشيبيو وجيشه . كان شيبيو في هذه الأثناء عاملاً من جهته على تجنب أي اشتباك ، بانتظار ان يجتمع بالقنصل سمبرونيوس وقواته. وكان قد تراجع الى معسكره قرب بلاشنتيا ، متقصداً وضع نهر تريبيا عازلاً بينه وبين القرطاجيين . غير ان الخيالة النوميدية كانت تلاحقه عن قرب ، فاضطر الى مغادرة المعسكر ولو متأخراً ، ولو لم يتوقف النوميديون منشغلين بنهب المعسكر الروماني ، لكانوا فاجأوه أثناء المسير ، ولكانوا ألحقوا به أضراراً كبيرة . وكانت الصورة العامة للطرفين بعد ذلك كما يلي :

ـ شيبيو يخيم أول الأمر غرب نهر تريبيا ، ثم ينسحب شرقاً عبر النهر ، مع الاحتفاظ بمواصلاته مفتوحة مع زميله سمبرونيوس ، وكان هذا الأخير يتحرك باتجاه شيبيو ، آتياً من جهة الجنوب الشرقي . وكان هانيبال آتياً من

جهة الغرب ، وقد أدرك شيبيو عند منابع النهر . أسرع القائد القرطاجي فرتب جيشه ، ودعا القائد الروماني الى المعركة ، غير ان شيبيو أبى ذلك ، لأنه لم يكن في نيته ان ينساق الى أية معركة قبل اجتماعه بسمبرونيوس ، وقد عمد فبنى معسكراً حصيناً محمياً من الخيالة القرطاجية بالنهر وبمرتفعات جبال الأبنّين ، وأقام فيه بأمان واطمئنان . وربما كان السبب المباشر لانسحاب شيبيو عبر نهر تريبيا هرب القوة الغالية التي كانت عاملة معه ، وكان تعدادها حوالي ٢٠٠٠راجل و ٢٠٠خيال . كانت هذه القوة قد تمردت أثناء الليل ، فقتلت الحراس وضباطهم الرومان ، وهربت لتلتحق بهانيبال . وقد استقبل هانيبال هؤلاء الغاليين بالحفاوة والتكريم ، وصرفهم الى مواطنهم محملين بالهدايا ليكونوا رسلاً الى أهلهم وذويهم ، ودعاة لقومهم بالانضمام اليه وعوناً على تحقيق أهدافه ومشاريعه . وقد ساعد هذا الحادث على تسهيل تموين هانيبال بالغذاء والطعام الى حد ما ، كما توطد وضعه من هذه الناحية عندما قام القائد الروماني لمستودع الحبوب ، في كلاستيديوم ، ببيعه المخازن وما كان فيها بمبلغ ٤٠٠قطعة ذهبية . ومن العدل القول بأن ذلك القائد ، واسمه داسيوس ، لم يكن رومانياً بالمولد ، وأصله من مدينة برنديزيوم في جنوب ايطاليا . وقد رأى هانيبال في تلك الخيانة علامة طيبة تدل على وجود مشاعر معادية لروما في تلك المنطقة ، الاّ انه لا يستبعد ان كان الأمر مجرد تصرف شخصي بدافع الطمع وحب المال .

يكتنف الغموض تحركات القنصل سمبرونيوس قبل اجتماعه بشيبيو . كان في جزيرة صقلية عندما تبلغ أوامر مجلس الشيوخ ، وقد انتهى لتوه من القضاء على تهديد قرطاجي للجزيرة ؛ فقد كانت ٢٠سفينة قرطاجية ، من ذوات الاربع طبقات ، قد ظهرت على مقربة من الشاطىء الصقلي ، تبتغي كما كان يبدو اعادة الاستيلاء على قاعدة القرطاجيين السابقة في مدينة ليليبائوم . ومن سوء حظ قرطاجة ان هذه السفن قد تعرضت الى عاصفة هوجاء ، فتبدد شملها شذر مذر ، وجنحت ثلاثة سفن منها الى الشاطىء ، لتقع غنيمة في يد هيارو طاغية سراقوسة ، الذي بادر حالاً باعلام حلفائه

الرومان بالخطر . وقد أسرع الرومان فهاجموا السفن الأخرى الباقية وعددها ١٧ ، على البحر على مسافة من ليليبائوم ، مغرقين سبعة منها ، وآخذين ١٧٠٠أسير . وقد أعقب سمبرونيوس انتصاره هذا بالابحار الى مالطة ، وأخذها عنوة من يد القرطاجيين .

لا يعلم بالضبط كم كان عدد القوى التي كانت بأمرة هذا القنصل الروماني . كان كل ما عرف ان قائد حامية مالطة القرطاجي ، واسمه هاميلكار جسكو ، قد استسلم دون قتال مع ٢٠٠٠ من رجاله . ولما عاد سمبرونيوس بعد هذا الانتصار الى صقلية ، وجد بانتظاره أوامر من روما تستحثه على الاسراع الى الشمال . والاعتقاد هنا ان سمبرونيوس سارع فأرسل جيشه بحراً عبر الأدرياتيك الى مدينة أريمينيوم ، ليلتحق به بحراً ، بعد بضعة أيام ، بعد ان انتهى من وضع بعض الترتيبات الدفاعية وقاية للجنوب الايطالي من الاعتداءات القرطاجية البحرية. وقد وصل سمبرونيوس وجيشه الى أريمينيوم في أوائل كانون أول ، ثم تحرك من هذه المدينة ، صعوداً باتجاه الشمال الغربي ، ليجتمع مع شيبيو عند نهر تريبيا ، في منتصف الشهر تقريباً .

وكان ما حدث ، بعد ذلك ، تعبيراً عن طبيعة سمبرونيوس وعن مهارة هانيبال في التعامل معه . كان سمبرونيوس هو القائد العام ذلك اليوم ، وينتمي الى حزب الشعب ، في حين كان شيبيو عضواً في حزب النبلاء . لا يعني هذا ان سمبرونيوس كان من أصل وضيع ، ولو ان عائلته لم تكن من مستوى عائلة شيبيو اجتماعياً ، وانما يعني انه كان قليل الخبرة بالأمور العسكرية ، وكثير الطموح راغباً في الوصول الى العلى بأقصى السرعة . كان الانتخاب القنصلي تلك السنة قريباً ، وكان من المحتمل حدوث تبدل في القيادات ، ولذا كان من المهم ان تنشب المعركة بسرعة ، بحيث يعود الفضل بالانتصار الى سمبرونيوس وحزبه وليس الى القناصل الذين قد ينتخبون جديداً . وكان شيبيو في هذه الأثناء مقعداً عن القتال في معسكره ، بسبب الجروح التي أصيب بها في اشتباك تيشينوس . كانت خبرة سمبرونيوس مع القرطاجيين ، ولو محدودة حتى الآن ، قد حطت من اعتبارهم في نظره ، وحملته على الاعتقاد بحتمية

انتصاره عندما يتقابل الجيشان في خضم المعركة . ولم تنجح نداءات شيبيو ونصائحه بالتأني والروية ، وبالامتناع عن أية حركة بانتظار قدوم الربيع ؛ فقد رأى سمبرونيوس في كل ذلك أعذاراً واهية لجريح فاشل ، وكان مصمماً على خوض القتال فوراً . وكان هانيبال ، من جهته ، منصرفاً الى تدعيم هذا الاتجاه لدى خصمه .

كانت بعض القبائل الغالية نازلة خلف المعسكر الروماني ، وكانت موالية لروما . وقد بعث هانيبال بقوة من النوميديين لغزو هذه القبائل ، بقصد تلقينها درساً وحملها على ادراك ما كان في موالاتها لروما من خطر على مصالحها . وعندما كانت هذه القوة الخيالة راجعة بعد انهاء مهمتها ، وهي مثقلة بالأسلاب والغنائم ، اعترضتها مفرزة من الخيالة الرومانية ، ووقع اشتباك بين الفريقين . وقد ارتد النوميديون باتجاه مفرزة من الخيالة القرطاجية الثقيلة كانت تساندهم ، ثم أخذ الجميع ، نوميديين وقرطاجيين ، يتقهقرون بكل مظاهر الفوضى والاضطراب . وهناك تساؤ ل عما اذا كان هذا التقهقر حقيقياً ، من جراء ضغط الخيالة الرومانية المدعومة بمشاة اللجيونات ، ام كان مجرد حيلة وخدعة جرتا بأمر من هانيبال وتخطيطه ! . ومهما كان السبب ، فإن هذا الاشتباك ترك انطباعاً بأن القرطاجيين عازفون عن القتال ، وان هانيبال متخوف من ملاقاة القنصل سمبرونيوس في ميدان المعركة . وكان القائد القرطاجي ، على العكس من ذلك ، مصمماً على القتال على أرض يختارها بنفسه ، وقد حمل الرومان على مهاجمته في المكان الذي وقع عليه اختياره .

ان تريبيا نهر صغير ، شبيه بغيره من أنهار ايطاليا الجبلية . كان قاع النهر عريضاً ممتلئاً بالحصى ، وماؤه ضحلاً في الصيف ، ولا يشكل ازعاجاً او عقبة في عبوره من قبل عابريه على الأرجل او ظهور الخيل . ولكن الوقت كان حينئذ أواخر أيلول ، وكان حجم النهر يختلف كلية عن حجمه في الصيف . كان سيلاً ضخماً من الأمواه المثلجة ، بعمق يصل حتى الرقبة في معظم الأماكن ، مشكلاً بذلك مانعاً مخيفاً لعبور الجيش . وكان هانيبال قد خطط لاستدراج الرومان عبر هذا النهر ، مبتدئاً هكذا بوضع الجيش الروماني في

وضع مربك وغير ملائم او مريح . وقد اختار المكان بعناية ، وعمل على الاستفادة من نهر تريبيا نفسه ، ومن مجرى مائي صغير كان ينساب بين التلال كموقع لكمين معد . كان قد وضع ، في اليوم السابق ليوم المعركة ، قوة من ألف راجل وألف خيال ، وجميعهم عناصر منتقاة ، بقيادة شقيقه الأصغر ماكو ، وكان يثق به كثيراً ، ككمين في ذلك الموقع ، مخفيين جميعاً عن أنظار الرومان . وهكذا أعدّ المسرح لمعركة تريبيا .

وفي فجر اليوم التالي ، استعد الجيش القرطاجي وانتظم للقتال . وبدأت المعركة بأن عبر النوميديون النهر على خيولهم ، مغيرين على المعسكر الروماني ، كبادرة تحدّ لسمبرونيوس واستفزاز لـه عساه يقبل التحدي ، هذا بينما كان معظم الجيش القرطاجي يتناول إفطار الصباح ، ويدلك الجنود أجسادهم بزيت الزيتون وقاية من البرد القارص . كان الطقس شديد البرودة ، وكان الهواء المثلج كرقاقات من الجليد معلقة في الهواء . وكان النوميديون يناوشون حول المعسكر الروماني ، وسريعاً ما قوبلوا بالخيالة الرومانية ، ومن ثم بالمشاة الرومانية الخفيفة على أعقاب الخيالة ، وعندئذ أخذ النوميديون المناوشون يتظاهرون ، تبعاً لتعليماتهم ، بالهزيمة ويتقهقرون باتجاه النهر . كان سمبرونيوس متعطشاً للقتال ، ولم يمكّن جنوده من تناول افطار الصباح ، وفي حين كانت خيالته ومشاته الخفيفة تتقدم مندفعة نحو نهر تريبيا ، عمد فدعا لجيوناته الى سلاحها ، وساقها مسرعاً على أعقاب مشاته الخفيفة وخيالته .

خاض النوميديون مياه النهر في تقهقرهم المزعوم ، وخاض الرومان على أعقابهم بسرعة وتهور ، شاقين طريقهم بصعوبة في المياه المثلجة ، ليعبروا حتى الجانب الثاني من النهر ، وينتشروا للقتال ، جياعاً ، مبللي الثياب ، يرتجفون من شدة البرد ، والمطر الشفشاف يضرب وجوههم ببرده . وفجأة اختفت الخيالة النوميدية ، منسابة على جوانب الجبهة القرطاجية ، ليواجه الرومان بهذه الجبهة وقد انتصبت للقتال كالبنيان المرصوص .

كان تعداد قوات هانيبال ، في هذه المعركة ، ٢٨ ألفاً من المشاة ، و١٠ آلاف خيال ، و ١٠ أفيال . وكان منهم حوالي ٤ آلاف خيال و ٨ آلاف مشاة

قد جندوا حديثاً من الغاليين. اما ترتيبه للمعركة فكان كما يلي :

- المشاة الثقيلة ، ٢٠ألفاً ، كتلة في جبهة واحدة .
- ٨ آلاف من المشاة الخفيفة ، تغطية للمشاة الثقيلة .
- خمسة أفيال أمام جبهة كل جناح .
- الخيالة موزعة بالتساوي على الجناحين .

وكانت قوات سمبرونيوس ، مؤلفة من ١٦ ألفاً من المشاة الرومانيين ، و ٢٠ ألفاً من الحلفاء الايطاليين ، و ٤آلاف خيال ، وكان الطرفان متعادلين هكذا في العدد تقريباً . وقد اصطف الرومان للقتال على الترتيب التالي :

- اللجيونات الرومانية والحليفة ، بالتشكيل التقليدي ، متناوبة على عرض الجبهة ، وبالنسق الثلاثي المعتاد .
- الخيالة موزعة بالتساوي على الجناحين .

ويجدر بنا هنا ان نحدد المراد من اصطلاح النسق او الخط ؛ فقد يعتبره البعض صفاً خطّاً من الرجال ، في حين يعني دائماً خطّاً من الوحدات . وقد يصل عمق كل وحدة ثمانية رجال أو أكثر ، وتظل التشكيلة معتبرة رغم ذلك خطاً او نسقاً واحداً . اما النسق او الخط بعمق الفرد الواحد فقليلاً ما يستعمل .

انتظر هانيبال حتى اكتمل عبور الرومان للنهر وانتشارهم للقتال ، ثم افتتحت المعركة بواسطة المشاة الخفيفة لدى كلا الطرفين . كانت مشاة الرومان الخفيفة قد استهلكت معظم قذائفها وهي تطارد النوميديين ، ولذا اضطرت الى الانسحاب بعد وقت قصير ، متراجعة الى الوراء من خلال الثغرات في خط المشاة الثقيلة . وعندئذ أمر سمبرونيوس هذه المشاة بالزحف الى الأمام بصورة عامة . ومع اندفاع خط اللجيونات في زحفها قدماً ، تراجعت المشاة القرطاجية الخفيفة بدورها ، لكن ليس من خلال ثغرات الجبهة كما فعلت مشاة الرومان ، وانما مرتدة على الجانبين ، حائلة بذلك دون قيام مشاة الرومان الثقيلة بالالتفاف حول المشاة القرطاجية الثقيلة .

ثم أغارت خيالة القرطاجيين من كلا الجانبين ، الخيالة الثقيلة في

المقدمة ، والخيالة الخفيفة خلفها . وقد تحطمت الخيالة الرومانية وانفرط عقدها عند أول صدمة ، وكانت أقل عدداً بنسبة واحد الى اثنين ، ومتعبة من جراء مطاردتها للنوميديين ، فتضعضعت بسرعة ، وولت هاربة راجعة باتجاه النهر ، والخيالة القرطاجية على الأعقاب . وجرى ، في ذات الوقت ، هجوم على الجانبين الرومانيين من قبل النوميديين والفيلة والمشاة الخفيفة .

لقد ناور هانيبال بحركة التفاف تقليدية ، وهو تكتيك كان يلجأ اليه مراراً وتكراراً بمهارة بالغة . وقد برزت في هذه المعركة ايضاً مهارة اللجيون وبسالتها على أحسن صورة . فلقد أوقفت من الأمام ، وانهار جناحاها كلاهما ، ورغم ذلك فقد وقفت راسخة في مكانها ، وظلت ثابتة بنجاح الى ان فوجئت بظهور ماكو والألفين اللذين كانا معه من مكمنهم ، لينقضوا بعنف على مؤخرة الرومان . وكانت هذه المفاجأة بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير ، فتحطم النظام والارتباط داخل اللجيون ، وأخذ جيش سمبرونيوس ينهار ، وذلك في الوقت الذي كان فيه حوالي ١٠آلاف روماني تقريباً ، في وسط الجبهة ، ومن قوات النسقين الأول والثاني ، يشقون طريقهم عبر الوسط القرطاجي المؤلف من الغاليين . وعندما رأى هؤلاء الرومان ان الانهيار قد حلّ ببقية الجبهة ، وان المعركة قد خسرت ، وان رجوعاً الى معسكرهم عبر النهر غدا أمراً غير ممكن ، فقد استمروا حالئذ على شق طريقهم بكل انتظام ، ونجحوا ناجين بأنفسهم حتى بلغوا أسوار بلاشنتيا .

وأمّا ما تبقى من جيش سمبرونيوس ، فقد نجح قسم قليل منه ، كان معظمه من الخيالة ، بشق طريقه عبر مياه تريبيا المثلجة ، ليلتحق بشيبيو في معسكره . كانت خسارة الرومان حوالي ٢٥ألفاً ، بحيث تلاشى جيش سمبرونيوس كقوة مقاتلة . وكانت خسائر هانيبال ثقيلة أيضاً ، ولو بنسبة أقل ، وكانت غالبيتها من الغاليين الذين كان من السهل استبدالهم ، والذين أخذوا منذ ذلك الوقت يشكلون مادة الاستهلاك حرصاً على سلامة الاسبانيين والأفريقيين . وكان ذلك سياسة متعمدة وتدبيراً مقصوداً ، لكن كان لا مفر منه على قساوته وتغرضه ، اذ لم يكن باستطاعة هانيبال ان يستبدل عناصر جيشه

الاسبانية والأفريقية بعناصر بديلة من نوعها ، وكان الجيش يفقد ، بدون هذه العناصر ، حده الرئيسي القاطع .

مناقشة المعركة

جرت معركة تريبيا كتمثيلية مسرحية ، بفصول واضحة متتالية ، وتم التمثيل والاخراج بمهارة كبيرة ، من قبل فنان كبير . وقد اتخذ هانيبال كافة الاحتياطات بحيث وضع كافة الميزات والحسنات الى جانبه ؛ فالماء المثلج ، والألبسة المبللة بالماء للنيل من معنويات جنود سمبرونيوس ، والطعام الساخن الطازج للجنود القرطاجيين قبيل المعركة . . الكمين الجيد لماكو ، اللعب على طبائع الخصم واعتداده المفرط بنفسه مع قلة خبرته . . كل ذلك قد حيك وحبك لتكون النتيجة معروفة ومفروغاً منها منذ ان ابتدأت المعركة . ورغم كل ذلك فإن هذه النتيجة لم تكن بالأمر الهين كما تصور هانيبال ، وقد ظهرت الخواص النضالية لمشاة اللجيون بمثابة صدمة ومفاجأة له ، ولكنه استفاد من هذه المعركة ، اذ استخلص منها درساً وعبرة كان يرجع اليهما عند الاعداد لمعاركه فيما بعد . ولا يعلم سبب سماح هانيبال لعشرة آلاف جندي راجل روماني باختراق صفوفه ، والنجاة بأنفسهم حتى مدينة بلاشنتيا ، دون ان يطاردهم بخيالته ويقضي عليهم ! .

وفيما يتعلق بسمبرونيوس ، فقد كان مغالياً في ثقته بنفسه وقواته ، وراح ضحية لحيل هانيبال وخداعه وتظاهره بالتردد والضعف . الاّ ان نجاح القلب الروماني باختراق جبهة هانيبال والوصول سالماً حتى مدينة بلاشنتيا ، هذا الأمر يبين ان ثقة سمبرونيوس بجنوده لم تكن كلية في غير محلها ، وان انتصاراً رومانياً في ذلك الوقت ، كما كان سمبرونيوس يتوخى ، كان من شأنه ان يضع حداً للتهديد القرطاجي منذ أوّل الأمر ، كما كان من المحتمل ان يؤدي انتصار كهذا الى حل للقضية الغالية بصورة نهائية .

لم يكن تطلب سمبرونيوس للمعركة خطأً بكليته ، الا انه لم يكن له عذر في تسرعه باخراج الجيش من المعسكر على غير استعداد ، ليقذف به بعنف

وطيش في معركة كانت جميع الموازين فيها مائلة ضده . ومن الممكن ان يقيّم كنوع من قائد كان لديه ما يؤهله لقيادة جيش في ظروف عادية ، وضد خصم من نوعيته ومستواه ، ولكنه لم يكن صالحاً للقيادة في وجه خصم ماهر من مستوى هانيبال ومنزلته .

يـلام هانيبـال لسماحـه باجتمـاع الجيشين ، جيش شيبيـو وجيش سمبرونيوس ، وعدم محاولة القضاء عليهما كل على حدة . وكذلك يلام لعدم قيامه بمطاردة فلول الرومانيين المنهزمة الفارة من ميدان المعركة . وفيما يتعلق بهذه النقطة ، اي المطاردة عقب المعركة ، فهناك من يقول بأن سوء الطقس قد جعل من موضوع المطاردة أمراً مستحيلاً ؛ فقد كان المطر ينهمر طوال الوقت ، في الليل والنهار ، وكأنه يتدفق من أفواه القرب ، والبرد شديداً الى درجة لا تطاق . وقد استفاد كل من شيبيو وسمبرونيوس من حالة الطقس هذه ، فغادر شيبيو معسكره دون ازعاج ، في طريقه الى مدينة أريمينيوم . اما سمبرونيوس ، فقد ترك حامية في بلاشنتيا ، وانسحب متراجعاً عبر سلسلة جبال الأبنين باتجاه منطقة أتروريا .

بعد المعركة

ازدادت حالة الطقس سوءاً ، ووقعت بالقرطاجيين من جراء ذلك خسائر جسيمة ، في حيوانات النقل بصورة خاصة ، ومن ضمنها الفيلة التعيسة الحظ ، التي لم تكن معتادة على البرد والرطوبة . وقد مات بفعل ذلك ٧فيلة من أصل ١٠ ، وما حلّ الربيع الاّ وكان قد بقي من هذه الحيوانات فقط فيل واحد ، وكان من أصل هندي ، ومخصص لهانيبال ، واسمه سوروس .

تحول جيش هانيبال ، بعد المعركة ، الى منازله الشتوية ، وأخذ الغاليون يحتفلون بهانيبال ، ويقيمون له الولائم ، ويفدون الى معسكره من كل ناحية . وكان القائد القرطاجي يستقبل وفودهم بترحاب ، يحتفل بهم بدوره ، ويولم لهم الولائم ، ويعيدهم الى مواطنهم مثقلين بالهدايـا ، ومشبعين

بالدبلوماسية الهانيبالية . الاّ انه بالرغم من بوادر حسن النية لدى مختلف الأطراف ، فإن هانيبال كان يعرف جيداً ان عليه ان لا يطيل زمن هذه الحفاوة به وبجيشه ، وان عليه أن يتحرك الى منطقة بعيدة عن البيئة القبلية ، وذلك لئلا يغدو جيشه عبئاً ثقيلاً على الضيافة الغالية ، ولئلا تنقلب المودة الحاضرة الى استياء وربما الى عداوة .

هكذا كانت البداية الأولى لحرب هانيبال ضد روما ، وقد استطاع ان يأتي بجيشه الى قلب مواطن العدو ، بعد مسير عسير شاق ، وصعوبات عملاقة ، وبعد ان دفع في سبيل ذلك نصف جيشه ، دون مقابل ، في معركته مع الطبيعة . وقد التقى بجيش شيبيو عند مسيليا ، فتركه ينسحب متابعاً طريقه الى اسبانيا بأمان ، وكان بذلك يرتكب خطأ استراتيجياً عظيماً كانت نتائجه مميتة لكل خططه ومشاريعه فيما بعد . وقد استهل اشتباكه مع الرومان في التحام مناوشة ، ثم في معركة غير حاسمة ، وسمح للمهزومين بالانسحاب دون مطاردة ، وقضى فصل الشتاء دون ان يقوم بأي نشاط حربي ضد الخصم ، وكأنه يقيم بين أهله وعشيرته ، وليس في مواطن غريبة بعيدة نائية عن قواعده ، متصرفاً كما لو كان الوقت دون قيمة ، ولم يكن محاطاً بقبائل لا يركن الى أقوالها ووعودها .

ثم لماذا لم يقم هانيبال بأي نشاط حربي في فصل الشتاء . واذا كان التقليد والعادة ان يمتنع المتحاربون عن القتال في هذا الفصل ، فإن الوضع الخاص بالقرطاجيين ، ومحدودية امكاناتهم كان يدعو الى الاتيان بمبتكر وجديد ، والاّ فليس التفوق والنبوغ ان نفعل كما يفعل الآخرون ! .

يروى عن نابوليون بونابرت ، القائد الفرنسي الشهير ، ١٧٦٩ - ١٨٢١ ، انه قال « لقد فرض هانيبال على روما مكان المعركة ، ودفع في سبيل ذلك نصف جيشه» . ويرى البعض في هذا القول وكأنه مديح وتعظيم بهانيبال ، ولكنه في الواقع على خلاف ذلك . انه قول بخطأ هانيبال وانتقاد له ! . ان من المطلوب طبعاً ان نختار بأنفسنا مكان المعركة وتوقيتها ، في

حدود الممكن ، لكن ليس بمثل هذا الثمن الضخم ، الاّ إذا كنا في حالة ميؤوس منها ، وكانت المقامرة إجراء لا بديل سواه . وبديهي ان خسارة كهذه تكون مقبولة بالتأكيد فيما لو أدت الى انتصار حاسم لقرطاجة وإلى إنهاء لحالة الحرب في زمن قصير ! .

ونرى بالرجوع الى تاريخ هانيبال وسيرة أسرته ، انه وأباه وصهره كانوا يستعدون لحرب روما من أمد طويل ، وانهم قد اتخذوا من اسبانيا قاعدة ومنطلقاً لهذا الاستعداد . ثم رأينا ، منذ بداية حملة هانيبال ، ان هذا الاستعداد كان ناقصاً ، وان هانيبال قد تورط في مغامرة لم تحظ بما يقتضي من دراسة وإعداد وتدبير . ومن أهم هذه النواقص ان إعلامه ووسائل استعلامه لم تكن كافية ، وانه توغل في مناطق مجهولة ووسط سكان معادين ، دون ان يكون قد حصل مسبقاً على أدلاء موثوقين ، ولا بعث بأناس من خاصته للتعرف على هذه المناطق ومسالكها ، بصورة من الصور ، حتى لا يكون عرضة للخطأ ولا للتغرير المتعمد المقصود ! .

الفصل الثامن

الحملة الترازيمينية

معركة ترازيمين ـ مناقشة المعركة

OOOOOOOOOO

تلقى مجلس الشيوخ في روما أنباء الهزيمة في معركة تريبيا بالغضب الشديد . كان هذا المجلس يشعر بشيء من عدم الرضى عن سير الحرب حتى ذلك التاريخ ، لكن الشك لم يكن ليساوره أبداً بخصوص النتيجة النهائية . لم تكن الهزيمة في تريبيا هي الأولى في تاريخ البلاد ، فلقد منيت روما بهزائم عديدة من قبل ، لكنها كانت في النهاية دائماً هي المنتصرة . وفيما يعود الى الهزيمة في تريبيا ، فقد نُسبت الى تهوّر سمبرونيوس وعدم درايته ، ولم تنسب الى عبقرية هانيبال ومهارته في ميدان التكتيك .

وفي مثل هذا الجو المحموم ، جرت الانتخابات القنصلية لعام ٢١٧ ق م ، وفاز فيها القنصل سرفيليوس جيمينوس والقنصل كايوس فلامينيوس . لا نجد لدى مؤرخي الرومان سوى القليل النادر عن القنصل سرفيليوس ، لكن نجد إسهاباً في الحديث عن القنصل فلامينيوس ، وقد حُمِّل معظم تبعات الفشل في أحداث تلك السنة . وقد وصفه بعض المؤرخين بقوله أنه كان خطيباً شعبياً سياسياً ، يفتقر الى الخبرة ، والى الكفاءة العسكرية ، وأنه قد انتخب مرشحاً لحزب الشعب في وجه معارضة شديدة من قبل حزب النبلاء . ولكن يوجد من يقول بأن هذه الأقوال غير صحيحة ، وإنما كانت

ذريعة لتبرير الهزائم الرومانية التي حصلت أيام قنصليته . ويقولون أيضاً أنه كان على العكس قانونياً ضليعاً ومشرّعاً مسموع الكلمة في مجلس الشيوخ ، وقد أمضى زمناً حاكماً لجزيرة صقلية ، وأشرف على بناء الطريق الذاهبة من روما الى الشمال ، وهذه إنجازات لا تصدر الاّ عن صاحب كفاءة ودراية بالأمور . زد على ذلك أنه كان قنصلاً عام ٢٢٣ ق م ، وتولى قيادة ميدانية فيما وراء الألب ، وحارب في بلاد غاليا بنجاح كبير ، ولو أنه كان نجاحاً ضد جماعات قبلية ولا يمكن أن يعتبر بمثابة إعداد وتأهيل لمواجهة قائد من وزن هانيبال . وعلى كل فقد خيل لمجلس شيوخ روما أن فلامينيوس هو الشخص المناسب لتصحيح ما اعوجّ من الأمور ، ووضع حد لمضايقات ذلك المغرور هانيبال وإزعاجه .

لم يبخل مجلس الشيوخ على قادة الجيوش بالوسائط اللازمة لعملهم . فقد عمد الى تجنيد حوالي ١١ لجيوناً ، عام ٢١٧ ق م ، بما في ذلك اللجيونات التي أرسلت الى اسبانيا ، وكذلك اللجيونات في جيشي سمبرونيوس وشيبيو بعد أن أكملت ملاكاتهما . وقد أبعد سمبرونيوس عن القيادة ، ولم يوجه أي لوم لشيبيو ، على اعتبار أن معركة تريبيا قد جرت خلافاً لنصيحته ، لكنه أرسل مع ذلك الى اسبانيا للاجتماع بأخيه نغايوس ، واستلام القيادة العليا في تلك البلاد . وقد تحركَ آخذاً معه الامدادات اللازمة للتعويض عن الخسائر التي منيت بها لجيوناته في العام الفائت .

وجرى إرسال لجيونتين اضافيتين الى صقلية ، ولجيوناً ثالثة الى سردينيا . وهكذا نرى أن روما ، رغم خسائرها، لتاريخه، قد ضاعفت من حجم جيوشها وقدرتها استعداداً للأيام القادمة . الاّ أن روما عادت فارتكبت نفس الخطأ الاستراتيجي الذي ارتكبته في السنة الماضية ، وهو أنها لم ترسل الى مواجهة هانيبال الاّ قوة مماثلة لحجم القوة التي واجهته عام ٢١٨ ق م ، أي أربع لجيونات فقط . وإذا أردنا أن نستدل على شيء من هذا الأمر ، فهو أن مجلس الشيوخ كان لتاريخه غير مدرك لنوع الخطر الذي يتمثل في القائد القرطاجي الشاب ، وأنه كان ينظر الى الأحداث السابقة كمجرد سلسلة من

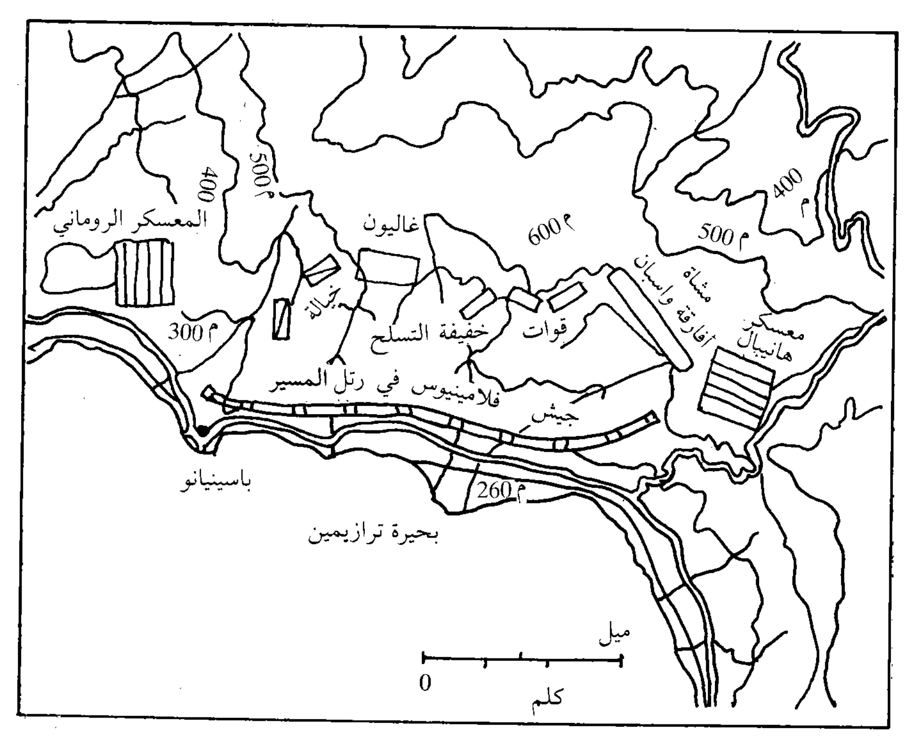
الأحداث المؤسفة ، أحداث ستتوقف ويسير كل شيء في مساره الصحيح ، على يد قائد كفء مثل فلامينيوس .

كان هانيبال ولا شك يعد ويخطط للعمليات القادمة . ومن الواضح أنه كان عليه أن يتحرك الى الجنوب من نهر بو ، سالكاً واحداً من ثلاث طرق . الأولى تجتاز تلال ليكوريا ، وتصل الى الساحل الغربي لإيطاليا ، الى الموقع الذي تقوم عنده مدينة جنوه حالياً . وتتوجه الطريق الثانية جنوباً ، على طول خاصرة سلسلة الجبال الوسطى ، جبال الأبنّين ، ثم تعبر هذه المرتفعات ، وتدخل أترووريا لتصل الى روما بالذات . أما الطريق الثالثة فكانت تأخذ وجهة الشرق الى بحر الأدرياتيك ، ومن ثم تسير نزولاً على الساحل الشرقي .

كانت الطريق الأولى هي السبيل الأسهل للوصول الى سردينيا، أو الذي قد يؤمن اتصاله مع الحزب الموالي لقرطاجة في هذه الجزيرة . وكان يقوم ضد سلوك هذه الطريق انها تمر في الأراضي الليكورية الجرداء ، ويُحتاج في نهايتها الى خدمات الأسطول القرطاجي ، وكان هانيبال لا يثق كثيراً بهذا الأسطول ، ولذا فبوسعنا أن نظن بأنه لم يفكر قط في سلوك هذا الطريق .

وكانت للطريق الثالثة ميزة تحاشي الاجتياز المبكر لسلسلة جبال الأبنين ، وكانت سلسلة يعتبر اجتيازها بعد جبال الألب صعوبة ، وليست لهذه الطريق منافع استراتيجية ذات بال ، الاّ إذا كان في نية هانيبال أن يمر حول روما ، ويمضي مباشرة الى الجنوب الخصب . ومن المحتمل أن يكون قد فكر في ذلك، لكن حركة كهذه، في تلك المرحلة، ربما كانت ستؤدي إلى قطع مواصلاته مع وادي نهر بو ومع اسبانيا ، واعادة المبادرة الاستراتيجية الى يد روما .

وباختيار هانيبال للطريق الثانية ، فانه كان يحتفظ بخطوط مواصلاته سليمة ، ويقيم ضغطاً مباشراً على روما ، باعتبار أن حركة كهذه هي بمثابة تهديد خطير للعاصمة الرومانية ، مع احتمال الحصول على بعض الدعم من أترووريا نفسها ، وكانت خصماً لروما منذ زمن طويل . ومن الغريب أنه لم يقم



معركة ترازيمين عام ٢١٧ق م .

ما يدل على أنه قد فكر في مهاجمة روما بالذات ، ولا أن هذه المدينة كانت هدفاً رئيسياً لحملته في ايطاليا .

كان القنصلان الرومانيان ، بالطبع ، لا يعرفان ما كان يدور بخلد هانيبال ، ولذا كان عليهما أن يحرسا جميع الطرق ، الشرقية والغربية . وبناء على ذلك فقد تمركز جيمينوس في أريمينيوم ، على بحر الأدرياتيك ، واستقر فلامينيوس في أترووريا ، في مدينة أريتيوم ، حارساً للطريق الرئيسية عبر الأبنّين ، وكان الجيشان يسيطران بذلك على الطريقين المؤديين الى روما . وكان هذا الوضع الروماني خطراً من الناحيةالاستراتيجية ، اذ قد فصل الجيشان عن بعضهما بسلسلة جبلية ، وصارا معرضين الى المهاجمة كلا على حدة . ولا يعلم عما اذا كان بالامكان اتخاذ وضع آخر للجيشين ، خاصة وكانت قوة كل جيش محدودة . وإذا كان هناك من لوم فهو واقع على مجلس

الشيوخ ، فهو الذي كان يعين المهام وحجم القوات ، وقد غالى استهانة بأخطار الوضع العام وبالاحتمالات الاستراتيجية المتاحة للقائد القرطاجي . وكان وضع الجيشين السابق الذكر يستدعي كثيراً من الحنكة وسرعة البت ودقة التقدير من جانب القنصلين ، وقد أثبتت الأحداث فيما بعد أنهما لم يكونا على قدر كاف من هذه الخصال .

ظهر هانيبال ، منذ البداية ، مناوراً ماهراً ومتفوقاً على خصومه في هذا المجال . وقد اختار المضي عبر الأبنين ، لكنه لم يستخدم طريق المرور الرئيسي الذي يحرسه فلامينيوس ، بل تجاهلها وسلك عوضاً عنها طريقاً تقع أبعد الى الشمال ، ونادراً ما يطرقها انسان . تحرّك من مشتاه حول بونونيا ، وسار متبعاً ما هو اليوم الطريق ٦٤ ، خلال ممر بوريتا ، دون أن يلقى صعوبة كبيرة ، ما عدا برودة الطقس ، ومن ثم خرج من هذه المرتفعات في ضواحي بستويا الحديثة ، وكان عليه بعدئذ أن يجتاز سهل أرنو المغطى بالمستنقعات والمشرّب بالماء . ففي مثل هذا الوقت من السنة تكون المنطقة واغوصة متخللة بمياه الثلوج المنحدرة من القمم ، والتي تتسبب بفيضان النهر على ضفافه ، لتتحول الأرض حواليه الى بحيرة ترابية مائعة . كان السير في مثل هذه الأراضي من السوء ، وسطحها المغطى بالمياه من الاتساع بحيث قضى الجيش القرطاجي أربعة أيام وثلاث ليال لكي يجتازها بـأقصى المشقة والعذاب ، ودون أن يعثر فيها ولو على بقعة صغيرة واحدة للتعسكر عليها . مرضت الحيوانات وهلكت بالجملة ، وراح الجنود ، المنهكين بالاجهاد والتعب ، ضحايا لأبخرة المستنقع العفن الموبوء والضباب الأبيض ، وقد أصيبوا بالملايا وبغيرها من الأمراض المهلكة . ولم يسلم هانيبال نفسه من الاصابة ، وكان يركب فيله الموثوق سوروس ، وقد اعتراه شعور عام بالضيق والانزعاج ، ومرض بالتهاب العين ، الرمد، وفقد النظر باحدى عينيه بصورة دائمة .

إن خروج الجيش القرطاجي من هذه المحنة ، واحتفاظه بلحمته وانضباطه ، بعد تلك الصعاب والآلام ، هو أن دلّ على شيء فعلى سيطرة

هانيبال على تلك المجموعة من الأجناس المتباينة واللغات المختلفة . لقد خرج الجيش من هذه المحنة منهوكاً ، لكن متماسكاً وغير متخاذل ، ليدخل وادي الفازولا الرائعة نسبياً ، وقد انبسطت سهول أتروريا أمامه .

وإذا كان هانيبال قد اختار تلك الطريق ، على ما فيها من عذاب ومشاق ، على أمل الاتصال بشعب أتروريا وحمله ، بوجوده بين ظهرانيه ، على القيام ضد أسياده الرومان ، فقد باءت آماله بالفشل بصورة قاسية . كانت مساعيه في ذلك الاتجاه قد لاقت نجاحاً كبيراً في الشمال حتى ذلك الوقت ، لكن فقط لدى القبائل السلتية والغالية . أما الآن فقد وجد نفسه أمام حضريين تصعب استثارتهم ، وكان الاحتلال الروماني عندهم ممعناً في القدم ، وقد اندمج المحتل مع المحتلين ، وتشرب الرومان وامتصوا حضارة الأتروسكي وثقافته . كان القوم في أتروريا مزارعين مسالمين ، راضين بوضعهم وبارتباطاتهم مع روما ، ولا رغبة لديهم بتغيير هذا الوضع . وقد لاقت دعوة هانيبال لهم الى الحرية صدى فاتراً في نفوسهم ووقراً في آذانهم . لقد نظر الأتروسكويون بتخوف ونفور الى هؤلاء الأفريقيين والاسبانيين الغريبي الشكل واللباس والعادات ، والى أولئك الغاليين البرابرة ، الذين أخذوا يغمرون مدنهم وقراهم . وكان الموظفون ، رغم تظاهرهم بالانصياع لأوامر هانيبال ، مقيمين على ولائهم لروما .

رفضت أتروريا أن تمضي الى جانب هانيبال في مغامرته ، وكان أن قرر أن يحملها على خدمة أهدافه ومشاريعه بطرق أخرى . كان فلامينيوس يقيم متربصاً في التلال حول أريتيوم ، وكان موقعه قوياً ، وربما كان ينتظر قدوم زميله القنصل الآخر وجيشه ليجتمعا معاً ، خاصة بعد أن عرفت وجهة حركة القرطاجيين .

لم يفكر هانيبال في مهاجمة فلامينيوس حيث كان ، في منطقة لا تصلح لحركات الخيالة وعملياتها . وكان من الضروري لذلك استجلاب القنصل واستدراجه من مرتفعاته الى السهل ، الى حيث يسهل تدميره . وكان السبيل الى ذلك أن يضغط عليه نفسياً ، بواسطة جنوده وضباطه ، وبالرأي العام في

روما ، وكانت الواسطة الى ذلك احراق أترووريا ونشر التدمير والخراب في ربوعها ، فاذا كانت أترووريا لا ترغب في صداقة هانيبال ، فعليها اذن أن تتلقى عداوته . أخذ الجيش القرطاجي يتحرك جنوباً ، مخلفاً وراءه الحرائق والخرائب ، على أرض يجري نهبها واتلافها بتخطيط ودون رحمة . تجاهل هانيبال فلامينيوس في معقله الجبلي ، وكأنه غير موجود ، وسار على طريق كورتونا الى بيروزيا فروما[1] ، تاركاً الجيش الروماني الى خلفه ويساره ، وعاملاً عامداً على تخريب الريف بالحديد والنار أثناء تقدمه . كان هذا العمل ، كما أمل هانيبال ، أمراً لا يطاق ولا يحتمل بالنسبة لفلامينوس ، مما حمل هذا الأخير على تقويض معسكره رغم اعتراض أركانه ، لينطلق مسرعاً الى اللحاق بهانيبال .

ولما تأكد لهانيبال أن فلامينيوس قد التهم الطعم ، وأنه يتبعه على الأعقاب ، وكان يترصد حركاته ويتابعها بواسطة الكشافة النوميديين ، بدأ حالئذ يبحث عن ميدان للمعركة القادمة . كانت الأرض المثالية لذلك غير بعيدة ، الى الوراء من كورتونا ، حيث تلف الطريق شرقاً حول الضفاف الشمالية لبحيرة ترازيمين . وكان الميدان الذي وقع عليه اختيار القائد القرطاجي قريباً من قرية سنكينتو .

كانت الطريق ، عند مرورها على محاذاة الزاوية الشمالية للبحيرة ، تروح مصعدة الى الحافةالسفلى لجبل كوالندورو ، ومتوغلة في مضيق بورغيتا الضيق ، ومن ثم لتخرج منه نزولاً ، تاركة البحيرة على يمينها ، وذلك حتى سهل ينبسط على شكل هلال ، مع بعض الأراض الوعرة ما بين البحيرة والطريق ، وبين تلال عالية حادة الانحدار الى اليسار ، ثم كانت الطريق تستمر صاعدة الى إحدى التلال . كان المكان شبيهاً بمدرج مسيّج من جميع الجهات بالمرتفعات والماء ، وموقعاً ممتازاً لتدمير خصم يفاجأ في داخله .

أعد هانيبال المسرح بكل عناية ، ويغلب الظن أنه عسكر في الوادي

---

(١) Perusia - Cortona .

الصغير المؤدي الى مرتفع ماجيون ، بعد أن وضع جنوده المحنكين ، الاسبان والأفارقة ، على المرتفع المسيطر على مخرج ذلك المدرج ، على مرأى من الرومان القادمين . ثم وضع المقالعية ، وقوات خفيفة أخرى ، والخيالة الغالية ، في ستر عن الأنظار خلف التلال على يساره . وكذلك وضع المشاة الغالية مختبئة على طول التلال المؤدية الى مضيق بورغيتا ، والخيالة القرطاجية والنوميدية قريباً من مدخل المدرج ، حيث كان باستطاعتهم أن يغلقوا هذا المدخل بعد مرور الرومان منه . وقد أقام الجيش على هذا الترتيب لقضاء الليل .

كان فلامينيوس ، في هذه الأثناء ، مسرعاً جاداً في المطاردة ، عازماً على القاء هذا العدو الهارب من وجهه في أحضان زميله القنصل جيمينيوس ، الذي كان فلامينيوس يعتقد أنه يصعد الى ملاقاته عن طريق فلامينيان . أما فلامينيوس نفسه فقد وصل الى الجانب الغربي من البحيرة قبيل غروب الشمس ، فعسكر هناك لقضاء الليل تجنباً لعبور مضيق بورغيتا أثناء الظلام . وكان يعتقد أن هانيبال يعسكر في الوادي الواقع عند الطرف الآخر من المضيق ، وما كانت لديه رغبة في خوض معركة والنهار على آخره . .

كان الوقت منتصف حزيران ، وكان ضباب رقيق يتصاعد فوق البحيرة ، مغطياً الأرض التي اختارها هانيبال ميداناً للمعركة ، مغطياً فقط لبضع ساعات من النهار ، الى أن تشتد حرارة الشمس وتبلغ درجة كافية لتشتيت الضباب . ولا شك أن هانيبال قد اعتمد على ذلك الضباب كمعين له على تحقيق الكمين الذي نصبه . وهكذا حدث أن كانت المنطقة ، في الصباح التالي ، عندما قوض الرومان مخيمهم بقصد المعركة ، كلها مغطاة بضباب لاصق أبيض ، يبدأ من جمام الأرض ويكاد يبلغ قمم التلال . كان فلامينيوس ، كما قدمنا ، متحمساً للاشتباك ومعتقداً أن هانيبال يفر هارباً من وجهه ، ولذا كان على تسرع وعجلة أعمياه عن الحذر والحيطة بالاستطلاع ، وذلك اقتصاداً في الوقت على زعمه . وقد وضع جنده تحت السلاح ، وبالأرتال للمسير على الطريق ، وتحرك منطلقاً مباشرة الى مدخل المضيق . كان مضيق بورغيتا هذا

طويلاً وضيقاً ، وكان الجيش الروماني ينساب خلاله ، رتلاً طويلاً مسربلاً بالضباب ، فلا يبصر أمامه لأكثر من بضع خطوات ، وقد بلغت طلائعه سفوح التلال البعيدة قبل أن تنتهي مؤخرته من ولوج باب المضيق . وكان ذلك اشارة للخيالة القرطاجية بالقيام من أماكن تسترها لإغلاق هذا الباب ، ولأبواقِ هانيبال وطبوله بأن تدقّ وتزعق مؤذنة ببدء الهجوم .

كانت طليعة الرومان ، وقوامها حوالي ٦ آلاف ، قد بدأت في صعود الأرض المرتفعة ، خارجة لتوها من جلباب الضباب، عندما فوجئت بأصوات الأبواق والطبول ، وبما تعالى خلفها وحواليها من أصوات نشاز ـ صراخات ، زعقات ، دق أبواق ، صليل سلاح ـ فتجمدت في مكانها ، مذعورة لا تدري ما كان يجري في ستار ذلك الخضم من الضباب .

وفي قعر المضيق ، تحت سقف الضباب ، كانت المفاجأة تامة ، وأخذ وابل منهمر من القذائف ينصب على أجنحة الرومان المكشوفة ، عاملاً فيها الكسر والتقتيل دون رد ولا رادع ، ومنزلاً فيها خسائر جسيمة بسرعة بفعل الذعر والفوضى المتأتية عن هجوم لم يكن متوقعاً ، ثم تبع ذلك هجمات عنيفة من الغاليين ، تلقي بالقذائف وتضرب بسيوفها الطويلة .

وكان الوضع في مؤخرة الرومان أشد سوءاً ؛ فقد انقضت الخيالة القرطاجية على هذه المؤخرة بضراوة وعنف شديدين ، فلم تصمد طويلاً ، وسارع جنود اللجيون ، وقد أخذوا بهول المفاجأة ، فألقوا بسلاحهم ، واندفعوا يطلبون النجاة على جميع الاتجاهات ، وقد استطاع بعضهم أن يبلغ البحيرة فألقى بنفسه في الماء ، ليغرق بثقل الدروع التي كان يلبسها .

استمر القتال في المضيق لمدة ثلاث ساعات ،ولم يتوقف الاّ بعد مصرع فلامينيوس ، الذي أدى مقتله الى انهيار كل مقاومة . وكانت حرارة الشمس حالئذ قد حميت ، فانقشع الضباب ، وانكشف المسرح عن منظر سرّ له هانيبال دون شك ، ولكنه كان منظراً اقشعر له بدن الطليعة الرومانية ، المتوقفة عند القمة ، منظر مذبحة رهيبة . لم يعرف فيما اذا كانت هذه الطليعة قد

اشتركت في القتال بوجه من الوجوه ، لكن الشيء الوحيد المؤكد بخصوصها ، هي أنها استطاعت النجاة موقتاً من خلال الغاليين الذين كانوا على يسارها ، لكن لتقع بعد قليل في أسر القوات القرطاجية المطاردة .

يتفق معم المؤرخين على القول بأن فلامينيوس قد دخل المضيق ومعه ٣٠ ألفاً ، وأن خسائر الرومان بعد المعركة كانت ١٥ ألفاً ، وهو رقم غير مستبعد ، فالرومان كانوا مطوقين ومحشورين في ممر ضيق ، ولم تكن فرص الافلات أو المناورة متاحة لهم . وكانت خسائر القرطاجيين ، كما قيل ، ٢٥٠٠ كان معظمهم من الغاليين ، اذ أن الاسبان والأفريقيين لم يشتركوا في القتال باستثناء الخيالة .

لم تكن هذه الهزيمة الرومانية قد اكتملت بعد ؛ فقد علم هانيبال من كشافته أن طليعة جيش سرفيليوس جيمينوس كانت تقترب متقدمة نزولاً على الطريق على أعقاب فلامينيوس . وعلى الفور عمد هانيبال الى ارسال قائد خيالته ، مهاربال ، مع بعض الخيالة والمشاة الخفيفة ، لاعتراض تلك الطليعة ، وكانت في حدود ٢٠٠٠ ـ ٤٠٠٠ محارب ، وقد هاجمها مهاربال وتمكن من تدميرها ، قاضياً على النصف ، ومستأسراً للنصف الباقي . وكان من جراء ذلك أن سارع القنصل جيمينيوس بالتراجع ، تاركاً طريق الجنوب مفتوحة في وجه هانيبال .

تعاطى هانيبال مع الأسرى وفقاً للأعراف والتقاليد المتبعة في ذلك الزمان . بدأ بافراز الأسرى من مواطني روما جانباً ، ليباعوا كأرقاء ، وأخلى سبيل الأسرى الآخرين من الطليان ، وتركهم ليعودوا الى مواطنهم بعد أن تلقوا منه محاضرة وموعظة عن طغيان روما ، وشرحاً لرسالة قرطاجة ومساعيها لتحرير الشعوب المضطهدة . ولا ندري اذا كان هانيبال ناجحاً في هذا التصرف مع الأسرى غير الرومانيين ، لكن ذلك كان منه خطوة جريئة على كل حال ، ان لم نقل مقامرة ، من قبل قائد لحملة صغيرة العدد نسبياً ، متغلغلة عميقاً داخل أرض معادية .

مناقشة المعركة

تعتبر معركة بحيرة ترازيمين نموذجاً ومثالاً للكمين الناجح ، وقد ساعدت الأرض وكانت ملائمة للتحرك والمناورة كل الملاءمة . لقد قام النجاح القرطاجي على عدة عوامل ، وقيم هانيبال كل عامل وحوله لصالحه ، ابتداء من ضباب الصباح المهيمن حتى القراءة الصائبة لطبائع الخصم وتفاعلاته . وقد جرى اختيار المكان ، وترتيب القوات ووضعها بطريقة هي الكمال بعينه ، وكانت النتيجة متوقعة منذ اللحظة التي بدأ فيها فلامينيوس بتقويض معسكره عند الفجر . ومع أن الطليعة الرومانية قد استطاعت اختراق صفوف الغاليين وأخذت طريقها الى النجاة لبعض الوقت ، لكنها طوردت وردت في النهاية لتضم الى بقية الأسرى ، مما يدل على أن هانيبال كان مسيطراً تكتيكياً على زمام الأمور في كل وقت ، وما كان مستعداً لخسارة أية ثمرة من ثمار انتصاره . وقد كان رده العاجل على تقرب سرفيليوس جيمينيوس دليلاً على تقديره الغريزي لمزايا الخيالة واعترافاً بقدرتها التعرضية وامكاناتها الحركية .

وفيما يتعلق بالرومان ، فلا نستطيع الاّ الاعتراف بأن استراتيجية فلامينيوس في ملاحقة هانيبال كانت الصواب بعينه . وقد فشل في اغلاق ممرات الأبنين في وجه خصمه ، لكن ربما كان ذلك لقلة عدد خيالته ، وبالتالي لنقص في وسائط الاستطلاع السريعة ، أكثر من كونه ناتجاً عن تقصير وعدم كفاءة . غير أنه لا يمكن هضم خطأه المميت في دخول مضيق بورغيتا والتوغل في شعابه دون استطلاع ملائم للظروف والأحوال التي كانت سائدة في ذلك الوقت . وقد راح القنصل فلامينيوس في معركة ترازيمين ، كالقنصل سمبرونيوس في معركة تريبيا ، ضحية لمجموعة من الظروف والعوامل ، كان أهمها عجرفة واستعلاء وخبرة لا تكفي لمواجهة خصم من وزن هانيبال .

ولا بد لنا ، قبل اختتام هذا الفصل ، من ابداء بعض ملاحظات أو تساؤلات استفهام حول استراتيجية هانيبال . فقد بدأ ، منذ أن استهل مغامرته ، وحتى وصوله الى بحيرة ترازيمين وكأنه متعلق بالتقرب غير المباشر

الى حد يشبه الهوس ، دافعاً في سبيل ذلك ثمناً ربما كان أعظم بكثير مما قد يترتب عليه دفعه فيما لو كان قد اتبع سبيل التقرب المباشر ، مع شيء من الخداع والمناورة والاتجاهات المضللة للخصم .

وأن دورانه حول روما ، وعدم قيامه بأية حركة أو دراسة لمهاجمتها لأمر يحمل على العجب . فهل كانت المدينة يا ترى من الامتناع والقوة بحيث جعلته لا يفكر في مهاجمتها مطلقاً ؟ أم هل كان من ذلك النوع من الرجال الذين لا يحيدون عن قرار يستقر رأيهم عليه ؟ ربما كان يعتقد باستطاعة استراتيجيته غير المباشرة أن تضع العاصمة الرومانية في قبضة يده ، وذلك بعد تقطيع أوصالها وعزلها منفردة عن الأطراف التي كانت تكون الكونفدرالية الايطالية . لقد قامت هذه الاستراتيجية ، في جوهرها وأساسها ، على اعتقاد وقناعة بأن هذه الأطراف ستنصرف عن روما وتقبل بقرطاجة كبديل في ترؤس كونفدرالية جديدة موسعة . إن هذه الاستراتيجية ، في رأيي ، كانت مبنية على أسس واهية من حيث الامكانات المادية ، وعلى سذاجة في تفكير هانيبال وتفكير من شاركوه في تبني هذه السياسة . إنه لم يكن من المعقول أن يقبل الايطاليون المتحدرون من أصل يوناني وأتروسكي بسيطرة مدينة دولة تحارب بجنود أشباه عراة ، وبإسبانيين وغاليين متخلفين بالنسبة لمفهوم الإيطاليين ومستواهم ! .

وهل كان من الممكن أن يأخذ الايطاليون بصحة دعوى هانيبال وقوله لهم بأنه جاء لمنحهم الحرية والسيادة وتحريرهم من اضطهاد روما ، وكان في ذلك كالطبيب الذي يتصدى لمداواة الناس وهو مريض ! . لم يكن سكان الكونفدرالية الايطالية يجهلون أن قرطاجة دولة استعمارية في أفريقيا واسبانيا ، وأنها قد ذهبت حتى استعمار بني قومها في المدن الفينيقية على ساحل أفريقيا الشمالية ، وأنها قد استمرت على هذا الاستعمار منذ إنشائها وحتى دمارها على يد الرومان ؟!

هذا من ناحية الاستراتيجية والسياسة ، ومن ناحية معاملة الجند ، فإنّا

نرى هانيبال يروح في ذلك بين نقيضين : فهو من جهة يعرض جيشه الى أعظم الأخطار وأشد المشاق، في حين تنقصه المعلومات الصحيحة عن الأرض وتنقصه التدابير الصحية الفاعلة ، ونراه يمنح الجند مدداً للاستجمام والاستراحة هي أحياناً أطول مما ينبغي ، مما ينجم عنه إضاعة للفرص وتباطؤ في استغلال المناسبات .

ونتساءل ، بعد معركة ترازيمين ، لماذا لم يحاول هانيبال القيام بعمل ما لتدمير جيش القنصل جيمينوس وكان أضعف من جيشه قوة وعدداً، وذلك بدلاً من أن يعلمه بوجوده بمهاجمة مهاربال للطليعة الرومانية ، الأمر الذي أعطى لجيمينوس الفرصة للرجوع على أعقابه ولو بخسارة طليعته ؟ هل كان الجيش القرطاجي تعباً وبحاجة الى الراحة بعد المعركة ؟ وهذا أمر مشكوك فيه ، أم هل كان هانيبال قد فوجىء بوصول جيمينوس ، وكان من أولئك القادة الذين لا يقومون بأية حركة الاّ بعد دراسة وتفكير وتخطيط دقيق ؟! .

الفصل التاسع

الاستراتيجية الفابية

رد هانيبال على هذه السياسة ـ مصيدة فابيان
إفلات هانيبال من المصيدة ـ السهل الفاليري
OOOOOOOOO

ان الانتصارات في ترازيمين ، وضربة الأنف التي سددها الى سرفيليوس جيمينوس ، تركت هانيبال مسيطراً على وسط ايطاليا ، وحرّاً في التوجه الى أيّ اتجاه يشاء ، لكنه لم يفكر قط في التوجه الى روما عقب ترازيمين . كانت حامية العاصمة الرومانية ، كما قالت تقارير عملائه وعيونه ، مؤلفة من لجيونتين ، قد تضاف اليهما فيما بعد لجيونتا سرفيليوس جيمينوس . ولو حاول هانيبال واستطاع تدمير هاتين اللجيونتين ، لكان اقتصر الدفاع عن روما على لجيونتين فحسب . ولكن هانيبال لم يكن يفكر في مهاجمة روما ، لا في ذلك الوقت ولا فيما بعد ، وموقفه هذا سر من أسرار التاريخ لم يتوصل أحد الى كشف النقاب عنه . وقد يخيل للمرء انه كان لهانيبال تفكير شبيه بتفكير الزعيم النازي أدولف هتلر ، في موقف هذا الأخير تجاه بريطانيا ، في الحرب العالمية الثانية ؛ فقد كان هتلر مصاباً بمركّب النقص حيال الانكليز ، يعاديهم ويحاربهم من جهة ، لكن يتوق في دخيلة نفسه الى صداقتهم ومؤاخاتهم ، ويتمنى لو يكونوا حلفاء له لا أعداء ! .

لم يتحرك هانيبال جنوباً غرباً الى روما كما كان يتوقع الرومان ، وكانت

هذه المدينة على مسافة ١٧٠ كيلومتراً تقريباً من ترازيمين ، وكان باستطاعته ان يقطع هذه المسافة بخيالته في ظرف ثلاثة أيام ، وبجيشه كله في غضون أربعة أيام ، وما كان ذلك بالأمر العسير على جيش عبر جبال الألب واجتاز سهل أرنو بواغوصاته ومستنقعاته . لقد تحرك على العكس شرقاً ، باتجاه بحر الأدرياتيك ، فعبر نهر التيبر الى مقاطعة أومبريا ، ووصل الى بيشينوم ، حيث عسكر بقصد الراحة والاستجمام ؛ فقد رأى ان جنوده مرهقون ، وبحاجة الى استبدال أعتدتهم وتجهيزاتهم بالأعتدة والتجهيزات المغتنمة في معركة ترازيمين ، ورأى أيضاً ان خيوله تحتاج بوجه عام الى الإهتمام والعناية ، وربما كان ذلك صحيحاً ، ولكنه ربما كان أيضاً ذريعة يبرر بها أمام نفسه وضباطه عدم مسيره الى روما ، وقد عثر في بعض مرافىء الأدرياتيك على سفينة فاستولى عليها ، وبعث بها الى قرطاجة تحمل تقاريره وأخبار انتصاراته ومكانه الحالي .

وفي هذه الأثناء ، كانت الإشاعات والروايات المتناقضة حول معركة ترازيمين قد وصلت الى روما ، فاضطربت الجماهير واحتشدت في الأماكن العامة مطالبة بالأنباء الصحيحة . وكان مجلس الشيوخ مجتمعاً يتداول في الموقف . وعند غروب الشمس تقريباً ، خرج من هذا الاجتماع البريتور(١) ماركوس بومبونيوس ، ليخطب في الجماهير المحتشدة فيقول :

- «لقد هزمنا في معركة كبيرة ، وقتل أحد قناصلنا » .

وكان ان عمّ الذعر المدينة ، لكن مجلس الشيوخ ظل كعادته محتفظاً بهدوئه وبرودة أعصابه ، وبالحسّ الواقعي في معالجة الأمور . كان لديه إحساس بوجوب عمل شيء ما غير مألوف ، وظهر ميل الى تعيين دكتاتور لمعالجة الأزمة ، وهو إجراء لم تلجأ اليه روما منذ زمن طويل . كان الدكتاتور يُنَصّب لمدة قصيرة ومحدودة ، للإشراف على أمور الدولة ومواردها بسلطة مطلقة ، ولكن كانت هناك عقبة قانونية حول تعيين دكتاتور في تلك الفترة .

(١) Praetor ، بمعنى القاضي ، وهي وظيفة منتخبة .

فالقانون ينص على قيام أحد القنصلين بتقديم اقتراح باسم الشخص المرشح للمنصب ، وكان القنصل فلامينيوس قد خر صريعاً في معركة ترازيمين ، والقنصل الثاني جيمينوس غائباً على رأس جيشه ، في مكان ما شمال روما . وفي النهاية جرى التحايل على هذه النقطة ، فانتخب لونتيللوس فابيوس دكتاتوراً ، وكان من حزب الشعب المعارض ، وانتخب معه مينوشيوس روفوس كسيد للخيل ، وهي وظيفة كانت بمثابة رئيس أركان ، وكان مينوشيوس هذا من حزب النبلاء ومن أنصار شيبيو . وهكذا ، ومنذ بداية الأمر ، كان الخلاف مستوطناً بين الدكتاتور ومساعده الرئيسي . وقد حدد المجلس مدة الدكتاتورية بستة أشهر .

عمل فابيوس ، حال انتخابه ، على معالجة المعنوية الشعبية العامة في روما ، بزعمه ان الهزيمة ومسؤوليتها كانتا حاصلاً لغضب الآلهة ، وعمد لذلك الى إرضاء هذه الآلهة بأن قدم لها القرابين بسخاء، وأصدر في الوقت نفسه أمره بتجنيد لجيونتين جديدتين للحلول مكان لجيونتي فلامينيوس ، وكذلك بالشروع حالاً بتطبيق سياسة الأرض المحروقة في كل أرض يقصدها هانيبال ، وبنقل سكان القرى والأرياف الى المواقع والمدن المحصنة . وقد لقيت هذه السياسة معارضة شديدة من قبل الأهالي ، وهي سياسة ما كان من الممكن تطبيقها الاّ بالقوة العسكرية ، وهذه لم تكن متوفرة كواسطة لروما في ذلك الوقت .

توجه فابيوس الى الشمال ، للاجتماع بالقنصل جيمينوس ، الذي كان يتراجع على طريق فلامينيا باتجاه روما ، وقد ترك فابيوس لمساعده رئيس الخيل مهمة الإشراف على تجنيد اللجيونتين الجديدتين واعدادهما ، وكذلك خوله استدعاء حاميات الأرياف اذا دعت الحاجة . وقد طلب ، فور ان التقى بالقنصل جيمينوس ، ان تُؤدى له المراسيم التكريمية الرسمية كاملة ، ثم استلم بعدئذ قيادة الجيش بنفسه بدلاً من جيمينوس ، وأرسل هذا لاستلام قيادة الأسطول وحماية السواحل الرومانية من بحرية قرطاجة الناشئة .

رجع فابيوس عائداً بلجيونتيه ، للالتقاء بمينوشيوس وبما كان مع هذا من

قوات ، ثم انطلق بكل هذه القوى صوب الشرق ، عبر سلسلة جبال الأبنّين ، باحثاً عن هانيبال . وكان القائد القرطاجي ، بعد ان أعاد تجهيز جيشه وأراحه بضعة أيام في بيشينوم ، قد تحرك ببطء الى أبولا ، عابثاً في طريقه بالمزارع والأرياف تخريباً وانتهاباً . ولما علم فابيوس بمكان وجود هانيبال ، تحرك على الفور ببطء صوب أربي ، ليكون على مقربة من خصمه . وظن هانيبال انه يريد القتال ، فبادر على الفور الى ترتيب جيشه وتنظيمه استعداداً لذلك ، الاّ ان فابيوس رفض ان ينساق الى المعركة . فقد كانت استراتيجيته عبارة عن « سلامة واحتواء » ، وقد عرفت فيما بعد بالسياسة الفابية ، وهي نوع من استراتيجية تعرضية على قاعدة دفاعية ، وتهدف الى اكتساب الوقت ، والنيل من معنويات الخصم بوجود مستمر على مقربة منه ، والسير على أعقابه مع تجنب المعركة معه . ومن تكتيكها مهاجمة مؤخرات العدو ومفارزه المنعزلة ، وبخاصة تلك المفارز المرسلة لتجميع العلف والطعام ، وتلك التي تقوم بتطويع المقاتلين محلياً ، وكذلك عرقلة وصول الإمدادات والنجدات . وقد رفعت هذه السياسة من معنويات القوات الرومانية ، ونالت مع مرور الوقت من معنويات القرطاجيين الموجودين بعيداً عن أوطانهم ، والذين كانوا بحاجة دائبة الى المؤونة والإمدادات المتجددة والإنتصارات المتواصلة .

كانت إستراتيجية فابيوس اعترافاً ضمنياً بعجز الرومان عن مواجهة هانيبال في الميدان ، ورفضاً للمعركة إلاّ في أحوال وظروف ملائمة الى أبعد حد ، واعتقاداً بأن العمل بخلاف ذلك كان بمثابة مقامرة بالحياة ودعوة الى الهزيمة . وكان التطبيق العملي لهذه السياسة هو الإبقاء على وحدة الجيش ككل ، وحفظه سليماً لاحتواء حركات هانيبال قدر المستطاع ، والضغط بوجوده واستمراره لتبقى أطراف الكونفدرالية الايطالية وأجزاؤها مقيمة على ولائها لروما . ولا شك ان هذه السياسة ، بمرئيات المنظار التاريخي وتقييمه ، كانت سياسة حكيمة واجتهاداً صحيحاً ، وقد أنقذت روما من هزيمة محققة عام ٢١٧ ق م .

ولكن هذه السياسة كانت ، في نفس الوقت ، محكوماً عليها بأن تكون

غير شعبية ولا برّاقة أخّاذة ، ومكلفة بالنسبة للريف الإيطالي خاصة . فالجماهير الشعبية ترغب دائماً في نهاية للحرب بسرعة ، مع الاحتفاظ بأموالها وممتلكاتها سالمة من النقص والأذى . ومن الحق ان نقول بأن فابيوس يستحق كل تقدير واحترام لما أظهره من ضبط نفس وسيطرة أعصاب في وجه نقمة شعبية متصاعدة ضد سياسته ، وحيال الطامحين بمركزه والمتحمسين للحلول محله ، من السياسيين وقادة الجيش ، وقد استغل هؤلاء نقمة الشعب واستياءه لانتقاده والتعريض بسياسته في كل مناسبة . وكان مساعده الأيمن ، مينوشيوس ، من أشد منتقديه والمتحاملين عليه ؛ وقد دأب سيد الخيل هذا على التعامل مع رئيسه بالمماحكة والمنازعة المستمرة ، بل قد ذهب حتى درجة الغدر والعصيان ، وقد زاد هذا السلوك من مينوشيوس الأمور صعوبة وسوءاً ، وجعل وضع فابيان حرجاً للغاية .

لم يكن مينوشيوس وأضرابه الوحيدين ممن لم ترقهم الاستراتيجية الفابية ، بل ان هانيبال نفسه كان مشاركاً لهم في هذا الشعور ، لكن لأسباب ودوافع مختلفة كل الإختلاف ؛ فلقد أضرت هذه السياسة بخططه وتحركاته ، وكانت الرد الأمثل على تكتيكه واستراتيجيته . كان الجيش القرطاجي محروماً من المستودعات وقوافل التموين العضوية المنتظمة ، وكان لذلك مضطراً للعيش على عاتق السكان المحليين ، سكان الريف بوجه خاص ، وكان هذا يعني بحثاً مستمراً عن العلف والطعام ، بالعنف والإكراه ، وكان يعني كذلك استمراراً على تجزئة الجيش وبعثرة أجزائه على مساحة واسعة ، لكي يستطيع كل جزء ان يجد حاجته من المؤونة محلياً ، وبصورة سريعة وكافية .

وقد عمل فابيوس على ان يبقى في الأراضي المرتفعة ، محتفظاً بجيشه بكليته ، قائماً على المراقبة الدائبة المتواصلة ، وعلى مهاجمة المفارز القرطاجية الباحثة لها ولدوابها عما يصلح طعاماً للناس والحيوان . كان يعمل باشتباكات صغيرة لم تكن كلها ناجحة ، ولا كان معظمها مؤلماً ، ولكنها بجملتها كانت كوخز الأبر فتضرب على أعصاب القرطاجيين، وتمنيهم بخسائر وان كانت طفيفة لكن متواصلة ومتراكمة التأثير والفاعلية . وهذه الإستراتيجية

مثالية لكل ضعيف تجاه قويّ اكتساباً للوقت ، وهي اليوم أساس في سياسة كل حرب تحريرية ، أضف إلى مخاوف القرطاجيين احتمالاً كان قائماً في كل لحظة ، وهو إمكان لجوء فابيوس الى الهجوم عندما يشاء ، وربما في زمن يكون فيه الجيش القرطاجي منتشراً بصورة واسعة ، باحثاً عن زاده وقوت يومه .

لقد حول فابيوس ، بهذه السياسة الحكيمة ، الموقف كله لصالحه ، لكن لم تتح له الفرصة لجني ثمار جهوده واظهار نتائجها في ميدان المعركة . فقد أزعجت سياسته كثيراً من السكان وأثارت حفيظتهم ، ولم يكن ذلك بالأمر الغريب وغير المتوقع ، فهؤلاء السكان كانوا يرون مزارعهم تحرق ، وبيوتهم تدمر ، ومزروعاتهم تتلف ، ومواشيهم تساق الى مطابخ القرطاجيين ، ومن العسير على أي شعب كان ان يتحمل مثل هذه الأعمال بروح طيبة ونفس راضية ، وقد استعملت هذه السياسة في التاريخ مراراً ، لكنها لم تنجح قط الاّ تحت أنظمة حكم دكتاتورية لا تتردد ولا ترحم . ومن أمثلة ذلك المقاومة الروسية ضد اجتياح نابوليون لروسيا عام ١٨١٢ ، والمقاومة السوفياتية للاجتياح النازي في الحرب العالمية الثانية ، واستراتيجية حرب التحرير ضد الإفرنسيين والأمريكيين في فيتنام .

رد هانيبال على سياسة فابيان

أدت سياسة فابيان الى وضع لم يكن من هوى هانيبال ومشتهاه ، فاضطر لذلك الى اتخاذ اجراءات جديدة تعديلاً لخططه ، فقد عمد الى فض خيامه والى مغادرة منطقة أبولي . توجه شمالاً غرباً الى مرتفعات سمنيت ، ثم دخل إقليم بنيفنتوم ، واستولى على مدينة غير محصنة تدعى فنوزيا او تيليزيا ، وقد أصيب هنا ، للمرة الثانية ، بخيبة أمل من موقف السكان المحليين . فهذه المقاطعة ، سمنيوم ، كأترووريا ، كانت سابقاً من ألد أعداء روما ، وكان هانيبال يتوقع منها ان تبدي تعاطفاً مع قضيته ، إلاّ ان هذا التوقع لم يتحقق ، وربما كان لذلك سببان . . اولاً ان السمنيين لم يكونوا بعد قد قنعوا

باحتمال خسارة روما للحرب . . وثانياً ان جيش فابيوس كان موجوداً ويتعقب القرطاجيين ، مشكلاً بذلك تهديداً مخيفاً لكل من يجازف بصداقة هانيبال .

وكنتيجة لهذا الإعراض من جانب السمنيين ، فإن هانيبال لم يتوقف في هذه المنطقة ، بل تابع مسيره الى شمال نهر فولتورنو ، ليعبر هذا النهر عند مدينة ألّليفا ، ومقصده سهل فاليرني ، وكان من أخصب الأراضي في كل ايطاليا ، ومشهوراً بنبيذه الفاخر . وكان غرض هانيبال من هذا التحرك تأديب السمنيين لبقائهم على الولاء لروما ، وتخريب السهل الفاليرني الذي كان من أهم مصادر الطعام للعاصمة روما . كان الجيش القرطاجي ينهب ويدمر كل شيء في طريقه ، ويتحرك ببطء نحو الشمال ، مثقلاً بالأسلاب والغنائم والمواشي . وكان فابيان في هذه الأثناء في سياق إعداد مصيدة لإيقاع جيش الخصم فيها ، وكان في سبيله الى إغلاق هذه المصيدة ، بتعزيزه لحامية كازيلينيوم ، التي كانت تسيطر على المعبر عند نهر فولتورنو ، ولحامية كالس ، التي تحمي الطريق المؤدية الى روما . اما هو فقد بقي يقظاً في المرتفعات ، يراقب الممرات القائمة بين التلال ، ويحتفظ بمعظم قواته على سفوح جبل مسّيكو ، وقد أفرز قوة خيالة من ٤٠٠ فارس ، بقيادة هوستيليوس منشينوس ، للحفاظ على التماس مع العدو . ويبدو ان هوستيليوس منشينوس هذا كان من أنسباء سيد الخيل وأتباعه في الرأي ، متعطشاً للاشتباك مع القرطاجيين ، ولذلك فإنه سريعاً ما تخلى عن مهمته في التماس والاعلام ، وراح منقضاً على مفرزة منعزلة من الخيالة النوميدية كانت مثقلة بالأسلاب ، وفي طريقها راجعة الى القسم الرئيسي من الجيش . وقد تاه هوستيليوس زهواً واعتداداً بهذا الفوز السهل ، وأصابه الغرور والاستعلاء ، وأخذ يتوغل عميقاً فعميقاً في مناطق القرطاجيين ، الى ان وجد نفسه أخيراً مطوقاً بقوة كبيرة من الخيالة القرطاجية ، بقيادة كارتالو . وكما كان متوقعاً ، فقد أبيدت هذه المفرزة الرومانية بكاملها تقريباً ، ولم ينج منها الّا بعض الفارين ، وكان هوستيليوس منشينوس في عداد قتلى المعركة .

كان فابيوس يعتقد ان هانيبال سينسحب من السهل الفاليرني ، عائداً من

نفس الطـريق التي سلكها عند دخـوله الى هذا السهل ، ولذا عمد القائد الروماني الى امساك الممـر المؤدي الى السهل ، وكان مضيقاً ضيقاً ، والى اغلاقه بأربعة آلاف مشاة اختارهم من أحسن جنود لجيونتيه ، ثم عسكر مع بقية الجيش على مقربة من الممـر . وقد ظن الرومان انهم بذلك أوقعوا هانيبال في الفخ ، وانه صار في مأزق وليس أمامه الاّ أحد احتمالين :

- فاما ان يهاجم بشروط وظروف ليست لصالحه .

- وامّا ان يقضي الشتاء في منطقة سبق فخربها وجعلها عارية من كل شيء ، بحيث يكون جيشه ، عند قدوم الربيع ، ضعيفاً واهناً ولقمة سائغة هينة لجيش روما المنتقم .

كان ذلك ما دار في خلد فابيوس واعتقاده . اما هانيبال فلم يكن في وارد هذا التفكير بالمرة ؛ كان على العكس يرى ان الوضع أمامه الآن شبيه بالوضع الذي سبق له ان واجهه مع قبائل الأللوبروجس عندما كان يصعد جبال الألب ، مع الفارق بأنه كان لا يتوقع من الرومان ان يتخلوا عن مراكزهم في الليل كما فعل القبليون السابقو الذكر ، واذن فلا بد من تضليلهم بحيلة او خديعة .

الخروج من المصيدة

كانت مع القافلة القرطاجية أعداد ضخمة من المواشي المسلوبة ، انتقى هانيبال من هذه المواشي ٢٠٠٠رأس بقر ضخمة قوية ، وأمر فربط على قرونها حزمات من أغصان الشجر اليابسة المقطعة . ومع حلول الظلام ، جمعت هذه الأبقار وسيقت صعداً نحو مرتفع كان على شكل مصطبة وقد لاحظه هانيبال قائماً بين معسكره وبين مدخل الممر المضيق . وبين كانت هذه الحيوانات في طريقها صاعدة الى المرتفع ، أولع الرعيان النار بحزمات الحطب ، فجن جنون الأبقار وانطلقت صوب المرتفع لا تلوي على شيء . وكان الجيش القرطاجي في هذه الأثناء قد تناول طعامه واستراح ، وانتظم بهدوء في ترتيب المسير ، وكان قد أفرز للحركة مع البقر بعض من مشاة السلتيين الخفيفة .

وبالنسبة للقوى الرومانية ، لتلك الممسكة بالممر المضيق ، وتلك المعسكرة فيه ، فإن مرأى مئات من المشاعل الصاعدة نحو الجبل ، مصحوبة بوقع الحوافر ، والصراخ النشاز ، وصليل المعادن ، كل ذلك كان يعني في نظرها شيئاً واحداً ، وهو ان القرطاجيين يهربون بطريق ذلك المرتفع . ولذا فما كان من قائد الحامية الممسكة بالمضيق الممر الاّ ان قام وجنوده فتخلوا عن مراكزهم واندفعوا باتجاه المشاعل ، تاركين الطريق حراً للقرطاجيين ، فعبر هؤلاء حتى الأرض المفتوحة دون عائق . اما فابيوس ، الذي كان يعسكر مع بقية الجيش قريباً من الممر ، غرب جبل كايفولا ، وهو أحد الجبلين اللذين يحدان هذا الممر ، فقد رأى المشاعل وسمع الصراخ والضجيج ، لكنه كان حكيماً فرفض ان يستجر وينقاد الى معركة ليلية في ظروف وشروط مجهولة ، وآثر البقاء مع جنوده في معسكرهم . وهكذا استطاع هانيبال ان يفلت من فخ أعدّ لاصطياده ، وأرسل في الصباح التالي مفرزة لتخليص الرعاة والمشاة الخفيفة الذين كانوا مع المواشي حملة المشاعل ، فباغتت هذه المفرزة حوالي ٤٠٠٠ روماني مشتتين وقتلت نحواً من ١٠٠٠ منهم .

لقد كان فابيوس محقاً في تجنب المعركة الليلية ، نظراً لما يصاحب مثل هذه المعركة عادة من الفوضى وانعدام الارتباط ، ولم يكن في الواقع مستعداً لأية معركة ليلية ؛ فالجيش الروماني كان لا يتحرك ولا يقاتل عادة في الليل ، وكان القرطاجيون يسلكون هذا المسلك نفسه . وخطأ فابيوس انه لم يتخذ اجراء ما لحراسة المرتفع المصطبة كغيره من النقاط ، ولم يفكر فيما يجب عليه عمله في حال قيام القرطاجيين بهجوم ليلي ، ولو كان ذلك خلافاً للعادة . لقد كان هانيبال عسكرياً طوال حياته ، في حين كان فابيوس عسكرياً لبعض الوقت ، وطبيعي ان هذا يشكل فارقاً عظيماً بين القائدين .

بعد السهل الفاليرني

بعد أن أفلت هانيبال من الشرك الذي نصبه فابيوس له ، تابع طريقه سائراً على الحافة الشمالية لكتلة المرتفعات التي كانت تعرف بجبل ليبرنوس ،

ومن ثم توجه ، بطريق بوفيانوم ، الى اقليم كامبانيا الغني بموارده ، والذي كان قد اختاره ليكون منزله الشتوي ذلك العام . وقد جعل من مدينة فيرونيوم الصغيرة ، وكان سكانها قد غادروها هرباً من القرطاجيين ، إهراء مركزياً ، وعسكر على مقربة منها .

وكان فابيوس ، كما جرت عليه عادته ، يتبع بجيشه على أعقاب القرطاجيين ، بحيطة وحذر ، وعسكر بدوره في لارينوم . ومن هنا غادر جيشه خفية وتوجه إلى روما ، تلبية لاستدعاء من مجلس الشيوخ ، لمناقشة استراتيجيته والدفاع عما كان من تصرفاته حتى الآن . وقد ترك قيادة الجيش بيد سيد الخيل مينوشيوس ، بعد ان شدد عليه بأن لا ينساق ، مهما كانت الأسباب ، الى معركة مع هانيبال . وبالطبع فإن مينوشيوس لم يهتم بهذه التعليمات ولا تقيد بها بعد أن بَعُد فابيوس عن طريقه ، وكان له بعض العذر في ذلك . فقد عمد هانيبال ، عقب وصوله الى فيرونيوم ، بتفريق جيشه ليبحث كل فريق عن الكلأ والطعام . ورأى مينوشيوس في هذا التوزيع فرصة سانحة يجب اغتنامها ، فبادر حالاً الى مغادة المرتفعات ، والنزول بالجيش حتى بلغ موقعاً كان وجوده فيه مصدر تهديد وخطر للقرطاجيين . ولذلك عمد هانيبال فجمع حوالي ثلثي قواته ، وتحرك زاحفاً لحماية مفرزة أمامية كانت تحتل مرتفعاً يشرف على المعسكر الروماني .

وما كاد مينوشيوس يعلم بهذه المفرزة ، حتى سارع بمهاجمتها بقوة ساحقة ، فطردها من مكانها بعد ان ألحق بها بعض الخسائر . وصار هانيبال الآن في مركز حرج نوعاً ما ؛ لقد صار مواجهاً بتحد ودعوة الى خوض معركة ، لكنه ما كان باستطاعته قبول هذا التحدي وأكثر من ثلث جيشه مشغول بعيداً في البحث عن العلف والطعام ، الأمر الذي تتوقف عليه حياة الجيش برمته . وكان حلّ هانيبال لهذه المسألة بأن اكتفى بيومين وبعض اليوم في مناوشات أحرز الرومان فيها بعض المكاسب ، ثم انسحب بعد ذلك عائداً بقواته الى فيرونيوم .

اعتبر مجلس الشيوخ في روما تراجع هانيبال والمكاسب البسيطة التي حققها مينوشيوس بمثابة نصر كبير ، ودعا الشعب الى الابتهاج والتهليل بذلك الانتصار . وكان مجلس الشيوخ وسكان روما معذورين في إسراعهم الى الاعتقاد بتلك الخرافة ، وذلك لتعطشهم الى سماع أخبار سارة بعد شهور من قصص الهزائم والانتهاكات . وكانت نتيجة ذلك ان تقلص دور فابيوس كمسيطر أوحد على مجريات الأمور ، وأُرغِمَ ، بعد مناقشات طويلة في مجلس الشيوخ ، على القبول بمساعده مينوشيوس شريكاً له في القيادة ، وكان ذلك بمثابة تخفيض لمنزلته الى درجة قنصل . لم يأسف فابيوس على خسارته لمركزه ، لكنه كان يخشى حماس مينوشيوس وتهوره ، ولذا عرض عليه ان يختار بين أمرين :

- إمّا أن تبقى اللجيونات مجتمعة في جيش واحد بإمرة القنصلين ، وتكون القيادة بالتناوب ، يوماً له ويوماً لمينوشيوس .

- وأمّا تقسيم القوات الى جيشين منفصلين ؟ ! .

كان مينوشيوس تواقاً الى قيادة مستقلة ، ولا يطيق ان يرى فابيوس فوق رأسه او قريباً منه ، ولذا اختار الحل الثاني ، فانقسم الجيش الى جيشين ، وعسكر كل جيش منفصلاً عن الآخر . وصل الخبر الى هانيبال بواسطة عيونه وكشافته ، فسر لذلك ، ورحب بهذه الفرصة التي قد تتيح له تدمير أعدائه بالتجزئة . وقد زعم بعضهم ان تراجع هانيبال السابق الذكر ، وتظاهره بالضعف في وجه مينوشيوس كان خدعة لتضليل الرومان ودفعهم للتخلي عن سياسة فابيوس الاحتوائية المربكة ، وقد تم له ذلك على النحو السابق الذكر .

لم يضيّع هانيبال الوقت ، فقد بادر منذ ان بلغته تلك الأخبار الى العمل بقصد الاستفادة إلى أقصى حد ممكن من الوضع الجديد . كان يقوم بين معسكره ومعسكر مينوشيوس تل صغير كان بمثابة مرقب لكلا الطرفين . وعمد هانيبال فاحتل هذا التل وأشغله بقوة مفرزة ، متحدياً بذلك كبرياء القائد الروماني وخيلاءه . كان وضع هانيبال هذه المرة مختلفاً عن سابقه ؛ كان

الجيش كله الآن في قبضة يده ، وقد عثر في الجوار على أرض مقعرة منخفضة ، لكن واسعة ويخيل للرائي انها مستوية منبسطة ، فوضع في بطنها كميناً مؤلفاً من ٥٠٠٠ من المشاة و ٥٠٠ خيال .

وهكذا نصب الفخ ، وسارع مينوشيوس للوقوع في داخله .

فقد هرع هذا الأخير ، منذ أن أبصر بالقرطاجيين يحتلون التل القائم بين معسكري الطرفين ، فأمر مشاته الخفيفة بالهجوم لطردهم منه . وعمل هانيبال من جهته ، متقصداً ، على اظهار دفاع غير ناشط في وجه المشاة الرومانية الخفيفة ، وذلك بغية التطويل والضرب على أعصاب الخصم . وكان مينوشيوش يرد على كل تعزيز قرطاجي للقتال بتعزيز روماني مماثل . وأخيراً عيل صبره ، وفقد السيطرة على أعصابه ، فحمل بنفسه على رأس لجيونتيه ، صاعداً باتجاه ذروة التل . وللحال عمد هانيبال الى اغلاق فكي الفخ واحكام اقفاله ! .

حرك هانيبال المشاة الثقيلة الى التل لمواجهة الهجوم الروماني ، وانتظر الى أن تورط مينوشيوس كلية ، وعندئذ أوعز الى الكمين بالخروج من مخبئه ، لينقض على مجنبة الخصم ومؤخرته ، تماماً كما فعل شقيقه ماكو في تريبيا . كان الرومان حينئذ قد اشتبكوا جبهوياً بصورة كلية ، وما كان بوسعهم بعد ذلك أن يتحولوا بهجومهم الى اتجاه جديد ، ولذا فما كان منهم الاّ أن تراجعوا متقهقرين على مجنبتهم الطليقة ، وقد أوشكت أن تحل بهم هزيمة ساحقة . ولكن فابيوس أدركهم بالوصول مع قواته الى الساحة في اللحظة الحرجة ، وكان يراقب الأمور من معسكره ، وقد جاء لمساعدة منتقده الرئيسي وحامل لواء المعارضة ضده . وكان لمجيئه في ذلك الوقت الحرج أثره المحمود ، فكفت قوات مينوشيوس عن التقهقر ، وتمالكت نفسها ، وأخذت باعادة تنظيم صفوفها جنباً لجنب مع القوات الشقيقة ، قوات فابيوس .

وعندما أدرك هانيبال أن فابيوس قد حال بقدومه دون هزيمة مينوشيوس ، أوعز الى أبواقه وطبوله بدق الانفضاض من القتال ، وقفل راجعاً الى

معسكره . ويبدو ، لسبب ما ، انه لم يكن مستعداً لخوض معركة عامة مع القوى الرومانية مجتمعة . ويعزز هذا الموقف من قبله ما يُخيّل اليّ من أنه لم يكن ليقدم على خوض معركة لم يستعد لها مسبقاً ، الأمر الذي ربما يعني تقصيراً في التكيف مع الطوارىء والرد بالتدابير الناجحة الملائمة ، وقد يكون في هذا التقصير تفسير لعجزه عن الاستفادة من انتصاراته التكتيكية في السنوات الأولى من حملته خاصة . وهكذا نجا مينوشيوس من هزيمة كاملة محققة ، لكن بعد أن تلقى صدمة قاسية ، وقد اعتبر بنتيجة ذلك ، واعترف لفابيوس بما كان من أخطائه ، وشكره على انقاذه له ولجيشه ، وطلب منه أن يعود قائداً عاماً للجميع .

توجه الطرفان المتحاربان ، عقب تلك الاشتباكات ، الى منازلهما الشتوية . واقتصرت الأعمال القتالية منذئذ على مناوشات بين الدوريات ، وعلى اصطدامات مع المفارز القرطاجية الباحثة عن المؤن . وهكذا انتهت الأشهر الستة من دكتاتورية فابيوس ، وقد جرى استبداله بالقنصلين سرفيليوس وروكولوس . كانت انجازات فابيوس بمعظمها سلبية ، لكنه قد حال رغم ذلك دون أن تحل هزيمة مدمرة بالجيش الروماني . وهو بالحفاظ على جيشه سالماً وكاملاً طوال الوقت ، على مؤخرة هانيبال ، فقد أثبت لحلفاء روما وشركائها في الكونفدرالية الايطالية أن أسنان روما لا تزال حادة قاطعة ، وبذلك حدّ من قلقهم ، ورفع معنوياتهم ، وحملهم على البقاء على ولائهم للدولة الرومانية . أضف الى ذلك ما وفره من الوقت لروما ، لتجنيد قوات جديدة تغطية للخسائر ، ولتزيد من عدد لجيوناتها ، ليصير باستطاعتها نتيجة لذلك أن تواجه هانيبال بقوى متفوقة ، وأن تحقق نجاحات ومكتسبات في ميادين أخرى من ساحات الحرب مع قرطاجة .

وكانت تكلفة الاستراتيجية الفابية باهظة ، مادياً نتيجة لما كان من قسوة هانيبال في التدمير والاتلاف ، ومعنوياً بما تراءى من عجز عن منع القائد القرطاجي عن التجوال والعبث بالأموال والممتلكات على هواه . لكن النتائج

النهائية كانت ، بتحليل عملي واقعي ، وافية بهذه التكلفة ، وكان للثمن ما يبرره ؛ اذ لولا هذه الاستراتيجية لكان من المحتمل جداً أن تمنى روما بالمذلة والهوان .

ومن جهة هانيبال ، فقد كان رده على هذه السياسة سلبياً ، بمعنى أنه لم يقم بأي رد بالمرة . وقد تجنب المعركة ثلاث مرات ، مرة مع مينوشيوس ، ومرتين مع فابيوس دونما سبب ظاهري مقبول ، حتى ليخال للمرء أنه لم يكن ليبتعد عن مخطط قد سبق أن أعده واستقر رأيه عليه .

وقد ظهر من تحركات القرطاجيين وعملياتهم في أترووريا والسمنيوم أن استعلاماتهم عن سكان هذين الأقليمين كانت خاطئة ، وكانت بالأحرى كالأمل والتمني وليست حقائق واقعة . وقد لمس هانيبال هذه الحقيقة بيده ، فعمد الى سياسة البطش والقمع ، عوضاً عن البحث عن استراتيجية جديدة يستبدل بها استراتيجيته الساذجة المبدئية التي قادته الى ايطاليا ، والتي لم تحظ بغير الفشل حتى الآن .

فاذا وضعنا جانباً مهارته التكتيكية ، وسيطرته الكاملة على جنوده ، فاننا لا نرى غاية استراتيجية لتحركات هانيبال طوال هذه السنة سوى العبث والتخريب ، وهي سياسة جدباء لم تؤت بنتيجة ايجابية ، ولا هي حدت من طاقة الخصم ولا أثرت على معنويته بصورة فاعلة . وأغلب الظن أنه كان في حيرة من أمره، وربما كان يترقب أن يسعفه المستقبل بحل، وكان بانتظار ذلك يعالج أموره يوماً بيوم ! .

الفصل العاشر

الابادة بالمعركة الكاملة

روما والاستعداد العسكري ـ الاستعداد لمعركة
كانه ـ المعركة ـ بعد المعركة ـ
OOOOOOOOO

بعد فابيوس

كانت روما ، كما أسلفنا ، كارهة لاستراتيجية فابيوس الاستفزازية الاحتوائية ، وكان الضغط الشعبي يزداد إلحاحاً مطالباً بسياسة حازمة حيال الغزاة . وكان النقص في الأغذية ، نتيجة لسياسة النهب والسلب والتخريب التي اتبعها هانيبال في القرى والأرياف ، من أهم الأسباب في نقمة الشعب في روما وحملته ضد فابيوس . ولذلك لم تكن مفاجأة أن أول قنصل جرى انتخابه في مطلع السنة الجديدة كان س . تيرنتيوس فارو ، وكان من أشد المطالبين بوجوب لقاء هانيبال في ميدان المعركة .

كان فارو من عائلة حديثة الثراء ، وقد مارس عدة أعمال حكومية ، وعمل في مجلس الشيوخ ، وحارب في إلّيريا . ومع أنه لم يكن يتميز بالعبقرية ، الا أنه لم يكن كقائد أكثر سوءاً من أولئك الذين سبقوه ، بما فيهم سمبرونيوس وفلامينيوس . وقد رأس فور انتخابه جلسة انتخاب القنصل الثاني ، التي فاز فيها ل . أميليوس بولوس ، وكان قنصلاً عام ٢١٩ ـ ٢١٨ ق م . كان هذا القنصل ينحدر من أسرة عريقة ، ومن أنصار عائلة

شيبيو ، وقاد جيشاً في إلّيريا أيام قنصليته السابقة ، وكان له من جراء ذلك بعض الخبرة العسكرية وميزة على فارو في هذه الناحية .

وقد قيل الكثير عما كان قائماً بين القنصلين من منافسة وخصومة ، لكن يبدو أن ذلك كان تبريراً للهزيمة في « كانه » ، ومحاولة لإيجاد كبش فداء يحملونه مسؤوليتها ، وقد بذلت في هذا السبيل جهود كثيرة لإلقاء اللوم والتبعة على فارو ، وتبرير ساحة الأرستقراطي القنصل الآخر بولوس ومن ورائه كافة الأرستقراطية في روما .

والشيء الوحيد الذي لا شك فيه ، هو أن الجو العام الذي كان سائداً في روما ، بعد انتخاب هذين القنصلين ، كان حماسياً صليبياً ضد قرطاجة ؛ فقد اتحدت جميع الطبقات في المطالبة بسرعة الاشتباك مع العدو وتدميره ، وفي المناداة بأن هذا هو السبيل الوحيد لمحو العار وغسل الإهانات التي لحقت بجيوش روما في السنة الماضية نتيجة ، كما زعم خصوم فابيوس ، لجبنها وإحجامها عن مواجهة الغزاة ، وقد عمد أكثر من مئة شيخ (سناتور) الى الإنخراط في القوات المسلحة . والواقع أن جميع النبلاء تطوعوا في ذلك الوقت للعمل في الخيالة ، كما تقاطر المواطنون من جميع الفئات متحمسين للانتساب الى الجيش وخدمة العلم . كان المزاج نوعاً من هستيريا الفرح والابتهاج . لم يبق أحد في روما ، باستثناء فابيوس ، يشك بأن النصر قد غدا في قبضة روما بعد أن قررت الإلقاء بكل ثقلها في الميزان . وقد أصدر مجلس الشيوخ أمراً إلى القنصلين بطلب هانيبال وجلبه كرهاً الى ساحة المعركة .

القوات الرومانية والاستعدادات العسكرية

بذل الرومان ، تلك السنة جهوداً عظيمة اعداداً لجيش ميداني يكون أكثر من كفء لمنازلة هانيبال وجيشه. أمر مجلس الشيوخ بتجنيد ٤ لجيونات اضافة الى اللجيونات الأربعة الموجودة في الميدان ، وقرر كذلك أن تكون كل لجيون بتعداد ٥ آلاف . وبناء على ذلك فقد صار عدد قوى المشاة الرومانية

٤٠ ألفاً ، بالاضافة الى عدد مماثل من قبل الحلفاء الطّليان ، أي صار مجموع المشاة العام ٨٠ ألفاً ، وهو ضعف عدد مشاة هانيبال في ذلك الوقت .

وعلاوة على قوى جيش الميدان الآنفة الذكر ، والقوات الموجودة في اسبانيا ، فقد أرسلت لجيونتان الى الحاكم بوستوموس ألبيونوس لمقاتلة الغاليين . وهكذا فان مجموع القوى الرومانية ، عام ٢١٦ ق م ، يزيد كثيراً عما كانت روما قد جندته قبل ذلك التاريخ . وبالرغم من ذلك فان هذا التجنيد لم يشكل عبئاً ثقيلاً على موارد روما وامكاناتها، ويعطي صورة واضحة عن الفارق بين هذه الجهود الرومانية العملية في ممارسة الحرب والاعداد لها ، وبين الجهود الضئيلة التي صدرت عن قرطاجة في هذا السبيل .

ان تجنيد واعداد كتل كبيرة من القوات المحاربة يتطلب بالضرورة وقتاً ، وما كان من الممكن أن تكون القوات الحديثة جاهزة للقتال في الربيع القادم . وبناء على ذلك فقد طلب الى القنصلين السابقين أن يبقيا على رأس قوات الميدان آنذاك ، الى أن يلتحق بهما فارو وبولوس مع القوات الجديدة . وقد طُلب منهما أيضاً ، بانتظار ذلك ، أن يظلا على مقربة من هانيبال ، ويمتنعا عن خوض معركة رئيسية مهما يكن السبب .

هانيبال

يبدو أن هانيبال كان من ناحيته مغتبطاً لقضاء فصل الربيع في معسكره . وكان قد اختزن في العام الفائت مؤونة كافية ، لذا لم يحدث في هذا السبيل سوى بعض المناوشات المحدودة ، ولا يعلم شيء عن تفكيره وخططه في ذلك الوقت . وقد أقام في معسكره منتظراً مترقباً ، وكأن لا قيمة للوقت لديه ، الى أن أخذت مؤونته بالتناقص ، وعندئذ فض معسكره ، وتحرك على مهل جنوباً ، فمر على مقربة من القوات الرومانية المراقبة لحركاته ، وعبر نهر أوفيدوس ، ليستولي بغارة سريعة على مستودع التموين الروماني الكبير في « كانه » ، وقد وجده يفيض بالأرزاق والمؤن ، فأراحه ذلك من عناء هذه الناحية ، ومن ضرورة توزيع قواته للبحث عن الكلأ والطعام .

وما أن بلغت روما أخبار خروج هانيبال من معسكره ، حتى سارع القنصلان الجديدان الى مغادرة العاصمة ، على رأس قواتهما الجديدة ، ولم يكتمل تدريبها بعد . وقد اجتمعت قوات القنصلين في جوار أربي ، في أواخر تموز كما يظن ، فتابعا المسير لمدة يومين معاً ، ليعسكرا بعدئذ على مسافة حوالي ١٠ كيلومترات من « كانه » نفسها . وقد رأى القنصل بولوس ، وفقاً لأقوال المؤرخ اليوناني بوليبوس ، ان المكان الذي نزلوا فيه كان أرضاً مسطحة ، خالية من العراقيل والشجر ، ومثالية لحركات الخيالة القرطاجية ، فطلب من « فارو » ان يكف عن التقدم ، وأن يعود بالأحرى متراجعاً في محاولة لاستدراج هانيبال الى أرض تكون أصلح لجيشهما الضعيفين بسلاح الفرسان ، غير أن « فارو » لم يستجب لهذا الطلب . وفي اليوم التالي ، وكان دوره في القيادة ، تابع فارو الحركة باتجاه الشرق . وقد هوجم الرومان ذلك النهار من قبل خيالة القرطاجيين ومشاتهم الخفيفة ، لكن بقي الهجوم مقتصراً على مناوشات بسيطة منتشرة ، وقد توقفت بحلول الظلام وانفك هانيبال عن التماس . أما بولوس فقد عاد في اليوم التالي ليتابع الحركة قدماً ، ولينزل عند حلول الظلام على ضفاف نِهر أوفيدوس ، وصار من جراء ذلك في وضع لا يساعده على الانسحاب بسهولة . وقد عمد فأرسل ثلث جيشه عبر النهر ، لانشاء معسكر محصن تنطلق منه مفارزه الباحثة عن العلف والغذاء ، والعاملة في نفس الوقت على ازعاج ومناكدة مثل هذه المفارز لدى العدو . ويتضح من هذه الحركة أن بولوس لم يكن راغباً في تجنب المعركة .

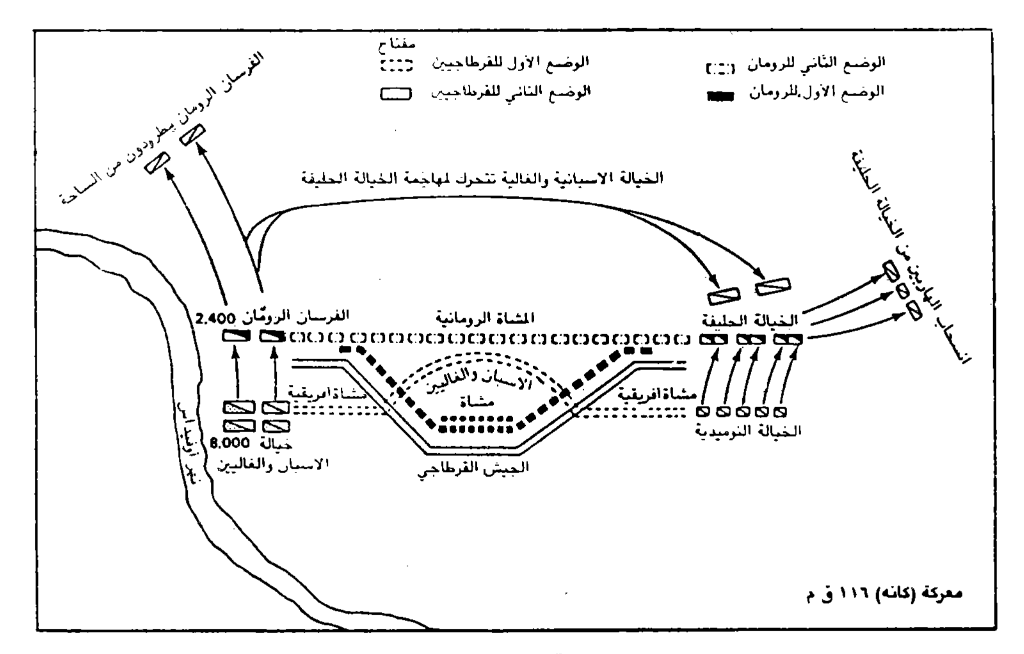
تقع « كانه » على مرتفع يركب الضفة اليمنى لنهر أوفيدوس ، على حوالي ٨ كيلومترات من البحر . والمرتفع المشار اليه أعلى نقطة في ذلك المكان . يجري النهر تحت « كانه » ، خلال أراضي تنبسط على ضفة النهر اليسرى أكثر من انبساطها على الضفة الأخرى . وكانت الضفة اليسرى ساحة مثالية لحركة الخيالة . وكانت الضفة اليمنى أرضاً منبسطة كذلك ، لكن تروح ترتفع بطيئاً صاعدة نحو المرتفع الذي تقوم عليه المدينة .

الاستعداد لمعركة « كانه »

عاد هانيبال ، بعد انفكاكه عن التماس المذكور أعلاه ، الى منزله السابق قريباً من « كانه » . ولما عسكر الرومان بمعظم قواتهم على الضفة اليسرى لنهر أوفيدوس ، عمد هـانيبال حالئذ الى عبور النهر بكل جيشه ، وعسكر الى الجنوب الغربي من المعسكر الأكبر للرومان ، ساداً بذلك طريقهم الى الأراضي الأكثر وعورة . وفي اليوم التالي، ٣١ تموز ، أقام القرطاجيون في معسكرهم يحضرون أنفسهم وأعتدتهم ، وينظرون في مطالب خيولهم . وأقام الرومان من جهتهم هادئين في معسكراتهم ، وكانت القيادة لفارو ذلك اليوم . وفي اليوم الأول من آب ، قام هانيبال بترتيب قواته بقصد القتال ، لكن بولوس لم يستجب الى هذا التحدي من جانب هانيبال مما اضطر هذا الأخير الى سحب جيشه والعودة الى معسكره الاّ أن هانيبال لم يبق ساكناً ، بل عمد فأرسل خيالته النوميدية الخفيفة عبر النهر ، حيث أخذت في مضايقة جماعات الاستسقاء القادمة من المعسكر الصغير العائد لبولوس ، وحيث جعلت من نفسها مصدر ازعاج ومناكدة بصورة عامة .

وفي ٢ آب ، كان دور « فارو » في القيادة ، وقد بادر أثر شروق الشمس الى العبور بكامل القوات الى الضفة اليمنى للنهر . وقد انتقد أكثر المؤرخين فارو لهذه الحركة ، بدعوى أنه أجراها دون تشاور مع القنصل الآخر ، وربما ضد نصيحة هذا الأخير بدافع من تسرعه لخوض المعركة .

ولكن لماذا تحرك ، ولماذا اختار أن يقاتل على الضفة اليمنى ، خاصة وقد اضطره ذلك الى نقل معظم جيشه عبر النهر ، وصرف في هذا السبيل وقتاً طويلاً ، وذلك بدل البقاء حيث كان والقتـال على الضفة اليسـرى ؟! . الجواب ، كما يقول المؤرخ لازمبي ، بناء على دراسته للوضع العام ، هو أن « فارو » قد بذل كل جهده ليكون القتال جارياً على الأرض الأصلح لجنوده في حدود المستطاع . انه وزميله كانا يقودان حوالي ٨٠ ألفاً من المشاة و٦ آلاف من الخيالة ، بالاضافة الى عدد كبير من دواب الحمل والنقل . وكانت المنطقة التي عسكر الرومان فيها لا تستطيع اطعام مثل هذا الحشد ، كما أن نهر



معركة (كانّه) ١١٦ق م

أوفيدوس ، رغم وفرة مياهه ، لم يكن سهل الورود في وجه النوميديين ، الذين جعلوا الاستسقاء منه عملية عسيرة ومكلفة. أضف الى ذلك أن الرومان كانوا ، في مكان تعسكرهم ، مضايقين كثيراً بفعل « الفولتورنس » ، وهو ريح جنوبي شرقي ، كان يثير في وجههم سحب الغبار بصورة مستمرة ، ويزيد من عطشهم ونكد عيشهم . وفي مثل هذه الشروط ، كان الجيش الروماني أمام خيارين :

- فإمّا القتال ،
- وإمّا الانسحاب ! .

هذا إذا كانت لديه حرية الاختيار . فقد تلقى القنصلان أوامر حازمة بالقتال ، والانسحاب في ذلك الوقت كان سيعتبر ولا شك بمثابة كارثة للمعنوية في روما . ولقد رفض بولوس أن يخوض المعركة في اليوم السابق ، لأنه لم يوافق على خوض القتال على أرض الضفة اليسرى للنهر . أما الآن فلا يوجد أدنى شك بأن العبور الى الضفة اليمنى جرى باتفاق القنصلين ، وكانت الأرض على هذه الضفة أصلح الموجود كساحة للقتال من وجهة نظر الرومان.

كانت القوات الرومانية تعد ، كما قدمنا ، حوالي ٨٠ ألفاً من المشاة و ٦

آلاف خيال ، وكان ذلك مساوياً للتعداد العام لـ ٨ لجيونات رومانية، و٨ لجيونات مقاتلة من القوات الحليفة ، مضافاً اليها الخيالة الملحقة عادة بكل لجيون . ولكن هذه القوى لم تشترك جميعها في المعركة. فقد كان للرومان معسكران ، معسكر على كل ضفة من النهر ، ولم يكن ليترك هذان المعسكران دون حراسة . يقول المؤرخ بوليبوس أنه قد ترك في المعسكر الأكبر حامية من ١٠ آلاف مناصفة بين الرومان وحلفائهم ، وفي المعسكر الصغير حامية من ٥ آلاف مناصفة كذلك . وربما كان للقوى التي تركت في هذين المعسكرين مهمات أخرى غير الحراسة ، كالقيام بغارات على مؤخرة القرطاجيين أو معسكرهم ، بعد أن تبدأ المعركة . وعلى هذا الأساس يمكن تقدير القوات الرومانية، التي اشتركت في معركة « كانه » ، بحوالي ٧٠ ألفاً من المشاة و ٦ آلاف خيال .

التشكل للمعركة

الرومان :

تشكل الرومان للمعركة على الطريقة التقليدية ، المشاة الخفيفة في المقدمة أمام الجبهة ، واللجيونات جاءت بعد المشاة الخفيفة ، لجيوناً الى جانب لجيون ، كل لجيون رومانية تليها على الجانب لجيون حليفة . وقد غطت اللجيونات جبهة بعرض ١١٠٠ مقاتل ، وعمق ٥٠ مقاتلاً . وبخصوص الخيالة ، فقد وضعت على الجانبين ، ٢٤٠٠ خيال روماني على الميمنة ، مستندين الى النهر بقيادة بولوس نفسه ، ووضعت الخيالة الباقية على المسيرة ، وعددها ٣٦٠٠ خيال حليف .

لا تعرف الأسباب التي دعت الى مثل هذا التشكيل . ومما يراه البعض أن « فارو » قد اختار هذا الترتيب لعدم ثقته بالمجندين الجدد ، أو لربما ظن أن العمق والثقل ضروريان لاختراق خطوط القرطاجيين بتشكيل هو التراص الكتلوي الصرف ، وأن هذا التراص يعطي تشكيله زخماً وقوة لن يتحققا على جبهة عريضة . وقد اتخذ « فارو » مكانه على الميسرة ، على رأس الخيالة الحليفة ، وعهد بقيادة الوسط الى القنصل السابق سرفيليوس

القرطاجيون :

عندما رأى هانيبال الرومان يعبرون النهر ويصطفون للقتال ، أمر للحال مشاته الخفيفة بالعبور الى الجانب الآخر ، وأعقب فأخذ يعبر بجيشه معلناً هكذا قبوله للتحدي . لم يذكر أحد عدد قواته بالضبط ، وقد خلّف وراءه ، وفقاً لرواية بعض المؤرخين ، حوالي ١٠٠٠٠ نفر لحراسة معسكره . وتتفق معظم المصادر على القول بأن قواته قد تألفت ذلك اليوم من :

- ٢٠٠٠ خيال نوميدي .
- ٨٠٠٠ خيال غالي واسباني ،
- ٣٠٠٠٠ من المشاة ، كان منها ١٠ آلاف أفريقي ، و٦ آلاف اسباني ، والباقي من الغاليين مع نسبة ضئيلة من الايطاليين .

بنى هانيبال خطته للمعركة ، على أساس تفوقه في سلاح الخيالة ، وعلى اعتقاد بأن تفوق الرومان عددياً بالمشاة لن يعمل في النهاية لصالحهم . وقد رتّب قواته للمعركة بصورة تختلف عن ترتيب الرومان ؛ فهو لم يوزع خيالته على جناحيه كما فعل القائد الروماني بخيالته ، وإنما وضع كل خيالته الثقيلة على ميسرته ، مستندة الى النهر ، أي وضع ٨٠٠٠ خيال مقابل ٢٤٠٠ خيال للطرف الآخر ، ولم يضع هذه الخيالة على ميمنته مقابل القسم الأكبر من خيالة الرومان ، وقد أعطاه هذا الوضع ثقة شبه مؤكدة بتحقيق اختراق من ناحية ميسرته . أما من ناحية جناحه الآخر ، حيث تتواجد خيالته النوميدية ، وعددها ألفان ، مقابل ضعف عددها من خيالة الرومان ، فقد كان يعتمد على مهارة النوميديين باحتواء خيالة العدو كل الوقت اللازم . وليس هذا بالشيء المدهش ، اذ عندما يكون تحت تصرف القائد ١٠ آلاف خيال من النوع الجيد ، فان من السهل والمتوقع أن يستفاد من هذا التفوق بالعدد والنوع في وجه ٦ آلاف خيال من نوع أقل جودة . لكن الصعوبة كانت كيف نواجه بثلاثين ألفاً من المشاة سبعين ألف مشاة لدى الخصم؟ كان نصف عدد مشاة الرومان ، أي ٣٥ ألفاً تقريباً ، قليلي الخبرة ناقصي التدريب ، يعني أقل كفاءة للقتال من مشاة القرطاجيين . وقد خطط هانيبال بحيث جعل هذه الناحية ، وكذلك

التفوق العددي يعملان ضد أصحابهما . ولهذا فقد وضع أقل قواته اعتماداً ، وهم الغاليون ، في الوسط ، والاسبان على جانبيهم . وبدلاً من أن يرتب هؤلاء على شكل تقليدي ، كما كان منتظراً تبعاً للأعراف والتقاليد في ذلك الزمن ، أي على تشكيل مقعّر تقوية لوسط جبهته ، فقد دفع بهم على العكس الى الأمام ، على شكل قوس محدب بارز صوب الخصم . ووضع على جانبي هذا القوس دعماً لطرفيه ، مشاته من الأفارقة المحنكين ، على عمق نسقين . وقد شرح لقادة المشاة ، بدقة ، نواياه وخطته . كان يتوقع أن تندفع المشاة الرومانية لمهاجمة وسطه المعرض ، وكان على هذا الوسط ، المؤلف من الغاليين والاسبان ، أن يتظاهر بالقتال الجدي ، وأن يتراجع ببطء تحت ضغط هجوم العدو ، لكن على أن يحافظ على تماسكه ولحمته وسلامة جبهته . فاذا حصل ذلك ، فان ثقل الهجوم الروماني ، مع الانسحاب البطيء للوسط القرطاجي ، سيسير على شكل قمع ، وستتحول الجبهة القرطاجية الى قوس مقعر عوضاً عن قوس محدب ، وسيدور الأفارقة على المجنبتين دوراناً داخلياً ، بحيث يتحول التشكل القرطاجي الى شبه كيس ضخم ، الأفارقة على أكتافه ، والرومان بداخله ، مربكين ومعرقلين بكثرتهم . لم يكن هذا مجرد تخطيط جيد فحسب ، بل كان تعبيراً عن ثقة هانيبال الكاملة بمختلف العناصر التي كانت تؤلف جيشه .

المعركة

بدأت المعركة بالاشتباك المعتاد بين المشاة الخفيفة لدى الطرفين . وقد استمر ذلك الاشتباك وطال ، الى أن فقد الرومان صبرهم ، فأصدر سرفيليوس أمره الى اللجيونات بالتقدم ، وتراجعت المشاة الرومانية الخفيفة الى الوراء ، من خلال الفواصل بين اللجيونات ، ولم تقم فيما بعد بأيّ دور يذكر في المعركة . أما المشاة القرطاجية الخفيفة ، وكانت مدربة خصيصاً على القتال القريب، فالمعتقد أنها تراجعت لتنضم الى الاسبان والغاليين في الوسط وتقاتل معهم ، وكان هذا الوسط الآن هدفاً لهجوم روماني يجري بشدة وضراوة . وقد قابل الوسط القرطاجي هجوم الرومان على النحو الذي حدد له، وأخذ يتراجع

ببطء ، وكـان كمن يفعل ذلك بالضغط والاكـراه . هـذا التراجع البـارع المخطط له ، أدى الى الغرض المنشود من ورائه ، فاجتذب مشاة الرومان المتكتلة على جبهة ضيقة ، يدفع بعضها بعضاً ، الصفوف الأمامية مدفوعة بثقل وضغط الخلفية . وقد لعب الطقس أيضاً دوراً في المعركة . كانت الشمس ساطعة ، محايدة بالنسبة للطرفين ، لا تفضيل من ناحيتها لأيّ طرف على آخر ، لكن ريح الفورتورنس كانت تعصف بشدة وعنف في وجه الرومان ، محملة بالغبار ، وكانت كمن أعمى الرومان وحدّ من ادراكهم واحساسهم بما يجري حواليهم .

وكانت الخيالة في هذه الأثناء قد اشتبكت على الجوانب ؛ فقد اندفع القائد القرطاجي مهاربال ، من الميسرة القرطاجية ، بخيالته في انقضاض عنيف على بولوس وخيالته الرومانية . إن المعلومات هنا حول هذه النقطة متضاربة . . بعضها يقول أن الخيالة الرومانية قد فوجئت وهي كلها راجلة تقريباً ، فتقهقرت ولاذت بالفرار منذ الصدمة الأولى . . ويقول البعض الآخر ان الفرسان الرومان قاتلوا بشدة وضراوة ، لكن بولوس سقط صريعاً بعد الاشتباك بقليل وهو يقاتل على رأس خيالته . وعلى كل حال فقد انتهى هذا الاشتباك بين خيالة الطرفين بهزيمة ساحقة للطرف الروماني . وبدلاً من أن ينطلق مهاربال لمطاردة الرومان المهزومين ، تحول على العكس بخيالته ، بدقة وانتظام ، ليدور يميناً فيميناً على مؤخرة المشاة الرومان في الوسط الروماني ، حتى بلغ خلف الميسرة الرومانية ، المؤلفة من ٣٦٠٠ خيال ، والتي كانت مشتبكة وقتئذ مع الخيالة النوميدية وعددها ألفان . وكان النوميديون يتهربون من الالتحام القريب ، عاملين على إلهاء الرومان وايقافهم بمناوشات كر وفر مستمرة متواصلة .

ولكن ما ان فوجئت خيالة الميسرة الرومانية بهجوم مهاربال من مؤخرتها حتى تضعضعت للحال ، وفرت تطلب النجاة من حيث تجد منفذاً ، في مختلف الاتجاهات . ولمرة أخرى ، وبصورة تستدعي التقدير والاعجاب ، استطاع مهاربال أن يحتفظ بسيطرته الكاملة على فرسانه ، وأن يبعث بالخيالة

النوميدية ، التي لا تصلح عادة للالتحام القريب ، لمطاردة خيالة الرومان الهاربة ، وقام من جهته باعادة تنظيم خيالته وقادها ليضعها خلف المشاة الرومانية .

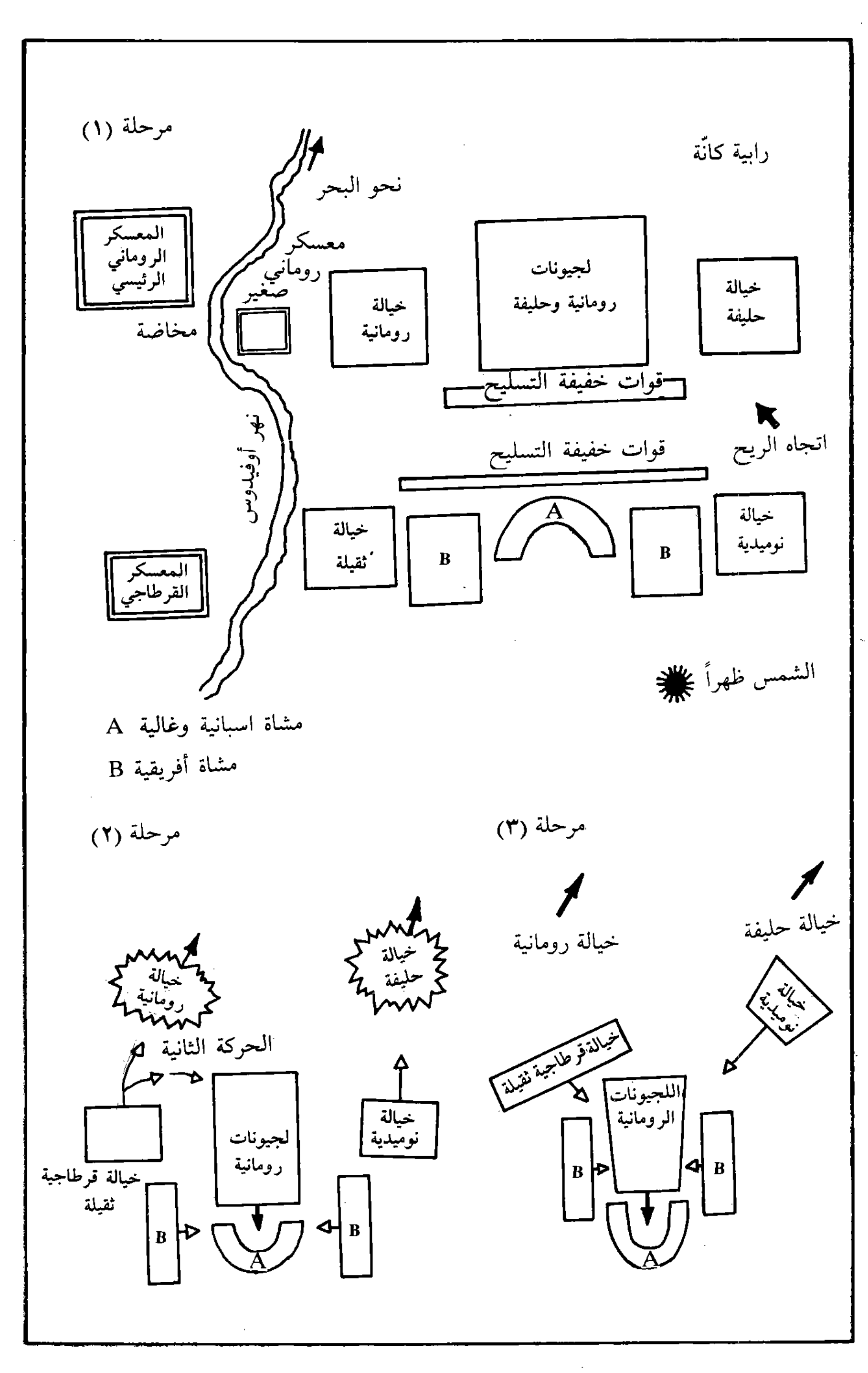
كانت المعركة ، حتى الآن ، تسير وفقاً للتخطيط الذي وضعه لها هانيبال ؛ فقد قام سرفيليوس ولجيوناته بالضغط على الغاليين والاسبان المتراجعين وملاحقتهم دون هوادة ، الى أن أخذ تشكل هؤلاء المبدئي بالقوس المحدب يتحول تدريجاً الى قوس مقعر يتدافع الرومان لملء فجوته . وعند هذه المرحلة ، عمد الأفارقة على الجانبين ، وكانوا حتى الساعة غير متورطين في القتال بصورة كلية، الى الدوران داخلياً ، محولين التشكل القرطاجي الى ما يشبه الكيس الضخم الآخذ بالإنغلاق بطيئاً على اللجيونات الرومانية . وقد أدى هذا التحول في التشكل الى وقف الزخم الروماني ، وسمح للغاليين والاسبان باستعادة أنفاسهم والعمل على تنظيم صفوفهم . وقد انتهت هذه المرحلة بانقضاض خيالة مهاربال على المؤخرة الرومانية بهجمات مدروسة ، متعاقبة ومسيطر عليها ، عاملة على دفع مشاة الرومان بعضها على بعض ، بحيث صار ثقل هذه المشاة وعددها مربكاً لها وحاداً من حريتها وقدرتها على التوجه والحركة . ويتفق المؤرخون على القول بأن القتال قد تحول منذ تلك اللحظة الى مجزرة من جراء تجمّع الرومان على بعضهم ، محشورين بحيث صار يتعذر عليهم تحريك ذراعهم واستعمال سيوفهم .

استمرت المعركة ثماني ساعات ، انتهت بإبادة الجيش الروماني بكامله . لقد صعب تحديد الخسائر لدى الطرفين . يقول مؤرخو ذلك الزمن أن خسارة الرومان بلغت ٧٠ ألفاً ما بين قتيل وجريح . وقد قام هانيبال، بعد المعركة ، بمهاجمة المعسكرين الرومانيين واقتحامهما ، وبذلك قضى على القوات الرومانية في المنطقة بكاملها . وهذا يعني أن روما خسرت في معركة « كانه » ٥٠ ألف قتيل و ٢٠ ألف أسير على أقل تقدير . وكان من ضمن القتلى القنصل بولوس ، والقنصل السابق جيمينوس سرفيليوس ، وسيد الخيل السابق مينوشيوس روفوس ، و٢١ قائداً من مرتبة تريبون ، وثمانون شخصية من

أعضاء مجلس الشيوخ ، أمّا « فارو » نفسه فقد تمكن من الفرار مع ٧٠ خيالاً .

وكانت خسائر القرطاجيين بالمقابل خفيفة نسبياً . وجاء عن بعض المصادر أن هذه الخسائر بلغت ٨ آلاف ، واكتفت مصادر أخرى بذكر ٤٠٠٠ غالي و ١٥٠٠ اسباني وأفريقي . واذا نحن اعتمدنا الرقم الأعلى ، أي خسارة ٨ آلاف ، فهذا يعني أن الخسارة القرطاجية كانت حوالي ٢٠ بالمئة تقريباً ، وهي نسبة مقبولة في نصر من هذا النوع . والجدير بالملاحظة هنا أن ما يربو على نصف خسائر القرطاجيين وقعت في الجانب المستهلك من عناصر الجيش القرطاجي ، أي لدى الغاليين ، وهم العنصر المتوفر محلياً ، والذي يمكن ملء شواغره بيسر وسرعة .

كانت هزيمة كانه هزيمة ساحقة لروما ، وساهم في تحقيقها عاملان : قصور القيادة العسكرية الرومانية ، والتفوق القيادي التكتيكي لهانيبال . وقد أخطأ كثير من المؤرخين في تفهم خطة القائد القرطاجي للمعركة . فقد كتب بعضهم أن الوسط القرطاجي كان عاجزاً عن الثبات في مكانه أمام الهجوم الروماني ، وأن هانيبال قد عرّض ، دونما داع ، وسطه للخطر بالتشكل الذي أعطاه له . هذا القول كله خطأ ؛ فقد كان كل جزء من التشكل القرطاجي في مكانه وفقاً للخطة ، وما كان الوسط بمقرر له قط أن يصمد في مكانه على وضعه المبدئي ، وإنما كان عليه أن يستدرج الرومان عميقاً وعميقاً الى داخل الشرك الذي كان معداً لهم . وكذلك لم يقدر أولئك المؤرخون ادراك هانيبال لعقلية خصومه وتكتيكاتهم ؛ فهو ، كما في تريبيا وترازيمين ، كان يبدو كمن يقرأ ما يجول في خلد قادة الخصم ، وقد اتخذ من هذه المقدرة أساساً لوضع خطته . ولم يكن الفضل في تحقيق الانتصار في « كانه » كله للخطة فحسب ، بل كان فيه نصيب كبير للمستوى الرفيع من الإعداد والانضباط اللذين ظهرا أثناء المعركة لدى كل قطعة ووحدة في الجيش القرطاجي . وكان هانيبال يعتمد كثيراً على هذه الناحية لنجاح خطته ، وكان على صواب في ذلك في معظم الأحيان .



مخطط آخر لمعركة « كانّه » بمراحلها الثلاثة عام ٢١٦ ق م .

بعد المعركة

تعرض هانيبال للنقد الكثير، لقصوره الاستراتيجي وعدم معرفته كيف يستفيد من انتصاراته. فهو، ناهيك عن نقاط الضعف وأوجه الخلل في بناء خطته العامة لحملته ضد روما، وفي الأساليب التي اتبعها تنفيذاً للخطة، فقد زاد فأخطأ تكتيكياً واستراتيجياً بعدم تعرضه لجيش شيبيو الأب في منطقة مسيليا، وسماحه لهذا الجيش بمتابعة سيره الى اسبانيا. وقد أخطأ كذلك، بعد معركتي تريبيا وترازيمين، عندما كان على مقربة من روما، بعدم السير الى العاصمة الرومانية التي كانت شبه عزلاء باستثناء لجيونتين من الدرجة الثانية كانتا تشكلان حامية المدينة.

أما بعد معركة « كانه »، فقد كان تصرفه غريباً وهدفاً للانتقاد من لدن الكتّاب والمؤرخين، قديماً وحديثاً. ولقد ورد عن كثير من المصادر أن قائد خيالته مهاربال جاءه في اليوم التالي للانتصار، أي بعد أن أراح خيالته يوماً كاملاً، يحثه على التوجه فوراً ومباشرة الى روما، وليقول له :

ـ اتركني أتقدمك مع خيالتي، وفي غضون خمسة أيام ستتناول طعامك في العاصمة الرومانية !.

وقد رد هانيبال على ذلك بقوله :

ـ هذا الأمر قوله سهل، لكن يحتاج الى كثير من التفكير !.

وقد انفجر مهاربال حالئذ قائلاً :

ـ لقد علمتك الآلهة كيف تكسب انتصاراً، لكنها لم تعلمك كيف تستغله !. ان انتقاد هانيبال، فيما يعود الى هذه النقطة، يكاد يكون عاماً. وكان المارشال الانكليزي مونتغمري، بطل حرب العلمين، من جملة هؤلاء المنتقدين. وقد جاء ذلك في مؤلفه «تاريخ الحروب»، اذ يقول فيه، في ذكره لمعركة « كانه »، أن مهاربال كان على حق.

كان احتلال العاصمة الرومانية ممكناً بعد معركتي تريبيا وترازيمين،

وكان كذلك أكثر من ممكن بعد « كانه » . وإذا كان اقتحام المدينة أمر مشكوك فيه ، بحجة أنه لم يكن لدى هانيبال سلاح حصار مناسب ، فإن من المؤكد على كل حال أن ضرب الحصار على المدينة واذلالها بعزلها وحرمانها من تلقي العون والمساعدة من الخارج كان يحتمل أن يكون أعظم حافز لأعضاء الكونفدرالية الايطالية على التخلي عن ولائهم لروما ، وعلى قبول المشروع القرطاجي المزعوم بالكونفدرالية الجديدة بزعامة قرطاجة! .

لقد كان يفصل هانيبال عن روما ، بعد « كانه » ، حوالي ٤٠٠ كيلومتر تقريباً . وكان الاسكندر الكبير يقطع مسافات كهذه في ظرف ستة أيام أو سبعة . وقد قطع شيبيون الابن مسافة مماثلة في ظرف أسبوع ، وذلك عندما توجه لاحتلال قرطاجة الجديدة . وإذا كان مثل هذا العمل ممكناً للاسكندر ، وممكناً كذلك لشيبيون الابن (الأفريقي) ، مئتي سنة بعد المكدوني الكبير ، فلماذا لم يكن ممكناً في نظر هانيبال وتخطيطه ؟! .

لم يكن ذلك ممكناً في نظر هانيبال ، لأنه لم يكن يعرف كيف يجمع بين عسيرين : انهاء الحرب بسرعة باحتلال روما ، وعدم التخلي في سبيل ذلك عن أعداد ضخمة من الأسرى والغنائم وهي أحمال وأعباء ترهق الجيش وتعيق حركته. وكذلك لأنه لم يكن يفرق بين عمل استثنائي وبين عمل آخر روتيني هو اراحة الجيش بعد خروجه من كل معركة . هذا الجيش الذي يصفه مادحو هانيبال ومحبوه، بأنه كان عظيم التدريب، متماسكاً منضبطاً ، متعلقاً بقائده الشاب . أفلم يكن باستطاعته أن ينفض عنه غبار المعركة وعناءها بعد يوم وليلة من الهدوء والاستراحة ؟! . أوَلَمْ يكن باستطاعة هانيبال كذلك أن يجد واسطة الى الحفاظ على أسلابه وأسراه ، في حين ينصرف الى تطلب هدف قد يؤدي بلوغه الى انهاء الحرب والحصول على الانتصار التام ؟! . ولكنها النفسية التجارية كما أظن ، النفسية الفينيقية التي لم تكن لتعرف متى يجب التضحية بالكثير في سبيل الأكثر والأعظم ، لكن على المدى الطويل ! .

لا يعرف شيء عن تحصينات الدفاع لروما في ذلك الوقت ، الا أن المعروف المؤكد أن أهالي المدينة ، بعد أن جاءتهم أنباء الهزيمة في « كانه » ، راحوا ضحية للهلع والذعر ، وأن الدفاع عن المدينة كان بعهدة لجيونتين من مجندين جدد ناقصي التدريب ، عديمي الخبرة السابقة بأمور القتال .

الفصل الحادي عشر

حلم لم يتحقق

روما وهانيبال بعد « كانّه » - الموقف الحربي لدى الطرفين
أحداث الأعوام ٢١٤ - ٢١١ق م - مناقشة أعمال هانيبال بعد « كانّه»

OOOOOOOOO

وقعت أخبار « كانّه » وقوع الصاعقة على سكان روما ، حكومة وشعباً ، وعم الذعر بادىء الأمر في كل مكان . وفي هذا الوقت العصيب ، عمد الدكتاتور المنحى جانباً ، فابيوس مكسيموس ، الى استلام زمام الأمور والى فرض نفسه على مجلس الشيوخ . وبناء على تعليماته أرسلت الخيالة لاستطلاع أخبار المعركة عن كثب ، كما أرسلت أوامر سريعة عاجلة الى كلوديوس مرسيليوس ، الموجود يومئذ في أوستيا ، تطلب منه ان يتحرك عاجلاً مع الأسطول الى صقلية ، والنزول هناك مع مشاة البحر ، ومن ثم الاسراع مع الجميع الى روما . ثم عمد فابيوس فاشترى للدولة ٨ آلاف أسير رقيق ، وسلحهم للدفاع عن المدينة بالاضافة الى لجيونتي الحامية . وأخيراً ترك المكان لدكتاتور جديد جرى انتخابه ، وهو جونيوس بيرا ، وقد سبق ان كان قنصلاً عام ٢٤٥ق م .

وما ان تم ذلك واستكان الذعر حتى ورد نبئان طيبان . الأول ان هانيبال لم يتحرك ، كما ظُن في بادىء الأمر ، بقواته باتجاه روما ، وانه على العكس

لا زال معسكراً في أوفيدوس . والنبأ الثاني جاء من « فارو » ، وهو أنه استطاع جمع الباقين أحياء من جيشه ، وعددهم ١٤٥٠٠ ، وانهم جميعاً في بلدة كانوزيوم . وبناء على ذلك أرسل بيرا أمراً الى كلوديوس مرسيليوس بتسليم قيادة الأسطول الى فيريوس فيلوس ، ثم التوجه فوراً الى كانوزيوم لاستلام قيادة القوات الموجودة في هذه المدينة ، واعلام فارو بالتوجه إلى روما . ومن المحتمل انه كان لاستدعاء فارو سببان : الأول هو الظن بأنه قد فقد ثقة الجنود بحسن قيادته بعد الهزيمة ، والثاني ان القانون ينص على وجوب ترشيح الدكتاتور من قبل قنصل قائم ، وهو فارو وحده في ذلك الوقت ، وكل ذلك ليتم تثبيت بيرا في مركزه . وقد اتخذت في هذه الأثناء تدابير لتجنيد حوالي ٦ آلاف من شباب روما ، وجرى تجهيزهم من الأعتدة المتوفرة ، كما أرسلت طلبات امداد مستعجلة الى الجاليات الحليفة . وهكذا تأمن للدفاع عن روما حوالي ٢٥ألف رجل لم يكونوا حائزين على كفاءات قتالية عالية .

ان روما ، عند الانتصار في « كانّه » كانت شبه عزلاء . وكان هانيبال ، في هذه الأثناء ، بدلاً من ان يندفع بجيشه ، دون أثقاله ، بمسيرات شاقة الى روما ، قد انصرف على العكس الى التلهي بالمعسكرين الرومانيين عند « كانّه » ، وبالتعاطي مع الغنائم والأسرى . وكما فعل في مرات سابقة ، فقد أفرج عن الأسرى الطليان من حلفاء روما وأرسلهم الى بيوتهم . وكذلك عوضاً عن ان يبيع أسرى الرومان في سوق الرقيق كما فعل سابقاً ، فقد عرض على روما ان تفتديهم بمعدل ٥٠٠دينار للخيال و ٣٠٠ دينار للفرد المشاة . وقد انتقى من بين هؤلاء الأسرى عشرة مندوبين ، وبعث بهم ، مع الضابط القرطاجي كارتالو ، الى روما للبحث في تفاصيل الفدية . ويبدو ان كارتالو كان مخولاً ايضاً باجراء مفاوضات سلم مع مجلس الشيوخ ، لكن لم يعرف شيء عن الشروط التي كان عليه ان يعرضها . الاّ انه مهما كانت هذه الشروط ، فانه لم يجد فرصة لعرضها ، اذ اعترضه ، فور ان دخل الاقليم اللاتيني ، مبعوث من قبل الدكتاتور بيرا ليمنعه عن متابعة السير باتجاه روما .

اما المندوبون العشرة الذين يمثلون الجنود الرومان الأسرى ، فقد سمح لهم بالمتابعة ، ليُقابلوا عند وصولهم الى مجلس الشيوخ باستقبال عدائي عاصف . وقد خطب القنصل السابق مانليوس توركاتوس ، فاتهم الأسرى بالجبن ، وعاب عليهم استسلامهم عوضاً عن ان يموتوا والسلاح في أيديهم . وقد صوت مجلس الشيوخ رافضاً عملية الافتداء ، وأعاد المندوبين العشرة الى هانيبال خاويّ الوفاض .

وكان ذلك الرفض بمثابة الدليل القاطع على ان آمال هانيبال في تحقيق سلم متفاوض عليه قد باءت بالفشل . لكنه من الناحية المالية فإنه لم يخسر شيئاً ؛ اذ أسرع فباع الأسرى الى تجار الرقيق ، وكانت روما بذلك هي الخاسرة . فقد فقدت حوالي عشرة آلاف من الجنود المتمرسين ، في وقت من أحرج أوقاتها . غير ان تصرفها مع أولئك الأسرى كان في نفس الوقت دلالة على صلابة موقفها ، وعلى انها لم تكن كما يبدو في موقف ضعف حيال أحلافها في الكونفدرالية الايطالية .

يرى معظم المؤرخين ، في رفض مجلس الشيوخ لافتداء الأسرى ، ظاهرة تدل على صلابة روما ومتانة عودها . ويرى فيه آخرون مثالاً حياً عن الغطرسة وانتهاك حقوق الانسان ، وهي سمة لازمت روما طوال كل تاريخها . والرأي الأول في نظري هو الأميل الى الصواب ، وكان على هانيبال ان يرى ذلك ايضاً ، وان يعمل على انهاء الحرب بنصر عاجل سريع بأقرب وقت ، بدلاً من ان يبدد ١٣ سنة أخرى في جهود عقيمة .

واذا كانت روما قد وقفت راسخة العزم بعد كارثة « كانّه » ، فإن كثيراً من حلفائها لم يفعلوا كذلك ؛ فقد عمدت أجزاء كبيرة من جنوب ايطاليا ، بعد ان بلغتها أخبار الهزيمة ، الى الانحياز الى جانب قرطاجة ، كما فتحت مدن كثيرة أبوابها في وجه هانيبال وهو في طريقه الى الشمال الغربي ، وكذلك فعلت قبائل سمنيوم ، باستثناء قبيلة بنتري ، وجاءت الوفود من منطقتي لوكانيا وبروتيوم تعلم تأييدها لقضيته . وقد بدا وكأن حلم هانيبال في تفكيك أوصال

الكونفدرالية الايطالية يسير في طريق التحقيق .

كان هانيبال ، أثناء ذلك ، قد وزع قواه ؛ بدأ فاحتل مدينة قومبسا المركز الوسطي الجيد ، وكانت المدينة قد فتحت أبوابها للقرطاجيين بعد ان هرب قسم السكان الموالي لروما ، فترك هانيبال في هذه المدينة كل غنائمه ومتاعه الثقيل ، ثم ولي شقيقه « ماكو » قيادة قوة كبيرة ، وعهد اليه بالعمل على تأمين عون المدن الأخرى في الضواحي ، في اقليم لوكانيا في الجنوب . وكانت تعليماته الى شقيقه ان ينظف المنطقة كلها ، وان يقتحم كل مدينة رافضة بالقوة اذا دعت الحاجة ، ثم التوجه عقبئذ شخصياً بطريق البحر الى قرطاجة ، لرفع تقرير عن الوضع في ايطاليا . ولربما كان الغرض من ارسال شقيقه بالذات الى قرطاجة ، لمثل هذه المهمة ، حاجته الى وجود شخص موثوق في العاصمة يخلص في جهوده ومحاولاته الحصول على دعم كاف كامل لخطط هانيبال ، خاصة وانه لم يكن قد تلقى ، حتى ذلك الوقت ، اي بعد قرابة ثلاث سنوات من بدء حملته في ايطاليا ، أيّ مدد ، او مؤ ن او أموال من حكومة قرطاجة ، ولم يجتمع الشقيقان بعد ذلك قط . ونرى في الأسباب التي دعت الى قيام هانيبال بارسال شقيقه لتلك المهمة دعماً لما تقدم من رأينا بأنه كان عليه ان يعمل على انهاء الحرب التي تورط فيها بأقصى السرعة .

ثم تحرك هانيبال غرباً الى كامبانيا ، ومن المحتمل لذلك انه كان يفكر باحتلال بعض المرافىء الغربية ، لتكون مواصلاته أكثر سهولة ويسراً مع اسبانيا وقرطاجة . كان هدفه الأول مدينة نابولي ، وكان يرى أن سيطرته على هذه المدينة أو انضمامها اليه سيكون دافعاً قوياً الى استسلام المدن الأخرى الممتدة على طول الشاطىء . الاّ أن نابولي لم تكن لديها أية رغبة في الانفصال عن روما ، وقد قامت خيالتها بالفعل ، ولو بشيء من التهور والمقامرة ، بالتعرض الى قوات هانيبال حالما وطأ هذا الأراضي النابولية ، وقد أبيدت هذه الخيالة في كمين نصبته لها الخيالة النوميدية الخفيفة . وعندما بلغ هانيبال أسوار نابولي ، وجد الأبواب مغلقة في وجهه ، وقوبل بمظاهرات عداء شديدة من جانب السكان .

لم يفكر في احتلال المدينة واقتحامها ، لأنه كان عاجزاً عن ذلك . ومنذ ذلك الحين ، على أعقاب « كانّه » ، أخذ هانيبال يفقد فعاليته ويخسر سمعته ، وما استطاع قط ان يهاجم ويحتل أيّاً من المدن والمواقع الحصينة التي وقفت في وجهه .

بعد نابولي حظي هانيبال بغنيمة دسمة دون عناء ، كانت « كابوا » المدينة الثانية في ايطاليا بعد روما ، وكانت تبزّ روما في الرخاء والثقافة . كان في هذه المدينة نوع من الحسد والغيرة ضد روما ، وقد التهبت العواطف المعادية للرومان بعد معركة ترازيمين . لكن مصاهرة بعض أبناء وجهائها مع أعضاء من مجلس شيوخ روما ، ووجود حوالي ٣٠٠ شخصية من أعيانها في الجيش الروماني ، بالاضافة الى القوات العسكرية المفروضة عليها للمحاربة مع روما ، كل ذلك كان يحد من اشهار عواطف العداء لروما ، ويكبح ظهورها بصورة سافرة . لكن هذه الموانع ، بعد معركة « كانّه » ، لم تعد بقادرة على حفظ العلاقات مع روما من الانفصام ، خاصة وقد عامل هانيبال المدينة بكرم وصالحها على شروط هينة خفيفة . فقد قبل بأن لا تكون لقرطاجة سيادة على كامبانيا ، وان لا يجبر أي مواطن كامباني على الخدمة في جيش هانيبال دون اختياره ، وان تحتفظ المدينة بنظام حكمها الخاص ، وان يسلم هانيبال المدينة ٣٠٠ أسير روماني من منزلة اجتماعية عالية ليجري تبادلهم مع النبلاء الكابويين الثلاثمائة ، العاملين آنذاك في الجيش الروماني في صقلية . وبموجب هذه الشروط فإن هانيبال لم ينل شيئاً ذا بال كدعم عسكري ، لكنه كان يأمل ويتوقع قيام نوع من التعاون العسكري بينه وبين حوالي ٣٠ ألف جندي كان باستطاعة كابوا ارسالهم الى الميدان اذا شاءت .

تحرك هانيبال من منطقة نابولي ، متوجهاً الى مدينة كابوا ، حيث استقبل بحفاوة وهو يجتاز شوارع المدينة ، وقد سلمت المدينة أحد مواطنيها البارزين ، دشيوس ماكيوس الذي رفض ان يتخلى عن ولائه لروما ، سلمته الى هانيبال الذي عمد ، بدلاً من إعدامه كما كانت تفعل روما مع خصومها في مثل هذه الحالات ، الى ارساله الى قرطاجة بطريق البحر . غير ان السفينة

التي كانت تقله تعرضت الى عاصفة ، وجنحت الى بعض شواطىء برقة ، حيث منح اللجوء السياسي من قبل ملك مصر .

وقد تبع كابوا في ارتدادها عن روما كل من مدن آتِلاّ وكالاتيا ، لكن أقساماً أخرى من كامبانيا بقيت على ولائها للدولة الرومانية . وكان عدد جيش هانيبال قد تقلص كثيراً ، بسبب مفارزه العاملة في بروتيوم ولوكانيا ، ولم يعد باستطاعته ان يقوم بتوزيع آخر لجنده . عاد أدراجه لجس نبض نابولي مرة أخرى ، ولما وجد هذا المرفأ الساحلي الهام مقيماً على حاله السابق الذكر من العداء له ، تحول باتجاه مدينة نولا ، وكانت تقوم على سهل منبسط ، وسط كامبانيا ، وكان يبدو ان سكانها كانوا جاهزين للانفصال والثورة ضد روما ، الاّ انهم استبقوا الى العمل من قبل نبلاء المدينة . فقد كان هؤلاء موالين لروما ، وقد بادروا باعلام القائد الروماني مرسيللوس ، الذي كان معسكراً آنذاك في كازيلينوم، بما كان يبيته انصار قرطاجة، وطلبوا مساعدته. كان مرسيللوس ، كما اشتهر في ذلك الوقت ، أحسن قائد روماني ، وقد انطلق الى العمل بسرعة ، فتحرك ملتفاً وراء الجبال ، ليصل الى نولا من جهة التلال والمرتفعات . وقد عمد حال دخوله المدينة الى الفتك بالعناصر التي كانت تعمل على مجيء القرطاجيين . ولما علم بتحرك هانيبال نحو المدينة ، هاجم طليعته ببسالة ، وبعد ان حقق بعض النصر ، قفل منسحباً نحو التلال . وكانت نتيجة ذلك ان انسحب هانيبال بدوره ، متوجهاً الى مدينتي نوشريا وأشراي ، وكانتا مقيمتين على ولائهما لروما . لم يقتحم هانيبال أيّاً من هاتين المدينتين ، لكن اضطرهما الى الاستسلام بعد حصار . وقد سمح ، في كلتا المدينتين ، للسكان الموالين لروما بالرحيل بسلام ، ثم أحرق المدينتين كتحذير للآخرين . وكان الفصل الآن قد قارب نهايته ، الاّ ان هانيبال قام بمحاولة أخرى قبل التوجه الى منازله الشتوية . لقد قام بهجوم على قاعدة مرسيللوس في كازيلينوم ، وكانت قريبة جداً من كابوا ومصدر خطر كبير وقلق عظيم لهذه المدينة . كانت حامية القاعدة مؤلفة من حوالي ١٠٠٠مقاتل ، وكان هؤلاء قد قتلوا جميع الأهالي الموالين لقرطاجة ، ولذلك استماتوا في الدفاع كمن لا

أمل لهم بسوى ذلك . وبعد وقت من قتال عنيف أوقف هانيبال هجومه ، وانصرف عائداً الى مقره الشتوي في كابوا . وكان هذا التراجع ظاهرة عجز خطيرة ، وخطأ تكتيكياً واستراتيجياً وخيم العواقب . فقد طمع بهانيبال بعد ذلك كل مدينة وكل موقع محصن ، وعمل فشله في نولا وكازيلينوم على الاستهانة بقدرته الهجومية ضد المواقع الدفاعية ، وعلى محو تدريجي لآثار انتصاراته السابقة في تريبيا وترازيمين و« كانّه » ، من نفوس أعدائه .

كان العام ٢١٦ق م ، الى حد ما ، عاماً مثمراً بالنسبة لهانيبال ، وذلك رغم ان انتصار « كانّه » لم يؤد إلى ما كان يتوقع منه ، من الناحيتين السياسية والاستراتيجية . اما السنة التالية ، ٢١٥ق م ، فقد كانت سنة هبوط وتراجعات . لكن هذه السنة بدأت بداية طيبة باحتلال كازيلينوم ، التي استسلمت بشروط عندما خلصت الحامية من الزاد والطعام ، وبعد ان رفض جيش روماني كان موجوداً في الضواحي ، بأمرة سمبرونيوس كراشوس ، ان يتحرك الى نجدة المدينة تجنباً لمعركة مع هانيبال . وقد وضع القائد القرطاجي في هذه المدينة ، بعد احتلالها ، ٧٠٠ من أنصاره الايطاليين كحامية ، وصارت المدينة بعدئذ بمثابة محطة متقدمة لمدينة كابوا .

وفي مجلس الشيوخ في روما ، أظهرت انتخابات القناصل للعام ٢١٥ق م ، ان الحزب الفابياني لا زال مسيطراً على المجلس . وقد فاز بالقنصلية كل من القاضي بوستوس ألبينوس ، وسيد الخيل سمبرونيوس كراشوس . وكان بوستوموس حينئذ في حملة ضد قبائل البوئي في غاليا ما وراء الألب ، وقد سقط صريعاً في كمين وهو في طريق العودة الى روما لتسلم منصبه الجديد . كان يسير مع جيشه في غابة ، وكان القبليون البوئيون قد نشروا الأشجار القائمة على جانبي الطريق من جذوعها ، وفي الوقت المناسب أوقعوا هذه الأشجار على الرومانيين المباغتين ، فقتل القنصل ، وقتل معه حوالي ٢٥ألفاً من جنوده . وقد استدعى هذا الحدث اجراء انتخابات فرعية في مجلس الشيوخ ، ففاز مارسللوس بالقنصلية ، لكن فابيوس لم ترقه هذه النتيجة وعمل على الغائها استناداً الى بعض القواعد الأصولية الاجرائية ،

وكانت النتيجة ان انتخب هو نفسه للقنصلية .

أخذت روما تستعد بكل امكاناتها لعمليات الفصل القادم ، ووضعت في الميدان ما لا يقل عن ١٤ لجيوناً ، وقد استلم القنصل فابيوس قيادة القوى التي كانت بأمرة الدكتاتور السابق ، في تائنوم ، وكان تيبريوس كراشوس مع جيش ثان في كازيليوم ، وكذلك كان مرسيللوس مع جيش ثالث في سوئسولا ، على الضفة اليمنى لنهر فولتورنس . وكانت هناك لجيونتان في صقلية ، بأمرة القاضي لافينوس ، وتقومان بمراقبة أبوليا من ناحية الجنوب ، وتراقبان كذلك لوكانيا وكالابريا . وعلاوة على كل ما تقدم ، فقد أرسلت تعزيزات كبيرة الى حامية تارانتوم ، وصدر الأمر الى فارو بتجنيد جموع جديدة في بيشينوم .

وفيما يتعلق بالموقف الحربي ، فقد بدا وكأن كلا الطرفين كانا على غير استعداد للمخاطرة بشيء خلال هذه السنة ، وقد عمل كلاهما بسياسة فابيوس الاحتوائية . كان الرومان قانعين بمراقبة هانيبال ومنعه عن تحقيق انتصار جديد على سلم كبير . وكان هانيبال من جهته ينتظر وصول امدادات طال انتظارها ، أمّا من قرطاجة واما من اسبانيا . وقامت كابوا بمحاولة للاستيلاء على مرفأ سوماي ، جنوب نابولي ، لكن المحاولة أخفقت نتيجة لتدخل كراشوس ، الذي أنزل بالكابوائيين خسائر فادحة . وقد قام هانيبال فيما بعد ، مفاجأة ، بنفس المحاولة ، فأخفق بدوره أيضاً .

وبينما كانت هذه المحاولات تجري ضد سوماي ، تحرك فابيوس من تيتوم الى كالس ، واستولى في المنطقة على ثلاث مدن صغيرة كانت قد انضمت الى جانب قرطاجة ، ومن ثم تابع سيره متقدماً للاجتماع بمارسللوس في سوئيسولا ، مما ساعد هذا الأخير على التحرك بدوره باتجاه نولا ، حيث كان بوسعه ، ابتداء من هذه القاعدة ، ان يزعج منطقة السمنيين حلفاء هانيبال . وقد استنجد هؤلاء بهانيبال ، فاستجاب هذا لطلبهم وسار الى مهاجمة نولا ذاتها ، لكنه لقي هنا فشلاً آخر أيضاً ؛ فقد دافع مارسللوس عن المدينة بمهارة كبيرة ، مما اضطر هانيبال آخر الأمر ، الى الانسحاب . وكان جنود هانيبال ، حتى تلك الفترة ، قد أمضوا مدة أربعة أعوام بعيدين عن أهلهم

وأوطانهم ، وكانوا ولا شك متأثرين معنوياً من جراء ذلك .

لم يحقق هانيبال أي انجاز هذه السنة ، اللهم الا تجميد القسم الأعظم من قوات روما ، مما ساعد أعوانه وحلفاءه على الاستمرار في نشاطاتهم دون ازعاج كبير. وقد سقط المعقل الروماني الأخير في مدينتي بروتوم وبيتيليا بيد هاميلكو ، بعد حصار مديد . وقام البروتينيون من جهتهم باقتحام مدينة كروتون ، وكذلك استسلمت للقرطاجيين كل من كوسنتيا ، ولوكري وصار الجنوب الايطالي ، باستثناء رهيجيوم، تحت سيطرة قرطاجة بقوة . وهناك ما يبعث على الظن بأن الأميرال القرطاجي بوميلكار قد استطاع انزال بعض الامدادات ، وربما بعض الفيلة ايضاً ، كتعزيز لقوات هانيبال .

وكانت هذه السنة ايضاً امتداداً لساحة الحرب الى خارج ايطاليا واسبانيا ، فقد قام المستوطنون القرطاجيون في سردينيا ، لمرة أخرى ، بالثورة ضد أسيادهم الرومان ، وأرسلوا يستغيثون بقرطاجة . وقد استجابت هذه فأرسلت أسطولاً وجيشاً لمساعدتهم بقيادة المدعو اسد روبال الأصلع ، لكن هذا المدد وقع لسوء الحظ فريسة لسوء الأحوال الجوية والأنواء البحرية ، واضطر الأسطول القرطاجي الى الالتجاء الى جزر الباليار . وقد تمكن الرومان ، في خلال ذلك ، من تعزيز قواهم في سردينيا، وكانت النتيجة انه عندما وصل اسد روبال الأصلع أخيراً الى ساحل الجزيرة ونزل الى البر بقواته ، فإنه سريعاً ما هزم ووقع أسيراً ، وقضي على العصيان بصورة دموية .

غير ان الأنباء من صقلية كانت أفضل بالنسبة لقرطاجة ، فقد توفي هيارو ، الصديق الحميم لروما ، وتولى مكانه حفيده هيارونيموس ، الذي سارع فأعلن انفصاله عن حلف روما وانضمامه الى جانب قرطاجة ، وبهذا خسرت روما سرقوسة ، وكانت الخسارة مؤلمة . وفي هذه الأثناء جاء الى معسكر هانيبال مبعوثون من ملك مكدونيا ، للتوقيع معه على تحالف ضد روما ، الّا ان هذا التحالف لم يكتب له التنفيذ ، اذ وقع المبعوثون المكدونيون في قبضة الرومان وهم في طريق عودتهم الى بلادهم . ووردت بعدئذ أنباء سيئة من اسبانيا ، وهي ان ماكو ، شقيق هانيبال ، الذي كان عائداً من قرطاجة

على رأس حملة مدد لشقيقه في ايطاليا ، اضطر وحملته الى البقاء في اسبانيا ، نتيجة لهزيمة حلت في هذه البلاد بالشقيق الآخر أسد روبال .

العام ٢١٤ ق م

كانت الانتخابات الرومانية القنصلية لهذا العام انتصاراً آخر لفابيان وحزبه ، وقد انتخب في بادىء الأمر كل من أكتاشيليوس كراشوس وآميليوس ريكولوس . لكن فابيوس رفض الموافقة على هذه النتيجة بحجة عدم الكفاءة العسكرية للمنتخبين الاثنين ، وكان ان ألغي الانتخاب ، وانتهى الأمر باعادة انتخاب فابيوس نفسه وكذلك مرسيللوس ، وكان عدد اللجيونات في الميدان قد زيد حتى بلغ العشرين ، منها ١٠ كانت عاملة في الجنوب ضد هانيبال ، واثنتان في غاليا ما وراء الألب ، واثنتان أخريتان في روما للدفاع عن العاصمة . وهكذا نرى أنّ ما مقداره ١٤ لجيوناً كانت مجمدة ، بصورة مباشرة او غير مباشرة ، بالقائد القرطاجي وقواته .

ومرة أخرى كانت المعارك هذه السنة غير فاصلة ؛ فقد افتتح هانيبال الفصل بمحاولة ضد مدينة بوتيولي ، ليفشل هذه المرة ايضاً في الحصول على مرفأ كان بأشد الحاجة اليه . وبعد ان عبث زمناً بمنطقة نابولي ، قام بمظاهرة هجوم على نولا بقصد تجميد مارسيللوس ، بينما أسرع في ستار هذه المظاهرة منطلقاً باتجاه الجنوب ، الى تارانتوم ، التي كان يظن انها ستفتح أبوابها في وجهه ، وقد تلقى في هذه الأثناء أنباء سيئة من كامبانيا . كان نائبه ، حانو ، يقوم بالتجنيد في بروتيوم ، وقد انطلق من هذه المدينة شمالاً الى بينيفينوم في كامبانيا ، فاعترضه كراشوس وهو في الطريق ، عند نهر كالور ، واشتبك الطرفان ؛ فهزم حانو ، لكنه استطاع الافلات مع ألفي مقاتل من أصل ١٧٠٠٠ مجند و ١٢٠٠ خيال . وكانت قوات كراشوس مؤلفة من لجيونتين من الأرقاء وعدهم كراشوس بأن يعتق سراحهم اذا هم أحسنوا القتال . وقد استعاد حانو بالتالي بعض خسارته بقضائه على قوم من اللوكانيين الموالين لروما ، لكن هزيمته على نهر كالور كانت صدمة مؤلمة لهانيبال . ثم جاءت أنباء سيئة

أخرى ؛ فقد اجتمعت قوات فابيوس ومارسيللوس واقتحمت كازيلينوم ، قاضية على حامية المدينة كلها . وأتبع فابيوس ذلك بنهب وتخريب سامنيوم ، واسترداد ثلاث مدن من أيدي القرطاجيين . وهكذا راحت السنة بصورة مضطردة لصالح روما ، واستعادت هذه كل مواقعها التي كانت قد فقدتها على أعقاب هزيمتها في « كانّه » .

وكان الوضع هذا العام ، في صقلية ، غامضاً للغاية ؛ كان هيارونيموس قد وقع على تحالف مع قرطاجة ، لكنه لم يقم بأية عمليات ناشطة ضد روما ، وقد اغتيل في صيف هذا العام ، ٢١٤ق م ، من قبل العناصر المحلية المناوئة للملكية ، وأدى هذا الاغتيال الى نشوب صراع على السلطة في سراقوسة ، وقد حسم الأمر لصالح صديقين لهانيبال هما هيبوكراتوس وأبيشايوس ، وكانا من مواليد المدينة ، وقد أرسلهما هانيبال على وجه السرعة ، فاستطاعا بالحيلة والخداع حمل جمهورية سراقوسة الجديدة على اعلان الحرب رسمياً ضد روما . وكان مارسللوس في هذه الأثناء قد وصل الى صقلية لاستلام قيادة القوى الرومانية في هذه الجزيرة ، الا انه كما يبدو لم يقم بأيّ نشاط حربي حتى ربيع عام ٢١٣ق م .

العام ٢١٣ ق م

أتت الانتخابات القنصلية في روما ، للعام ٢١٣ق م ، بابن فابيوس ، كونتوس ، كقنصل مع سمبرونيوس كراشوس . الا ان التخطيط للقتال وادارته ظلا ، كما كان الأمر من قبل ، بيد فابيوس الذي كان أثناء هذه السنوات دكتاتوراً لروما ، في الواقع ان لم يكن بالقانون . وقد جرى هذه السنة اتباع نفس السياسة ، واتخاذ نفس التدابير لغرض الاحتفاظ بهانيبال تحت الضغط والرقابة والاحتواء ، بدل العمل على تدميره . كانت الاستراتيجية العامة لروما شبيهة بما فعله الحلفاء ضد نابليون عام ١٨١٤ ، وضد هتلر في الحرب العالمية الثانية ، وهي قرض المناطق الواقعة تحت سيطرته واقتطاعها ، مع تجنب الاشتباك معه في معركة . ولم يتلق هانيبال طوال تلك المدة أية

تعزيزات من قرطاجة ، وقد اقتصر امداده على التجنيد المحلي في ايطاليا فقط ، ولكن في حدود ضيقة ونطاق محدود بلا بعد استراتيجي ، وكان ذلك خطأً كبيراً وتقصيراً لا يغتفر .

لم يحدث في هذه السنة شيء هام ، ما عدا استرجاع مدينة أبّي من قبل القنصل كونتوس فابيوس . وقد رافق هذا الفوز فرار ألف من الحامية القرطاجية شرط أن يسمح لهم بالعودة الى ديارهم . وكان ذلك اشارة واضحة بأن الوقت بدأ منذئذ يعمل لصالح روما ، وأن العناصر الأجنبية في جيش هانيبال قد ملّت الحرب وصارت لا يعتمد عليها ، وذلك بعد أن قل النهب والسلب ، وأصبح الجيش مدافعاً وليس غازياً مجتاحاً لأراضي جديدة .

وكان الاهتمام تلك السنة موجهاً بمعظمه الى صقلية ، حيث كان الطرفان يحشدان ويستعدان . وكان العمل القرطاجي في هذه الجزيرة سيئاً في تحضيره وتنفيذه ، وكان بلا شك مسيئاً لسياق الحرب وسيرها بصورة عامة ، اذ كان يجري على حساب المجهود الحربي في ايطاليا نفسها ، وكانت هي المسرح الرئيسي . لقد كان من الممكن أن تستعمل السفن والقوات القرطاجية بصورة أكثر فائدة وتوفيقاً في ايطاليا مع هانيبال . ان فوزاً قرطاجياً في صقلية كان من الممكن أن يؤدي دون شك الى تحسين وضع هانيبال في ايطاليا ، وذلك بجعل مواصلاته البحرية مع قرطاجة أكثر سهولة ، وباعطائه مرفأ مضموناً . لكن فقر قرطاجة بالقادة الأكفاء ، باستثناء هانيبال ، كان يحتم عليها أن تحجم عن القيام بمغامرة جديدة في هذه الجزيرة . الا أنه كانت لصقلية دوماً جاذبية مشؤومة بالنسبة لرجال الحكم في قرطاجة ، وأن احتمال تحقيق حلمهم بالعودة اليها كان أقوى من أن يقاوم . ولم يقتصر خطأ قرطاجة على توريط قواتها في صقلية فحسب ، بل وأخطأت عندما أخذت تمارس سياستها وأعمالها بصورة كلها التقصير وعدم الكفاءة . ولا مفر من أن نستنتج من ذلك بأن قرطاجة ، خارجاً عن عائلة برقه ، كانت بصورة محزنة في حالة جدب بالرجال الأكفاء ، سواء ذلك في الناحية المدنية أم الناحية العسكرية . ولا

شك أن الغيرة والحسد كانتا تعملان عملهما الهدام ضد هانيبال في عاصمة وطنه ، وأن هناك أيادي كانت تعبث بجهود الحرب وتخطيطها عامدة متقصدة ، خاصة اذا صح ما قيل فيما بعد من أن رئيس التخطيط في المؤسسة الحربية ، أو وزارة الدفاع القرطاجية يومذاك كان عميلاً لروما ! .

بدأ مارسللوس نشاطه العسكري في صقلية بضرب الحصار على سرقوسة نفسها ، ثم أخذ يهاجم المدينة بعنف وشدة ، براً ومن جهة البحر . وقد فشلت كل محاولات الرومان باقتحام المدينة ، وكان فضل كبير في ذلك للعبقري المحلي الشهير ، أرخميدس ، الذي كان يوجه كل جهده لاختراع أدوات حربية ، ونجح في اختراع وانتاج سلسلة من الآلات المبتكرة ، كان بعضها يقذف صخوراً كبيرة على السفن الرومانية ، وآلات أخرى تمسك بمقدمة السفينة بملاقط ميكانيكية وتقلبها . وقد ذهب الرواة حتى القول بأنه استطاع تسخير الطاقة الشمسية بواسطة عدسات ضخمة ، واشعال النار بسفن الرومان بهذه الواسطة . وعلى كل حال فان الدفاع عن المدينة كان من النجاح بحيث اضطر مارسللوس الى العدول عن الاقتحام والاكتفاء بالمحاصرة فقط .

وقد انصرف القائد الروماني بعدئذ الى اخضاع المدن الميالة لقرطاجة في الجزيرة . وما كاد يبدأ عملياته في هذا الاتجاه حتى علم بنزول جيش قرطاجي في الجزيرة ، مؤلف من ٢٥ ألف مشاة ، و٣ آلاف خيال ، و١٢ فيلا ، بامرة قائد يدعى هيميلكو ، وقد استولى على مدينتي هراكليا واكريكنتوم . وقد نجح مارسللوس في دحر جيش سراقوسي خرج من المدينة في محاولة لفك الحصار ، وحالت هذه النتيجة دون وصول المدد الى المدينة المحاصرة . غير أن الأمور في صقلية ، بوجه عام ، لم تجر لصالح روما في تلك السنة ، وخاصة بعدما ارتكبته القوات الرومانية من أعمال وحشية في الجزيرة . فالقائد الروماني في مدينة هنّا ، لوشيوس بيناريون ، مستبقاً قيام ثورة في المدينة ، قام بقتل كافة السكان قبل أن يأتوا بأقل حركة . وقد تغاضى مارسللوس عن هذه المذبحة الوحشية ، آملاً كما يبدو أن يكون من ورائها ارعاب للسكان في الجزيرة وحملهم على الاستسلام . الاّ أن العكس كان هو

الذي حصل ، فقد ارتدت تلك الهمجية بالسوء على مرتكبيها ، وشبت الثورات في معظم أنحاء الجزيرة .

العام ٢١٢ ق م

كانت انتخابات روما لهذا العام ، نهاية المطاف لفابيان وحزبه ، بعد وقت طويل من الحكم والسلطة . وكان الوضع العام قد أخذ يتحول باضطراد لصالح روما . وقد استعادت العاصمة الرومانية هدوءها وعاد اليها روعها وقوة أعصابها بعد الذي أصابها من الرعب والهلع عقب الهزيمة في « كانه » . وهذا الشعور بالأمن والقوة حملها على تسليم مقاليد الأمور الى خصوم السياسة الفابيانية .

انتخب قنصلان جديدان هما فولفيوس فاكّوس وكلوديوس بولتشر ، وزيد عدد اللجيونات حتى بلغ ٢٥ لجيوناً ، وهو رقم كبير جداً بالنسبة الى ذلك الزمن . وقبل أن يتمكن القنصلان الجديدان من مباشرة أعمالهما ، تمكن هانيبال أخيراً من الحصول على المرفأ المضمون ، الذي كان يبحث عنه منذ زمن . حاول عام ٢١٤ ق م ، أن يضع يده على مدينة تارانتوم ، وهي مدينة يونانية ، وكانت آخر خصم لروما في جنوب ايطاليا ، ولكنه وجد المدينة مقفلة في وجهه . وفي أوائل العام ٢١٢ ق م ، جاءه وجيهان من أهالي المدينة ، عرفا باسم نيكو وفيلومينيس ، ليخبراه بأن مؤامرة تحضّر في المدينة من أجل فتح أبوابها لدخوله . وكان هانيبال على استعداد للتعامل مع المدينة بنفس الشروط التي تمّ الاتفاق عليها بينه وبين مدينة كابوا . وبناء على ذلك فقد اتخذت اجراءات لمفاجأة ليلية . كان من عادة الوجيهين السابقي الذكر أن يخرجا من المدينة ويعودا اليها ليلاً من أحد الأبواب في الجدار الشرقي ، والذي كان يفتح لهما بصورة منتظمة بناء على اشارة متفق عليها . وفي الليل الذي حدد لتنفيذ المؤامرة ، وصل هانيبال من معسكره ، وكان يبعد عن المدينة مسيرة ثلاثة أيام ، وصل الى مكان على مقربة من تارانتوم ، على رأس ٨٠٠٠مشاة و ٢٠٠٠خيال. وبعد وصوله أشعل اشارة نارية على رابية تعرف

بقبر هياكنثوس. وعند ظهور الاشارة قام المتآمرون داخل المدينة بمهاجمة بوابة تقع الى الشمال من البوابة التي يستعملها نيكو وفيلومنس ، فقتلوا الحراس ونجحوا في فتح البوابة . ترك هانيبال خيالته خارج الأسوار ، وسار على الفور مع سبعة آلاف قرطاجي ، الى البوابة الأخرى ، فأعطاها الاشارة المتفق عليها لتفتح له كالعادة. وقد سمح له ولرفيق بالدخول من الباب الخصوصي الصغير ، فأسرعا بقتل الحراس المفاجئين ، وأدخلا عدداً آخر من الجنود القرطاجيين ، الذين ساعدوا في التغلب على بقية الحراس ، وسمحوا بالدخول لبقية المشاة القرطاجية . وكان جنود الحامية الرومانية أثناء الفوضى العامة التي نتجت ، يتوجهون مسرعين الى مراكزهم بشراذم وجماعات صغيرة ، فأمكن لذلك تصفيتهم بسهولة . لكن قائد الحامية ، ماركوس ليفيوس ، استطاع أن يلتجىء الى القلعة ، حيث استعصى مدافعاً بتحد وتصميم . ومع طلوع النهار ، كانت المدينة نفسها ، مع مينائها الهام ، مضمونة في أيدي القرطاجيين . وقد تبع الاستيلاء على تارانتوم التحاق كل من مدينتي ميتابونتوم وثوري بهانيبال ، بحيث صار كل ذلك الحزام الساحلي تحت السيطرة القرطاجية .

ولكن روما كانت قد تحولت في ذلك الوقت الى سياسة أكثر عنفاً وأشد عدوانية ؛ فقد ردّت على سقوط تارانتوم بضرب الحصار على كابوا . وقام القنصلان بنهب الأرياف وتخريبها ، حارمين الأهالي من غلالهم ومزروعاتهم ، فجاعت المدينة ، وبعثت تستغيث بهانيبال ، الذي بادر فأرسل الأمر الى القائد حانّو ، في بروتيوم ، طالباً منه أن يتوجه الى بينيفنتوم لجمع حبوب ومؤن لإمداد مدينة كابوا . وقام حانو من جانبه ، بعد أن استطاع أن يتهرب من ملاحقة جيشي كراشوس ونيرون ، بإقامة معسكر محصن على بعد حوالي ٤ كيلومترات من بينيفنتوم ، وشرع في جمع المؤن والطعام من الأرياف المحيطة ، وأرسل في نفس الوقت الى كابوا يطلب عربات لنقل المؤونة ، والظاهر أن سلطات كابوا لم تستجب لهذا الطلب بسرعة. وكانت الأخبار في هذه الأثناء قد وصلت الى الرومانيين معلمة بما هو جار ، فقاموا على الفور بالتوجه الى المعسكر القرطاجي ، ووصلوا اليه في وقت كان حانو

ومعظم رجاله يتجولون في الريف بحثاً عن الطعام ، فهاجم الرومان المعسكر بعنف وشدة ، واستولوا عليه رغم دفاع مستميت ، مع جميع ما كان فيه من أرزاق ومواد اطعام مجمعة ، وعاد حانو الى بريتيوم بخفّي حنين .

عادت كابوا فاستنجدت بهانيبال مرة أخرى ، فأرسل هذا على الأثر ۲۰۰۰ خيال لنجدة المدينة . وقد فاجأت هذه القوة طليعة للرومان ، وفتكت بحوالي ١٥٠٠ رجل من أفرادها . لكن القنصلين ما كان لينثنيا عن عزمهما ، وقاما على العكس بتضييق الحصار على المدينة . وعندئذ توجه هانيبال بنفسه على رأس القسم الأكبر من جيشه ، الى معسكره القديم في تلّ تيفانا المشرف على كابوا .

ولقد رأى أن من الأفضل له أن يتحدى الرومان ويطلبهم الى المعركة . وبناء على ذلك فقد عمد في اليوم التالي لوصوله الى ترتيب قواته بقصد القتال . وقد قبل الرومان تحديه ، مما سبب له بعض المفاجأة . ونشبت المعركة ، لكن لينفك الفريقان ، بعد بعض الوقت ، دون نتيجة لأي من الطرفين .

لم يحصل هانيبال على نصر في تلك المعركة ، الا أن وجوده تسبب في ارتحال الرومان بعيداً عن المدينة ، فتوجه القنصل فلوفيوس الى كوماي وبولتشر الى لوكانيا . ويبدو أن هانيبال تعقب بولتشر الى لوكانيا ، وجرت بين الطرفين معركة خسر فيها الرومان حوالي ١٦ ألف قتيل . وبينما كان هانيبال في لوكانيا يخوض المعركة مع بولتشر ، عاد فولفيوس الى حصار كابوا . ولم يسارع هانيبال هذه المرة الى نجدة المدينة ، وإنما تحرك عوضاً عن ذلك شمالاً شرقاً الى آبوليا ، حيث كان جيش روماني آخر ، بقيادة القاضي كنايوس فولفيوس ، يعمل مع شيء من النجاح . وقد فاجأ هانيبال هذا القاضي خارج مدينة هردونيا ، وبدأ فقطع عليه طريق الأوبة ، بواسطة الخيالة ، ثم هزمه في معركة لم ينج فيها من الرومان سوى بعض المئات ، وكان عددهم عند بدء المعركة حوالي ١٨ ألفاً .

وبالرغم من هذه الهزائم الرومانية ، فقد ثابر القنصلان على حصار كابوا بعزم وشدة . ولقد جمع الرومان المؤونة بكفاية ، بحيث لم تعد حاجة الى ارسال المفارز للبحث عن الطعام ، وجلبت الامدادات ، الى أن تجمعت ثلاثة جيوش قنصلية ، بتعداد ستة لجيونات مع العدد المماثل من اللجيونات الحليفة ، لتضرب نطاقاً محكماً حـول المدينة . ثم شرع الرومان ببناء جدار متراس يحيط بالأسوار . وقد أرسل سكان المدينة نداءات مستعجلة الى هانيبال لكي يخف الى نجدتهم ، لكن هانيبال لم يكن مستعداً هذه المرة للدخول في معركة طاحنة ؛ فقد أعطى رسل المدينة أجوبة غامضة ، وبقي مقيماً في جوار تارانتوم . وهكذا انتهت تلك السنة وكانت حصيلتها بعض النتائج الطيبة للقـرطاجيين ، متمثلة بـالاستيلاء على تـارانتوم ، وببعض الانتصارات في الميدان . الاّ أن الموقف بجملته لم يكن يميل لصالح هانيبال . فالأمور ، مع تضييق الحصار على كابوا ، أخذت تسوء بالنسبة للقرطاجيين ، والغيوم بدأت تتلبد في الأفق ، وكانت دلائل كل شيء تبعث على الحيرة والقلق . وكان من المنتظر أن يكون العام التالي ٢١١ ق م ، عاماً حاسماً فأما أن يفكّ الحصار عن كابوا ، وأمّا أن تكون هذه السنة نهاية لآمال هانيبال وطموحاته .

وإذا كانت الأمور في ايـطاليا لم تكن كلهـا ملبية لـرغبات رومـا ومخططاتها ، فانها كانت على خلاف ذلك في صقلية ؛ فقد حقق مارسللوس في هذه الجزيرة انتصاراً كبيراً . لقد استطاع قـبيل اختتام موسم (فصل) القتال ، أن يستولي على مرتفعات أبيولاي ، ليجد نفسه حالاً بعدئذ مطوقاً بجيش هيميلكو القرطاجي ، الذي فاجأه من الخلف . الا أن الحظ كان الى جانب القائد الروماني ؛ فالجيش القرطاجي ، المخيم في الأراضي الواطئة المفسدة للصحة ، سريعاً ما ضربته الحمى واضمحل . وجاء أسطول مدد قرطاجي ، بأمرة أمير البحر بوميلكار ، فجوبه بأسطول روماني أضعف منه ، فتردد الأميرال القرطاجي في الهجوم ، وانتهى به الأمر مبحراً مبتعداً عن المجابهة . وكان بنتيجة ذلك أن فقد الصقليون كل أمل وتفرقوا أيدي سبأ ،

واستغل مارسللوس الفرصة فاقتحم سرقوسة بنجاح ، وكان قد أصدر أمره بالحفاظ على حياة أرخميدس ، لكن العبقري العجوز ، الذي كان غارقاً بكليته في الاختبارات ، رفض الامتثال لأمر الجندي الروماني الذي طلب منه مرافقته الى قائده ، فما كان من الجندي الاّ أن قتله . تحول مارسللوس ، على أعقاب هذا النصر ، بسرعة ضد القوات القرطاجية المتبقية في الجزيرة ، وأبادها جميعها عند نهر هيميرا . وبالرغم من بقاء بعض المقاومة ، فان آمال القرطاجيين في الجزيرة قد تلاشت منذئذ دون رجعة .

العام ٢١١ ق م

بدأ الرومان هذا العام بتشديد الحصار حول كابوا ، وقد دافعت المدينة عن نفسها ببطولة ، لكن دون أن تنجح أبداً في كسر جدار التمترس الذي أقامه الرومان حولها ، واكتفى هؤلاء بالثبات في أماكنهم تاركين للجوع أن يفعل فعله .

أما هانيبال فقد بقي لمدة في ضواحي تارانتوم ، محاولاً الاستيلاء على القلعة التي كان يتحصن فيها ماركوس ليفيوس . لكن عندما تبين له أن الوضع في كابوا أصبح يائساً ، راح فتحرك سراً وسريعاً الى رابية تيفانا ، ومن هناك استطاع أن يتصل ويخطط للعمل مع سكان كابوا . كانت الخطة أن يقوم السكان بالمهاجمة من الداخل، ويقوم هانيبال في الوقت نفسه بمهاجمة خطوط الحصار من الخارج . وقد نفذت هذه الخطة فعلاً ، غير أنها فشلت نتيجة لضراوة المشاة الرومانيين وضيق المجال أمام عمل الخيالة القرطاجية . وقد يكون الفشل ، كما أرجح ، نتيجة لقصور هانيبال الفاضح في اعداد جيشه لقتالات الحصار واقتحام المواقع المحصنة .

لم يمكن انقاذ كابوا بالوسائل المباشرة ، ولذلك ارتأى هانيبال أن يلجأ الى المناورة الاستراتيجية ، الى محاولة انقاذ غير مباشرة . لم يرغب في أن يغامر ضد الوضع الروماني القوي حول المدينة ، بل رأى عوضاً أن يعمل على استجلاب الرومان بعيداً عن كابوا ، وذلك بتهديده لنقطة لا يمكنهم تجاهلها ،

تهديده لروما نفسها . لم يكن في نيته ولا في استطاعته الاستيلاء على العاصمة الرومانية ولا مهاجمتها ، وإنما كان كل ما يتوخاه هو حمل الرومان على الاسراع الى نجدة عاصمتهم ، والتعاطي معهم أثناء حركتهم هذه فيما اذا تحققت ، بحيث يفاجئهم وهم على الطريق ، ويجبرهم على خوض معركة فاصلة على الأرض وبالمناورة التي يختارها . بدأ فأرسل يعلم كابوا بمخططه ، كي لا يظن الأهالي أنه قد تخلى عنهم ، ثم انساب بجيشه بعيداً ، ليلاً الى سمنيوم ، بعد أربعة أيام من فشل هجومه بقصد انقاذ المدينة ، ثم سار من سمنيوم بطريق ألبا - أميتيروم - فورولي وأريتوم ، ليظهر بعدئذ فجأة أمام أسوار روما .

تختلف الروايات عما حدث بعد ذلك وتتناقض ، الّا أن من الواضح أن هذه المناورة فشلت في تحقيق غرضها الرئيسي ، ألا وهو رفع الحصار عن كابوا . لم يبق هانيبال طويلاً على مقربة من روما ، اذ كان يخشى أن تتحرك الجيوش المحاصرة لكابوا قاصدة نجدة روما ، فيقع هو بينها وبين حامية روما ، أي بين نارين ، ولذا آثر الانسحاب عبر نهر أنيو . ويبدو أنه قد لقي بعض الصعوبات أثناء هذا الانسحاب ، بسبب ملاحقته من قبل حامية روما ، وقد اضطر أن يخوض معركة مؤخرة مع هذه الحامية، وأن يكيل لها ضربة موجعة حتى توقفت عن ملاحقته ، واستطاع عقبئذ أن يتابع انسحابه دون كبير خسارة .

لم يعد هانيبال الى كامبانيا مرة أخرى . ان محاولة ثانية لفك الحصار عن كابوا لم تكن واردة في تفكيره بعد ارتداده عن أسوار روما ، ولو كان فكر في ذلك ، فما كان من المنتظر أن ينجح خيراً من المرة السابقة ، ولذا فقد سار بمراحل شاقة الى تارانتيوم ، آملا أن يفاجىء المرفأ البحري في رهجيوم ، وهي مدينة وموقع دفاعي قوي كان باقياً في أيدي الرومان لوحده في المنطقة ، ولكنه لقي هنا أيضاً خيبة آمال جديدة .

لقد كانت هذه السنة كلها مخيبة لآمال هانيبال ؛ فقد فشل في انقاذ

كابوا ، وفشل في احتلال رهجيوم ، ولم يصادف نجاحاً يذكر في أي مكان آخر ، وقد صار هذه السنة على وشك أن يروح ضحية للتشاؤم واليأس ؛ فكل ما كان قد عمله وتمنى تحقيقه أخذ يتساقط الآن ركاماً أمام عينيه . كان أمله المتبقي الوحيد أن ينجح شقيقه أسد روبال بالقدوم اليه مع امدادات من اسبانيا ، في السنة القادمة ، وبذلك قد يستعيد سمعته وما فقده حتى الآن .

بعد فشل هانيبال وانسحابه ، فقد سكان كابوا كل عزم على القتال ، وحملوا سلطات المدينة على التوجه بطلب الاستسلام الى الرومان . وقام على الأثر ٢٨ عضواً من مجلس شيوخ المدينة بالانتحار كي لا يقعوا أحياء في أيدي الرومان. ولما فتحت الأبواب ، ودخل الرومان ، كان أول عملهم أن أعدموا بقية أعضاء مجلس الشيوخ ، وأعدموا كذلك وجهاء المدن الكامبانية الأخرى ، ممن كانت قد تبعت كابوا في التحالف مع القرطاجيين. وما تبقى من سكان المدن ، بعد اعدام الوجهاء ، فقد بيعوا في سوق الرقيق . أما عامة الشعب في كابوا فيبدو أنهم نجوا من هذا المصير ، وربما كان سبب ذلك احجاماً من روما عن أن تجعل من مدينة تليها في الضخامة والأهمية عبرة للمعتبرين ، أو ربما كان ذلك ، وهو الأرجح ، بتأثير المصاهرات الكثيرة التي كانت قائمة بين سكان المدينتين .

مناقشة أعمال هانيبال بعد « كانه »

تثبت معركة « كانه » أن هانيبال لم يكن يعرف كيف يستفيد من انتصاراته ، وأنه كان ضعيفاً في تفكيره الاستراتيجي الى درجة تبعث على العجب والاستغراب . لقد كانت النسبة في إمكان احتلاله لروما تزيد عن ستين بالمئة ، وكان بامكانه أن يقطع المسافة الفاصلة ، بمسيرات شاقة ، في غضون خمسة أيام أو ستة ، وكان سيصل الى المدينة قبل أن تصلها أنباء الهزيمة في « كانه » ، أو في وقت واحد مع وصول هذه الأنباء . وكانت المدينة آنئذ شبه عزلاء ، وكان من الممكن جداً أن يدخلها هانيبال بصورة مفاجئة . لم تكن المسافة الفاصلة ، كما يزعم بعضهم ، لتقف مانعاً عن تحقيق هذه الخطوة

الخطيرة ، فقد قام الاسكندر الكبير من قبل بمسيرات أشق ، كما قام شيبيو الأفريقي ، خصم هانيبال وغالبه في النهاية ، بعمل مماثل في اسبانيا ، عندما فاجأ قرطاجة الجديدة واحتلها ، وكانت المسافة التي تفصله عن قرطاجنة أبعد من المسافة التي كانت تفصل روما عن هانيبال بعد معركة « كانه » .

قد يخطىء المرء مرة ، وقد يكون له عذر ، أما أن تتكرر الأخطاء الجسيمة على التوالي فشيء لا يمكن التغاضي عنه . لقد استهل هانيبال أخطاءه الكبرى باعتماده على قاعدتين ، قرطاجة واسبانيا ، ضعيفتين وما كانتا أهلاً لأي اعتماد . وارتكب خطيئته الثانية بعدم تعرضه لجيش شيبيو الأب في ضواحي ماسيليا وتدميره ، ومنعه بذلك عن متابعة سيره الى اسبانيا ، الى قاعدة هانيبال الأساسية . وارتكب هانيبال خطيئته الثالثة باقدامه على ذلك المسير الجنوني عبر جبال الألب ، في فصل غير مناسب ، متخلياً في سبيل ذلك عن أسلحة حصاره ورحبة مدفعيته ، وباذلاً في هذا السبيل نصف جيشه ضحايا في حرب مع الطبيعة . ونراه في ايطاليا ، وقد انضم اليه قسم كبير من البلاد والسكان ، بعد انتصاره في « كانه » ، عاجزاً عن أن يجعل من هؤلاء الأنصار أو الأحلاف قوة تسانده عسكرياً وتعوضه عن انقطاع امداده وتموينه من قبل اسبانيا وقرطاجة . وهو قد أمضى زهاء ١٦ عاماً في ايطاليا دون أن يقوم ، طيلة كل هذا الزمن ، بإعادة تأسيس سلاح الحصار ومدفعيته ! . ثم كيف جاز لقائد من وزنه وثقله أن يعجز عن اقتحام مدينة صغيرة أو معسكر تدافع عنه قوة قليلة ؟ ان العجز في مثل هذه الحالات محطم لمعنويات الجند ، مسيء الى السمعة لدى الأصدقاء والأعداء على السواء ، وهي مرفوضة ، جميع الحجج والأعذار التي قد يجدها له بعض الكتاب والمعلقين في هذا الصدد .

وإذا نحن قبلنا ، ولو على مضض ، بتفكيره الساذج باخضاع روما عن طريق اخضاع أنصارها وحلفائها ، وبأنه لذلك لم يكن ليفكر بالقيام بأي عمل حربي مباشر ضد العاصمة الرومانية نفسها ، وهي رأس الأفعى ، واعتبرنا أن العجز عن الاستفادة كما ينبغي من انتصاراته التكتيكية كان حاصلاً لهذا التفكير ، فإنه لا يمكننا رغم ذلك التغاضي عن أخطائه السابقة لدخوله الأراض

الايطالية ، وهي ضعف القواعد الخلفية ، وعدم تعرضه لجيش شيبيو الأب في ماسيليا ، ومسيرته عبر جبال الألب دافعاً في سبيل ذلك نصف جيشه وجميع أسلحة الحصار ومعداته . وعندما يقول بعضهم بأن عجزه عن أخذ المدن والمعسكرات المحصنة كان بسبب افتقاره الى المعدات اللازمة لذلك ، فهذا القول هو بمثابة العذر الذي هو أقبح من الذنب .

ربما كان هانيبال ، كهتلر ألمانيا في الحرب العالمية الثانية ، مصاباً في دخيلته بعقدة نقص تجاه روما . أو لربما كان خيالاً في حسّه وتفكيره ، والخيال يحجم بطبيعته عن التعرض للحصون والأسوار . وكان دون شك تاجراً بطبعه وأصله الفينيقي ووراثته القرطاجية ، مما كان يحمله على تضييع الوقت في جمع الغنائم والأسلاب بدل الانطلاق بأقصى السرعة الى عاصمة العدو للقضاء عليه في عقر داره ! .

كان كل هذا ، بصرف النظر عن أخطاء قرطاجة واهمالها الذي لا يغتفر في تسليم القيادات الى غير الأكفاء ، وامتناعها عن امداد حملتها في ايطاليا ، والتهائها بالقشور دون اللباب ، وبارسال التعزيزات تلو التعزيزات الى صقلية بدل ارسالها الى ساحة القتال والحسم في ايطاليا نفسها ، حيث كانت الحاجة اليها ماسة للغاية .

ومن الغريب أن هانيبال أمضى في ايطاليا حوالي ١٦ عاماً متتالية ، يتجول ويجوب فيها غرباً وشرقاً، شمالاً وجنوباً ، وقد أخضع لسلطانه عدة مناطق ، وانضمت الى جانبه عدة مدن ودويلات ، ولكنه ظل عاجزاً رغم ذلك عن أن ينشىء من كل هذا قوة عسكرية أو سياسية تكون له عوناً على تحقيق مشاريعه وطموحاته . والمثل القائل بأن طريق الحياة مليء بأشلاء أصحاب النوايا الطيبة ، أي الساذجة ، وخاصة في ميادين السياسة أو الحرب ، لينطبق على هانيبال .

الفصل الثاني عشر

الهزيمة في ميتوروس

الأحداث في اسبانيا ـ شيبيو الابن في اسبانيا ـ احتلال الرومان لقرطاجنة ـ اسد روبال برقه في ايطاليا ـ عودة الى ايطاليا ـ انتخاب القناصل في روما ـ معركة ميتوروس ـ مناقشة الأحداث .

OOOOOOOOO

عودة الى اسبانيا

لكي نستطيع ان نتفهم خلفية الأحداث القرطاجية في ايطاليا بصورة كافية ، ونكوِّن فكرة واضحة عن أسباب عدم ايفاء قاعدتي هانيبال في اسبانيا وقرطاجة بالتزاماتهما نحوه ، فمن الضروري لذلك ، في هذه المرحلة ، ان نعود قليلاً الى الوراء ، لنبحث مع بعض التفصيل فيما كان جارياً في اسبانيا أثناء غياب هانيبال .

ذكرنا في فصل سابق ، ان القنصل كورنيليوس شيبيو ، بعد ان فشل في اعتراض هانيبال عند نهر الرون ، في غاليا ، عمد فأرسل جيشه بقيادة أخيه ليتابع سيره الى مهمته الأصلية في اسبانيا ، وعاد هو الى ايطاليا . نزل كنايوس شيبيو من سفنه بأمان في ماسيليوت ، وكانت مستوطنة اسبانية معادية لقرطاجة ، ولم يقم هانيبال باخضاعها قبل تحركه باتجاه ايطاليا . وسار شيبيو من ماسيليوت ليلتقي في طريقه بأحد مساعدي هانيبال في اسبانيا ، القائد حانو ، وكان هانيبال قد أبقاه للحفاظ على المنطقة الواقعة شمال نهر ابرو . وقد هزم حانو في هذا اللقاء ، ووقع نفسه أسيراً ، وقضي على قواته بكاملها .

كان القرطاجيون قد أرهبوا القبائل الاسبانية بوجودهم ، لكن دون ان تستكن هذه او تخضع . فلما رأت هذه القبائل ما حل بحانو وجيشه ، سارعت فانضمت الى جانب روما . وهكذا ، وبضربة واحدة ، توصل شيبيو ليس فقط الى توطيد مركزه في شمال اسبانيا ، بل والى قطع طريق المواصلات والامداد البرية بين هانيبال وبين قاعدته الاسبانية ، وهي القاعدة الأساسية .

كان هانيبال قد ترك أخاه أسد روبال نائباً عنه في اسبانيا ، وترك معه قوات بدت في حينها كبيرة . والظاهر ان أسد روبال قد فوجىء بقدوم الجيش الروماني ، وبهزيمة حانو التامة ، اذ اقتصرت جهوده ، في العام ٢١٨ق م ، على القيام فقط بغارات محدودة لم تلحق سوى بعض الخسائر ببحارة سفن شيبيو . ولكنه في العام التالي ، ٢١٧ق م ، عمد الى تجهيز حملة مختلطة ، برية وبحرية ، كان قسمها البحري مؤلفاً من أربعين سفينة بأربعة طوابق مجاديف ، وكانت مهمتها السيطرة على البحر ، وحماية ميمنة القوة البرية ونقل تموينها بمحاذاة الساحل ، بينما كان أسد روبال يسير على رأس القوات البرية ، صاعداً على الساحل شمالاً ، في طلب الرومان . ومن جهة هؤلاء ، فقد كانت خسائر العام الفائت البحرية قد خفضت من عدد سفن شيبيو من ٦٠ الى ٣٥ ، لكنه استعاض عن هذه الخسائر بدعم ٢٠ سفينة من مستوطنة ماسيليوت . وفي الاصطدام البحري ، الذي وقع عند مصب نهر الابرو ، مني القرطاجيون بهزيمة منكرة ، وخسروا ٢٥ من سفنهم . وقد حطت هذه الهزيمة من عزم أسد روبال وتصميمه ، فعدل عن وجهة مسيره ، وتراجع عائداً الى الجنوب . وفي السنة التالية ، وكان شيبيو الكبير قد لحق بأخيه كنايوس ، لم يجد الشقيقان أدنى صعوبة في عبور نهر الابرو ، والعبث مدة جنوب هذا النهر . لم يكن هذا العام ، ٢١٧ق م ، عاماً حاسماً ، لكن أحداثه كانت ميالة الى جانب روما .

وتظهر العمليات ، في العامين التاليين ٢١٦ و ٢١٥ق م ، ان أسد روبال لم يكن من مستوى أخيه الأكبر ، لا كعسكري ولا كقائد رجال . ففي عام ٢١٦ق م ، نشبت ثورات قبلية صرفته عن واجباته الأساسية ، وهي تجهيز

امدادات والمضيّ بها الى ايطاليا . ويبدو انه لم يقم بشيء من هذا القبيل في بادىء الأمر ، بحجة ان شيوع ذلك سيضعف من سيطرة الحكومة على القبائل الاسبانية . وانتظر الى ان جاءه مدد من أفريقيا ، قوة من ٥٠٠٠ مقاتل ، بقيادة قائد يدعى هيميلكو ، وعندئذ عمد أخيراً الى التحرك شمالاً ، في أوائل عام ٢١٥ق م . وفي طريقه التقى بالشقيقين شيبيو ، على الضفة الجنوبية لنهر ابرو ، عند بلدة تدعى ايبيرا ، ليمنى ، كما تقول جميع المصادر ، بهزيمة كاسحة . لقد حاول ان يناور كما ناور شقيقه في معركة « كانّه » ، لكن لم تكن له سيطرة هانيبال على الجند ، ولم يستطع ايقاف الهجوم الروماني بوسطه ، ولم تكن أعمال خيالته حاسمة . خسر أسد روبال في هذه المعركة جميع مشاته ، الاّ انه استطاع ان ينجو بنفسه ، مع فيلته ومعظم خيالته .

ونتج عن هذه الهزيمة ، ان الامدادات التي كان يجري اعدادها لترسل مباشرة الى هانيبال ، بقيادة شقيقه ماكو (ربما كان الاسم هاكو او ماهو) ، أرسلت على العكس الى أسد روبال .

تتابعت الأحداث في اسبانيا ، خلال السنوات التالية ، ونشبت عدة معارك بين الفريقين لكن دون نتائج فاصلة . كان كلا الجانبان يتعرضان الى مرابح وخسائر ، لكن الحصيلة ، عند الموازنة ، كانت تميل الى جانب روما . غير انه في العام ٢١١ق م ، شعر الشقيقان شيبيو بأنهما أصبحا من القوة بحيث يستطيعان القيام بتعرض على سلم كبير ، وذلك في وقت كان القرطاجيون يتلقون أثناءه تعزيزات كبيرة ، بحيث استطاعوا ان يبعثوا الى الميدان بثلاثة جيوش ، جيش بأمرة أسد روبال نفسه ، وجيش بأمرة أخيه الأصغر ماكو ، وجيش بأمرة أسد روبال جيسكو .

أصيب الشقيقان شيبيو بشيء من الغرور ، نتيجة لما كانا قد أحرزاه حتى الآن من انتصارات سهلة . وكانا يغاليان في الاعتماد على العناصر الاسبانية الملتحقة بروما ؛ وكان من جراء ذلك ان ارتكبا خطأ في توزيع قواتهما ، والعمل منفصلين ، الشقيق كنايوس ضد أسد روبال برقه ، والشقيق الآخر ضد القائدين القرطاجيين ماكو وجيسكو ، وكانت النتيجة هزيمة تامة للرومان .

فالشقيق الأكبر بوبليوس كورنيليوس شيبيو ، بينما كان في مسير ليلي في محاولة لتدمير قوة قرطاجية منعزلة ، وقع في كمين وقتل مع معظم جيشه . وكان الشقيق كنايوس ، وقد تخلت عنه قواته الاسبانية عندما بلغتها أخبار هذه الهزيمة ، في طريقه منسحباً ، عندما أجبر على خوض المعركة ، فقتل ودمّر جيشه ، وذلك بعد ١٣ يوماً من هزيمة شقيقه ومصرعه . وبموت الأخوين شيبيو ، تحول ميزان القوى في اسبانيا مجدداً الى صالح قرطاجة .

ولكن الأحداث التالية لم تبطىء لتأتي وتثبت فقر قرطاجة في الرجال والقادة الأكفاء ، من نوع هانيبال . فقرطاجة لم تعمل شيئاً للاستفادة من هذا الانتصار الكبير في اسبانيا . والظاهر ان مرض الجهل بالاستفادة من الانتصارات لم يكن مقتصراً على هانيبال وحده ، في ايطاليا . ان القوة الرومانية الباقية في اسبانيا ، بعد هزيمة ومصرع الشقيقين شيبيو، لم تكن لتتجاوز ٩٠٠٠ فرد، ومع ذلك فإن هذه القوة ، بقوة آمرين حديثين جداً ، لم تجد صعوبة في الاحتفاظ بخط نهر الابرو ، بل وبارغام ماكو على التراجع بالخلل والفوضى .

قيادة رومانية جديدة

عندما وصلت أنباء الهزيمة في اسبانيا الى روما ، سارع مجلس الشيوخ فعين كلوديوس نيرو للقيادة الشاغرة ، ووضع تحت تصرفه عشرة آلاف جندي وخيال ، أي حوالي لجيونتين ، وكان هذا في واقع الحال شيئاً ضئيلاً لتواجه به القوات القرطاجية الناشطة من جديد . غير ان مجلس الشيوخ كان يرى ان ساحة الحرب الرئيسية هي حيث يوجد هانيبال ، اي ايطاليا نفسها ، وان اسبانيا ستظل ساحة ثانوية الى ان يسوّى أمر هانيبال .

لم يأت القائد الروماني الجديد في اسبانيا ، نيرو ، بشيء جديد ، اللهم الاّ الاحتفاظ بالسيطرة على المنطقة الاسبانية الساحلية شمال نهر ابرو ، وكانت قاعدة رئيسية للعمليات الرومانية في شبه الجزيرة الايبرية . ولكن نيرو لم يبق طويلاً على رأس قيادته . ففي نهاية السنة صدر عن مجلس الشيوخ قرار

خطير ـ لم يكن ليشعر أحد بخطورته في ذلك الحين ـ بتعيين الشاب بوبيليوس شيبيو ، ابن وابن أخ القائدين الرومانيين الشقيقين ، اللذين قتلا في اسبانيا في بداية العام . ومن الفائدة ان نبحث في اسباب هذا التعيين بشيء من التفصيل ، لأنه كان في الواقع حدثاً غير عادي ، ونظراً لما كان له من تأثير قاتل على مصير قرطاجة . وبالرغم من ان الشاب كان في عدة مناسبات قد أثبت جدارته كجندي ، فإنه لم يتقلد عملاً رسمياً هاماً ، مما يعني انه لم يكن ، تبعاً للتقاليد ، مؤهلاً لقيادة عسكرية كبيرة . لَمَ اذن عهد اليه بتلك القيادة ؟ الجواب على هذا التساؤل يكمن دون شك في خفايا المناورات الحزبية . وكما سبق فذكرنا ، فإن المسرح الحربي الأشد حراجة بالنسبة لمجلس الشيوخ كان المسرح الايطالي ، وكان الهدف الأول هو هزيمة هانيبال ، وكانت روما فوق ذلك متورطة في حرب في اليونان ضد قوات فيليب المكدوني ، وكان في مجلس الشيوخ تيار قوي يدعو الى التخلي عن اسبانيا ، او عدم تخصيصها باهتمام كبير ، والى اعتبار المسرح اليوناني في المرتبة التالية بعد ايطاليا ، من حيث الأهمية .

كان شيبيو الشاب ، عند تعيينه قائداً لاسبانيا ، رأساً لعائلة شيبيو القوية النفوذ ، وكانت هذه العائلة تميل الى تفضيل المسرح الحربي الاسباني على ما عداه . وربما ظُنّ ان نسابته للقائدين المتوفيين ، ابيه وعمه ، كانت ستكون ذا نفع كبير على المسرح الاسباني ، من حيث علاقات العائلة قديماً مع بعض الجهات والعائلات المتنفذة في تلك البلاد . واذا أضفنا الى ذلك قوة شخصيته وحسن وعيه وادراكه السياسي ، فإن تعيينه يصبح حالئذ اجراء منطقياً . وقد أدى هذا التعيين ، لحسن حظ روما ، الى تغيير مجرى الحرب بصورة جذرية .

شيبيو الابن في اسبانيا

وصل شيبيو الابن الى اسبانيا في صيف عام ٢١٠ق م ، على رأس قوة معادلة للقوى التي سبق وجاءت مع نيرو ، بحيث أصبح عدد القوى الرومانية

تحت قيادته حوالي ثلاثين ألفاً ، بالاضافة الى بعض القوى المساعدة ، المجندة محلياً من الاسبانيين . وقد تصرف شيبيو عقب وصوله بحنكة وحكمة ، فلم يقم بعمليات من أي نوع ، بل قضى بقية ذلك العام في استطلاع أحوال قيادته الجديدة ، وفي التعرف على جنوده عن قرب ، وكذلك على الأرياف والقبائل الاسبانية .

ثم استغل فصل الشتاء للتخطيط ، والاعداد لأول عملية له في اسبانيا ، وكانت بمثابة « ضربة المعلم » . أخذ يعد للهجوم على مقر السلطة القرطاجية في اسبانيا ، على العاصمة قرطاجنة الجديدة نفسها . كانت الفكرة جريئة ، وكانت مغامرة حظيت بالنجاح بسبب أوضاع الجيوش القرطاجية المنفصلة المتباعدة عن بعضها بمسافات كبيرة . فماكو كان عند ضواحي أعمدة هرقل (جبل طارق) ، وأسد روبال جيسكو كان في لوزيتانيا ، وأسد روبال برقه كان متوغلاً بعيداً وعميقاً في داخل شبه الجزيرة ، قرب منابع نهر تاكوس . كان الجميع بعيدين عن قرطاجة الجديدة ، وكانوا يغالون ثقة بمناعتها ، بحيث انهم لم يتركوا لحمايتها سوى ألف رجل .

ان قرار شيبيو بمهاجمة قرطاجة نفسها ، يدل على انه كان قد اجتاز المسافة من قائد جيد الى قائد كبير . ان القائد الجيد ، الذي يرى خصمه موزعاً ، ربما يفضل ان يهاجم جيوش هذا الخصم بالتجزئة ، جيشاً تلو جيش ، لكن القائد الكبير هو وحده الذي يعرف كيف يغتنم سانحة للضرب حيث لب الموضوع وقلبه ، ويكون لديه الجرأة على وضع تخطيط كهذا قيد التنفيذ ، ولم نر لهذا شبيهاً لدى هانيبال بعد دخوله الى ايطاليا . وقد احتفظ شيبيو بنواياه في دخيلته ، واكتفى باصدار الأوامر الى الجيش والأسطول بالتحشد عند مصب نهر الابرو ، في أول وقت ممكن من عام ٢٠٩ق م ، ثم انضم بنفسه الى هذه القوات في مكان تحشدها ، مع خمسة آلاف من المرتزقة الاسبان كان قد نجح في تجنيدهم .

احتلال الرومان لقرطاجنة

ترك شيبيو ٣٠٠٠ مشاة و ٥٠٠ خيال لحراسة نهر ابرو ، وسار هو مسرعاً باتجاه الجنوب ، على طول الساحل ، مع ٢٥٠٠٠ مشاة و ٢٥٠٠ خيال ، وكان الأسطول يرافقه بحراً ، على محاذاة الساحل . قطع شيبيو وجنده مسافة ٣٠٠ميل في غضون سبعة أيام ، متحركاً بسرعة وسرية ، وانتهى الى حيث يقصد ، دون ان تتسرب أية معلومات عن مقاصده وأهدافه .

تقوم قرطاجة الجديدة ، او قرطاجنة كما نعرفها اليوم ، على نتوء يشكل شبه جزيرة يحيط بها البحر جنوباً ، وبحيرة ضحلة المياه شمالاً ، ويصل بين البحر والبحيرة قناة لجهة الغرب . كانت المدينة محاطة بالتلال ، باستثناء الجهة الجنوبية الغربية ، وقوية التحصين من جميع الجهات ، وكان السبيل الى مهاجمة الموقع هو عنق شبه الجزيرة . كان شيبيو ، على ما ظهر ، على معرفة تامة بالخصائص والمميزات الأرضية للمكان ، وخاصة فيما يتعلق بالبحيرة ، التي كانت تتراءى وكأنها حاجز منيع ، بينما كانت في واقع الأمر ممكنة الخوض ولو بشيء من الصعوبة . وعندما كانت الرياح تهب من الجهة المناسبة ، فإنها كانت تغـدو أكثر ضحالة ، ولا تعود تشكل أي حاجز بالمرة .

عسكر شيبيو على مرتفع يشرف على البرزخ ، وأقام على مؤخرته خطاً دفاعياً لحمايته من مفاجأة أية نجدة قرطاجية قد تحصل على غير انتظار . وفي المدينة ، سارع قائد الحامية الى تعزيز قوته الألف بتسليح حوالي ٢٠٠٠ من السكان ، لحماية وحراسة جدار البرزخ ، واحتفظ بجنوده الألف النظاميين كاحتياط . ومع ان المجندين كانوا من الحماقة بحيث خرجوا وهاجموا جنود شيبيو قبل ان يبدأ هجومه ، متعرضين الى خسائر فادحة لم تكن لها ضرورة ، فقد قاموا رغم ذلك بدفاع مجيد عندما حاول الرومان اقتحام أسوار البرزخ ، بحيث اضطر شيبيو ، بعد قتال دموي شديد ، الى ان يأمر بالتراجع ، وكان الأسطول الروماني يهاجم أسوار المدينة من جهة البحر .

كل هذه المهاجمات ، من البحر وضد أسوار البرزخ ، كانت مظاهرات

مقصودة لغرض صرف أنظار المدافعين عن البحيرة . ولما أخذ ماء البحيرة ، وكان من ماء البحر ، في الارتداد بفعل الجزر والريح ، عاود هجومه التظاهري على البرزخ ، وأمر قوة مختارة من ٥٠٠ مقاتل بعبور البحيرة خوضاً . وقد سارت هذه القوة في المياه الضحلة ، الى ان بلغوا الأسوار من هذه الناحية ، فألقوا بسلالمهم عليها ، وصعدوا الى أعالي الأسوار دون ان يلقوا مقاومة . نزلت هذه القوة الى المدينة ، وانطلقت منحرفة الى اليسار ، لتأخذ المدافعين عن البرزخ من الخلف . وتدفقت القوات الرومانية على الأثر ، مدمرة كل شيء في طريقها ، واتجه شيبيو نفسه الى القلعة حيث تلقى استسلام بقية الحامية .

كانت المجزرة داخل المدينة رهيبة ابان الهياج الذي صاحب الهجوم ، ولكن شيبيو ، بعد ان ضمن المدينة ، سارع الى العمل بحلم وكبح نفس ، الأمر الذي يضعه جانباً لوحده بالنسبة للسلوك المعتاد في مثل هذه الأحوال لسواه من القادة الرومانيين . كان عدد الأسرى ١٠٠٠٠ ، فعمد شيبيو فأطلق من بينهم جميع مواطني المدينة واعادهم الى بيوتهم ، شريطة ان يحسنوا التصرف حيال سادتهم الجدد ، واختار من بين الأرقاء المحررين ، بالتطويع ، بحارة لثمانية عشر سفينة كان قد استولى عليها راسية في مرفأ المدينة . وكذلك أطلق سراح عدد من الأسرى الأسبان الذين كانوا محتجزين كرهائن ضماناً لحسن سلوك قبائلهم ، أعادهم الى مواطنهم لينشروا أنباء انتصاراته . كان شيبيو ، طوال حروبه مع القرطاجيين ، يحاول دوماً ان يقاتل بصورة انسانية قدر الامكان .

كانت خسارة قرطاجة الجديدة ضربة قاصمة موجهة لسلطان القرطاجيين في اسبانيا . فقد كانت هذه المدينة قاعدتهم الرئيسية في هذه البلاد ، وكانت لذلك ملأى بالمؤن والأموال . وكانت أيضاً أفضل الموانىء لنزول الامدادات واللوازم الأخرى القادمة من قرطاجة . وكانت علاوة على ذلك مركز تعدين الفضة في المنطقة ، وكان اطلاق الرهائن باعثاً على اضعاف السيطرة القرطاجية على القبائل المحلية في داخل البلاد .

بعد قرطاجة الجديدة

لم يقم شيبيو بمغامرة أخرى في تلك السنة . لقد اكتفى لذلك العام بغنيمته الثمينة ، وانصرف مخصصاً وقته لتدريب صارم لقواته ، ونجح فحول جيشه الى سلاح مصقول قاطع كحد السيف .

قضى القائد الروماني فصل الشتاء في تراكّو ، حيث كان يستقبل العديد من البعثات ووفود القبائل الاسبانية . وفي ربيع العام التالي ، تحرك في محاولة لحسم الموقف مع أسد روبال برقه ، وكان هذا الأخير قد حزم أمره أيضاً على الدخول مع الرومان في معركة ، حتى اذا استطاع ان ينتصر على شيبيو ، فإنه كان يستعيد دون شك ما فقده من السمعة لدى الاسبانيين . وقد خطط أسد روبال في ظروف تسمح له ، اذا لم تجر الأمور كما يشتهي ، وبصرف النظر عما قد يلحق به من خسائر ، بالتوجه الى ايطاليا ولو بقوات مخففة . وقد عمد الى التمركز دفاعياً في مكان يدعى بيكولا ، وقيل انه ربما كان يدعى بيلن . رتب أسد روبال جيشه للقتال على ربوة مسطحة ، تنتهي بمصطبة وحافة على شكل متراس ، وأقام هناك ينتظر هجوم شيبيو .

جاء شيبيو وعسكر مقابل معسكر أسد روبال ، وكان يتخوف من مناعة المعسكر القرطاجي ، لكن موقع المعسكر الروماني كان أعلى ارتفاعاً من معسكر الخصم . كان شيبيو يأمل ان يبدأ القرطاجيون بمهاجمته . وأقام يومين ينتظر، وأخيراً عزم على الهجوم في مطلع اليوم الثالث . ومن المحتمل انه قد ظن ان مزيداً من الانتظار قد يؤدي الى مجيء الجيوش القرطاجية الأخرى ، جيش ماكو او جيش أسد روبال جيسكو ، ويصير بذلك بين نارين . جرت المعركة ، واحتدم القتال ، وظهر أسد روبال برقه ، لمرة أخرى ، انه لم يكن قائداً من النوع الممتاز .

بدأ شيبيو القتال بمشاته الخفيفة . أرسل هذه المشاة الى مهاجمة موقع القرطاجيين ، من الجهة المنخفضة للربوة . وبينما كانت أنظار القرطاجيين منصرفة الى هذه الناحية ، وقد زجّوا بقسم من مشاتهم الرئيسية لمواجهة

الرومان ، اي بقسم من القوات التي كانت مكلفة بالدفاع عن القسم الأعلى من الربوة ، قام شيبيو بمهاجمة جناحي أسد روبال ، ونجح فاستولى على مواقع مسيطرة لم تكن ممسوكة من قبل القرطاجيين . ولما رأى أسد روبال ان الأمور لا تجري كما يجب ويشتهي ، راح بمعظم ما تبقى من قواته فانفك عن المعركة ، تاركاً لوحدها القوات التي كانت تدافع عن القسم المنخفض من الربوة ، ونجح فانسل ليلاً منسحباً بمهارة مع جيشه ، بما في ذلك فيلته ، وخيالته وكل كنوزه .

وقد تعرض شيبيو ، من قبل خصومه السياسيين في روما ، الى حملة انتقاد عنيفة ، نتيجة لانسحاب أسد روبال برقه مع القسم الأعظم من قواته ، متوجهاً بها الى ايطاليا . ولكن من الصعب ان نرى كيف كان يمكنه ان يحول دون ذلك ، دون تعريض كل ما كان قد حققه في اسبانيا الى الضياع . وهو لو دفع بكل جيشه الى مطاردة أسد روبال بعزم واصرار ، فقد كان من المحتمل ان لا يتوصل الى تدميره قبل الوصول الى ايطاليا ، ويكون في سبيل ذلك قد ترك اسبانيا لقمة سائغة لجيوش ماكو برقه وأسد روبال جيسكو ، وكانت لا تزال جيوش ميدان قوية . ولا شك ان شيبيو قد بنى حساباته على اعتقاد بأن الجيوش الرومانية الموجودة في ايطاليا في تلك الفترة كانت قوية بما يكفي لتدبير أمورها والدفاع عن نفسها ، وان الوضع في اسبانيا سيكون أحسن في حال ابتعاد أسد روبال وجيشه عن هذه البلاد .

ورغم ذلك فإن شيبيو لم يهمل أسد روبال وجيشه بالمرة . وقد اعتقد ان أسد روبال سيسير على خطى شقيقه هانيبال ، متحركاً على الطريق عبر القسم الشرقي من جبال البرنس ، بدليل انه أرسل مفارز صغيرة للامساك بالممرات المسيطرة على هذا الطريق . ولكن أسد روبال برقه لم يتبع هذا الطريق ، فقد سار على العكس غرباً حتى ساحل الأطلسي ، دائراً حول الجزء الغربي من الجبال ، ليدخل الى غاليا بطريق بيداسّو وآدور . لقد تجنب الوسط الاسباني ، وتوغل في منطقة قبائل أفرني ، ليعبر من ثم نهر الرون في مكان ما ، في ضواحي ليون المعاصرة . وقد اتخذ له معسكراً في غاليا لتمضية

الشتاء ، وشرع في تجنيد ما يستطيعه من الغاليين للتعويض عن خسائره في باكولا .

أسد روبال برقه في ايطاليا

في وقت مبكر من عام ٢٠٧ق م ، بدأ أسد روبال برقه آخر مرحلة من طريقه الى ايطاليا . ومع انه لا تعرف الطريق التي اتبعها بالضبط ، فإن أغلب الدلائل تشير الى اتباعه لنفس الطريق التي سار عليها شقيقه من قبل ، مستفيداً هكذا من جميع الأشغال الهندسية التي تم اجراؤ ها من قبل هانيبال . لكن أسد روبال لم يضل طريقه كما وقع لهانيبال عندمـــا أوكل أمره لأدلاء غدروا به ، بل استمر مداوماً على اتباع الطريق الرئيسي . ويبدو انه لم يلق مقاومة من جانب القبائل الجبلية ، كما لم يتأثر جيشه كثيراً من عناصر الطبيعة ، وربما كان ذلك لأنه كان يتحرك في فصل مختلف من فصول السنة . وفيما يتعلق بعدم تعرض الجبليين لمروره كما فعلوا مع شقيقه ، فقد كان الجبليون قد ظنوا ان هانيبال يأتي لانتزاع أراضيهم من أيديهم ولذلك قاوموه ، اما بعد ذلك ، وبعد ان علموا بأخبار الحرب في ايطاليا ، ومدركين بأن جيش اسد روبال لا ينوي سوى مرور الطريق ، فقد تجنبوا معارضته ، وبعثوا على العكس بكثير من شبابهم للانضمام اليه .

وقع وصول أسد روبال الى ايطاليا ، مع جيش قوي ، وقوع الصاعقة على مجلس الشيوخ . وقد ضخمت الاشاعات من سمعـة أسد روبـال ومقدرته ، من جهة لنجاحه في الافلات من شيبيو في اسبانيا ، ومن ثم لمروره دون صعوبة عبر جبال الألب . ومع أن الشيوخ علموا بأنه أمضى الشتاء في غاليا ، الاّ أنهم قد فوجئوا بسهولة حركته وسرعة تقدمه ، ولم يكونوا قد استعدوا له عندما خرج من غاليا وظهر على الجانب الآخر من جبال الألب . ومن حسن حظ روما أن أسد روبال نفسه منحها الوقت اللازم الذي كانت بحاجة اليه . فهو عوضاً عن الانطلاق مسرعاً صوب الجنوب ، الى ملاقاة أخيه ، فقد توقف على العكس في غاليا ما بعد الألب ليضع الحصار على

المستوطنة الرومانية بلاشنتيا . ويبدو أنه كان يرى في احتلال هذه المستوطنة سياسة لطمأنة القبائل الغالية المحلية . وقد يكون أراد أن ينتظر في ذلك المكان الى أن يحل الصيف بحيث يكون واثقاً من الحصول على العلف لدوابه . ان الجيوش ، التي تعيش على المناطق التي تجتازها ، مرتبطة الى حد كبير بالأحوال الزراعية ونضج المحاصيل .

عودة الى الوراء ، الى ايطاليا

نعود الآن بضع سنين الى الوراء ، لنرى تطور الأحداث في ايطاليا بعد سقوط كابوا . ففي عام ٢١٠ ق م ، جرى انتخاب مارسللوس قنصلاً ، وأعطي قيادة رئيسية ضد هانيبال . وقد استهل قنصليته باسترداد مدينة سلابيا ، وقد سلمت اليه بخيانة داخلية رغم دفاع مجيد من حاميتها المؤلفة من ٥٠٠ نوميدي ، ثم تابع فاقتحم مدينتي مرموريا وميليس في منطقة سامنيوم ، التي كان هانيبال قد تخلى عنها .

وبينما كان مارسللوس هكذا متورطاً ، كان زميله القنصل السابق فولفيوس شنتومالوس يعمل محاولاً أن يستولي على مدينة هردونا ، في اقليم أبوليا ، حيث كان بعض أهالي المدينة النافذين قد حملوه على الاعتقاد باستعدادهم للانضمام اليه . وكان هانيبال وقتئذ في بروتيوم ، وعندما علم من عيونه وجواسيسه بما كان يعد في هردونا ، قام باحدى حركاته المفاجئة ، وانقض على المعسكر الروماني قبل أن يحصل لدى فولفيوس ولو فكرة غامضة عن وجوده على مقربة منه .

قتل فولفيوس ، وقتل معه ١١ تريبيوناً من أصل ١٢[١] ، ودمرت القوى الرومانية بكاملها . وقد قيل أن عدد القتلى الرومانيين تراوح ما بين ٧ و١٣ ألفاً . وقد توجه مارسللوس للحال على الأثر في محاولة لتعديل الموقف ، ليصطدم كما يظن مع هانيبال ، في نوميسترو في مقاطعة لوكانيا ، وجرت بين

(١) تريبيون : ضابط وقاضي منتخب للدفاع عن حقوق العامة ، وشخصه مقدس لا يمس .

الطرفين معركة استمرت ثلاثة أيام ، لكن ظلت لا تتعدى حدود الاشتباكات المبدئية . ويبدو أن هانيبال رفض أن ينساق الى معركة كاملة ، ونجح أخيراً فانسحب من الاشتباك مع جميع قواه .

اقتصر النشاط بقية ذلك العام على مناوشات بسيطة فحسب . وكان هانيبال يحتفظ بالسيطرة على مقاطعات كالابريا ، ولوكانيا ، وبروتيوم ومعظم أبوليا . وقد أحرز القرطاجيون انتصاراً بحرياً ، عندما قام اسطول تارانتين باعتراض عمارة بحرية رومانية وتدميرها ، وكانت تحاول ايصال المؤن والامداد الى قلعة تارانتوم المحاصرة .

وفي السنة التالية ، ٢٠٩ ق م ، انتخب قنصلاً كل من مارسيللوس فولفيوس فلاكوس وفابيوس ماكسيموس ، لكن أبقي على مارسيللوس قائداً لجيشه ومتابعاً لتحركات هانيبال . كان على فلاكوس أن يجري عمليات في لوكانيا وبروتيوم ، في حين عهد الى فابيوس بقيادة لجيونتين وعمارة بحرية ، وكلّف باحتلال تارانتوم . وللمرة الأولى أظهرت المستوطنات اللاتينية نفورها ومللها من استمرار حالة الحرب ؛ فقد رفضت ١٢ مستوطنة ، من مجموع ١٣ ، أن تقدم حصتها من المقاتلين ، فتخوف مجلس الشيوخ من نتائج هذه البادرة ، فغض النظر ، ولم يتخذ أيّ اجراء تأديبي . والجدير بالملاحظة أن المستوطنات الرافضة كانت مستوطنات داخلية ، أي تلك التي يفرض لجنودها أن يقاتلوا حيث تكون الحملات أبعد ما يكون . أما المستوطنات الخارجية ، التي كان جنودها يقاتلون دفاعاً عن مواطنهم ، فقد استمرت على تجنيد المقاتلين دون اعتراض .

بدأت الحملة الرومانية بعصيان حامية رهجيوم ، وقيامها بأعمال السلب والنهب في بروتيوم ، على مقياس واسع . ويبدو أن الغرض من وراء ذلك كان استجلاب هانيبال الى ذلك الاتجاه ، وقد نجحوا في هذا التخطيط . ومع أن التفاصيل غير متوفرة ، الاّ أن من المعلوم أن هانيبال قد اشتبك مع مارسيللوس مرتين ، هازماً اياه كل مرة ، ومنزلاً الكساح بجيشه ، بحيث استحال على القائد الروماني عقبئذ أن يحول دون متابعة هانيبال لحركته .

تابع القائد القرطاجي انطلاقه مسرعاً لمعالجة الموقف في بروتيوم . وقد استغل فابيوس غيابه ، واستطاع أن يستعيد تارانتوم . وكان فابيوس قد خطط لاحتلال المدينة بعملية مختلطة برية وبحرية ، لكنه سُوعد في آخر لحظة بخيانة من الداخل ، وفتحت له الأبواب من قبل ضابط بروتياني . تدفق الرومان الى داخل المدينة ، وسيطروا عليها بعد قتال عنيف ، وقد قتل آمر الحامية ، الضابط القرطاجي كارتالو .

كان هانيبال أثناء ذلك قد هزم قوات رهجيوم ، فقفل عائداً بسرعة لمحاولة انقاذ المدينة ، تارانتوم ، لكنه وصل متأخراً . وبعد أن حاول حمل فابيوس على الخروج من المدينة والقتال ، دون أن ينجح ، قام بانسحاب آخر من انسحاباته السريعة ، تاركاً خلفه كميناً قد أعده لفابيوس عند مدينة ميتابونتوم ، التي كان من المتوقع أن يتوجه اليها القائد الروماني ، على اعتقاد من أنها ستحذو حذو تارانتوم وتنحاز الى جانبه . ولكن فابيوس نجا من الكمين ، لأن النذر لم تكن ملائمة لحركته ذلك النهار .

ومن الواضح أن تلك السنة كانت سيئة بالنسبة لهانيبال ، بالرغم عما قد حققه من انتصارات في الميدان . ومع أنه كان لا يزال أكثر من ند لأي من قادة الرومان ـ كما وضح ذلك من هزائمه لمارسيللوس ـ الّا أنه كان مواجهاً بقوات رومانية عديدة ، وفي ميادين مختلفة ، ولم يكن بوسعه أن يخيبها جميعاً . فهو حين كان يشتبك مع بعضها ، كانت القوات الأخرى تستفيد من غيابه وانشغاله مع البعض الآخر . وكانت النتيجة هبوطاً عاماً في معنويات حلفائه ، وقد أخذوا يعيشون تآكلاً متواصلاً مستمراً للمناطق التي كانت خاضعة للسيطرة القرطاجية . ولكي يتمكن هانيبال من مكافحة ذلك التدهور وايقافه ، كان لا بد من مزيد من الجنود ، وقد صار بحاجة الى ذلك بصورة يائسة . وكان أمله الوحيد أن يتحقق اجتماعه بشقيقه أسد روبال ، وهذا الاجتماع لو تحقق ربما كان يميل كفة الميزان الى جانب قرطاجة ، لكن لزمن محدود ، وفي المجال التكتيكي فحسب . ذلك أن العطل الأساسي كان في استراتيجية هانيبال ، وقد سبق له في أول أمره في ايطاليا ، أن أمضى في هذه البلاد مدة أربع سنوات

تقريباً وهو يتفوق تكتيكياً ويربح كل معركة ، لكن بلا نتيجة استراتيجية ولا أيّ استفادة من انتصارات الميدان التكتيكية .

العام ۲۰۸ ق م

في هذا العام ، أعيد انتخاب مارسللوس كقنصل ، وانتخب كوينشيوس كريسبينوس لمنصب القنصل الآخر. وكان هذا الأخير أول من تحرك في الميدان، في محاولة لاحتلال مدينة تدعى لوكري ، فتصدى له هانيبال وأحبط محاولته . وعندئذ توجه القنصل الى الاجتماع بزميله مارسللوس في مدينة فينوزيا ، وبدا وكأن القنصلين يتأهبان لخوض معركة فاصلة مع هانيبال .

ولكن عندما توجه القنصلان ، بحراسة مفرزة من الخيالة ، لاستطلاع الأرض بين الجيشين ، راحا ضحية لكمين نصبه النوميديون التابعون لجيش هانيبال . قتل مارسللوس مع معظم الخيالة المرافقة ، وجرح كريسبينوس . كان موت مارسللوس خسارة مؤلمة لروما ؛ فقد كان محارباً خبيراً متمرساً ، لم تحط الهزائم من عزيمته وهمته ، وقد خدم الجمهورية بأمان واخلاص . وقام هانيبال ، كعادته في احترام الموتى ، بدفن مارسللوس مع كل مراسيم التكريم ، لكن عمد الى الاستعانة بخاتم القنصل المقتول ، في محاولة للاستيلاء على سالابيا ، وقد فشلت هذه المحاولة ، وكلفت هانيبال ٦٠٠ رجل وقعوا في الفخ داخل المدينة ، الا أنه سريعاً ما عوض عن هذه الخسارة بانتصار على الرومان عند مدينة لوكري ، وكان هؤلاء يعدّون لهجوم على المدينة بقيادة شينشيوس أليمنتوس ؛ فقد وقع قسم من القوة الرومانية المهاجمة في كمين ، وقتل منها ۲۰۰۰ وأسر ۱۵۰۰ ، وكانت حامية المدينة قد انطلقت الى خارج الأسوار متظاهرة بالهجوم على القوة الرومانية الرئيسية لتحويل أنظارها هكذا عن الاتجاهات الأخرى ، في حين انقضت خيالة هانيبال على مؤخرة الرومان ملحقة بهم هزيمة كاملة .

العام ٢٠٧ ق م

يعتبر هذا العام من الأعوام الحاسمة ، وقد انتخبت روما قنصلين كلاً من كلوديوس نيرو ، وكان جندياً كفؤاً محنكاً ، وليفيوس ساليناتور ، وكان عضواً في مجلس الشيوخ ، وقد اعتزل الحياة العامة عقب حادثة غير مشرفة ، عام ٢١٨ ق م .

كان على القنصل ساليناتور ، مع جيش قنصلي نظامي ، أن يغطي جبهة الشمال في وجه أسد روبال ، في حين كان على نيرو ، مع جيش قنصلي نظامي آخر ، أن يواجه هانيبال في الجنوب . وكان تيرنشيوس فارو وبوشيوس لوشينوس ، مع قوات مماثلة ، موجودين في أترووريا وأمبريا كقوات دعم لليفيوس ، في حين كان فولفيوس فلاكوس وكلوديوس فلامن يقودان جيشين آخرين في كل من بروتيوم وكالابريا ، ويقفان متأهبين لدعم نيرو . وكان هناك لجيون في كابوا ، ولجيونتان في روما نفسها ، وبهذا بلغ عدد القوات الرومانية المواجهة للشقيقين برقه ١٥ لجيوناً .

كان الرومان يتمتعون بحسنات المناورة على الخطوط الداخلية ، التي كانت تمكنهم من سهولة الحشد في وجه أيّ من الجيشين القرطاجيين . وكان هانيبال وأسد روبال من جراء ذلك في وضع غير مريح . كان كل منهما يجهل نوايا الآخر وخططه ، وكان من الحيوي لكليهما أن يتصلا ليتفقا على خطة عمل مشتركة .

كان الموقف ، بالنسبة لأسد روبال ، بسيطا نسبيا . كان عليه أن يختار طريقاً الى الجنوب ، وكان بوسعه أن يتحرك على طول الساحل الشرقي أو الغربي ، وكان على الرومان أن يحرسا كلا الطريقين ، بوضع جيش على كل طريق . كان التفكير لدى القيادة الرومانية أنه عندما تعرف وجهة سير أسد روبال والطريق الذي سيسلكه ، فان على لوفيوس ساليناتور أن يتحرك حالئذ للاجتماع بفارو أو ليشينوس ، وفقاً للظروف .

أما بالنسبة لهانيبال ، فان الموقف كان أكثر تعقيداً . فقد كان عليه ، لكي يجتمع بشقيقه ، أن يتحرك بعيداً الى الشمال ، مع القسم الأعظم من

قواته ، تاركاً أقاليمه وحلفاءه في بروتيوم ولوكانيا دون حماية في وجه قوات رومانية كانت ستظل متوفرة في المنطقة بأعداد كبيرة ، وكان لذلك لزاماً عليه أن يعرف مسبقاً بوجهة مسير أسد روبال وتاريخ هذا المسير ، قبل أن يتحرك بدوره ، وبحيث يؤخر حركته أكثر ما يستطيع .

بعد أن تخلى أسد روبال عن حصار بلاشنتيا ، وقد أضاع وقتاً ثميناً في ذلك ، أخذ يتحرك جنوباً ، على الطريق الشرقية ، وبعث في نفس الوقت برسالة الى هانيبال مع ٤ غاليين و٢ نوميديين ، لم يعرف قط ما تضمنته تلك الرسالة . وقد اجتاز الرسل الستة طول ايطاليا بسلام ، وانتهوا آخر الأمر الى تارانتوم ، عوضاً عن الانتهاء الى معسكر هانيبال آنذاك في ميتابونتوم ، ليقعوا من جراء ذلك بأيدي الرومان . وقد رأى المؤرخون القدامى في هذا الخطأ بمثابة كارثة حكمت بالموت والفناء على كامل الحملة القرطاجية . وتعني وجهة النظر هذه ، ان الرومان قد أطلعوا على ما كان أسد روبال ينوي عمله ، في حين ظل هانيبال على جهل بذلك ، وظل أسد روبال لا يعلم أن رسله ورسالته الى أخيه قد وقعوا في أيدي الرومان .

الا أن للمؤرخ لازمبي رأياً آخر ؛ فهو يقول أن الرسالة كانت في الواقع خدعة أريد بها صرف أنظار الرومان عما كان أسد روبال ينوي حقيقة أن يفعل ، وأن الرسالة كانت معدة لتقع في يد خصومه ، وهذا الرأي بعيد عن الواقع . أما المؤرخ ليفي فيقول أن الرسالة كانت تخبر هانيبال بأن شقيقه سيلتقي به في أومبريا ، الأمر الذي هو الغموض كله .

ولكن ، نظراً لما كان من ردّ فعل لدى كلوديوس نيرو ، فيبدو واضحاً أن أسد روبال أوضح في رسالته عن نيته وتفكيره المبدئي بسلوك الطريق الشرقية ، بعد عبورة لسلسلة جبال الأبنين ، عند مكان ما يقع جنوب غرب فلامينيا . والواقع أن أسد روبال لم يتجه غرباً ، بل استمر على الحركة نزولاً على الساحل الشرقي . والشيء المؤكد أن رسالة أسد روبال لم تقم بالغرض الذي أعدت له ، وأنها في النهاية أضرت بأصحابها دون أية فائدة . والعجيب في الأمر أن أسد روبال لم يقم بمحاولة أخرى للاتصال بشقيقه ، رغم

الصعوبات التي كانت تواجهه ، ولا يسع المرء إلا أن يتساءل لِمَ لَمْ يقم بشيء أكثر جدية في هذا السبيل ، فأهمية المسألة تعلو أهمية على كافة الصعوبات .

وعلى كل حال فقد تحرك أسد روبال جنوباً ، دافعاً بجيش ليشينوس أمامه ، وقد التقى هذا الأخير بزميله القنصل ساليناتور وجيشه ، في مكان ما على طريق تراجعه أمام أسد روبال . أما فيما يعود الى هانيبال ، فكان في هذه الأثناء في بروتيوم . لقد كان في سياق حشد جيشه ، وبعد أن انتهى من ذلك ، أخذ يتقدم باتجاه لوكانيا ، هادفاً من وراء ذلك ، على ما يظن ، الى رفع المعنويات المضعضعة لدى حلفائه في تلك المنطقة ، وكان في ذات الوقت يبدأ حركة عامة الى الشمال ، وقد التقى بنيرو عند كرومنتوم ، فدفعه عن طريقه ، وتابع سيره حتى أبوليا دون أيّ عقبة . أما نيرو فقد استعاد سريعاً ، كما يبدو ، زمام أموره ، لينطلق عاجلاً على أعقاب هانيبال . وقد اضطر هانيبال من جراء ذلك الى الرجوع على اعقابه الى ميكابونتوم، حيث التقط بعض القوى الاضافية ، ونجح ، بعد أن ضلل نيرو بحركة نحو فينوزيا ، بالتسلل شمالاً شرقاً الى كانوزيوم . وإنه لواضح من هذه التقدمات والتراجعات أنه لم تكن لدى هانيبال خطة محددة المعالم ، وان القادة الرومان الذين كانوا يتعقبونه كانوا من جهتهم حيارى لا يعرفون ماذا يفعلون غير تعقب خطوات خصمهم ، بانتظار أن يظهر من بينهم قائد عالي المستوى .

ومن المرجح أن رسالة أسد روبال الى شقيقه هانيبال ، الرسالة المنوه عنها سابقاً ، قد وصلت الى يد نيرو في هذا الوقت ، وكان ان اتخذ بناء على ذلك قراراً حفظ له مكانة في التاريخ . فقد عمد فأرسل الى مجلس الشيوخ بروما تقريراً بأعماله وخططه،ثم بعث بالخيالة السريعة لتوفير الطعام والماء بحيث يكون ذلك جاهزاً على طريقه . واتبع ذلك فاختار من جيشه نخبة من ٦٠٠٠ جندي مشاة و ١٠٠٠ خيال ، وتسلل بهذه القوة من معسكره ليلاً ، ووجهته الشمال ، متحركاً بسرعة قصوى للاجتماع بليفيوس سالیناتور .

استغرقت حركة نيرو هذه مدة ستة أيام أو سبعة ، وذلك لقطع مسافة

٢٥٠ ميلاً ، وهي سرعة مسير جيدة جداً ، ماضياً وحاضراً على السواء . وفي نهاية هذا المسير الشاق ، وليلاً كذلك ، تسلل نيرو مع قوته الى معسكر ليفيوس ساليناتور عند نهر سينا . وفور وصوله عقد القنصلان اجتماعاً مستعجلاً للتداول في الموقف والاتفاق على خطة عمل مشتركة . كان ليفيوس يرى أن القوة التي أتى بها نيرو بحاجة الى بعض الوقت للاستراحة من وعثاء السفر ، لكن نيرو لم يكن من هذا الرأي . كان يريد أن يستفيد من عامل المفاجأة قبل أن يعلم الطرف الآخر بقدومه ، ولذا أصر على دخول المعركة فور انتهاء ذلك الليل . وقد أجابه زميله الى ذلك ، واصطف الجيش الروماني عند الصباح بقصد القتال .

كان أسد روبال ، من جانبه، مستعداً للقتال أيضاً ، وقام بدوره باعداد قواته للمعركة . لكن قيل أنه بينما كان يتقدم على ظهر جواده لاستطلاع ترتيبات الرومان ، خيل اليه بأنه يراهم أكثر مما كان يتوقع ، وبأن معدات بعضهم كانت تبدو مغبرة وغير نظيفة ، وكان يلوح على بعض الخيول التعب والانهاك . وقد ارتاب أسد روبال مما رأى ، وبادر فارتد بقواته بعض الشيء الى الوراء ، وأصدر أمره الى قوة من الخيالة بالتقدم لاستطلاع المعسكر الروماني ، وللقيام بمحاولات لالتقاط بعض الأسرى بقصد الاستجواب . وقد عاد الخيالة ليخبروا بأن الأبواق في المعسكر الروماني قد دقت مرتين لا مرة واحدة ، مما يدل فعلاً على وجود قنصلين معاً . وقد كشف هذا الخطأ عن المفاجأة الرومانية المعدة ، ولم يكن ذلك غريباً ، وهو ينسجم تماماً مع التقاليد العسكرية حيث تجري الأمور وفقاً للنصوص ، ولم يطلب أحد من البواق الثاني أن لا يعزف ببوقه ذلك النهار حتى لا تنفضح الأمور . وعلى كل فإن هذا الكشف ، كما سيتبين ، لم يكن له كبير تأثير على النتيجة .

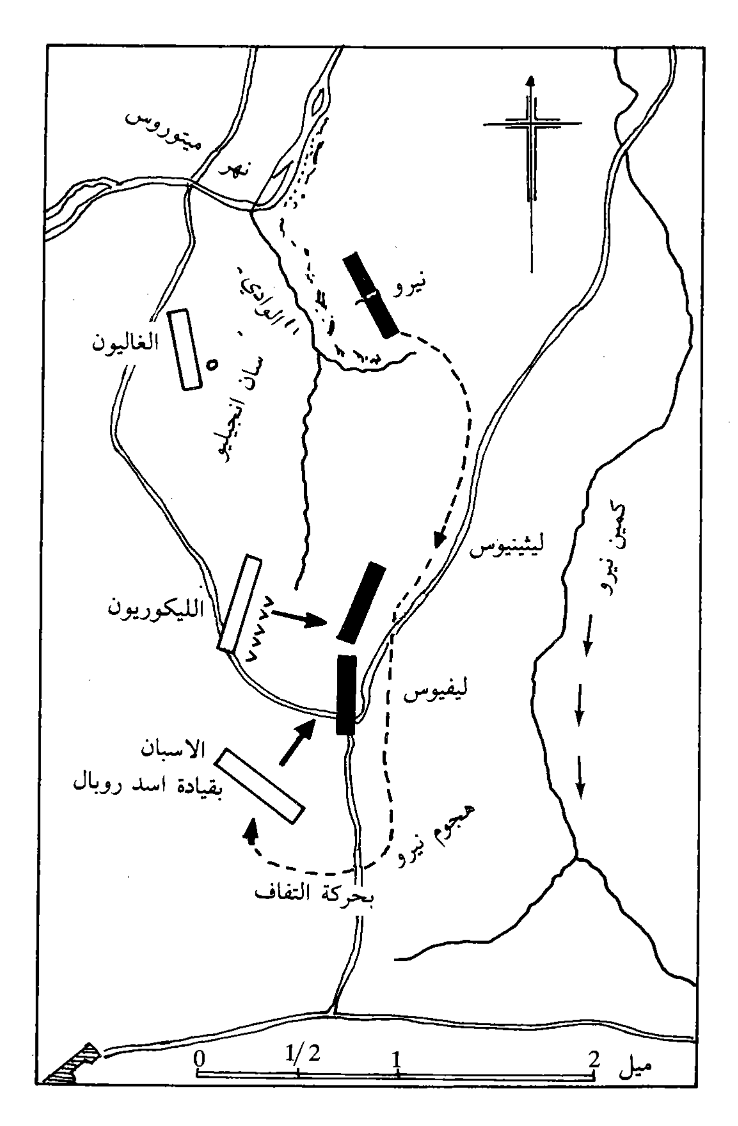
لقد تساءل بعض المؤرخين عن السبب في تردد أسد روبال ، الذي بعد أن كان عازماً على خوض معركة ضد أربعين ألف مقاتل ، عاد فتردد عن مواجهة سبعة آلاف اضافية ؟ ربما كانت هناك عدة أسباب لذلك ؛ فقد كان لا يعرف حقيقة كم كان عدد قوات أسد روبال ، ومن المرجح أن قواه كانت

معادلة للقوى الرومانية قبل مجيء نيرو ، وربما يكون أسد روبال قد ظن بأن نيرو قد جاء بكل جيشه . والأهم من ذلك ماذا كان لوجود نيرو تجاهه من رد فعل في نفسه قلقاً على شقيقه ! . فماذا وقع لهانيبال ؟ هل أصيب بهزيمة ساحقة بحيث استطاع نيرو أن يتحرك بأمان صوب الشمال ؟! . ومن المرجح أن أسد روبال رأى من الأفضل له ، في مثل هذه الحالة من القلق والشكوك ، تجنب المعركة بانتظار جلاء الموقف ومعرفة المزيد من أخبار شقيقه هانيبال ، ومن المحتمل كذلك أنه لم يكن كثير الثقة بنفسه وامكاناته .

معركة ميتوروس

تراجع أسد روبال منسحباً في تلك الليلة ، بسكون تاركاً نيران معسكره مشتعلة ، وانساب مبتعداً عن خصميه بأقصى سرعة . ولكن لسوء حظه غدر به أدلاؤه وتخلوا عنه ، فوقع هو وجيشه في متاهة مسير ليلي ، فأضاع طريقه ، وفشل عند الصباح في العثور على مخاضة لعبور نهر ميتوروس . ويفهم من ذلك أنه كان يتجه غرباً ، وفي نيته عبور جبال الأبنين ، والحركة حول الجيوش الرومانية ، في محاولة لتحقيق التماس مع هانيبال . كان أسد روبال لا يعرف بالتأكيد في أيّ مكان يوجد أخوه ، وهل هو حي أم ميت ، وذلك بتأثير ما تخيله من أحداث أو كوارث نتيجة لالتحـاق نيرو بجيش سالييناتور عند نهر سينا .

وقد أخذ المسير الليلي الفوضوي ضريبته من جيش أسد روبال ، وكان قد قطع ١٣ ميلاً قبل أن يبلغ نهر ميتوروس . كان وراءه رتل طويل من المتأخرين اللاحقين بغير انتظام . وبعد طلوع الفجر بقليل ، أدركته الخيالة الرومانية وأخذت تهاجم مؤخرته . ولما رأى أسد روبال ما حل بجيشه ، وأدرك عجزه عن متابعة الحركة منسحباً دون علم خصومه ، قام عوضاً عن ذلك بمحاولة لاقامة معسكر محصن ، الاّ أنه فشل أيضاً في ذلك ، من جهة لفوضى جيشه وتعب جنوده ، ومن ثم لسرعة المطاردة الرومانية وضراوتها . وقد رأى عندئذ أن لا مفر له من قبول المعركة ، فعمد بناء على ذلك الى التشكل للقتال على أحسن وضع كان بامكانه أن يحققه .



معركة ميتوروس عام ٢٠٧ق م .

يجري نهر ميتوروس ، في منطقة المعركة ، في واد عريض تحده مرتفعات حادة على الجانبين ، وكانت الأرض كلها مشجرة بكثافة . رتب أسد روبال قواته بقصد القتال ، فأسند ميسرته على النهر ، على واد عسير شديد الانحدار . ويظهر أنه كان أثناء تراجعه قد فقد السيطرة على الجنود الغاليين ـ وهذا دليل آخر على أنه لم تكن لديه مقدرة شقيقه هانيبال في ادماج العناصر المتعددة بصورة فاعلة ناجحة ـ كان قسم كبير من هؤلاء الغاليين سكارى

وعاجزين عن أيّ انتشار أو نشاط . ومـن كـان من هؤلاء في حالة تمكنه من المقاتلة ، فقد وضعه أسد روبال على ميسرته، وكانت مستندة على واد منيع كما تقدم. ووضع في الوسط أيضاً بعض الغاليين، وخلفهم فيلته ومشاته الليكوريين ، وغطى ميمنته بجنوده الاسبان ، وكانوا أخلص قواته وأحسنهم تمرساً بأمور القتال . ولم يؤت على ذكر للخيالة في هذا الترتيب ، مما يدل امّا على هروب الخيالة القرطاجية ، وامّا أنها لم تكن قد وصلت بعد الى ميدان القتال .

وعندما ظهر أن القرطاجيين يتشكلون للقتال ، بادر القنصلان الرومانيان بدورهما الى التشكل أيضاً للمعركة ، وتقدما للهجوم . كان نيرو على الميمنة مـع قوات جيشه ، وأقرب ما يكون الى النهر . وكان الوسط الروماني مشغولاً بجيش ليشينوس ، المؤلف من لجيونتين ، واليسار مغطى بجيوش ليفيوس سالييناتور ، وقوامه لجيونتان أيضاً . وكل لجيون كانت في واقع الأمر مكونة من لجيونتين : لجيون رومانية وأخرى حليفة ، وعلى هذا الأساس فان عدد القوات الرومانية كان يبلغ حوالي ٤٧ ألفاً .

افتتح أسد روبال القتال ؛ وكان يخطط لهزيمة ميسرة الرومان ووسطهم قبل أن تستطيع ميمنتهم من التدخل . وقد افتتح الهجوم بفيلته ، وأتبعها بمشاته الليكوريين ، ونشب عراك بدا فيه ، لبعض الوقت ، أن الكفة تميل الى جانب القرطاجيين . وكان نيرو في هذه الأثناء قد وجد أن الأرض أمامه تجعل من المستحيل عليه الامساك بزمام الغاليين ، ولذا عمد عندئذ الى القيام بمناورة بارعة . أخذ فانتقى ألفين من جنوده ، وسار بهم خلف الوسط واليسار الرومانيين ، واندار بهم الى أن صار عند الجناح المكشوف لجنود اسد روبال الاسبانيين فانقض عليهم .

لم يتحمل القرطاجيون الاسبان هذه الصدمة المفاجئة ، وما لبثوا ، بعد صمود قصير ، أن أخذوا يتقهقرون . وقد تحولت المعركة ، منـذ تلك اللحظة ، الى مجزرة ومذبحة ، وطيّ بطيء للصفوف القرطاجية بجنود نيرو . ويظهر أن أسد روبال ، وقد رأى ما حل بميمنته ، بادر فاندفع بنفسه الى أتون

المعركة ليقتل بعد قليل والسيف في يده . لقد عرضه مسيره الليلي ، وغدر الأدلاء ، وحالة جيشه العامة لمثل هذه النهاية . والواقع أن الجيوش القرطاجية الأخرى لم تكن من مستوى الجيش الذي كان بقيادة هانيبال ، ولا كان قادة هذه الجيوش أعلى مستوى من القادة الرومان . وهذا يعني أن كل شيء لدى قرطاجة ، في حربها مع روما ، كان رهناً بشخص هانيبال وبقائه حياً ومالكاً لجميع قواه . والغريب أنه قد سبق لهانيبال أن غدر به الأدلّاء في جبال الألب ، وكذلك وقع الشيء نفسه لأخيه في طريقه الى معركة ميتوروس ! .

لم يضيع نيرو الوقت بعد هذا الانتصار . كان يخاف ويتحسب جداً لما كان من الممكن أن يجري في الجنوب أثناء غيابه ، ولذا فانه لم يسمح لجنوده بسوى سويعات استراحة ، لينطلق بعدها مسرعاً باتجاه الجنوب ، الى مقره الذي كان قد غادره في طريقه الى معركة ميتوروس . وكان هانيبال في هذه الأثناء متوقفاً عند شمال لارينيوم ، وقد راح ضحية لخداع نيرو ، لا يعلم بتغيب هذا الأخير ولا شعر بهذا التغيب . ان أول الأخبار التي بلغته عن كارثة ميتوروس ، كانت عندما قذف برأس شقيقه أسد روبال عند أقدام الحراس القرطاجيون الأماميين ، ليتبعه استعراض للضباط القرطاجيين الأسرى أمام عيون وأنظار أولئك الحراس . كان هذا العمل البربري عادة متبعة لدى القادة الرومانيين ، وذلك خلافاً لما كان عليه سلوك هانيبال مع الضباط والقادة الرومان الذين كانوا يقتلون أو يقعون أسرى بين يديه . وقد رأى هانيبال ، عندئذ ، في عيني أخيه المتقززتين نهاية لأحلامه . لقد تلاشى آخر أمل له بالامداد ، وصار عليه منذ تلك الآونة أن يكون أسير موقف دفاعي ، في ساحة حرب غدت من درجة ثانية .

وفي روما ، بالطبع ، عم السرور والفرح جميع الطبقات . كان الموقف أول تلك السنة يبدو قـاتماً أكثر من أي وقت مضى ، مع هانيبال الذي لا يقهر يمرح حراً في الجنوب، والتهديد الخطير من قبل أخيه القادم من الشمال مع قوات جديدة . أما الآن فقد تلاشى الخطر الأعظم ، ونجح ، للمرة الأولى منذ عشر سنين ، جيش روماني بتحقيق نصر حاسم على أرض رومانية . ولم يكن

من الغريب والحالة هذه أن يقابل القادة المنتصرون باستقبال الظافرين ، وبخاصة نيرو الذي وإن لم يكن حسن المعشر والطباع ، لكنه كان بالتأكيد صاحب مقدرة عسكرية ، وكان الانتصار في ميتوروس نتيجة لعمله وحده .

مناقشة الأحداث السابقة

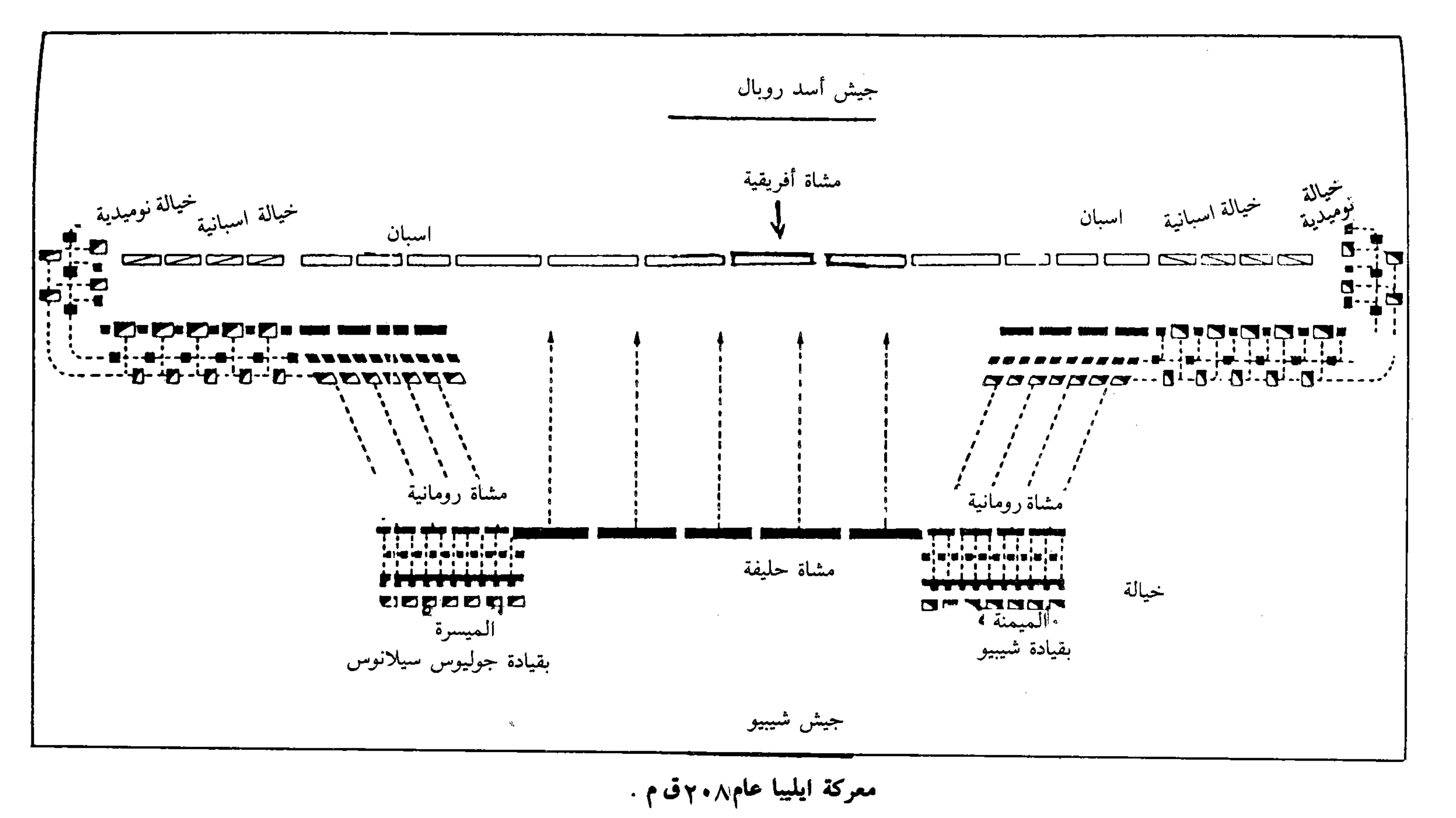
نرى من أحداث الفصل السابق غياباً للقيادة العامة في قرطاجة ، قيادة تسيطر على مجرى الأحداث في كل من اسبانيا وايطاليا . ولا يسع المرء الا أن يتساءل ، بذهول واندهاش ، كيف سمحت دولة عريقة في الملاحة والمحاربات البحرية ، كقرطاجة ، لنفسها أن تهزم بحراً من قبل أناس لم تكن لهم أقل معرفة سابقة بأمور البحر ؟

وقد ظهر من سهولة النجاحات التي حققها شيبيو في اسبانيا ، أن هذا البلد لم يكن قاعدة يصح الاعتماد عليها ، ولا كان القادة الذين تركهم هانيبال فيها على مقدرة عسكرية كافية تجيز لهم أن يتسلموا قيادات كبيرة . ولا يسع المرء الاّ أن يرى في تصرفات هانيبال وأبيه في اسبانيا من قبل ، تصرف مالك في مزرعته ، فيعهد بالقيادات والمناصب الخطيرة على أساس القرابة والنسب .

وظهر كذلك ، بصورة جلية ، أن هانيبال كان الوحيد لدى قرطاجة كقائد ميدان كفء مقتدر ، وفي هذا دليل على أن المؤسسة العسكرية القرطاجية ، براً وبحراً ، وسواء في أفريقيا أو اسبانيا ، لم تكن مؤسسة صالحة لأعباء حرب طويلة من النوع الذي اختاره هانيبال .

كانت روما ، عند دفة القيادة ، موجودة فاعلة في كل وقت ، وكانت قرطاجة غائبة عن هذه الدفة . وكان هانيبال ، كما أشرنا اليه في الفصول السابقة ، ضائعاً في ايطاليا ، يكاد لا يعرف ما يعمل أو يريد ، مسيَّراً بالأحداث لا مسيِّراً لها ، وقد قضى زهاء ١٥ عاماً في ايطاليا ، وانضمت الى جانبه عدة مدن وأقاليم ، ومع ذلك فقد ظل عاجزاً عن أن يشكل من هذه

المكتسبات قوى محلية تكون له عوناً وسنداً في حروبه ، وإنما كانت على العكس عبأ عليه في نواحي الأمن والدفاع . ونراه يحقق في الميدان انتصارات رائعة ، لكن دون أن يستفيد من هذه الانتصارات ويحولها الى مكتسبات ذات أبعاد سياسية واستراتيجية مساعدة له على تحقيق فكرته الأساسية ، أي القضاء على الكونفدرالية الايطالية بزعامة روما ، واستبدالها بكونفدرالية جديدة بزعامة قرطاجة . والسبب في ذلك أن قرطاجة لم تكن أهلاً لهذه الزعامة ، ولا كان من الممكن حمل الايطاليين على القبول بها بغير قوة السلاح ، الأمر الذي عجزت عنه الجيوش المرتزقة وقادة هذه الجيوش ، وذلك رغم الانتصارات الميدانية الأولية الرائعة ، التي حققها هـانيبال في السنتين الأوليتين من مغامرته ، والتي بقيت دون غد .



معركة ايليبا عام ٢٠٨ق م .

الفصل الثالث عشر

شيبيو الافريقي ومعركة زاما

معركة ايليبا ـ قنصلية شيبيو ـ حملة شيبيو الأفريقية ـ معركة أوتيكا ـ
معركة السهول الكبرى ـ ايطاليا في غياب شيبيو ـ معركة زاما ـ مناقشة الأحداث .

OOOOOOOOO

معركة ايليبا عام ٢٠٨ ق م

أمضى شيبيو ، بعد انتصاره في معركة بيكولا ، عامه التالي في اسبانيا بهدوء ، منصرفاً الى تنظيم شؤون قيادته . وقد أوقعت قواته هزيمة بالقائد القرطاجي حانو ، وكان هذا يقوم بمهمة تجنيد . وقد حاول شيبيو أن يستدرج أسد روبال جيسكو الى القتال ، لكنه لم ينجح ، وكان جيسكو قد وزع قواته كحاميات في المدن ، ولم يكن شيبيو مستعداً تلك السنة لعمليات حصار على مستوى كبير .

في السنة التالية ، وكانت أخبار الهزيمة القرطاجية ومقتل أسد روبال برقه قد وصلت الى اسبانيا ، رأى أسد روبال جيسكو عندئذ أن لعبة الانتظار لم تعد هي السياسة الصحيحة . وبناء على ذلك فقد قام مع ماكو برقه بحشد قوات بلغت ٧٠ ألف مشاة و ٤ آلاف خيال ، وتحركا بهذه القوات باتجاه ايليبا ، وهي « الكالا دلريو » اليوم ، على الضفة اليمنى لنهر الوادي الكبير ، على حوالي ٩ أميال من اشبيلية . أما شيبيو ، الذي كان قد حشد قواته في

كاستولو ، فقد تحرك باتجاه خصميه ، نزولاً على ضفاف الوادي الكبير ، مع جيش كان تعداده ٤٥ ألفاً من المشاة و٣ آلاف خيال . وعند وصوله الى ايليبا ، وبينما كانت قواته تقوم بنصب خيامها وبناء معسكرها ، حاولت الخيالة القرطاجية أن تأخذ الرومـان بهجوم مباغت ، الا أنها صدت وردّت على أعقابها ، واقتصر القتال بعدئذ ، ولبضعة أيام ، على اشتباكات بين الخيالة والمشاة الخفيفة لدى الطرفين .

كان القرطاجيون ، كل يوم ، يصطفون وينادون الرومان الى القتال . وكان شيبيو يراقب ترتيبهم بانتباه ، فيرى أنهم كانوا دائماً يضعون الجنود الأفريقيين في الوسط ، والاسبانيين على الأجنحة . وكان عليه أن يجد الحل لمسألتين : كان الخصم يتفوق عليه عدداً بنسبة ٢ الى ١ تقريباً ، ولم يكن ليعتمد كثيراً على جنوده الاسبانيين . وأخيراً وجد الحل المناسب ، وذلك بأن أخذ كل يوم ينشر جيشه بتشكّل مماثل للتشكل القرطاجي ، أي الرومان في الوسط ، والمرتزقة الاسبان على الأجنحة ، مـع استمراره على رفض خوض المعركة . وفي اليوم الذي اختاره موعداً للقتال ، فانه لم ينظم قواته للقتال منذ وقت مبكر فحسب ، بل عمد وأجرى تعديلاً على تشكّله ، فوضع المرتزقة الاسبان في الوسط ، والرومان على الأجنحة ، ثم أخذ يتقدم باتجاه الجيش القرطاجي .

كان أسد روبال جيسكو يقود القرطاجيين في تلك المعركة . ولما رأى أن الرومان شرعوا في التقدم بقصد القتال ، وقد فوجىء بحركتهم المبكرة ، بادر الى ترتيب قواته بسرعة ، دون أن يتوفر له وقت لاجراء تعديل على تشكله كما فعل شيبيو ، وكان أن اصطدم الجيشان والقوى المساعدة ، الضعيفة القيمة في كل جيش ، تجابه القوى القوية المتمرسة لدى كل طرف .

بدأ القتال ، كالعادة ، بالخيالة والمشاة الخفيفة ، وبقيت بقية القوات في أماكنها لدى الفريقين ، لبعض الوقت . وبعد مدة من المحاربة على هذا النحو ، أمر شيبيو مشاته الخفيفة بالقيام بحركة تراجع الى الوراء ، من خلال فتحات خطوطه الرئيسية ، على أن تعود الى التحشد في المؤخرة . ولكي

يغطي هذه الحركة ، أصدر الأمر الى النسق الرئيسي بالتقدم ، لا ليقوم بهجوم جبهوي مباشر كما خيل لاسد روبال جيسكو ، وإنما ليقوم الوسط الروماني المكون من المرتزقة الاسبان ، بالتقدم أماماً بخطى بطيئة ، بينما أخذ الرومان ، على كلا الجناحين ، يتحركون يميناً ويساراً ، أي على الأجنحة ، الى أن صارت رؤوس أرتالهم مقابلة لأقصى النقاط في أجنحة القرطاجيين ، وكانت هذه الأجنحة ، في بادىء الأمر ، تفيض يميناً ويساراً عن أجنحة الرومان . ولما تم لشيبيو ذلك ، أمر الأرتال الرومانية فاندارت على ذاتها وتوجهت نحو الخطوط القرطاجية ، الى أن صارت على مسافة قريبة ، فاتخذت حالئذ تشكل القتال ، في حين عمدت الخيالة والمشاة الخفيفة ، وكانت تماشي هذه الحركة خلفاً ، الى احتلال مكان لها على الأجنحة الخارجية ، بحيث صار باستطاعتها الالتفاف حول الأجنحة القرطاجية .

كانت هذه الحركة مناورة جريئة ، دالة ليس فقط على مهارة شيبيو التكتيكية ، بل وأيضاً على درجة متقدمة في اعداد قواته ، وقد قامت هذه القوات بتنفيذ الحركة كما لو كانت في ميدان التدريب على النظام المنضم . لقد أعاد شيبيو ، بتلك المناورة البارعة ، تمثيلاً لمناورة هانيبال في موقعة « كانه » ، لكن بطريقة معكوسة ، بوسائط مختلفة ، ودون أن يعرض موقعه لأي خطر . وعلى افتراض أنه هوجم أثناء هذه الحركة من قبل الأفريقيين في الوسط القرطاجي ، فقد كان باستطاعة أرتاله الجانبية أن تنتشر للقتال حالاً ، وأن تهاجم الأفريقيين وربما بنتائج مدمرة .

ثم حصل تماس المشاة الرومانية الخفيفة ، على جناحي شيبيو ، مع الفيلة القرطاجية ، وكانت هذه قد حرّكت الى أقصى الأجنحة في محاولة لمعاكسة حركة الالتفاف الرومانية . وكان لقذائف هذه المشاة الرومانية الخفيفة وأسلحتها نتائج ناجحة ضد الفيلة ، فارتدت هذه على أعقابها تدوس وتدهس خيالة ومشاة ، وتحدث في صفوف أصحابها الذعر والفوضى . وقد انقض الرومان عندئذ على الاسبان القرطاجيين في كلا الجناحين ، فقاوم هؤلاء في أول الأمر مقاومة عنيفة ، الا أنهم ما لبثوا أن أخذوا يتراجعون متقهقرين للجوء

الى المعسكر القرطاجي . وكان الوسط القرطاجي الأفريقي ، في هذه الأثناء ، واقفاً ساكناً في مكانه ، غير قادر على الاندفاع قدماً خوفاً من التطويق ، ولا على التحول على مجانبه . وكان من المتوقع أن يرتد شيبيو على هذا الوسط لتدميره بعد أن تقهقر الاسبان ، لكن حدث في تلك الفترة أن وقعت عاصفة عنيفة فحالت دون متابعة القتال ، وانسحب كل طرف الى معسكره .

كان في نية أسد روبال جيسكو أن يعود الى القتال في اليوم التالي ، الآ أن القسم الأعظم من قواته الاسبانية ، وقد اعتقدت أنها قد تركت في اليوم السابق لحمل وطيس المعركة لوحدها دون مساعدة ، أخذت أثناء الليل تفر بأعداد كبيرة . ونتيجة لذلك فقد عزم أسد روبال أن ينسحب باتجاه قادس ، وعمد فتحرك بدوره ليلاً ، فوْر أن اكتشف هروب الاسبانيين . غير أن شيبيو كان حذراً يقظاً ، وربما كان له اصبع في هروب الاسبانيين ، فأسرع بمسير شاق الى الامساك بالمخاضات على نهر الوادي الكبير ، وذلك قبل أن يصل القرطاجيون . وكان لذلك أن اضطر أسد روبال جيسكو الى العدول عن عبور النهر ، والى تغيير وجهته ومتابعة الحركة على ضفة النهر اليمنى ، لكن شيبيو طارده بشدة وضراوة، وأرغمه على التوقف والقتال. ونشبت المعركة التالية، فمني فيها القرطاجيون بهزيمة تامة ، ولم ينج من قواتهم سوى ستة آلاف ، لكن لمدة قصيرة ، فقد طوردوا بدورهم وانتهوا فوقعوا في أسر المنتصرين جميعاً . الا أن أسد روبال جيسكو استطاع الافلات مع ماكو برقه وقائد النوميديين ، ونجحوا في بلوغ مدينة قادس . وقد قررت معركة ايليبا هذه ونتائجها مصير الأمبراطورية القرطاجية في اسبانيا الى غير رجعة .

كان شيبيو يفكر منذ بعض الوقت بنقل الحرب الى أفريقيا ، الآ أنه كان يرى أنه لا بد له من الحصول على حلفاء في نوميديا قبل أن يتخذ أية خطوة في هذا الصدد . وقد قام ، بعد زمن قصير من معركة ايليبا ، وبناء على اقتراح من ملك نوميديا ، سيفاكس ، الذي كان قد أقام علاقات مع القائد الروماني ، بالابحار شخصياً الى أفريقيا ، ليعقد عدة اجتماعات مع الملك النوميدي ،

وقد أدت هذه الاجتماعات كما يبدو الى نوع من المعاهدة الرسمية . لا يعرف شيء عما جرى بين القائدين ، ولكن أغلب الظن أن سيفاكس كان يناور ، مستعملاً شيبيو كورقة ضغط للحصول على تنازلات من قرطاجة . ومما يؤيد هذا الظن ، كما سنرى فيما بعد ، أن سيفاكس لم يكن هو الذي دق المسمار الأخير في نعش قرطاجة ، وإنما كان قريبه وخصمه الأمير مازينيسا الذي فعل ذلك .

عاد شيبيو من أفريقيا الى اسبانيا ليجد أن الأمور لم تكن في غيابه كما كان يرغب لها أن تكون . فقد ساءت الأمور أثناء غيابه القصير ، وثارت القبائل الداخلية فجأة ، فاضطر لذلك الى القيام بعدة حملات تأديبية ، وتطلب الأمر كذلك أن يضع نهاية لعصيان قام بين جنوده أنفسهم ، وقد صرف في سبيل ذلك مدة ستة أشهر ، استطاع بعدها أن يعيد الهدوء الى اسبانيا ، وأن يستولي على آخر معقل للقرطاجيين في قادس ، وهكذا أمكنه أن يعود الى ايطاليا مرتاح البال ، مطمئناً الى أنه ترك اسبانيا في تمام الهدوء والاستقرار .

عودة شيبيو الى روما وانتخابه قنصلاً

انتخب شيبيو ، بعد عودته من اسبانيا ، قنصلاً عام ٢٠٥ ق م ، وانتخب ليشينوس لمنصب القنصل الآخر . وعمد شيبيو ، بعد انتخابه ، فقدم الى مجلس الشيوخ خطة كاملة لانهاء الحرب مع قرطاجة ، خطة كانت تبدأ بغزو أفريقيا ابتداء من صقلية . قوبلت هذه الخطة بمعارضة شديدة في مجلس الشيوخ ، وكان على رأس المعارضة فابيوس مكسيموس ، الذي كان يطالب ، بدلاً عن ذلك ، باعطاء شيبيو قيادة حملة ضد هانيبال ، للتخلص من خطر القائد القرطاجي لمرة أخيرة وحاسمة . كانت اعتراضات فابيوس سليمة ؛ فقد كان هانيبال ، رغم خسارته لكثير من الأراضي والقوات ، لا زال طليقاً في بروتيوم ، وكان شقيقه ماكو قد نزل لتوه في ليكوريا مع بضعة عشر ألفاً من المقاتلين ، مما دعا الى ارسال حملة على وجه السرعة بقصد احتوائه . كان فابيوس يرى وجوب ارسال أحسن القادة الرومان ، أي شيبيو ، لمواجهة

هانيبال ، عوضاً عن السعي وراء مشروع أحمق ، على زعمه ، ولا نتيجة من ورائه . وقد رد شيبيو مؤكداً بأنه بغزوه لأفريقيا فانه سيضطر هانيبال الى الاسراع وراءه ، ذلك لأن الوضع القرطاجي في أفريقيا ضعيف الى حد كبير ، ولأن شيبيو واثق من أن بعض حلفاء قرطاجة الأفريقيين سيتخلون عنها حال نزوله على البر الأفريقي . لقد كان لشيبيو سببان خلف استراتيجيته : السبب الأول اعتقاده بأفضلية التقرب غير المباشر ، والهجوم على أضعف نقطة لدى الخصم لا على أقواها ، كما حدث معه في معركة ايليبا . والسبب الثاني أنه ربما كان يخشى من أن يؤدي اخراج هانيبال من ايطاليا الى مجرد صلح تسوية بين الفريقين المتحاربين ، نظراً لحالة الانهاك التي كانت تعانيها روما ، واعتقاده بأن غزواً ناجحاً لأفريقيا يضع روما في موضع من يملي شروط الصلح كما يريد .

وأخيراً وافق مجلس الشيوخ على خطة شيبيو ، وأقر مبدأ غزو أفريقيا ، وقد وضع تحت تصرف شيبيو لذلك حوالي أربع لجيونات عسكرية رومانية ، وكان هذا أقصى ما يمكن تخصيصه للغزو بالنسبة للظروف القائمة آنذاك في ايطاليا : احتواء هانيبال ، حملة الى اليونان ، والحاميات في المدن ، ولا يعلم شيء عما إذا كان شيبيو قد أبدى شيئاً من الشك في قدرته على القيام بالغزو بواسطة تلك القوة القليلة التي وضعت تحت تصرفه .

توجه شيبيو الى صقلية ، مستهلاً بهذه الحركة مهمته الجديدة ، ورأى ، حال وصوله الى الجزيرة ، أن هناك أشياء كثيرة يقتضي عملها قبل أن يستطيع الابحار الى أفريقيا . وكانت القوات التي وضعت تحت تصرفه في أشد الحاجة الى التنظيم والتدريب . ورغماً عن إلحاحية مهمته ، فانه صرف النظر عن القيام بالغزو تلك السنة ، واكتفى بتوجيه مساعده لائيليوس، مع بعض السفن ، للقيام بغارة على الساحل الأفريقي القرطاجي . وقد قام لائيليوس بهذا العمل بنجاح كبير ، وتمكن فوق ذلك من تحقيق اتصال مع الأمير النوميدي مازينيسا .

كانت نوميديا مقسومة الى منطقتين رئيسيتين : منطقة يحكمها الملك

سيفاكس ، الذي كان قد عقد اجتماعات مع شيبيو كما سبق القول ، ومنطقة ثانية تخضع اسمياً لسيفاكس ، لكنها كانت تحكم فعلاً بـ «كالا» والد مازينيسا . كان هذا الأخير يحارب مع أسد روبال جيسكو في اسبانيا . وبعد سقوط قادس وخسارة اسبانيا كلها ، رجع مازينيسا الى موطنه ، ليجد أن أباه قد توفي ، وأن حقه بالوراثة قد أهمل بسبب بعض الاشكالات القانونية . وقد بادر فجند لنفسه جيشاً استولى به على المنطقة التي كان يحكمها أبوه ، لكن الملك سيفاكس قام للحال فهاجمه وأخرجه من المنطقة بالقوة . وقد حمل سيفاكس على محاربة مازينيسا بتحريض وضغط من أسد روبال جيسكو ، الذي كان يشك في ولاء الأمير الثائر لقرطاجة ويعتقد أنه قد ألقى بمصيره في أحضان الرومان ، وكان جيسكو مصيباً في هذا الاعتقاد .

وقد قام مازينيسا فيما بعد بمحاولتين أخريتين لاستعادة امارته ، وقد فشلت كلا المحاولتان لتفوق قوات مخاصميه ، لكنه بقي في الميدان رغم ذلك ، غير راضخ ولا مستسلم ، وعلى رأس قوة محاربة ذات شأن ، منتظراً أن يعود الى القتال عند قدوم شيبيو ، وكان هناك اتفاق بينهما بهذا المعنى . ويكفي هذا الواقع المتمثل في استطاعة مازينيسا على تجنيد عدد كبير من الأنصار ، بعد هزيمتين متتاليتين ، للدلالة على أنه كان شخصية قوية لها خطرها وسحرها ، وأنه سيكون نصيراً قوياً للقضية الرومانية .

الحملة الأفريقية

انتهت قنصلية شيبيو عام ٢٠٤ ق م ، غير أنه بقي قائداً للحملة الأفريقية ، ويعتقد أنه أبحر الى أفريقيا في شهر حزيران من تلك السنة ، وقد قدرت هذه الحملة بحوالي ٢٨٠٠٠ مقاتل ، وجرى نقلها في ٤٠٠ سفينة نقل ، وحراسة ٤٠ سفينة حربية ، وكان ذلك مجازفة كبيرة . فقد كان من المحتمل جداً ، لعمارة بحرية من ٤٠ سفينة مثقلة ب ٤٠٠ سفينة نقل ، أن تتعرض الى أخطار جمة فيما لو أمكن اعتراضها من جانب البحرية القرطاجية ، الّا أن شيبيو قد حسب لمجازفته بصورة دقيقة ، فقد أبحر من ليليبائوم الى رأس

فارينا ، دون أن يعترضه أي حادث أثناء الطريق . وقد نزل هذا الجيش في فارينا ، وتحرك الى الداخل مسافة قصيرة ، ليتمركز على سلسلة من التلال ، في حين مضى الأسطول ليستطلع مدينة أوتيكا ، وتقع على مسافة ٢٠ كيلومتراً الى الجنوب ، وكانت الهدف الأول للحملة .

العمليات الحربية

وقع أول اشتباك ، عندما هوجمت المحطات الرومانية الأمامية ، من قبل قوة من ٥٠٠ خيال قرطاجي ، بقيادة ضابط يدعى حانو. وسريعاً ما هزمت هذه القوة القرطاجية بعد أن قتل قائدها ، وعمد شيبيو بعدئذ الى نهب الجوار والاستيلاء على المدن المفتوحة ، وأرسل ما جمعه من الغنائم والمنهوبات على ظهر السفن العائدة في طريقها الى صقلية ، كدليل عملي على النجاح . وقد التحق مازينيسا بالرومان عند هذه الآونة ، جالباً معه قوة من الخيالة يختلف المؤرخون في تعدادها ، مكتفين بالقول بأنها كانت ما بين ٢٠٠ و ٢٠٠٠ خيال .

وحدث بعد ذلك اشتباك ثان مع الخيالة القرطاجية ، بقوة من حوالي ٢٠٠٠ خيال ، وبقيادة حانو آخر . وقد غرر بهذه الخيالة ، فاستدرجت الى كمين أعده مازينيسا ، الذي استعمل تكتيك النوميديين المعتاد ، وهو التظاهر بالتراجع القسري حتى مكان أمكن منه للخيالة الرومانية أن تهاجم القرطاجيين من الجانبين . المهم في الأمر أن شيبيو استطاع أن يضع حداً لأعمال جميع قوى الخيالة القرطاجية التي كانت موجودة في جوار المنطقة التي نزل فيها ، موفراً لنفسه هكذا حرية في الحركة والمناورة ، ثم قام بغارة الى الداخل استمرت أسبوعاً ، عاد منها مثقلاً بأسلاب وغنائم أخرى أرسلها أيضاً الى صقلية ، بواسطة السفن التي رجعت اليه محملة بالمؤن والعتاد ، ومن ثم تحرك لوضع الحصار على أوتيكا .

بعد حصار ٤٠ يوماً دون نتيجة ، جاءت الأخبار الى شيبيو بمسير جيشين

الى مواجهته ، جيش بقيادة أسد روبال جيسكو ، وجيش بقيادة الملك النوميدي سيفاكس ، فما كان من شيبيو الاّ أن تخلى عن حصار أوتيكا ، وانسحب بقواته الى معسكر شتوي محصّن كان قد أقامه شرق هذه المدينة ، في شبه جزيرة منيعة .

لم يحقق شيبيو لتاريخه شيئاً كثيراً من وعوده لروما . ان النجاحات التي كان قد أحرزها حتى تلك الآونة لم تكن من المستوى الذي كان ينتظر منه بلوغه من وراء حملته الى أفريقيا ، الاّ أن رصيده في روما كان من القوة بحيث أقر مجلس الشيوخ بقاءه على رأس قيادته لسنة أخرى . كان شيبيو في خلال ذلك يمضي الشتاء في مفاوضات مع سيفاكس ، محاولاً كما يظن حمل هذا الأخير على التحول بولائه الى روما . وربما كان يتخذ من هذه المفاوضات واسطة للحصول على معلومات وافية عن حجم وترتيبات القوات القرطاجية حتى يستفيد منها عند العود الى القتال في الربيع القادم . وقد سوعد على اجراء هذه المفاوضات بواقع أن الجيشين القرطاجيين كانا بعيدين عن بعضهما بفاصل من ٤ كيلومترات ، ويبعدان عن المعسكر الروماني حوالي ٩ كيلومترات . وكان سيفاكس حليفاً للقرطاجيين ، وزوجاً لابنة القائد القرطاجي أسد روبال جيسكو .

معركة أوتيكا

لجأ شيبيو الى الحيلة والخداع تحقيقاً لغاياته . والحرب كانت ولا تزال خدعة ؛ فقد حمل كلا من سيفاكس وأسد روبال جيسكو على الاعتقاد باستعداده لقبول صلح على أساس انسحابه من أفريقيا ، مقابل انسحاب القرطاجيين من ايطاليا . وبينما كان يغرر بهذين القائدين ، وينال من سهرهما ويقظتهما بالوعود والكلام المعسول ، اذ به يقوم بهجوم ليلي على معسكرهما ويأخذهما على غرة . وقد نجح هذا الهجوم ، فأحرق الرومان معسكر النوميديين ، وقام هؤلاء من نومهم وهم يعتقدون أن النار قد اشتعلت في أكواخهم التي كانت من عشب وقش كحادث عرضي ، فانصرفوا الى اطفاء

الحرائق وهم نصف عراة ، وأخذ الرومان يفتكون بهم وهم لا يستطيعون دفاعاً ، أو يحترقون بالنار داخل أكواخهم المشتعلة . وفي المعسكر القرطاجي ، وقد ظن القرطاجيون أن النار قد شبت كحادث عرضي ، فاندفعوا على غير هدى الى مساعدة حلفائهم ، ليقعوا في الكمائن الرومانية وهم في طريقهم الى ذلك . وكانت النتيجة أن كلا الجيشين القرطاجيين اضطرا ، بفعل الخسائر التي لحقت بهما من جراء ذلك ، الى الخروج من الساحة والابتعاد عنها ، تاركين شيبيو حراً طليقاً ليعود الى حصار أوتيكا .

معركة السهول الكبرى

تمكن الملك النوميدي ، سيفاكس ، بعد مدة ، من تجنيد ٤ آلاف من المرتزقة . وقد توصل مع أسد روبال جيسكو ، في نهاية نيسان ، الى حشد جيش بلغ تعداده حوالي ٣٠ ألفاً ، في محلة كانت تدعى « السهول الكبرى » ، وتعرف اليوم بسوق الكرمس كما يظن ، قرب نهر بقراده ، على بعد حوالي ١٢٠ كيلومتراً من أوتيكا . وعندما عرف شيبيو بمكان وجود هذه القوة ومكانها ، بادر فترك نصف مشاته في حصار أوتيكا ، وتحرك مع باقي جيشه جنوباً. وكان هذا الباقي يعدّ حوالي ٢٠ ألفاً بما في ذلك خيالة مازينيسا التي تضخم عددها نتيجة لهزيمة سيفاكس . كانت هذه القوة الرومانية أقل عدداً من قوات الخصم ، لكنها كانت تتفوق بالنوعية وبعدد الخيالة النوميدية .

بعد مسيرة ٥ أيام، وصل شيبيو الى حيث يعسكر القرطاجيون . بدأ القتال باشتباكات خفيفة بين الطرفين استمرت ٣ أيام ، ووقعت المعركة الفاصلة في اليوم الرابع . كان سيفاكس وأسد روبال قد رتبا قواتهما المشتركة على النحو التالي : الخيالة القرطاجية على الميمنة ، المشاة القرطاجية فالمرتزقة السيلترية فالمشاه النوميدية في الوسط ، فمشاة نوميدية وخيالة نوميدية على الميسرة . أما شيبيو فقد وضع خيالة مازينيسا على ميسرته ، والخيالة الايطالية بقيادة لائيليوس على ميمنته ، ووضع المشاة الرومانية في الوسط وعلى جناحيها المشاة الايطالية الحليفة .

في هذه المعركة ، كان تكتيك شيبيو شبيهاً الى حد ما بتكتيكه في معركة ايليبا ، بحيث أنه قد احتفظ ، مبدئياً ، بوسطه متأخراً بعض الشيء الى الوراء ، بينما استهل الهجوم بخيالة ومشاة المجنبتين . قامت الخيالة الرومانية بالهجوم أولاً ، لتهزم الخيالة القرطاجية بسرعة ، وتدور من ثم على جانبها داخلياً ، في اللحظة التي اشتبكت فيها المشاة الرومانية الحليفة مع مشاة الخصم . وقد تراجعت المشاة القرطاجية سريعاً ، وفي نفس الوقت اشتبكت المشاة الرومانية في الوسط مع المرتزقة السلتيبريانيين ، وكانت أجنحة هؤلاء قد أصبحت مكشوفة بسبب تراجع الخيالة والمشاة القرطاجية والنوميدية . وقد اغتنمت المشاة الرومانية هذه الفرصة ، فقامت عناصرها في الخط الثاني والخط الثالث بالدوران حول المرتزقة لمهاجمتهم على جانبيهم أيضاً . وقد أبيد هؤلاء المرتزقة حتى آخر رجل ، بعد أن قاتلوا قتال اليائس المستميت . استطاع قسم من القوات القرطاجية الفرار والنجاة ، لأنه لم يثبت ولم يقاتل كما ينبغي ، وراح الباقي بين قتيل وأسير . وقد كان لهذه الهزيمة القرطاجية الجديدة صدى مفجع حطم الأعصاب ووزع اليأس وعدم الثقة بين القرطاجيين وحلفائهم ، وترك شيبيو مسيطراً على الداخل القرطاجي بصورة تامة .

حل الذعر الكامل في قرطاجة نفسها بعد معركة السهول الكبرى ، وكانت كعادتها تنقاد بالأحداث ، ولا تعرف كيف تستلم زمام الموقف . لم تفكر باستعمال أسطولها لفك الحصار عن أوتيكة الاّ بعد ان فات الأوان ، بعد ان لم يعد يجدي ذلك التفكير شيئاً . وكان شيبيو ، بعد معركة السهول الكبرى ، قد زحف باتجاه قرطاجة ، مستولياً في طريقه على بلدة رونيس ، الاّ انّه اضطر للرجوع على أعقابه على عجل الى مكانه عند أوتيكة ، عندما بلغه خبر تحرك الاسطول القرطاجي لرفع الحصار عن هذه المدينة الساحلية ، التي كان ينوي ان يجعل منها قاعدة بحرية لعملياته في أفريقيا .

لم تكن السفن البحرية الرومانية بحالة تسمح لها بخوض معركة بحرية بصورة طبيعية ، نظراً لأنها كانت مثقلة ومعوقة بحمولتها من أعتدة الحصار الثقيلة ، وكان لذلك ان حشد شيبيو جميع سفنه في كتلة ، السفن الحربية في

الوسط ، وسفن النقل خارجاً على الأطراف ، وأشغل هذه السفن بنخبة من المقاتلين الأشداء . جاء الأسطول القرطاجي ، ليقف في بادىء الأمر خارج أوتيكة ، منتظراً قدوم السفن الرومانية وخروجها من معقلها لقتاله . واضطر القرطاجيون آخر الأمر إلى مهاجمة السفن الرومانية في مراسيها . وقد وقعت معركة بحرية بين الطرفين كانت نتائجها غير حاسمة . لكن القرطاجيين ادعوا بأنهم انتصروا ، على أساس انهم استولوا على ٦٠ سفينة نقل رومانية . ولكن بما أنهم قد غادروا الساحة عقبئذ عائدين الى قرطاجة ، تاركين أوتيكة لحصار الرومان ، كما كان الأمر من قبل ، فإن هذا الادعاء يعتبر باطلاً ، وتعتبر المعركة ، من الناحية الاستراتيجية ، نصراً لروما . ولا يسع المرء إلّا ان يقف مشدوهاً أمام هذا السلوك القرطاجي ، الذي هو أشبه ما يكون بعبث الأطفال وتصرف الأغبياء والمعتوهين ، منه بأعمال مقاتلين وقادة مسؤولين ، هذا ان لم نقل بأنه أقرب الى أعمال الخونة المارقين . إنّ أسطولاً بحرياً قوياً يرسل لفك الحصار عن قاعدة بحرية هامة وأساسية بالنسبة للعدو ، فيشتبك في معركة له فيها التفوق والغلبة ، ثم يتخلى عن القتال ويعود أدراجه مكتفياً بالفتات ، دون ان ينجز المهمة التي تحرك من أجلها ، وتاركاً قاعدته البحرية الهامة تحت رحمة الخصم ، وكان بإمكانه ان ينقذها ويوقع بالخصم هزيمة بحرية تكون لها عواقب مصيرية على مجرى الحرب ومستقبل قرطاجة بالذات ، ان مثل هذا الاسطول لا يمكن ان يكون الاّ مرآة لقيادة عاجزة فاسدة ، ودولة خربة ، وشعب على فراش النزاع ! .

وقد حصل في هذه الأثناء ، في مكان آخر من الساحة ، انتصار روماني لا يقل خطراً وعقبى عما حدث بحراً عند أوتيكة. فبينما كان شيبيو مع قواته الرئيسية عائداً الى الساحل بعد معركة السهول الكبرى ، كان مازينيسا ولائيليوس ، مع كافة خيالتهما ، يندفعان إلى مطاردة سيفاكس الى داخل نوميديا . وقد التحقت قبيلة مازينيسا بأميرها للحال ، ونشبت معركة هزم فيها سيفاكس ، ووقع أسيراً في يد خصمه . نودي بعدئذ بمازينيسا ملكاً على كل نوميديا،وبهذا أصبحت جميع الخيالة النوميدية الممتازة حليفة لروما عوضاً عن

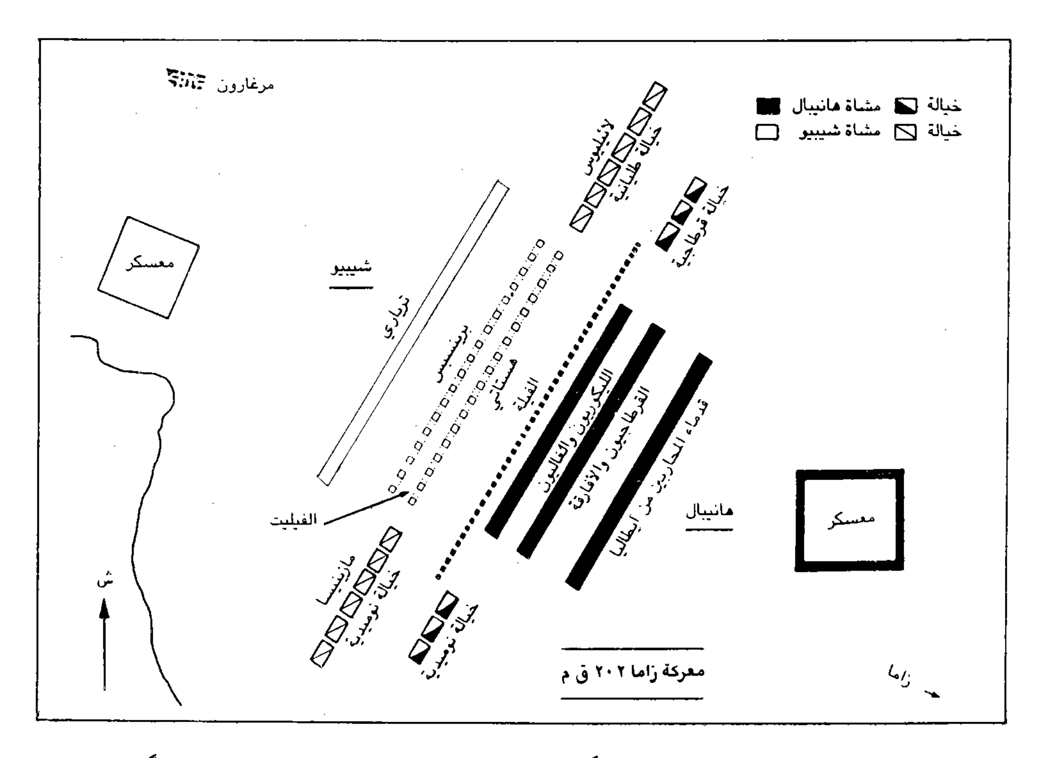
قرطاجة ، وصار شيبيو منذئذ واثقاً من حصوله على التفوق في الخيالة ، في أية معركة قد تنشب ويكون فيها للخيالة تأثير كبير .

كانت هزيمة سيفاكس النهائية بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير ، فقد سارعت قرطاجة بارسال أمر إلى هانيبال وأخيه ماكو بمغادرة ايطاليا والعودة إلى أفريقيا على وجه السرعة ، ثم عمدت في الوقت ذاته فأرسلت وفداً من ٣٠ وجيهاً للتفاوض مع شيبيو على الصلح . وضع شيبيو منذ أول الأمر شروطاً قاسية ، وقد قبل بها القرطاجيون بعد محاولات لم تفلح لتخفيفها ، وكانت كما يلي : الانسحاب القرطاجي من ايطاليا واسبانيا وجزر البحر الأبيض المتوسط ، تسليم جميع الأسرى والفارين ، تسليم جميع السفن الحربية ما عدا (٢٠) ، تسليم كمية ضخمة من المؤن ، ودفع غرامة حربية باهظة . حمل مبعوثو شيبيو هذه المعاهدة القاسية وسافروا الى روما للتصديق عليها . وصادف مع وصول هؤلاء الى العاصمة الرومانية ان كان جيشا قرطاجة يغادران الأراضي الايطالية مبحرين في طريقهما الى أفريقيا . وهناك اختلاف كبير بين المؤرخين حول ما اذا كان مجلس شيوخ روما قد صادق على المعاهدة التي حملت اليه من أفريقيا للموافقة عليها .

الأمور في ايطاليا في غياب شيبيو

كان ماكو قد نزل مع جيش في ليكوريا . وقد أقام في هذه المنطقة مدة يقوم بتجنيد محلي ، ومن ثم شرع يتوغل صاعداً الى الداخل . وفي سياق هذا التوغل ، هاجمه الرومان وحطموا جيشه ، لكنه استطاع ان ينسحب مع قسم من هذا الجيش ، ويعود أدراجه باتجاه الساحل . وهنا تبلّغ أمر قرطاجة بالعودة الى افريقيا ، فأبحر على الفور مع ما كان قد بقي من قواته ، وكان على ما يبدو جريحاً ، وقد ساءت حالته أثناء الابحار ، وما لبث ان توفي متأثراً بجراحه .

وكان هانيبال في هذه الأثناء محصوراً في منطقة بروتيوم . وقد اشتبك عام ٢٠٤ق م في معركة مع القنصل سمبرونيوس توديتانوس ، وكانت كفته في المعركة راجحة أول الأمر ، لكنه اضطر بالتالي الى الانفكاك عن القتال وغادر



الساحة عندما تلقى الرومان مدداً ، وصاروا من جراء ذلك متفوقين عدداً على هانيبال الى مستوى لم يكن باستطاعته مواجهته ، ثم اضطر آخر الأمر الى مغادرة ايطاليا بدوره عند تلقيه لأمر قرطاجة بذلك ، آخذاً معه كل من أراد ان يرافقه من عناصر جيشه غير القرطاجية ، وكانت قلة ، وقد فضل معظم المجندين في جيشه من الايطاليين البقاء في أوطانهم .

عودة الى أفريقيا

يكتنف الغموض والابهام ما جرى من أحداث بعد خروج هانيبال من ايطاليا . وكانت قافلة رومانية مؤلَفة من ٢٠٠ سفينة نقل ، بحراسة ٣٠ سفينة حربية ، قد تعرضت الى عاصفة ، فانفرط عقدها وراحت كل سفينة منها في اتجاه . واستطاعت السفن الحربية ان تبلغ الساحل القرطاجي عند رأس فارينا ازاء أوتيكة . أما سفن النقل ، وكانت تسير فقط بالشراع ودون مجاديف ، فقد دفعتها أمواج البحر الى الساحل الغربي من رأس بون، على مرأى من أهالي

قرطاجة . ومن المحتمل ان المدينة كانت تعاني الضيق ونقصاً في الطعام ، من جراء ما كانت تبعث به الى شيبيو من المقادير الضخمة من المؤ ن والمواد الغذائية وفقاً لاتفاقية الصلح . وقد حملت هذه المعاناة حكام قرطاجة على ارسال أسد روبال جيسكو ، مع خمسين سفينة حربية ، لتجميع السفن الرومانية المنكوبة والاستيلاء عليها ، وكان هذا العمل بحد ذاته هو الحمق بعينه ، لكن ما تلى ذلك كان أسوأ وأشد حمقاً . كان رد شيبيو في أول الأمر معتدلاً ؛ فقد أرسل مبعوثين الى قرطاجة لتذكير حكامها بأن مجلس شيوخ روما قد صادق على معاهدة الصلح ، وليعبر لهم في الوقت نفسه عن دهشته واستغرابه للعمل الذي قام به أسد روبال ، والذي كان بمثابة عمل حربي لا أكثر ولا أقل . كان الباب حالئذ مفتوحاً أمام قرطاجة لتعتذر وتقدم ترضية لائقة وتصون اتفاقية السلام ، غير انها فعلت عكس ذلك تماماً ؛ فقد ردت مبعوثي شيبيو بازدراء . وبينما كان هؤلاء عائدين الى مقر قيادتهم بطريق البحر ، تعرضت سفينتهم الى هجوم من قبل السفن الحربية القرطاجية وأصيبت بأضرار وخسائر جسيمة . وقد زعم بعضهم ان هذا التصرف تم بايحاء من هانيبال ، كمحاولة للابقاء على حالة الحرب ، او لربما كان ذلك بضغط من حزب الحرب في قرطاجة ، الذي كان قد دعم هانيبال في حملته الى ايطاليا ، والذي فشل بصورة مخزية في اعالة هذه الحملة بالمؤ ن والرجال . ربما ظن هذا الحزب الآن وقد عاد هانيبال الى أفريقيا ، بأن الموقف سينقلب ويتعدل الوضع لصالح قرطاجة . وقد يكون القرطاجيون قد اتخذوا من محادثات الصلح سبيلاً الى اكتساب الوقت حتى عودة هانيبال ، او ان عودته كانت وحدها كافية لحفز أولئك الأقطاب المتهورين على ما أقدموا عليه ، ومهما كان السبب فقد حكم بالموت على قرطاجة .

معركة زاما

عاد شيبيو الى الحرب ، بادئاً عملياته بالسير صعداً في وادي بقراده ، يدمر الريف بالنار والحديد ، ويقضي على مصادر المؤونة التي كانت قرطاجة

تعتمد عليها لطعامها . وكان لشيبيو هدف ثان من وراء ذلك ، وهو ان مسيره في ذلك الاتجاه كان يقربه من نوميديا ومن قوات مازينيسا ، وكان يرى ان اجتماعه بهذه القوات وانضمامها اليه سيكونان حاسمين في تقرير مصير معركته المقبلة مع هانيبال . وكان هانيبال في تلك الأثناء في مقره في هدرامينتوم ، على الساحل ، يحاول بجهد اليائس ان يعطي لجيشه التكوين اللازم والاعداد المناسب،وان يجند خيالة كافية لتعمل تحت امرته.لم ينجح في ذلك كما يشتهي ، وان كانت قد التحقت به شراذم من أنصار سيفاكس . كان الوقت يعمل ضده ؛ فمن جهة كان ممثلون عن قرطاجة وعن المدن المنتشرة على طول نهر بقراده يلحون عليه ان يبادر الى قتال شيبيو قبل ان يتمكن هذا من عمل المزيد حرقاً وتخريباً . وكان من جهة ثانية يرى ضرورة لخوض معركته مع شيبيو قبل اجتماع هذا الأخير بقوات حليفة مازينيسا .وبناء ما تقدم بادر فتحرك من هـدرامينتوم ، سائراً غرباً باتجاه مكان يدعى زاما ، آملاً كما يظن ان يحتل مركزاً وسطاً يحول دون اجتماع الحليفين ، وان يكره شيبيو على الارتداد على أعقابه الى الساحل .

عمد هانيبال ، عند وصوله الى زاما ، فأرسل الى شيبيو يقترح عليه عقد لقاء بينهما للتداول في شؤون الحرب . وقد ادعى بعضهم ان تلك الدعوة كانت حيلة لابقاء شيبيو حيث كان ، وبحيث يستجلب الى المعركة قبل وصول مازينيسا . ومن المشكوك في صحة هذا الادعاء ، بواقع ان هانيبال لم يتحرك على أعقاب رسله باتجاه المعسكر الروماني الاّ بعد بضعة أيام ، بعد ان تحقق اجتماع شيبيو بمازينيسا ، ورده بالموافقة على عقد اللقاء المقترح . وقد قام هانيبال ، فور استلامه لجواب شيبيو على اقتراحه ، بفض معسكره ، والانتقال الى جوار المعسكر الروماني .

عقـد شيبيو وهـانيبال لقـاءهما ، في مكـان من الميـدان يتـوسط المعسكرين ، وكان ثالثهما مترجم واحد فقط ، وذلك رغم انهما لم يكونا بحاجة الى وسيط ليتم التفاهم بينهما ، فكلاهما كانا يتكلمان اليونانية بطلاقة ، كما ان هانيبال كان يحسن اللغة اللاتينية ايضاً . افتتح هانيبال الحديث بالثناء

على منجزات شيبيو ، واختتم محذراً بقوله لشيبيو انه كان لتاريخه محظوظاً ، وان الحظ السعيد معروف بسرعة التقلب . وفي هذا اشارة الى حالته الشخصية بالذات ، ثم تساءل قائلاً ما الداعي الى المحاربة اذا لم تكن ضرورة لذلك ! . وانهى حديثه قائلاً انه يقبل بنفس الشروط التي ووفق عليها قبل قدومه الى أفريقيا ، باستثناء شرط واحد ، وهو تسليم الفارين . فقد كان القبول بهذا الشرط يعني عملياً تسليم كل ايطالي في جيشه ، اي حوالي خمسين بالمئة من أولئك المحاربين القدامى والمتمرسين ، ممن جاؤوا معه الى أفريقيا ، وتعرضهم مؤكداً الى موت فظيع . لم يكن هانيبال مستعداً لانقاذ بلده بخيانة من هذا النوع . وقد رد شيبيو كما كان متوقعاً منه ، قائلاً ان القرطاجيين هم الذين نقضوا الاتفاق الذي يطالب هانيبال به الآن ، ومن ثم لماذا يتوقعون الحصول على شروط أفضل من تلك التي سبق الاتفاق عليها ؟ وباصرار كل فريق على موقفه ، انتهى الاجتماع الى طريق مسدود ، وافترق القائدان وهما على ثقة بأن القتال ناشب بينهما في اليوم التالي .

لا يعرف بالضبط كم كان عدد الجيشين المتقابلين في ساحة المعركة . ولكن اذا أخذنا بأقوال المؤرخ بوليبوس ، وبأن خسائر هانيبال في زاما بلغت ٢٠ الف قتيل و ٢٠ ألف أسير ، وان الجيش القرطاجي كان قد أبيد بكامله ، فباستطاعتنا بناء على ذلك ان نقول ان جيش هانيبال كان في حدود ٤٠ ألفاً . وقد ذكر بعض المؤرخين ان النسق الأول ، في جيش هانيبال ، كان يعد ١٢ ألفاً . فإذا افترضنا ان كلاً من النسقين الثاني والثالث كان بمثل هذا العدد ايضاً ، فإننا نخرج بمجموع ٣٦ألف مقاتل من المشاة . ومن المعلوم ان خيالة هانيبال في زاما كانت تقلّ كثيراً عن خيالة الرومان وحلفائهم النوميديين بقيادة مازينيسا ، ولذا فلن نخطىء كثيراً اذا افترضنا ان عدد الخيالة كان في حدود ٤آلاف فارس ، وبهذا الافتراض نصل إلى نفس العدد الذي ذكره بوليبوس ، أي ٤٠ ألفاً ، مع احتمال الزيادة او النقصان في حدود ألف أو الفين ، وكان مع هانيبال ، علاوة على ما ذكر ، ٨٠ فيلاً ، وهو أمر مجمع عليه .

وفيما يتعلق بعدد القوات لدى الرومان ، فإن من المعروف ان مازينيسا قد

جلب معه ٤ آلاف خيال و٦ آلاف مشاة ، وهناك احتمال بأن أحد شيوخ القبائل النوميدية ، ويدعى داكاماس ، قد انضم الى الرومان ومعه ٦٠٠ من رجاله ، وتألفت القوى الرومانية الخاصة من ٢٨ ألفاً ، بما في ذلك ٢٠٠٠ خيال . ونرى بالمقارنة بين هذه الأعداد ان هانيبال كان يتفوق بالمشاة والفيلة ، الى حد ما ، وانه كان ضعيفاً بالخيالة . هذه الأعداد تظل في حدود تقريبية كما قدمنا ، وهي على كل أحسن ما أمكن الحصول عليه .

وإذا كان قد أمكن تكوين ولو فكرة تقريبية عن أعداد المقاتلين وأنواعهم لدى الفريقين ، فإن هذه الفكرة لا تفيد بشيء عن نوعية المقاتل لدى كل فريق . لقد عرفنا مما تقدم في فصول سابقة ، ان شيبيو كان عظيم الاهتمام بتحضير قواته وتدريبها ، وانه كان لا يقدم على خوض معركة الّا بعد ان تحصل لديه ثقة وقناعة من قدرته على خوضها بنسبة عالية من احتمالات النجاح ضد اي خصم ينازله . ومن الممكن ، تلخيصاً ، القول بأن جيش شيبيو ، في معركة زاما ، كان بنفس قوة ومقدرة جيش هانيبال في معركة كانّه، عام ٢١٦ق م ، وكانت خيالة مازينيسا من نوع ممتاز ، وهي صفة ملازمة للخيالة النوميدية في ذلك الزمن . اما عن المشاة النوميدية فكل ما يقال عنها انها كانت ممتازة في أعمال التماس والمناوشة كمشاة خفيفة .

في الطرف الثاني ،لدى هانيبال، فقد كان الجيش القرطاجي خليطاً عكراً من العناصر المجمعة معاً كيفما اتفق . كانت نواة هذا الجيش ، بالطبع ، مكونة من المتمرسين وقدامى المحاربين الذين كانوا مع هانيبال في ايطاليا ، والذين عادوا معه الى أفريقيا ، وكانوا لا يقلون مقدرة وكفاءة عن جنود شيبيو . وكان مع هانيبال ايضاً ١٢ ألف مرتزق كانوا في الأصل جزءاً من جيش شقيقه ماكو ، وكانوا جنوداً نظاميين وعلى قدر جيد من اللياقة والكفاءة القتالية . اما لما تبقى من الجيش القرطاجي ، فقد بعثت قرطاجة بعـدد مـماثل من المواطنين المتطوعين ومن الأفارقة المجندين على عجل ، ممن لا شك في غيرتهم وشجاعتهم ، لكن الشك كان كبيراً من حيث اعدادهم وتدريبهم ، ومن حيث أهليتهم للوقوف كفؤاً ونداً في وجه جنود اللجيونات الرومانية . لا توجد

معلومات عما كان لدى هانيبال ، في زاما ، من الخيالة ، لكننا لا نخطىء اذا قلنا وإذا افترضنا بأن خيالته النوميدية، من أنصار سيفاكس، لم تكن أحسن او أردأ من خيالة مازينيسا ، باستثناء انها كانت خيالة قد هزمت مراراً في معارك سابقة . وأخيراً فإن فيلة هانيبال الثمانين ، وهي قوة ضخمة على الورق ، فقد كانت حديثة السن ، جزئية الاعداد والتدريب ، ولم تكن قد أعدت للعمل في ظروف القتال وشروطه . والجدير بالملاحظة ان الجيوش القرطاجية ، في جميع معارك الحروب البونية ، تقريباً ، كانت تحتوي على تشكيلات من الفيلة ، دون ان تقوم هذه التشكيلات بعمل بارز يبرر وجودها ، او يدل على معرفة القرطاجيين باستعمالها والاستفادة منها . لقد كانت في جميع المناسبات ، او بالأحرى معظمها ، بمثابة حبر على ورق ، ولم نر لها اي تأثير يذكر على العدو ، بل كان تأثيرها الضار والهدام اكثر ما يقع على أصحابها ! .

المعـركة

كان التشكل للقتال متشابهاً نوعاً ما لدى الطرفين . لقد قسم هانيبال مشاته الى ثلاثة أقسام ، واستعملها على أنساق منفصلة . وضع في النسق الأول ، اي في واجهة الجبهة ، جنود ماكو ، وكانوا بمعظمهم من الليكوريين والغاليين ، خليطاً من المشاة الخفيفة ومشاة المناوشة . والى الخلف من هذا النسق الأول ، على مسافة قريبة ، وضع النسق الثاني وكان يتكون من متطوعي قرطاجة الجدد ومجنديها العجالى من الأفريقيين . ووضع وراء هذا النسق ، على بعد حوالي ٢٠٠متر ، مقاتليه القدامى كاحتياط . اما فيما يتعلق بالخيالة ، فقد وضع النوميديين على ميسرته ، والقرطاجيين على ميمنته ، والفيلة مصطفة بفواصل على خط واحد ، في المقدمة وعلى عرض الجبهة . لقد أتى هانيبال الى زاما ليقاتل على أرض لم تكن من اختياره ، وفي حالة ضعف في السلاح الراكب . كان وضعه شبيهاً بوضع القنصل « فارو » في كانّه . لقد كان عليه ان يربح المعركة قبل ان تتسبب أجنحته الضعيفة بالكارثة المميتة .

بدأ القتال باشتباك مناوشة بين النوميديين لدى الطرفين ، أعقبه هجوم الفيلة

على عرض الجبهة ، وكان شيبيو قد استعد لمثل هذا الهجوم . كانت أوامره تقضي بأن تبدأ الأبواق في عموم الجيش ، عند هجوم الفيلة ، بالدق والنفير ، مما أدى الى ترويع عدد كبير من هذه الحيوانات ، وكانت صغيرة السن وغير متمرسة ، وقد جن جنونها بتأثير ذلك الصوت المدوّي المفاجىء ، فاستدارت على أعقابها مذعورة تدوس في طريقها كل شيء . وقد أحدث ارتداد الفيلة على ذلك النحو أسوأ الأثر على الجناحين ، وبعث الفوضى لدى الخيالة القرطاجية والخيالة النوميدية . ولما رأى مازينيسا ولائيليوس قائد الخيالة الرومانية ما حل بجناحي القرطاجيين من تلبك وفوضى ، عمدا على الفور الى الهجوم بخيالتهما بانقضاض صاعق ، ولم تكن الا فترات محدودة لتتحطم الخيالة القرطاجية ، ميمنة وميسرة ، ولتطرد من الميدان في هزيمة منكرة ، وكان ذلك آخر عمل لها في تلك المعركة .

وبانطلاق مازينيسا ولائيليوس الى ملاحقة الخيالة القرطاجية ومطاردتها ، اختفت خيالة الطرفين عملياً من ساحة المعركة . وفيما يعود الى باقي الفيلة ، التي كانت في الوسط ، والتي لم تروع بأصوات الأبواق وتابعت تقدمها ، فقد نجح الرومان في تقنين سيرها وامرارها خلال الممرات المفتوحة بين المانيبليس ، موقعة رغم ذلك خسائر كبيرة في صفوف المشاة الثقيلة. وقد اصطدمت على الأثر خطوط الفريقين الأولية المتواجهة .

كان القتال بين الفريقين شديداً قاسياً ، كل فريق يقاتل قتال المستميت . وقد استطاع الرومان ، بالتدريج ، ان يرجحوا كفتهم ، وازداد ضغطهم الى ان تداعت مقاومة المرتزقة القرطاجيين وأخذ هؤلاء يتراجعون القهقرى . وكان هانيبال ، عندما لاحظ تداعي صفوف المرتزقة ، أمر قوات نسقه الثاني بأن لا تسمح لهم بالمرور بين أرتالها ، لأن المرتزقة المتقهقرين كانوا في حالة خطيرة من الذعر والفوضى ، وقد خشي هانيبال ان يحدثوا ، من جراء ذلك ، وبالعدوى الجماهيرية ، الارتباك والخلل في الأنساق التالية .

بعد أن نجح الرومان في تنظيف طريقهم من المرتزقة ، حملوا على النسق الثاني القرطاجي ، المؤلف من القرطاجيين والأفريقيين .ولم يكن مصير

هذا النسق بأحسن من سابقه ، وقد انهارت مقاومته وتداعت صفوفه بعد قتال شديد ، فتراجع متقهقراً ، ليجد طريق تراجعه ، كما وقع للمرتزقة ، مغلقاً بالنسق القرطاجي الثالث ، بحيث لم ينج من هؤلاء القرطاجيين والأفارقة سوى عدد قليل بطريق الأجنحة . ورغم أن هذين النسقين قد قاتلا حتى أقصى الاستطاعة ، فانهما لم يحققا كل ما كان هانيبال يتوخاه من وراء قتالهما ، وهو قيام شيبيو بتوريط احتياطه ، التترياري ، في المعركة ، وهكذا ظل هذا الاحتياط سليماً . وكان هانيبال يرى أنه من التهور من جانبه أن يتصدى باحتياطه لنسقي الرومان الأول والثاني ، وذلك اسناداً لنسقيه المتقهقرين ، فيوفر لشيبيو من جراء ذلك فرصة لاستعمال تكتيك الالتفاف الأثير لديه . وكان شيبيو من ناحيته يود اعادة تنظيم صفوف قواته قبل خوض المرحلة الحاسمة من المعركة . وبناء على ذلك فقد أوعز الى أبواقه بعزف وقف القتال ، والى جنود الهستاتي والبرنسيبس ، في نسقيه الأول والثاني ، بالعودة على الطريق المفروش بالقتلى والجرحى ، حتى قاعدة انطلاقهم عند بدء الهجوم .

كان القتال ، حتى الآن ، قد ترك خير القوات لدى الطرفين سليمة متعادلة في الكمّ والنوعية . وبعد هدوء استمر لفترة قصيرة من الزمن ، أصدر شيبيو الأمر لقواته ، وقد أعيد تنظيمها ، بالعودة الى الهجوم . استؤنف القتال ضارياً ، وكان عنيفاً قاسياً ، ولم يكن هدفه النصر لأحد الفريقين فحسب ، وانما كان ، بالاضافة ، مباراة وبرازاً بين قائدين كبيرين ، وما كان أي منهما مستعداً لأن يتراجع قيد أنملة . استمر القتال على حاله من العنف والشدة ، لا رجحان فيه لهذا الطرف أو ذاك ، الى أن بوغتت قوات هانيبال بعودة المنتصرين من خيالة لائيليوس ومازينيسا الى ميدان المعركة . وكانت عودة وضعت نهاية للقتال . لقد استمر قدامى الجنود القرطاجيين على المقاومة اليائسة الى أن قتلوا وتساقطوا جميعاً في أرض المعركة .

ولما رأى هانيبال أن كل أمل قد تلاشى واضمحل ، عمد الى الفرار مع بعض فرسانه . لم يفعل كما فعل شقيقه أسد روبال في ظروف مماثلة ، فيقتل والسيف في يده ، أسوة بجنوده وضباطه . ربما كان قد فكر أن يفعل ذلك ،

لكن قرطاجة كما يقولون كانت دائماً في خياله ومخيلته . ففي بقائه حياً بعض الأمل في توجيه الأحداث والتأثير على مجراها ، والاستمرار على خدمة بلده في السلم كما خدمه في الحرب . لقد قضي على جيشه بكامله . كانت الخسائر القرطاجية ، كما ذكرنا ، ٢٠ ألف قتيل و٢٠ ألف أسير . أما المؤرخ أبيان فيقول أن القتلى كانوا ٢٥ ألفاً ، والأسرى ٨٥٠٠ فقط . وأياً كان الصحيح من القولين ، فانه يدل على ضراوة القتال وقسوته ، وأن هزيمة هانيبال كانت كاملة . لا يعرف بالضبط كم كانت خسائر الرومان في تلك المعركة . فالمؤرخون على اختلاف في ذلك . يقول بوليبوس أنها كانت ١٥٠٠ قتيل ، وهو عدد سخيف لضآلته ، أما المؤرخ أبيان فيقدر عدد قتلى الرومان بـ ٢٥٠٠ ، وقتلى مازينيسا بعدد كبير لم يعينه ، وهو أمر ادعى الى التصديق . وعلى كل فان هذه النتائج تؤكد أن معركة زاما كانت قاسية حامية الوطيس .

وقبل أن نختم حديثنا عن هذه المعركة المصيرية ، لا بد لنا أن نتساءل لماذا سمح هانيبال لشيبيو بالوقت لاعادة تنظيم قواته استعداداً لخوض المرحلة الثالثة والحاسمة من المعركة ، ولم يلاحقه بالهجوم لمنعه عن ذلك ؟! . كان ولا شك يعلم أن الوقت يعمل ضده ، وأن عودة الخيالة الرومانية من مطاردة خيالته المهزومة منتظر بين لحظة وأخرى ، وأن تضييعه للوقت بانتظار أن يكمل شيبيو اعادة ترتيب قواته ما هو الاّ خسارة لفرصة كان من المحتمل فيها أن ينتهي من خصمه قبل أن تعود خيالة هذا الخصم لتكسب المعركة ! .

مناقشة الأحداث السابقة

يتضح من متابعتنا لما تقدم من أحداث أن القرطاجيين كانوا فقراء في القادة والضباط على مختلف المستويات ، وأنه لم تكن لديهم قيادة عامة قادرة على توحيد التخطيط وتنسيق الجهود واستخلاص الدروس والعبر . هذا بصورة عامة . ونلاحظ ، في التفاصيل ، شيئاً غريباً ؛ فقرطاجة دولة وامبراطورية بحرية طوال سبعة قرون أو ثمانية ، ومع ذلك فهي لم تحسن ، طوال الحروب

البونية ، الا فيما ندر ، القتال على ظهر البحار ، ولا هي استعملت سفنها الحربية العديدة ، لاسناد هانيبال ودعمه بصورة مجدية في ايطاليا ، ولا لمنع شيبيو عن حصار أوتيقة ، وهي قاعدة بحرية هامة ، وعلى أبواب قرطاجة نفسها ، وكان الاستيلاء عليها حيوياً لشيبيو لامداده وتأمين تموينه بطريق البحر ، وهو طريقه الوحيد الى قاعدته الأساسية عبر البحر .

وكان لدى القرطاجيين سلاح من الفيلة ، ولم يكن لدى الرومان مثل هذا السلاح ، ولا كانوا على خبرة به . كان القرطاجيون يستعملون الفيلة كسلاح حرب منذ نشأتهم كدولة تقريباً ، ونراهم مع ذلك لا يعرفون كيف يستعملون هذا السلاح ، ولا عرفوا كيف يستفيدون منه ، لا مع هانيبال في ايطاليا ومن ثم في أفريقيا ، في موقعة زاما ، ولا مع شقيقه أسد روبال في اسبانيا وايطاليا.

ومن أعجب ما نلاحظ ، لدى قرطاجة ، حصر القيادات ببعض العائلات ، وعدم محاسبة القادة الخاسرين ، واستمرار هؤلاء القادة على التصرف بالجيوش ، منتقلين من هزيمة الى أخرى ، وكأن لا حسيب ولا رقيب .

وقد ثبت من نزول شيبيو على الأرض الأفريقية ، وتنقله في ربوعها بيسر وسهولة ، أن قرطاجة كانت كجسم غريب في أرض معادية ، وأنها لم تستفد من تجارب سابقة، ولا عمدت الى دراسة الوقائع والأحداث لتستخرج منها الدرس والعبرة . وهي لو فعلت ذلك ، خاصة بعد نجاح الغزو الروماني لأراضيها أثناء الحروب البونية الأولى ، لكان من المنتظر منها عقبئذ أن تغيّر من معاملتها للمستوطنات الفينيقية المنزوعة السلاح ، وللأفارقة سكان البلاد الأصليين ، الذين استمرت قرطاجة ، منذ تأسيسها ، على استغلالهم استغلال الأرقاء والمستضعفين .

ونستخلص ، من دراستنا لمعركة زاما ، كما وصلت الينا على لسان المؤرخين ، أن هانيبال لم يستفد شيئاً من تجاربه في ايطاليا ، وأنه على العكس فقد الكثير مما يروى عن حنكته ومهارته في التكتيك ورسم الخطط .

لقد كان وضعه ، بعد عودته من ايطاليا ، من حيث الامكانات العسكرية ، شبيهاً بأوضاع خصومه في ايطاليا، في أعوام ٢١٨ و٢١٧ و٢١٦ق م . وكان عليه لذلك أن يتصدى لشيبيو بسياسة فابيوس الاحتوائية ، أو بشيء على منوالها ، لا أن ينزل عند توسلات تجار قرطاجة ومزارعي الأرياف ، فيتوجه ، بجيش ضعيف الاعداد والتماسك والتدريب ، الى مواجهة خصم عنيد وجيش متمرس ، على أرض لم يختارها بنفسه ولا كانت ملائمة لتحركاته وقتاله .

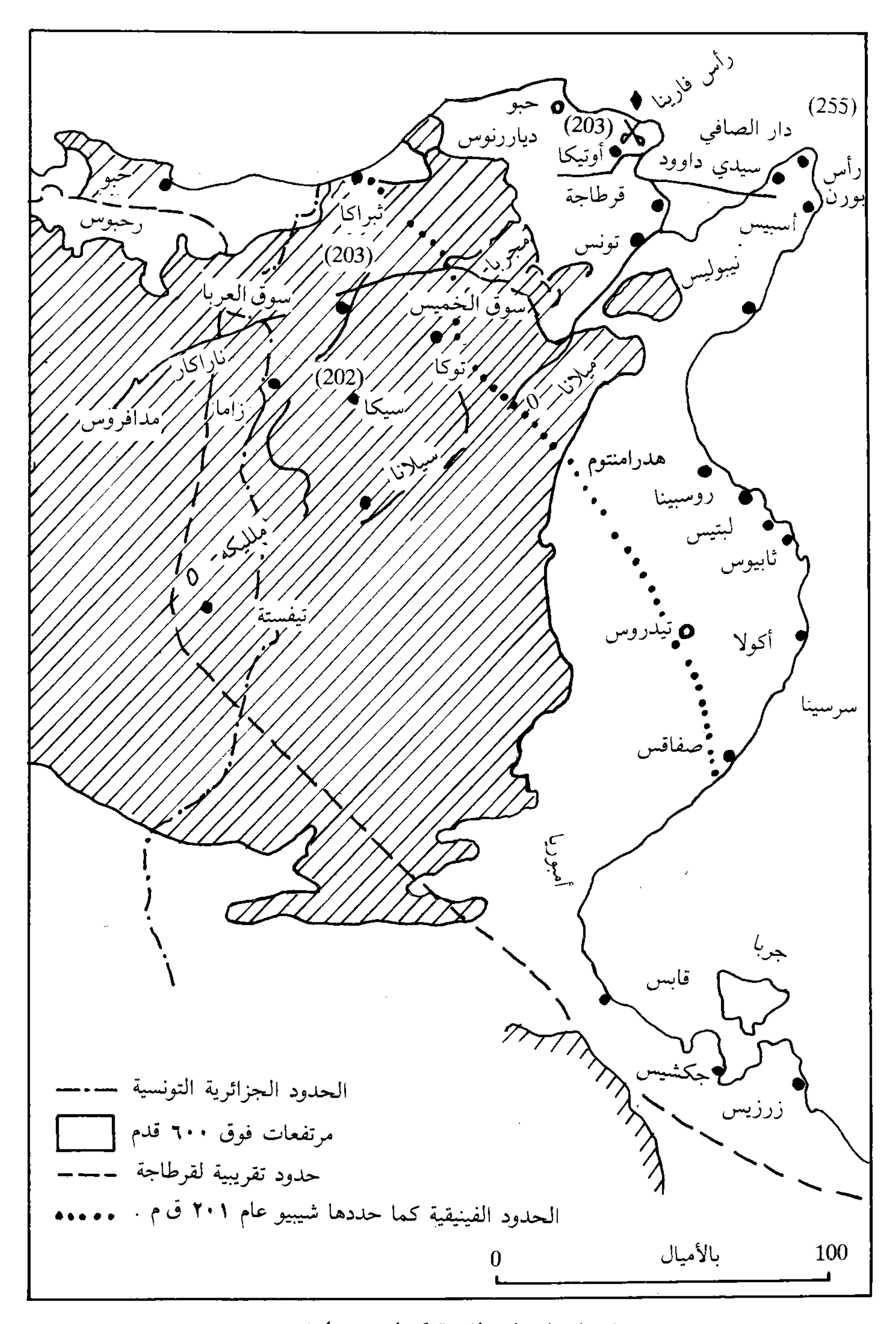
إن المعارك مناورة قبل كل شيء ، والقائد العبقري هو الذي يبتكر ويجدد ويتعدى التقليدوالمألوف . وقد برهن شيبيو ، في اسبانيا أولاً ، ومن ثم في أفريقيا ، في زاما بوجه خاص ، على أنه قائد من هذا النوع . والقائد العبقري تتجلى مواهبه أبان الصعاب والأزمات ، وقد كانت زاما أزمة خانقة بالنسبة لقرطاجة ولهانيبال نفسه ، ولكن هانيبال لم يتفاعل مع هذه الأزمة كما ينبغي ، ولا هو أعطى فيها من نفسه وسلوكه صورة تليق بصيته وسمعته .

إن دراستنا لشخصية هانيبال كقائد ، هي في ذات الوقت دراسة لشخصية شيبيو الأفريقي وقيادته . لقد كان هانيبال ، لفترة من حياته العسكرية ، قائداً تكتيكياً ممتازاً ، ثم أخذ التميز يتضاءل ويخف ابتداء من معركة « كانه » .

وكان شيبيو في حداثته ضابطاً بسيطاً تتلمذ على يد أبيه وعمه ، وتابع بامعان معارك هانيبال وتكتيكاته وقد برهن على أنه تلميذ نجيب وطالب نابغة ، وذلك منذ استلامه لقيادة مستقلة ، في اسبانيا أولاً ، ومن بعد في أفريقيا . وما علينا سوى أن نتابع حركات هذا القائد العبقري وأعماله لنرى أنه كان في المجال الاستراتيجي متفوقاً ، وأن بروزه في التكتيك كان مستمراً متواصلاً ولم يقتصر على مرحلة معينة من حياته العسكرية دون غيرها . ونلاحظ أن شيبيو كان يخوض حروبه وفقاً لتخطيط عملياتي ، بمعنى أن معاركه التكتيكية كانت بمثابة خطى في سلسلة من الخطوات المدروسة بغية بلوغ هدف استراتيجي . ولم نر شيئاً مماثلاً لدى هانيبال ، بل انه يخيل الينا أنه كان يتطلب المعركة

التكتيكية للمعركة ذاتها مقتصرة على حدود تكتيكية فلا تتعداها الى معركة تالية في سلسلة معارك متتابعة تؤدي الى معركة فاصلة أو حاسمة .

اننا لا نعلم ، يقيناً ، من الذي كان يخطط لهانيبال استراتيجياً ، ولكننا نعلم بكل تأكيد ، أن الاستراتيجية القرطاجية ، وخاصة لما يتعلق بحروب هانيبال في هذه المرحلة ، كانت استراتيجية فاشلة الى درجة مخزية . واذا نحن أخذنا بعين الاعتبار أن هانيبال ، في أواخر سنيه في ايطاليا وفي أفريقيا ، لم يتميز بشيء في مجالي التكتيك والاستراتيجية ، فاننا عندئذ مسوقون الى الاعتراف بتفوق شيبيو في هذين المجالين، والى ارتفاعه عن مقام هانيبال كقائد كبير في سلسلة قادة التاريخ العظام .



خارطة الدولة القرطاجية كما حددها شيبيو .

الفصل الرابع عشر

بعد معركة زاما

أهم أحداث هذا الفصل

هانيبال في قرطاجة - شروط الصلح الجديدة - رحيل شيبيو وجيشه - افلاس قرطاجة - انتخاب هانيبال كحاكم فرد - الحرب بين روما وفيليب المكدوني - أرستقراطية قرطاجة تشي بهانيبال الى روما - مطالبة روما بتسليم هانيبال اليها - هرب هانيبال الى بلاط أنطيوخوس - موقعة ترموبيل - شيبيو الأفريقي قائداً في اليونان - هانيبال يجند أسطولاً من صور لصالح أنطيوخوس - التجاء هانيبال الى جزيرة كريت ومن ثم إلى مملكة بيثينيا - معركة الأفاعي - انتحار البطل القرطاجي بالسم

OOOOOOOOOO

بعد الهزيمة

انسحب هانيبال ، بعد هزيمته في زاما ، الى معسكره السابق في هدراميتوم ، ولكن ما كاد يستقر به المقام حتى استدعي الى قرطاجة . وكان شيبيو في هذه الأثناء ، بعد أن أراح جيشه وشتت قوة من الخيالة النوميدية جندها أنصار سيفاكس المخلوع ، قد بدأ الحركة رجوعاً على الساحل . وبينما هو في سياق هذه الحركة جاءه رسل قرطاجة يطلبون الصلح . وقد رفض شيبيو أن يستقبلهم حال مجيئهم ، وأمرهم بخشونة أن يغادروا ليعودوا بعد أن يكون قد انتهى من اقامة معسكره ، عند مكان تونس الحالي .

وكانت الشروط ، التي أملاها شيبيو على أولئك المبعوثين ، وبالنظر الى

الظروف السائدة آنذاك ، متساهلة الى حد كبير . فقد احتفظت قرطاجة بممتلكاتها الأفريقية ، على أن تتخلى لروما عن كل شيء عدا ذلك ، وأن تسلمها جميع أساطيلها باستثناء عشرة سفن ثلاثية صفوف المجاديف ، وأن تدفع تعويضاً وغرامة لخرقها الهدنة، وتعيد جميع الأسرى ، وتسلم كل الفارين والأرقاء الهاربين ، وأن تدفع غرامة حربية بمقدار عشرة آلاف طالن فضي موزعة على ٥٠ سنة . وعلاوة على ذلك ، فقد ترتب على قرطاجة أن تعيل وتنفق على قوات شيبيو حتى رحيلها ، وتتعهد بعدم تربية الفيلة وتدريبها ، وأن لا تستأجر مرتزقة ، كما حرمت من حق خوض الحرب داخل أفريقيا وخارجها دون الحصول على موافقة مسبقة من روما . وكان عليها أن تكون حليفة لروما وصديقة لها ، في البر والبحر ـ أي تابعة لروما بتعبير صريح ـ وأن تقدم ١٠٠ رهينة من علية القوم .

تليت هذه الشروط على الجمعية القرطاجية التمثيلية ، بحضور هانيبال في قاعة الاجتماع لأول مرة في حياته . وقد نهض عضو متهور ، وكان من عائلة جيسكو ، ليدعو الى رفض هذه الشروط ، والاستمرار على الحرب . وكان أن ارتاع هانيبال من مثل هذه الحماقة ، فاندفع الى ذلك العضو ليمسك بتلابيبه ويسحبه جراً من منبر الخطابة ، ثم سارع فاعتذر لأعضاء المجلس بلباقة لجهله بالعادات والتقاليد المدنية في مثل هذه الأحوال ، ثم دعا المجتمعين الى الاعتراف بجميل روما وفضلها لكونها لم تحرمهم من كل شيء وهم على ما كانوا عليه من عجز ، بلا حول ولا قوة . وكان لهذه الكلمات البليغة تأثيرها المنشود ، فوافقت الجمعية للحال على شروط الصلح ، وسارع سفراء قرطاجة بالسفر الى روما لابرام المعاهدة ، وقد تم ذلك في مجلس الشيوخ ، بعد قليل من المماحكة من قبل خصوم شيبيو وحساده السياسيين .

ومن المحتمل ان تساهل شيبيو في شروطه ، وهو تساهل لم يكن مألوفاً لدى قادة الرومان المنتصرين ، ربما مبعثه التقدير الشخصي الذي كان يكنه لهانيبال . فشروط المعاهدة ، على سبيل المثال ، لم تتضمن أية اشارة الى تسليم القائد القرطاجي الكبير ، ولا أي اجراء ثأري ضده أو ضد عائلته .

وهناك رواية بحصول اجتماع بين القائدين الكبيرين ، في افيزوس ، بعد سنتين من زاما ، وأنهما قد تحدثا في هذا الاجتماع كصديقين قديمين ، مما يؤكد مرة أخرى خلوّ النفس العسكرية الشريفة من بواعث الحقد والضغينة . ويقال أن شيبيو سأل هانيبال عمن هم في رأيه أعظم ثلاثة قادة عسكريين ، وأن الجواب كان الاسكندر الكبير ، وبيرروس ملك أبيروس ، وشيبيو نفسه . وسأل شيبيو : وعلى افتراض أنك كنت أنت المنتصر في زاما ، فأين تضع نفسك ؟ فأجاب هانيبال بأنه يضع اسمه حالئذ في رأس اللائحة .

بعد رحيل شيبيو وجيشه ، تقاعد هانيبال واعتزل الحياة العامة ، الا أنه كان من المستحيل على شخص في مثل حيويته وكفاءته أن يقف ساكناً متفرجاً ، وهو يرى وطنه يغوص ويغرق في بحر من الشره وعدم الكفاءة . ويبدو أنه أخذ يستعمل نفوذه لصالح الجماهير ضد الأرستقراطية . ونذكر هنا أن عائلة برقه لم تكن تعتبر نفسها من العائلات الارستقراطية الكبيرة، بل بالأحرى من الطبقة المتوسطة . ومن المؤكد أن هانيبال لم يكن ليشعر بأي عطف لأولئك الأغنياء ، الذين أقاموا من أنفسهم قيمين لمدى الدهر على نظام الحكم في قرطاجة ، والذين كان همهم اكتناز الذهب والفضة والتعامي عن اكتنازه من قبل أنصارهم ومحاسيبهم . وقد بلغ السيل الزبى ، عندما أعلن مجلس القضاة الوراثي بأن البلاد لا تستطيع دفع غرامة الحرب السنوية ، وأنه لا مفر لذلك من فرض ضريبة على الشعب ـ باستثناء الطبقة الارستقراطية ـ وقد ردت الجماهير الشعبية على ذلك بأن انتخبت هانيبال حاكماً فرداً بلقب « شوفت » . وللحال وضع هانيبال نظاماً مالياً جديداً أمكن بواسطته ، في غضون بضع سنين ، تحسين الاقتصاد القرطاجي وجعله أفضل مما كان عليه أيام الحرب ، كما نجح هانيبال أيضاً فألغى امتيازات الطبقة الأرستقراطية المتوارثة ، وجعل نظام الحكم نظاماً انتخابياً حقاً ، وهكذا أقام حكماً قرطاجياً ربما كان أصدق دمقراطية من نظام الحكم في روما .

ولربما كان من سوء حظ هانيبال ، أن وصوله الى السلطة قد تزامن مع تورط جديد لروما في الشرق . ان اهتمام روما ، بعد الصلح مع قرطاجة ،

تحول مرة أخرى نحو اليونان ، حيث عادت الحرب فاشتعلت مع الملك المكدوني . كان الصلح قد عقد عام ٢٠٥ ق م ، لأن اهتمام روما كان آنئذ منصباً على الحرب مع قرطاجة ، أما وقد انتهت هذه الحرب لصالح روما كما تقدم ، فقد عادت الحرب الى الاشتعال مجدداً عام ٢٠٠ ق م . وبعد حملة لم تكن حاسمة ، نجح القائد الروماني فلامينيوس بانهاء الحرب بعد انتصاره في سينو سيفالي ، عام ١٩٧ ق م . وقد أدى هذا الانتصار الى وضع روما ، لأول مرة ، على تماس مع خلفاء الاسكندر الكبير في الأمبراطورية الفارسية القديمة .

إن سلسلة الحروب التي نشبت في آسيا الصغرى ، بعد موت الاسكندر ، فشلت كلها في اعادة تأسيس امبراطوريته . لكن ظهر ، مع مرور السنين ، ما بدا وكأنه مملكة قوية في سورية ، وكانت تسيطر على معظم ممتلكات الاسكندر الشرقية ، وكان عاهلها يومذاك ، أنطيوخوس ، يعتبر نفسه يونانياً لا أسيوياً ، ويطالب من جراء ذلك بنوع من السلطة على اليونان ، الأمر الذي كان سيؤدي به ، عاجلاً أم آجلاً ، الى نزاع مع روما .

وكان أعداء هانيبال في قرطاجة ، وقد وجدوا أنفسهم عاجزين عن مواجهته مع شعبيته الطاغية ، قد لجأوا لذلك الى مكافحته باستعمال مشاعر الخوف الذي كان يبعثها مجرد ذكر اسمه في صدور الرومان ، فبعثوا بسفارة الى روما تتهمه بأنه يتآمر سراً مع أنطيوخوس للعودة الى الحرب ضد روما . وقد زعموا أن هانيبال يستعمل الاصلاحات المالية في قرطاجة كي يتسلح ويستعد للحرب ، ورجوا من قادة روما ازاحته قبل أن يورط بلادهم في كارثة جديدة .

انه لا امكان للجزم بصحة هذه الاتهامات أو نفيها بصورة قاطعة . ربما يكون هانيبال قد أجرى اتصالات مع أنطيوخوس (٢٢٣ - ١٨٧ ق م) ، وإذا كان قد فعل فلا أدلة على أنه كان طرفاً في مؤامرة لتجديد الحرب مع روما ، كما لم تقم في قرطاجة مظاهر توحي باستعدادات حربية . وكما توقع المتآمرون وأملوا ، فان مجرد التفكير بقيام هانيبال الى الحرب ضدهم مرة

أخرى كان أكثر مما يطيقه اجتهاد مجلس الشيوخ ، وقد وقف شيبيو الأفريقي والحق يقال الى جانب هانيبال ودافع عنه ، لكن دون نتيجة . وهكذا ، في العام ١٩٥ق م ، أبحرت من روما الى قرطاجة سفارة كان غرضها الظاهر التوسط بين قرطاجة ومازينيسا في نزاع على الحدود ، لكن أصدقاء لهانيبال ، بتأثير من شيبيو كما يحتمل ، استبقوا فأرسلوا يحذرونه ويخبروه بأن السفارة ذاهبة لتطلب من قرطاجة تسليمه الى روما .

وقد رأى هانيبال أن لا يجعل من شخصه موضوعاً قد يؤدي الى حرب جديدة قد تؤدي بدورها الى تدمير قرطاجة ، ولذا أخذ يستعد للفرار . وفي اليوم الذي رست فيه سفينة مبعوثي روما عند رصيف قرطاجة ، خرج هانيبال من المدينة متوجهاً الى دارته في هدراميتوم ، ومن هنا استقل مركباً صغيراً أبحر به شرقاً الى صور . وقد لقي في هذه الحاضرة الفينيقية استقبال الظافرين ، لكنه لم يتوقف فيها الاّ لوقت قصير ، ثم تابع ابحاره الى مدينة افيزوس ، عاصمة انطيوخوس الثالث ، وكان الملك السوري عائداً من حرب ظافرة في الشرق ، وعند استقباله للقائد القرطاجي ، بادر هذا الأخير فعرض عليه مخططاً مدروساً مفصلاً للحرب التي لا مفر منها مع روما .

أشار هانيبال على الملك بسلوك الحرب فوراً ، فالجيوش الرومانية منهمكة جميعها في اسبانيا ، حيث قامت القبائل في تلك البلاد بثورة عامة . وقد تمنى على أنطيوخوس أن يقود هذا الملك جيشه بنفسه الى اليونان ، في حين يقوم أسطوله بانزال هانيبال مع جيش ثان في ايطاليا . وقد كان من الممكن ، في رأي القائد القرطاجي ، بدعم مالي وبحري ضخم ، أن تتكرر النجاحات الأولية للحرب البونية الثانية ، وأن يغلق الطريق في وجه التوسع الروماني صوب الشرق . الا أن المملكة السورية ، رغم كل مظاهر القوة والقدرة العسكرية ، كانت دولة فاسدة متفسخة ، وكان أنطيوخوس نفسه أنموذجاً للطاغية ، لا يثق بأحد ، وقد اعتاد على خوض حروب تقل فيها المحاربات وتكثر المناورات السياسية . ولقد كان يتوقع أن يسير النزاع مع روما على نفس هذا المنوال ، ولا يرى داعياً ولا فائدة في تسريع الأمور . وكان

أن احتفظ بهانيبال في بلاطه محاطاً بكثير من مظاهر الاعجاب والتكريم ، وعرضة في السر الى حملات لتشويه السمعة من قبل موظفي البلاط ، وحثّ للملك على أن لا يأخذ بنصائح هذا الهارب اللاجىء .

ولا يخامرنا أدنى شك بأن هانيبال ، المعتاد على السلوكية العسكرية النظيفة وحياة الميدان الصحية الشاقة ، لم يكن ليشعر بالارتياح والغبطة في العيش في البلاط السوري المذهب ، بين الأبهة الفارغة وآيات التفسخ والانحطاط . ورغم أنه كان يتكلم اليونانية بطلاقة ، فقد كان بطبيعته حكيماً واستاذاً في الجدل والنقاش ، وكانت سنوات مجده وسلطته لم تعده لدور الناصح والمتوسل . ولما كان معتدلاً في الطعام والشراب ، فقد كان في اعتبار حاشية البلاط ولا مفر بمثابة الوجود البغيض في المآدب والحفلات . وكان فوق ذلك صريحاً في آرائه بخصوص جيش أنطيوخوس ، هذا الجيش الذي ان كانت له مناقب عسكرية فانه كان لا يُرى منها سوى المظاهر الخارجية الاستعراضية والميل الى التفاخر والمباهاة . وكان هانيبال يعرب علناً عن شكه في قابلية هذا الجيش وقدرته على مواجهة اللجيونات الرومانية ، الأمر الذي لم يكن ليساعد على ازدياد شعبيته .

لكن انطيوخوس تحرك أخيراً ، عام ١٩٢ ق م ، فأرسل جيشاً من بضع عشرة آلاف رجل الى اليونان ، وكان ذلك عملاً في غاية الحمق والغباء . فذلك الجيش لم يكن من القوة بحيث يستطيع عملاً بعينه ، لكنه كان كافياً لاستفزاز روما ودفعها الى خوض الحرب . وقد أمدت الجامعة الائيتولية بقوة من ٤ آلاف مقاتل ، في حين ظلت بقية الأقاليم اليونانية بمعزل عن ذلك النزاع . وكان أنطيوخوس ، يصحبه هانيبال في هذه الحملة ، قد حصن مضيق ترموبيل وأقام عليه دفاعه بنفسه وجيشه ، بينما عهد الى الأئيتوليين بامساك المرتفعات فوق المضيق .

لم يطلب القائد الروماني ، في اليونان ، أي امداد من روما . وعند وصوله مع قواته الى المسرح ، بادر للحال بطرد الأئيتوليين من مواقعهم ، وتابع فانحدر ليدمر القوات الأنطيوخوسية . وقد لجأ انطيوخوس هارباً الى

مراكبه ، وأبحر عائداً الى عاصمته . ومن الممكن أن نتصور كم كان اشمئزاز هانيبال واحتقاره للمناقب القتالية لهذه القوات .

لم تكن روما على علم بما كان عليه هانيبال من عجز وقلة حيلة ، ولكن أنباء وجوده مجدداً في ساحة القتال ضدها ، حملتها على الاسراع بارسال شيبيو الأفريقي الى اليونان ، حيث كان شقيقه لوشيوس قائداً بالاسم للقوات الرومانية في تلك البلاد . لم يقلق أنطيوخوس في بادىء الأمر لهزيمته ، ظاناً بأن من الممكن تدبير الأمر والتوصل بسهولة الى صلح مع روما ، بيد أنه عندما فشل في ذلك وخاب ظنه ، أخذ يعمل بعد فوات الأوان ويستعد للحرب بصورة جدية ، لكن ليواجه بجيش شيبيو وقد اجتاز اليونان في طريقه الى الدردنيل ، وبأسطول حربي روماني ـ روديسي يضرب الحصار على عاصمته ايفيزوس بالذات . وكان أن قنع آخر الأمر بالاستجابة الى نصائح هانيبال الحاثة له على العمل الجدي ، وبعث به الى صور ليجند أسطولاً فينيقياً . وقد يبدو غريباً أن يتحول هانيبال الى قائد بحري ، لكن يبدو أنه كان يتوقع في هاتيك الأيام من كل قائد أن يكون صالحاً للقيادة في البر والبحر على السواء ، أو هكذا كان الاعتقاد لدى القرطاجيين ، وقد رأيناهم يسيرون على هذا النهج الخاطىء في الحروب البونية .

عمل هانيبال بسرعة ، ونجح فجمع عمارة بحرية فينيقية ، وكان في نيته أن يبحر بهذه العمارة على عجل ، على أمل كسر الحصار البحري الروماني وتمكين جيش انطيوخوس من استباق شيبيو الى الدردنيل لمنعه عن العبور الى آسيا . لكن الفشل كان حليفه في هذه المحاولة ؛ فقد اعترضه الأسطول الروديسي ، أحسن الأساطيل في ذلك الوقت ، وحال بينه وبين تحقيق بغيته . كانت السفن الفينيقية ضخمة ،وكانت مصممة لمقاتلة السفن الرومانية ذات طبقات التجديف الأربعة . أما السفن الروديسية فقد كانت بمجاديف ثلاثية الطبقات ، سريعة رشيقة ومستعملة بمهارة . وقد قاتلت عمارة هانيبال بيأس ، لكنها سريعاً ما أصيبت بالهزيمة ، ورجع هانيبال الى صور بخفي حنين ، وكانت هذه العملية أول وآخر تجربة له كقائد بأمرة الملك انطيوخوس .

ولما علم أنطيوخوس بما آل اليه مصير بحريته ، تخلى عن الدفاع عند الدردنيل، وانسحب الى آسيا كي يجند مزيداً من الرجال . وقد تواجه مع الرومان ، في العام ١٩٠ ق م ، على رأس جيش من حوالي ٧٠ ألفاً ، وكانت صفوف هذا الجيش تتألق بالذهب والفضة ، وبزات ضباطه تبرق بالجواهر والحرير ، وقد التفت الملك الى هانيبال، وكان يقف الى جانبه كمستشار لا يسمع له ، وقال :

ـ أليس في هذا ما يكفي لاعطاء درس للرومان ؟

فأجاب هانيبال بسخرية لاذعة :

ـ ان فيه ما يكفي حتى لهم ، وذلك رغم أنهم أكثر الأمم جشعاً على وجه الأرض ! .

وجرت المعركة ، وأطاحت اللجيونات الرومانية بجيش أنطيوخوس من الميدان بسرعة ويسر ، واضطر الملك ، بعد سنتين من ذلك ، الى القبول بشروط صلح مهينة . وكان من جملة هذه الشروط أن يسلم الى روما عدوها اللدود ، هانيبال . وهنا لا بد من أن نفي الملك حقه ، فقد تدبر الأمر بحيث ما حان وقت التنفيذ الاّ وكان هانيبال قد اختفى .

فر هانيبال من سورية الى جزيرة كريت ، الى مكان يدعى كورتينا . وبدا وكأن ذلك المكان كان ملجأ أميناً ؛ فلم تكن هذه الجزيرة يومذاك على طريق مطروق ، وكانت مثوى للقراصنة وقطاع الطرق ، ولربما لم يكن ليخطر على بال روما أن تبحث عن هانيبال في مثل هذا المكان . وهناك رواية تقول بأنه نظراً لعدم ثقته بأمانة قراصنة البحر ، فقد أودع في المعبد عدداً من الجرار الثقيلة الحاوية لثروته كما زعم وأشيع ، بينما كان في الحقيقة قد احتفظ بأمواله في جوف عدد من التماثيل البرونزية المنصوبة على طول الطريق المؤدية الى دارته . لا يعلم كم أمضى من الزمن مقيماً في كريت ، ولكن روما كانت طويلة الباع . ففي أحد الأيام فوجئت الجزيرة برسو عمارة بحرية رومانية في مينائها ، بقيادة فابيوس لابو ، الذي قدم لينذر سكان الجزيرة بالكف عن الاعتداء على السفن التجارية الرومانية . وقد خشي هانيبال أن يعمد مضيفوه ، بدافع من

تلهفهم لاسترضاء روما ، إلى الوشاية به والاعلان عن مكان وجوده ، فانسل مرتحلاً لمرة أخرى :

أبحر هانيبال من جزيرة كريت ووجهته الشرق ، فمر خلال المضائق الى البحر الأسود ، حيث زعم أنه أمضى بعض الوقت في أرمينيا . وقد انتهى به المطاف كما هو معلوم الى مملكة بيثينيا الصغيرة ـ في تراقيا من تركيا اليوم ـ . وهناك قول بأن شيبيو الأفريقي كان يعلم بوجوده في تلك المملكة ، لكنه احتفظ بذلك سراً في نفسه . وقد يكون هذا القول غير صحيح ، لكنه ينسجم مع ما عرف عن القائد الروماني من شهامة ونبل في معاملة خصمه السابق . أقام هانيبال عامين أو ثلاثة ، يعيش ناعماً هادئاً في قرية صغيرة تدعى ليبيسّا ، يعيش أهلها على صيد السمك وتقع على مقربة من نيكوميديا عاصمة المملكة . وكان هانيبال يتردد ، من حين لآخر ، على العاصمة لاثبات وجوده في بلاط بروسياس ملك البلاد .

وكانت بيثينيا على خلاف على الحدود مع جارتها المدينة المملكة بركاموم ، وقد نشبت من جراء ذلك حرب بين المملكتين الصغيرتين ، وكانت بيثينيا هي الخاسرة . وقد شكا الملك بروسياس أمره الى ضيفه هانيبال ، وطلب نصحه ومشورته . وقد أشار هانيبال بتدبير كان بنتيجته أن انتصرت بيثينيا على بركاموم ، في جولة حرب ثانية على سطح البحر .

كانت أرض بيثينيا ملأى بالأفاعي والثعابين ، وقد أشار هانيبال بأن يكلف الملك فلاحيه بملء جرار من الفخار بالأفاعي واغلاقها ،وارسالها مع سفنه الى مواجهة السفن الحربية البركاMومية . ولما اصطدم الأسطولان واشتبكا ، أخذ بحارة السفن البيثينية يقذفون بجرار الأفاعي الى داخل سفن الأعداء ، حيث كانت تتحطم وتحرر الأفاعي من أسرها ، ليصاب البحارة البركاموميون بالذعر والهلع ، ويسارعوا بالقاء أنفسهم في البحر من شدة الخوف . وهكذا انتهت تلك المعركة بانتصار بيثينيا بفضل سلاح الأفاعي ، وكان ذلك عام ١٨٣ ق م .

كانت مملكة بركاموم تابعة لروما . وقد بعثت روما ، على أعقاب معركة الأفاعي ، تستدعي مندوبين عن بيثينيا للتفاوض على فض النزاع بينها وبين جارتها بركاموم . وبينما كان هؤلاء المندوبون موجودين في روما ، أتى أحدهم على ذكر هانيبال ومكان وجوده . وكان هذا الاسم لا زال كافياً لقض مضجع مجلس الشيوخ ، الذي سارع فأرسل القائد فلامينيوس ، على رأس قوة من الجيش ، ليطلب من بيثينيا تسليم القائد القرطاجي الكبير .

لم يكن بوسع الملك بروسياس أن يعاند روما ، ولذا فقد وضع حراسة شديدة حول الدار التي كان هانيبال يقيم فيها . وكان سن هانيبال يومئذ ٦٤ عاماً ، ولما رأى أن لا سبيل الى هروبه ونجاته هذه المرة ، أو لربما اعتراه اليأس ومل حياة التشرد والاغتراب ، فطلب قدحاً من النبيذ ، ليمزجه بالسم الزعاف ، وليقتل نفسه بيده ، ولا الوقوع حياً في أسر الرومان . وقد أورد المؤرخ الروماني ليفي آخر كلمات لهانيبال وهو في نزعه الأخير كما يلي :

ـ ها أنا أحرر الشعب الروماني من قلقه المقيم المزمن ، وأريحه مما يكابد من تعب وارهاق من جراء انتظاره لرحيل رجل مسن من هذا العالم الفاني ! .

تقييم ورأي

أثبت الارستقراطية الحاكمة في قرطاجة ، قبل زاما وبعدها ، أنها لم تكن جديرة لتحكم ، ولا كانت تستحق حياة الحرية والكرامة . وثبت أن هانيبال كان مخطئاً في اعتماده ، لحملته في ايطاليا ، على مثل هذه الطبقة الحاكمة المتفسخة ، كما أخطأ في عدم تقييدها وكمّ أفواهها وقطع دابر مفاسدها بعد أن انتخبته الجماهير حاكماً فرداً للبلاد . وهو بهذين الخطأين لم يقم أو يحقق ما انتظر مواطنوه من ورائه ، وتسبب ، ولو عن غير عمد ، في تدمير قرطاجة وهلاك وزوال هذه الدولة من دنيا الوجود .

ونرى من تتبعنا لما أعقب معركة زاما من أحداث ، بأمانة وتجرد ، أن

هانيبال كان يخطط ويعمل طلباً للثأر من روما ، وأن هذه كانت على صواب في ملاحقته لكي ترتاح منه وتضع حداً لأعماله ومؤامراته ضدها . وكل منصف لا يستطيع الاّ أن ينحني تقديراً واعجاباً لما صدر عن مجلس شيوخ روما ، قبل معركة زاما وبعدها ، من عزم وصلابة وقيادة حكيمة وبعد نظر ، ولما أظهره المواطنون سكان روما من ايمان واخلاص في الدفاع عن وطنهم . لم تكن المسألة في ذلك الزمن شرقية أو غربية ، ولا أوروبية ولا أسيوية ، فمثل هذه الشعارات الجوفاء لم تكن قد اختلقت بعد . انما المسألة كانت بقاء للأصلح ، نزاعاً على الحياة بين شعب فتي مفعم بالنشاط والحيوية ، وبين دولة مهترئة ، وطبقة حاكمة فاسدة مفسدة ، وشعب يقوم ويبقى ، لأكثر من سبعة قرون ، غريباً مستغلاً لسكان البلاد الأصليين ، فلا يمتزج بهم ولا ينجح أو يعمل ليكونوا له عوناً في الأزمات والملمات .

وما لمسناه في قرطاجة من مفاسد وتفسخ وأنانية ، نجد مثله في مملكة أنطيوخوس ، هذه الدولة التي قامت على أمجاد الاسكندر الكبير ، والتي كان عاهلها غير جدير لا بحماية ارثه ولا بالدفاع عن بلده وشعبه . ونحن نلمس في جيش أنطيوخوس تأكيداً لحقيقة أزلية ، وهي أن الجيوش ، كالراهب ورجل الدين ، ليست باللباس والنياشين والمراسيم ، وانما بالقلوب العامرة بالثقة والايمان ، وبالقادة الذين يصلون الى مراكزهم عن جدارة واستحقاق .

الفصل الخامس عشر

... وكانت هنــاك قرطاجة

قرطاجة تزدهر اقتصادياً من جديد ـ الخلاف المستمر مع مازينيسا ـ حملة الشيخ الروماني كاتو ضد قرطاجة ـ اعلان روما الحرب على قرطاجة ظلماً وافتراء ـ حصار الرومان لقرطاجة ـ قرطاجة في النزع الأخير ـ قرطاجة تموت وتدرس وتتحول الى أرض زراعية

OOOOOOOOO

الخلاف بين قرطاجة ومازينيسا

توفي هانيبال عام ١٨٥ ق م ، وتبعه خصمه الكبير ، شيبيو الأفريقي ، الى دار البقاء ، في نفس ذلك العام . وبغياب شيبيو عن المسرح السياسي ، عادت أنظار خصومه ومطامعهم لتتوجه الى قرطاجة بعد طول انتظار . وكانت أوضاع قرطاجة الاقتصادية ، بفضل تدابير هانيبال وابتكاراته ، قد انتعشت وازدهرت ، واستطاعت جاليتها المالية ، رغم قلة الموارد ، أن تدفع غرامة الحرب الباهظة بوقت كان أسرع مما حددته معاهدة السلام ، وأن تصل بالبلاد الى وضع اقتصادي ممتاز ، دون استطاعة عسكرية بالمرة . وقد سيطرت بذلك على أسواق كان تجار روما يعتبرونها وقفاً عليهم ، والذين أخذوا يسعون لدى مجلس الشيوخ من أجل اجراءات للحد من سيطرة قرطاجة الاقتصادية . ولا شك أن قرطاجة قد ارتكبت خطأ في دفع الغرامة قبل موعدها ، وارتكبت كذلك حماقة بعدم سعيها للتوصل الى تفاهم مع الفعاليات الاقتصادية في روما ذلك الزمن . والظاهر أن الجشع كان غريزة متأصلة في نفوس القرطاجيين ،

الى درجة أنه كان يعمي بصائرهم عن سلوك الدبلوماسية الناجحة وعن طلب الربح بأسلوب « كل واطعم غيرك » .

كانت قرطاجة تتعرض الى سيل مستمر من المضايقات والاستفزازات من قبل تابعها السابق وحليف روما فيما بعد ، مازينيسا . وقد جعلت روما ، عقب انتصارها في زاما ، من الملك النوميدي حاكماً قوياً ، وصمم هذا على أن يجعل من بلده نوميديا ـ الأرض التي تشغلها الجزائر اليوم ـ دولة عصرية على طراز روما وقرطاجة ، وأخذ ، في سياق ذلك التحول ، يتوسع بحدود مملكته على حساب قرطاجة . وقد استغل أحداث عام ١٩٣ ، عندما كانت سمعة قرطاجة في روما قد ساءت على أعقاب هروب هانيبال ، فاستولى على بعض الأراضي في جوار محل كان يدعى أمبوريا ، وقد تغاضت روما عن هذا الاعتداء ، ولم ترد على شكوى قرطاجة بخصوصها ، مما حمل هذه الأخيرة على القيام بنفسها بطرد مازينيسا من أراضيها بالقوة .

وتكرر هذا الموقف بعد عشر سنوات ، وقامت قرطاجة بتوجيه الشكوى الى روما أكثر من سبع مرات . ومع أن روما قد استجابت أحياناً للشكوى وحدت من تصرفات حليفها الملك النوميدي ، لكن هذا لم يتخل ولا مرة واحدة عن مكتسباته اللامشروعة . وفي عام ١٥٥ ق م ، دفع اليأس أخيراً بقرطاجة الى اللجوء الى السلاح ضد مازينيسا ، الذي كان يطالب آنذاك بملكية منطقة السهول الكبرى . وقد جاءت الى أفريقيا ، بعد سنتين من ذلك ، لجنة رومانية أخرى للعمل على حل النزاع . كان يرأس هذه اللجنة رجل مسن تربطه المصالح الشخصية مع تجار روما ، وقد أقلقه ما لمس وشاهد في قرطاجة من دلائل الازدهار والنشاط الاقتصادي ، ورأى في ذلك خطراً على مصالح روما ، وتمكن بدهائه من تحويل النزاع القائم مع نوميديا لغير صالح قرطاجة .

كان ذلك المندوب يدعى كاتو ، وكان عضواً متنفذاً في مجلس الشيوخ ، وقد أخذ عند عودته الى روما ينهي كل خطاب له في المجلس بالدعوة الى تدمير قرطاجة . كان الحزب الشيبيوني يعارض ويقاوم هذا

الاتجاه ، لكن خطابات الشيخ كاتو كانت ، كقطرات الحنفية المتتابعة ، دائبة على استنزاف مقاومة معارضيه بصورة تدريجية . والغريب أن قرطاجة كانت ساهية عن تصرفات ذلك الشيخ ، فلم تحاول شراءه واسكاته لتجنب شره .

في عام ١٥١ ـ ١٥٠ ق م ، نشبت حرب أخرى بين قرطاجة ومازينيسا ، وانتهت بهزيمة هذا الأخير . وقد أصيبت حكومة قرطاجة بالرعب والهلع تحسباً وخيفة مما قد ينتج عن انتصارها هذا ، وسارعت الى اعدام القرطاجيين المسؤولين عن تجدد النزاع ، والى ارسال وفود الى روما لشرح ما قد حدث . وقد قوبلت هذه الوفود بعداء ، وأبلغت ، بأسلوب غامض ، بأن على قرطاجة أن ترضي الشعب الروماني . كانت روما تستعد في واقع الأمر للحرب ، وكانت عازمة على المضي فيها الى النهاية مع قرطاجة هذه المرة ، بغض النظر عن أيّ ظلم قد يقع . لقد نجح كاتو في اقناع مجلس الشيوخ أخيراً بخطر قرطاجة ما ظلت على قيد الحياة . وكانت الانتصارات الرومانية المتلاحقة قد عودت أصحابها على معاملة خصومهم بسياسة البطش والوحشية ، بما فيهم كل من يتراءى لهم مصدر خطر وتهديد لمصالحهم . وقد تمثلت هذه السياسة حديثاً بمذابح دامية في ليكوريا واسبانيا كشفت عن مدى بربرية روما وازدرائها لحياة كل من يقف في سبيلها . وكانت الآن تخطط لتطبيق هذه السياسة بحق عدوتها القديمة ، قرطاجة .

بادرت روما ، دونما استفزاز أو مسبب ، الى اعلان الحرب على قرطاجة ، وسيرت الى أفريقيا جيشاً وأسطولاً ، بقيادة القنصلين مانيليوس وشنسورينوس . وقد قوبل القنصلان ، عند رسوهما في أوتيقة ، بالمبعوثين القرطاجيين وقد جاءوا يستجدون السلام بأي ثمن . وقيل لهم أن السلام ممكن ، لكن بشرط أن تسلم قرطاجة ٣٠٠ رهينة ، وكل نوع من العتاد والسلاح الموجود في المدينة . ولما كان لا جدوى من المقاومة وفقاً لرأي حكومة المدينة ، فقد قبلت قرطاجة بهذه الشروط . جرى تسليم الرهائن ، وحوالي ٢٠٠ ألف من قطع السلاح ، بما في ذلك ١٠٠٠ منجنيق . وبعد أن ظن الرومان أن قرطاجة غدت من جراء ذلك عزلاء وعاجزة تماماً ، فاجاؤها

بالضربة الأخيرة . . . طلبوا من السكان مغادرة المدينة ، بعد أن أنذروهم بأنه سيجري تدمير المدينة بكل ما في هذه الكلمة من معنى .

وكانت تلك هي المرة الأولى التي تخرج فيها روما بمطالبها عن حد معقول . اذ عندما وصل نبأ هذا الشرط الأخير الى المدينة ، قام السكان قومة الرجل الواحد ، تاركين العنان لأعمال العنف والانتقام . كل أولئك الذين نصحوا بالسلم وتسليم الرهائن والسلاح جرى تمزيقهم في الشوارع أرباً بيد الجماهير الغاضبة ، وأرغمت حكومة المدينة على الشروع بمحاولة الدفاع عن حاضرتهم . وقد اندفعت الجماهير ، بحماس لا مثيل له ، الى العمل لاستبدال الأسلحة المفقودة ، وجرى تعرية المنازل والمباني من كل مادة معدنية فيها ، واستعملت رزم الحطب المكدسة على الواجهة المائية لبناء سفن وأعتدة حربية . وقد استطاعت المدينة ، في غضون زمن قصير لا يكاد يصدق ، أن تضع نفسها في حالة الدفاع ، وبعثت بالرسل الى الأرياف لتجنيد العون والمدد .

كانت قرطاجة ، نظراً لموقعها الطبيعي ، مدينة منيعة ، قائمة على شبه جزيرة . وكانت مسورة بحائط حجري ، بعلو ٣٦ قدماً ، وسماكة ٣٤ ، مزروعاً بأبراج ترتفع عن الجدار بمقدار طبقة أخرى . وكانت المدينة ، علاوةعلى ذلك ، من ناحية البر ، أي عند عنق شبه الجزيرة ، مسورة بثلاثة جدران ، كان منها جدار المدينة الرئيسي ، الذي يكون سور الدفاع الداخلي ، والذي كان يقوم خلفه خندق عميق بحراسة جدار منخفض ، وكذلك بخندق آخر يسوره سياج خشبي . كان مرفأ المدينة مزدوجاً ، مرفأ خارجي للتجارة ، ومرفأ داخلي ، دائري الشكل ، للسفن الحربية . وكان الوصول الى هذا المرفأ الأخير يتم بواسطة المرفأ التجاري فقط لا غير ، وكان مدخله الضيق مغلقاً بسلاسل حديدية ثقيلة .

كان الرومان ، رغم كل ما تقدم ، لا يتوقعون مقاومة جدية ، ولا كانوا قط على استعداد لمواجهة الضراوة التعصبية البالغة التي كانت السمة العامة للدفاع عن المَدينة . بدأ مانيليوس بمهاجمة الجدار البري ، فَصُدَّ بعد أن تكبد

خسائر باهظة . وقام القنصل شنسورينوس مع الأسطول بمحاولة اجتياح بطريق القناة التي تغطي الناحية الشمالية الغربية ، فأخفق بدوره كذلك . وقد عمد حالئذ الى ردم القناة جزئياً ، ونجح أثر ذلك بنقب ثغرة في الجدران ، ونفذ من خلالها لكن ليطرد منها بخسارة بالغة . ولم يقتنع المدافعون بصد الهجمات ، بل كانوا أنفسهم يخرجون ويغيرون على المهاجمين موقعين بهم أضراراً بالغة. وقد جوبه الرومان أيضاً بعدو جديد ، بالوباء يفتك في صفوفهم وبحارتهم ، في تلك البقعة الرديئة المناخ ، وكانت هورا تقوم عليها القناة السابقة الذكر . وهكذا قاربت السنة على نهايتها وقرطاجة مستعصية على الاجتياح .

ساءت أحوال الرومان المحاصرين خلال الشتاء ، وجاءهم مدد جديد ليعسكر خارج المدينة . ولم يحقق القنصلان الجديدان ، بيزو ومنشينوس ، عام ١٤٨ ، أي نجاح ، وكانا من العجز وعدم الكفاءة بحيث كادا يوديان بقواتهما الى تهلكة لولا جهود أحد الضباط المرافقين ، وهو الضابط المنتخب من الشعب شيبيو أميليوس ، حفيد شيبيو الأفريقي . لكن مع حلول السنة التالية ، عاد شيبيو الحفيد الى روما حيث انتخب قنصلاً ، وعهد اليه بمهمة اخضاع قرطاجة وتدميرها . وكان رجوعه الى أفريقيا ايذاناً بتحول تام في الموقف .

انصرف شيبيو الحفيد ، حال رجوعه ، الى العمل على رفع المعنوية والفاعلية لدى قواته ، وعلى المضي في الحصار بعزم وشدة . وكانت أول حركة له الهجوم على ميكاره ، أحد ضواحي المدينة ، ونجح فاشتق ممراً مع حوالي ٤ آلاف جندي ، لكن ليرغم آخر الأمر على التراجع تجنباً لأن يغوص ورجاله في منطقة مغمورة، متقطعة بالسياجات الشجرية والقنوات المائية والبساتين . لكن كان للرومان من وراء هذه العملية مكسب لم يكن متوقعاً ، ذلك لأن أسد روبال ، قائد الجيش القرطاجي خارج الأسوار ، وقد ظن أن المدينة توشك على السقوط ، أسرع فتراجع بقواته الى داخل الأسوار تقوية للحامية كما ارتأى ، مما سمح لشيبيو بعزل شبه الجزيرة ، التي تقوم عليها المدينة ، عن مناطق الداخل وأريافها ، ثم عمد بعد ذلك الى تصغير حجم

المناطق الداخلية الموالية لقرطاجة ، مانعاً بذلك كل مصدر للتموين والامداد ، تمهيداً للانقضاض أخيراً على قرطاجة نفسها .

استمر سكان قرطاجة على القتال بشجاعة وعزم اليائس ، وكان من دوافعهم الى الشعور باليأس والاستمتاتة ، الى حد ما ، ما فعله أسد روبال عمداً من عرض لأسرى الرومان عبر الواجهة البحرية ، ثم قتلهم هناك بوحشية بالغة ، قاضياً بهذه القسوة ، عملياً ، على كل احتمال بشروط استسلام معقولة . وقد رد شيبيو على ذلك بأن أخذ في بناء حائط ضخم عبر مدخل الميناء كي يزيد في اغلاق المدينة وعزلها . وكان السكان يخرجون وينجحون في تخريب العمل قبل أن يتم ، وتنجح سفنهم ، وكان عددها خمسين ، في مهاجمة الأسطول الروماني الذي كان يحمي الجنود الرومان القائمين ببناء الجدار وامدادهم بالطعام ومواد البناء . ورغم أن هذه السفن القرطاجية قد حققت بعض النجاح في بادىء الأمر ، الاّ أنها هزمت آخر المطاف وارتدت عاجزة لتلجأ الى داخل المدينة .

وأخيراً ، بعد أربع سنوات من حصار شديد ، ومن مقاومة قرطاجية أسطورية وان جاءت متأخرة ، صار شيبيو جاهزاً لتوجيه الضربة القاضية . وكان الجوع في ذلك الوقت قد فعل فعله في المدينة ، وهكذا ، وعندما قام شيبيو بمهاجمة دفاعات المدينة فانه لم يواجه بسوى مقاومة قصيرة . وقد قاد شيبيو جيشه الى داخل المدينة ، متوغلاً دون كبير صعوبة حتى ساحة السوق العام . وكان أسد روبال قد انسحب هذه الأثناء الى بيرصه ، القلعة المحصنة ، حيث استطاع أن يصمد ستة أيام ، في حين كانت تتعالى من المدينة تحته أصوات المنتصرين وهم ينهبون ويقتلون ، وكذلك الصراخات المفجعة لضحاياهم من السكان .

وأخيراً عمد الباقون أحياء من أهالي قرطاجة ، وكان عددهم حوالي ٥٠ ألفاً ، بمن فيهم أسد روبال الذي نكل بأسرى الرومان ، الى القاء أنفسهم على أقدام شيبيو راجين رحمته . أما زوجة أسد روبال ، وكانت من معدن أشد وأصفى ، فقد بدأت بقتل أولادها ، ومن ثم بالقاء نفسها في نيران بناء كان

يشتعل ولا الاستسلام الى الرومان . وكان ممن لم يستسلموا زهاء ٩٠٠ فار من الجيش الروماني ، وكانوا لا يتوقعون شفقة أو رحمة ، وقد ألقوا أيضاً بأنفسهم في نيران أحد المعابد ، ليحترقوا حتى الموت .

استمرت المدينة على الاحتراق مدة عشرة أيام ، والروْمان يسلبون وينهبون ويعتدون ما شاء لهم الهوى ، دون قيد أو رادع ، باستثناء وجوب الاحتفاظ بكل ذهب أو فضة برسم خزائن الدولة . وقد بيع ما بقي حياً من السكان في سوق الرقيق ، ثم عمد بعدئذ الى تدمير المدينة بصورة منتظمة ، بناء بناء ، حتى لم يبق قائماً من أحجارها حجر على حجر . ثم أتي بالمحاريث لفلاحة الأرض وشقها ، وغمرت البقعة التي كانت تقوم عليها المدينة بالمياه المالحة ، اعلاناً بأنها ستبقى أرضاً بواراً الى الأبد .

هكذا اندثرت قرطاجة ، عروسة البحر المتوسط ، وزالت من عالم الوجود بعد وفاة ابنها هانيبال بأربعين سنة . وقد استحقت هذه النهاية نتيجة لما كان عليه وجهاؤ ها ومترفوها من فساد وفسوق وقصر نظر ، ولقبول مستضعفيها بهذا الحال وعدم قيامهم بأية خطوات لاصلاح أحوالهم وأمر زعاماتهم. وقد استطاعت روما ، بهذه النهاية ، أن تطمئن على مصيرها ومستقبلها ، وأن تخلد أخيراً الى الراحة والمتعة بهدوء وسلام .

تقييم ورأي

بقيت قرطاجة ، حتى نهاية أمرها ، عاجزة عن تفهم تطورات الزمن الذي كانت تعيش فيه ، واستمرت ، حتى آخر لحظة من حياتها ، لا تعرف كنه الخطر الذي يتهددها ، ولذا فلم تكن قادرة على مواجهته عندما دقت الساعة .

وفي تقديري أن قرطاجة هي أحسن مثال ينطبق عليه القول الكريم ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ﴾ (سورة الاسراء ، الآية ١٦) .

ولا يختلف القرطاجيون عن الرومان في معاملة الخصوم والأسرى

بالقسوة والوحشية ، ولا من حيث المعاملة السيئة للأقوام المغلوبة أو المستضعفة ، لكن لروما أفضلية في هذا المجال ؛ فقد استطاعت أن تجمع أقوام ايطاليا المختلفة في كيان دولة واحدة ، فتستفيد من هذه الأقوام في حربها وسلمها ، وانتهت فصهرتها في بوتقة واحدة ، وجعلت منها شعباً واحداً في دولة واحدة .

أما قرطاجة فقد بقيت ، طيلة سبعة قرون وأكثر ، تعيش جسماً غريباً في أفريقيا ، تعامل الفينيقيين المجاورين معاملة الأيتام على موائد اللئام ، تحرمهم من استقلالهم وسيادتهم وأمور دفاعهم ، وتستغل سكان البلاد الأصليين وترفض كل امتزاج معهم . وقد دفعت من جراء هذه المعاملة الطائشة ثمناً باهظاً ، اذ لم تجد من أولئك القوم عوناً لها في محنتها ، وكانوا على العكس مرحبين مهللين بكل خسارة أو هزيمة تلحق بقرطاجة، جيشاً وأسطولاً ودولة .

الفصل السادس عشر

هانيبال في تقييم عاطفي لمحبيه

خصائص وميزات القائد العظيم - التكتيك والاستراتيجية - المنزلة بين قادة التاريخ - الحملة الايطالية - حلم لم يتحقق.

OOOOOOOOO

انه لعسير على المرء ان يعطي تقييماً صحيحاً منصفاً لقائد كبير ينتهي الى الهزيمة في ساحة المعركة . يميل المؤرخون والنقاد غالباً الى الحط من قيمة القائد المهزوم ، وقليلاً ما يبحثون بجد واخلاص في الظروف والملابسات التي ربما تكون قد تسببت في وقوع الهزيمة . وقلة هم القادة الذين سلموا من مثل هذا التقييم السطحي المتسرع ، ومن هذه القلة نابوليون بونابرت الفرنسي ، الذي انتهى مهزوماً في واترلو عام ١٨١٥ ، وكذلك المارشال الألماني اروين رومل ، قائد الفيلق الألماني في الشمال الأفريقي خلال الحرب العالمية الثانية ، والذي خسر في معركة العلمين أمام المارشال البريطاني مونتغومري ، في نهاية عام ١٩٤٢ .

والحكم لصالح المنتصر كثيراً ما يكون رد فعل لما كان يبعثه القائد المهزوم في نفوس خصومه من تخوف وقلق ، بالاضافة الى ما يلجأ اليه المنتصر عادة من تضخيم ومبالغة في وصف أعماله ومنجزاته ، ومن تصغير واستهانة بأعمال قادة الخصم ، والحط من شأنهم وقيمتهم أثناء الحرب ،

وذلك كوسيلة للحد من تدهور المعنويات ، وكواسطة مقبولة لشحذ الهمم وتوطيد العزائم ، وهذا تصرف مقبول عموماً رغم ما قد يتمخض عنه من غرور وادعاء ، وبالتالي من خطأ في حسبان الأوضاع والامكانات لدى الطرفين ، وتقييمها بتحيز وبعد عن الضبط والدقة .

ولكي نعرف قيمة هانيبال كقائد ، ومنزلته بين كبار قادة التاريخ ، علينا اولاً ان نبدأ النظر في الخصائص والميزات التي توجد في القائد العظيم . ان أولى هذه الصفات وأهمها هي الكفاءة في مجالي الاستراتيجية والتكتيك . فالقائد الكبير يجب ان يكون استراتيجياً جيداً وتكتيكياً جيداً كذلك . الا ان الاستراتيجي الجيد ليس هو حكماً جيداً في التكتيك ، ولا التكتيكي الجيد هو بالشرط استراتيجي قدير . ولكن القائد الكبير هو الذي يكون متفوقاً في كلا المجالين ، في التكتيك والاستراتيجية ، وفيما عدا ذلك ، فهناك خصائص أخرى يجب ان يتحلى بها القائد ليكون عظيماً .

ويقتضي للنجاح في القيادة ، علاوة على المهارة في الاستراتيجية والتكتيك ، ان يكون القائد حسن الادارة ضليعاً في اللوجستيك ، والاّ راح جيشه مهزوماً لسوء التنظيم وانقطاع المؤن والامدادات . ويطلب من القائد ايضاً ان يكون بعيد النظر ، عميق التفكير ، سريع الادراك ، واقعي التصور والتخيل والتخطيط ، عارفاً لما يريد ، محتفظاً بهدفه نصب عينيه ، فلا يفقده او يتخلى عنه دون مبرر قاهر . وعليه كذلك ان يحسن الارتجال والتعامل مع الطوارىء والمفاجئات ، بارعاً في سياسة الآخرين وتسييرهم ، قادراً على فرض شخصيته والاقناع بكفاءته وحسن قيادته ، وعلى حمل الآخرين على مواجهة الشدائد والأخطار واثقين من صحة أوامره وصواب تخطيطه . وهناك أخيراً صفتان أخريتان لا بد منهما ، وهما الجرأة لكن دون تهور ، وانتهاز الفرص حال حدوثها ، بالاضافة الى حاسة الشعور بتردد الخصم وتخبطه ، واستغلال ذلك في التو واللحظة .

نصيب هانيبال من هذه المؤهلات

يحظى هانيبال في اعتبار كثير من الناس وتفكيرهم ، في أقطار الشرق العربي خاصة ، بسمعة وتقدير تزيدان كثيراً عن مكانته واستحقاقه ، وذلك رغم ما كان من أخطائه ورغم هزيمته آخر المطاف في معركة زاما ، عام ٢٠٢ق م . وسبب ذلك ، في اعتقادي ، جهل بتاريخه كقائد في الميدان ، أضف الى ذلك مشاعر الأسى والعطف لنهايته المحزنة ، وللنهاية الأليمة التي آلت اليها قرطاجة ، المدينة والدولة . ونتيجة للجهل بحقائق التاريخ ، وتأثراً بمشاعر العطف والأسى ، وكرهاً بروما ، الدولة والامبراطورية ، فإن كثيراً من الكتاب والباحثين يضفي على هانيبال معظم ما تقدم ذكره من مؤهلات القيادة وميزاتها .

يقول أنصار هانيبال انه كان استراتيجياً لامعاً ، وقد بني هذا القول على أساس تخطيطه لغزو ايطاليا ، وتحقيقه لهذا الغزو بصورة تخطف الأنفاس ، كما يقولون . اما في اعتقادي فإن الخاصة الوحيدة لذلك الغزو هي انه كان مفاجأة بالنسبة للرومان ، لكن مفاجأة لم يستفد منها كما كان متوقعاً ، ولا كان لها غد . كانت روما ترى ان حرباً بونية ثانية ستتخذ ولا بد نفس مسار الحرب البونية الأولى ، اي ان قرطاجة ستكون في وضع المدافع ، وروما تسيّر الأحداث وتملي الشروط والظروف . لم يكن ليخطر على بال روما في ذلك الوقت ان تقوم قرطاجة بغزوها في عقر دارها . وقد وقع هذا الغزو ، عند حدوثه ، على مجلس شيوخ المدينة ، وقوع الصاعقة ، قالباً جميع خططه رأساً على عقب ، وفارضاً عليه ، ولو الى حين ، ان يتخلى عن كل تفكير بغزو أفريقيا ، وكان يخطط لمثل هذا الغزو من قبل . ويقول أنصار هانيبال انه لولا الحاح شيبيو الأب ونفوذه لكانت روما ربما تخلت نهائياً عن التفكير بغزو أفريقيا ، مع ما كان سيتأتى عن ذلك من تطورات ونتائج على مجريات الحرب . والصحيح من كل هذا ان المفاجأة قد وقعت ، وقد صرفت الرومان مؤقتاً عن التفكير بارسال حملة الى أفريقيا ، ولكن قرطاجة لم تجن من وراء ذلك فائدة ولا غنماً ، وانتهى أمرها الى الخسران والدمار .

وهناك من يرى ، وهم كثر ، ان هانيبال كان استراتيجياً فاشلاً ، بل وجاهلاً بالاستراتيجية الى حد يبعث على الحيرة والاستغراب . ان التفكير والتخطيط شيء ، والتحقيق شيء آخر ، والوصول الى الأرض الايطالية بالتضحية بثلاثة أرباع الجيش ثمناً لذلك لهو الحماقة والفشل بعينه . والقول كذلك بأن قرطاجة قد لجأت الى الهجوم هذه المرة بدل الدفاع الذي كانت عليه من قبل ، لا يمكن اعتباره ميزة ما لم يكن له ما يبرره . والهجوم لا يعني التهور في مغامرات ومتاهات نائية بعيدة عن القواعد ، خاصة لدى هانيبال الذي لم يخلف وراءه قاعدة يصح الاعتماد عليها ، سواء كان ذلك في اسبانيا أم في افريقيا، أم في قرطاجة بالذات، ثم ان قضاء مدة ١٥عاماً في ايطاليا، دون انقطاع ، ودون تحقيق اي هدف استراتيجي لهو الفشل التام بعينه . اننا نحاسب هانيبال استراتيجياً ، على افتراض انه كان المخطط الاستراتيجي للحرب البونية الثانية . واذا اعتبرنا انه لم يكن المخطط الاستراتيجي للحرب بصورة اجمالية ، فإنه كان كذلك في اسبانيا وايطاليا ، ويتحمل ايضاً مسؤولية التخطيط الاستراتيحي في قرطاجة نفسها ، لأنه كان وانصاره مسموعي الكلمة في ذلك الوقت بالذات .

ونحن، في دراستنا لأعمال هانيبال واستعراضنا لحركاته ومعاركه ، فإننا نحاول الشيء نفسه بالنسبة لخصمه شيبيو . واننا نجد ، بالدراسة والمقارنة ، ان شيبيو يعلو مستوى ، تكتيكياً واستراتيجياً ، على هانيبال بكل تأكيد . ان الموضوع هنا علمي ، ولا محل فيه للعاطفة او الغوغائية ؛ فالقائد الروماني ، منذ ان تولى القيادة في اسبانيا حتى معركة زاما وما تلاها ، لم يرتكب أي خطأ تكتيكي او استراتيجي . اما هانيبال فقد كان فاشلاً استراتيجياً بصورة عجيبة ، وكانت له ، رغم نجاحاته في تريبيا وترازيمين وكانّه ، أخطاؤه التكتيكية ، وخاصة في معركته الأخيرة الحاسمة ، في زاما .

يتمثل خطأ هانيبال وضعفه الاستراتيجي في النقاط الحيوية التالية :

١ ـ قاعدة ضعيفة هشة ، سواء في قرطاجة او في اسبانيا .

٢ ـ مقدرة عسكرية تقتصر على هانيبال دون سواه .

٣ ـ مواصلات غير أمينة ولا مضمونة .
٤ ـ استعلامات ضعيفة .
٥ ـ طريق مسير أولي خاطىء .
٦ ـ هدف استراتيجي عام ساذج وغير قابل للتحقيق .
٧ ـ اهمال للخطورة الاستراتيجية والقيمة العسكرية للقوة البحرية وللسيطرة على البحار .
٨ ـ غياب كلي لسلاح الحصار .
٩ ـ عدم الاستفادة من الفرص السانحة الناتجة عن الانتصارات التكتيكية .
١٠ ـ فقدان الاتصال والارتباط مع القواعد .
١١ ـ عدم اعتراضه لشيبيو الأب عند نهر الرون .
١٢ ـ قبوله في زاما بخوض معركة مصيرية حاسمة وهو على غير استعداد ، ودونما مبرر قاهر .

التكتيك

يحتل هانيبال ، في المجال التكتيكي ، وضعاً خاصاً . فالذين يرون فيه مثالاً مجسماً للاستراتيجي اللامع ، يرونه تكتيكياً متفوقاً كذلك . انهم يعتبرون معركة كانّه تحفة فنية رائعة ، تحفة تضع اسم هانيبال في سجل الخالدين ، على رأس اللائحة لقادة التاريخ البارزين .

ان التكتيك ، كما نعلم ، هو المعرفة والفن باجراء المعارك ، ويهتم : بالمسير الى القتال ، ترتيب القوات ، استعمال مختلف الأسلحة ، تنفيذ التحركات بقصد الهجوم او الدفاع ، في نطاق مسرح محدود ولمعركة بعينها . وهناك من يعرف التكتيك بقوله انه التنظيم وادارة المعارك منفردة بذاتها ، وبأن الاستراتيجية هي الاعداد لهذه المعارك المنفردة ثم مزيجها بعضاً على بعض .

في معركة « كانّه » ، قام هانيبال ، على مرأى من خصمه ، بتحويل سهل مفتوح الى فخ مطبق ، وكان ذلك عملاً رائعاً دون شك . لم يكن قادة الرومان في تلك المعركة من طبقة هانيبال ومستواه ، ولكنهم لم يكونوا أغبياء

عديمي الخبرة بأمور الحرب كما يحلو للبعض ان يقول . ومن المؤكد انه ما كان باستطاعة هانيبال ان يوقع في ذلك الفخ قائداً من طبقة شيبيو الأفريقي ومستواه ، لكنه كان ولا بد سيلجأ الى تدبير يختلف عن تدبيره في « كانّه » ، وهو توقع مفروغ منه ، لأن احدى خواص هانيبال المميزة كانت تبنيه لتكتيكات واستراتيجيات على أساس ما يعرفه من طبائع وعادات خصمه . وكذلك كان الكمين في ترازيمين غاية في الحذق والإبـداع والاستفادة من الظروف المحلية ، وقد جرى تنفيذه بدقة ومهارة ، ويعتبر بحق أحسن نموذج من نوعه في التاريخ العسكري كله . وفي تريبيا ، حيث استُدرج الجيش الروماني ، عبر النهر المثلج ، الى خوض معركة بمعدة خاوية ، كانت طريقة هانيبال الى ذلك أيضاً تحفة فنية أخرى . وكان يعيد تطبيق أساليبه الفنية المبتكرة هذه مرة بعد أخرى ، خلال سنوات اقامته الأخيرة في ايطاليا .

ويتابع محبو هانيبال دفاعهم وتمجيدهم لأعمال بطلهم ، الى ان يصلوا الى معركة زاما فَيُسألون : وماذا عن زاما ؟ ! . لنستمع الى ما يقولون . . . لقد هزم هانيبال في زاما ، وهذا صحيح ! . بيد ان دراسة المعركة تبين بوضوح انه لم يهزم على يد قائد أفضل منه ، وانما بجيش أفضل من جيشه ، وحاله آنذاك كحال المارشال اروين رومل في معركة العلمين ، في نهاية عام ١٩٤٢ . فرومل لم يهزم لأن المارشال مونتغومري كان يبزه كقائد ، وانما هزم بالأعتدة والامدادات البريطانية الوفيرة ، وكان جيشه ضعيفاً منهوك القوى ، محروماً من الطيران والمدرعات والمحروقات والامدادات . ان معالجة هانيبال للوضع التكتيكي في زاما ، على أساس الظروف القائمة يومذاك ، كانت خير ما يستطاع عمله . ولقد تفوق بالتأكيد على شيبيو في أسلوب ترتيب قواته على ثلاثة أنساق ، وفي الاحتفاظ بأفضل هذه القوات كاحتياط ، ولو تأخر رجوع الخيالة الرومانية الى ساحة المعركة عن موعده لوقت أطول لكانت النتيجة قد راحت الى صالح هانيبال دون جدال . . . انه كثير من لو ولو كما نرى ! .

وقد انتقد هانيبال لاستعماله الفيلة في تلك المعركة ، غير ان وجود ٨٠ فيلاً في حوزته ، ولو صغيرة السن وغير مدربة ، كان دافعاً قوياً على المغامرة

باستعمال هذا السلاح كموجة صدم عاتية ، وكان هذا الاستعمال قراراً تكتيكياً له ما يبرره نظراً لضعف المشاة القرطاجية وضعف الجيش القرطاجي في سلاح الفرسان . كان من الممكن ان ينجح هجوم الفيلة . . . ولو تحقق هذا النجاح لكان جميع المنتقدين قد نادوا بعبقرية هانيبال ونبوغه . لم تنجح الفيلة كما كان المرجو من وراء استعمالها ، لكنها على كل حال ألحقت أضراراً بالغة بالمشاة الرومانية الخفيفة ، بدليل ان هذه المشاة لم تقم بعدئذ بدور ذي شأن في المعركة . واذا كانت هذه الفيلة نفسها قد ألحقت بعض الأضرار بقسم من خيالة هانيبال وساعدت على هزيمتها ، فقد كان ذلك أمراً ثانوياً ، لأن هذه النتيجة كانت أمراً حتمياً نظراً لما كان من تفوق الرومان الكاسح في هذا السلاح .

لقد عاشت قوات هانيبال سنوات عديدة في مناطق معادية ، وسنوات عديدة أخرى كذلك في أقاليم أجنبية لكن صديقة ، دون ان ينقلب السكان عليها ، ودون ان يشعر هؤلاء بأنها عبء اقتصادي ثقيل عليهم ، وفي هذا أحسن الدلالات على ان هانيبال كان ادارياً من درجة ممتازة . والواقع ان هانيبال كان ، طيلة سنوات وجوده في ايطاليا ، موفقاً في معالجة شؤونه الادارية ، وفي تدبير الطعام لجنوده والعلف لخيوله ، وفي تحميل روما لهذا العبء .وقد استطاع ، رغم انقطاع موارده المالية من اسبانيا وقرطاجة ، ان يستمر على دفع مخصصات جنوده بانتظام ، وان يتحاشى أخذ المؤن من المناطق الصديقة دون دفع الثمن . ولا بد من الاعتراف بأن هذا النوع من الادارة كان انجازاً عظيماً واقتصاداً حكيماً ، وقد قام أساساً على المال الحاصل من بيع الأسرى والغنائم .

وقد برهن هانيبال فيما بعد ، في قرطاجة بعد الحرب ، عن احاطة كاملة بالقضايا الاقتصادية والنواحي المالية ، وقدرة على تعيين الأخطاء والمفاسد في ادارة فاشلة ، ومعالجتها بصورة صحيحة ، وكانت النتيجة ان نجح فحول قرطاجة من دولة مفلسة الى دولة مزدهرة اقتصادياً ومستقرة مالياً ، وذلك في غضون عامين من الزمن .

الاستراتيجية

كان هانيبال ـ نحن دائماً مع أقوال محبيه ـ كاملاً في التخطيط العام وفي الاستراتيجية البعيدة المدى . وقليل هم المؤرخون والكتاب الذين أعطوه تقديراً لتلك المخططات البعيدة النظر ، التي وضعها قبل ان يمضي في حركته الى ايطاليا . لقد اختط لمشروعه ، منذ البداية ، استراتيجية شاملة ، تمسك بها في السراء والضراء ـ وهذا هو الخطأ بعينه ـ غير فاقد أبداً لهدفه الرئيسي ، وهو فصم عرى الكونفدرالية الايطالية بزعامة روما،واستبدالها بمؤسسة متوسطية فضفاضة ، تقوم فيها قرطاجة بدور الزعامة والريادة ، لكن دون ان يؤدي هذا الدور ، شرطاً ، الى التسلط والهيمنة .

وكان تخطيطه ، على مستوى أدنى ، للحركة من قرطاجة الجديدة حتى نهر « بو » ، انجازاً فريداً لم يتكرر بعد في السجلات العسكرية . لم يكن ذلك مسيراً طويلاً فحسب ، بل ان قسماً كبيراً من الطريق كان يمر خلال أقطار لم يكن يعرف عنها شيئاً عدا معلومات من التجار والعملاء ، وقد اجتاز سلسلتين عظيمتين من الجبال ، وعبر نهراً كبيراً وعدة أنهار صغيرة . لقد كان عليه ان يخطط للاتصال مع الأقوام المختلفة المنتشرة على طول طريقه ، محاولاً حملها ، كلما كان ذلك ممكناً ، على مساعدته بدلاً من مقاومته ، وان يؤقت لسيره بحيث يستطيع العيش على موارد الأقطار المجتازة ، معظم الوقت . انه لمن العسير ، حتى في هذه الأيام بالذات ، تحقيق مسير طويل بقوة من ذلك الحجم ، خلال براري غير مطروقة ، وفي وجه سكان معادين في أغلب الأحيان . ورغم ذلك فقد نجح هانيبال بانجاز هذا العمل الشاق ، دون مساعدة من مثل ذلك العدد الكبير من الأركان والمعاونين الذين هم تحت تصرف القادة في هذا الزمن .

وفيما يتعلق بالزعامة القيادية ، فإن هانيبال يحتل في هذا المجال مكاناً مرموقاً بين أعظم قادة التاريخ . لم يكن قط قائداً لجيش من المواطنين ، وانما كان يقود جيشاً من المرتزقة ، من أجناس عديدة ومعتقدات متنوعة : قرطاجيين ،

اسبان من مختلف القبائل ، غاليين ، ايطاليين ، واخيراً من بربر[١] واغريق ولو بنسبة أقل . كان هكذا تشكل الجيش على هذا النحو ، ورغم ذلك فإننا لم نقرأ عن حدوث نزاعات بين هذه القوميات المختلفة ، ولا وقعت حوادث هروب او خيانة خطيرة طوال هاتيك السنين العديدة الممضاة بعيداً عن الأهل والوطن ، وفي ظروف كانت تزيد خطورة وتوتراً مع ميلان الميزان الى جانب روما .

لم يكن هانيبال يتمتع بجاذبية الاسكندر الكبير وسحر شخصيته ، ولا بطلاقة نابوليون وحلاوة لسانه وقوة بيانه ، كما لم تكن له لياقة هذين القائدين على الاختلاط بالجنود ومبادلتهم النكات والفكاهات . ومع انه في صباه ، في اسبانيا ، كان يألف الاختلاط بقبائل السلتيريان ، الّا انه لم يعرف عنه انه كان رفيق عشرة ومرح . وعندما غادر اسبانيا الى غير رجعة ، في مغامرته الايطالية ، فإنه يبدو انه كان قد صار شخصية صارمة بعض الشيء ، غير انه كان ، كجميع الرجال العظام ، يتمتع بموهبة الايحاء بالثقة والولاء ، وبالحب أحياناً، وبنوع من الفكاهة الرزينة والدعابة الهادئة. وكان مازينيسّا النوميدي وحده الذي غادره دون بقية الضباط جميعاً، وذلك لأسباب سياسية بحتة كانت فيها المصلحة الشخصية أقوى من أية عاطفة ولاء او صداقة ربما كان مازينيسّا يكنها لشخص هانيبال . والملفت للنظر ان قدرة هانيبال في التأثير على المحاربين الآتين من أقوام بسيطة كانت أقوى بكثير من قدرته على التأثير في رجال الدولة وأفراد الطبقة الأرستقراطية الحاكمة في قرطاجة . وعندما لجأ هارباً الى سورية ، فقد عاش منعزلاً عن بلاط أنطيوخوس الثاني وأفراد حاشيته ، وكانوا غارقين في الملذات والعادات الخليعة .

يحتمل ان تكون شخصية هانيبال القوية هي التي كانت تحمل المحارب البسيط على الوثوق به والامتثال لأوامره طواعية وعن طيب خاطر ، أضف الى ذلك اعتقاد الجنود بكفاءته وحسن قيادته ، وهذا أمر لا يتحقق الّا مع تراكم

(١) سكان منطقة برباري الجبلية في المغرب والجزائر .

التجارب والخبرات . وكان جنود هانيبال القدماء يعرفون انه عندما يزج بهم في معركة ، فإنما يقدم على ذلك بعد ان يتخذ ويحتاط بكل شيء ممكن لضمان النصر ، ويعرفون ان عليهم القيام بما تبقى كنصيبهم من العملية ، وكانوا بدورهم يقومون بأقصى جهدهم من أجله .

وكان لهانيبال من الجرأة ، والامساك الفطري بلحظة العمل السانحة ، حظ كبير . كان دائماً يأتي بالمبتكر والجديد ، وكان ، بالمقارنة مع قادة روما ، في أعلى عليين . لقد ظن أعداؤه ، المرة تلو المرة ، بأنهم قد أوقعوه في حبائلهم ، وكان كل مرة يفلت منهم لجرأته ، او لمهارته في الاستفادة من أخطائهم . ان نجاته في سهل فاليريان ، وقد ظن فابيوس انه قد اصطاده او كاد ، لمثال ناطق على ذلك . ان الأمثلة عديدة كثيرة من هذا النوع ، وان الاستعمال التكتيكي للضباب في ترازيمين ، والماء المثلج في تريبيا ، لمن الأمثلة التي حالما تخطر على البال في هذا الصدد ، وان الاغراء الذي مثله لمينيشيوس لهو دلالة متألقة عن كيفية استخدامه للخواص التي يتميز بها خصومه .

وهكذا ، وفي كل ما تقدم ذكره ، فإن هانيبال ، في رأي المعجبين به ، يفوز بالعلامات العالية . ولكن ما هي الموهبة التي كانت بمثابة قوته الشخصية الرئيسية ؟ انها ، كما يقول هؤلاء ، كانت مهارته في التعامل مع كل جزء من جيشه كأجزاء متكاملة في وحدة قائمة ، بحيث كان كل جزء يقوم بواجبه على خير وجه ، معطياً كامل طاقته . ولقد اشتهر هانيبال ببراعته في استعمال الخيالة . فسلاح الفرسان قد لعب دوراً كبيراً في جميع انتصارات هانيبال ، وكان ضعفه في هذا السلاح ، في معركة زاما ، السبب الأول لهزيمته في تلك المعركة . كان يستعمل خيالته الخفيفة للاستطلاع بحثاً عن العدو ، وجمعاً للمعلومات ، وتغطية للمؤخرات عند التراجع ، وفي المطاردة . وكانت خيالته النوميدية مثالية للقيام بكل هذه الواجبات ، وكان هانيبال يستخدمها بصورة حاذقة . اما خيالته الثقيلة ، القرطاجية والاسبانية ، فقد كان يستعملها للانقضاض والصدم والاختراق وابادة المؤخرات .

لم تكن الخيالة الخفيفة لتستعمل للصدم والاكتساح والاختراق كالخيالة الثقيلة أثناء المعركة ، ولكن كانت تستعمل ، علاوة على ما تقدم من أعمال الاستطلاع والتغطية والمطاردة ، لأعمال ميدانية من شأنها احتواء العدو واشغاله الى ان تقوم الخيالة الثقيلة بتصفيته . كانت الخيالة بنوعيها ، ثقيلة وخفيفة ، دائماً تحت سيطرة هانيبال الكاملة ، ودائماً معدة جاهزة للقيام بواجبات جديدة . وفي معركة « كانّه » ، قامت الخيالة الثقيلة بالهجوم لتكتسح خيالة الرومان المواجهة ، وثم ، وبعد ان طُردت هذه الخيالة من الساحة وتشتت شملها ، عادت الخيالة القرطاجية الثقيلة فاستجمعت قواها وارتدت منقضة على الخيالة الرومانية الأخرى الحليفة ، التي كانت تواجه الخيالة النوميدية ، فطردتها من الساحة بدورها ، ثم عادت فتجمعت مرة أخرى لتنقض على مؤخرة المشاة الرومانية وتكيل لها الضربة الصاعقة . وفي حركات الخيالة هذه ، المتكررة بفارق زمني بسيط ، والجارية لغايات متنوعة ، وبكل دقة وانتظام ، دليل واضح على مستوى عال من السيطرة الفعلية ، وعلى مهارة في التخطيط والادارة والتنسيق من لدن هانيبال .

وأن مهارة هانيبال في استعمال المشاة ، لا تقل عن مهارته في استعمال الخيالة كسلاح رابح في المعركة . لقد كان على معرفة تامة بقيمة مشاته وامكاناتها ، وقد استعملها ، بدرجة الكمال ، في جميع المواقف وكل المعارك . كان قسم من جيشه يتكون من متطوعي القبائل الغالية ، وكانوا مقاتلين أشداء وان لم يكونوا من مستوى جنوده القدامى ، الاسبانيين والأفارقة ، من حيث الانضباط والتدريب . وقد سبق لمقاتلي قبائل غاليا أن هُزموا مراراً على يد القوات الرومانية ، لكنهم في جيش هانيبال ، وبفضل رعايته ومهارته ، فقد كانوا يواجهون الرومان بحذق ونجاح ، كما يشهد بذلك قتالهم التراجعي التناوري في « كانّه » ، وكان ذلك التراجع المتعمد أساسياً لنجاح خطة هانيبال وتقرير مصير المعركة .

كان هانيبال ، على نحو ما ، وبصورة مستمرة ، يوحي لقواته بالثقة والاطمئنان والولاء لشخصه ، وهو أمر يصعب الفوز به من لدن الأقوام

المتخلفة ، القبلية منها بوجه خاص ، وقد برهنت هذه القوات عن جدارتها ولياقتها للقيام دوماً بكل مهمة ، الاّ أن العناصر التي تكونت منها هذه القوات ، مجندِة ومنظمة وتحت امرة قادة آخرين ، قد فشلت في كل مجابهة مع قوات روما تقريباً ، على عكس ما كان عليه الحال تحت قيادة هانيبال ، الأمر الذي هو بمثابة الدليل الدامغ على استطاعة القائد القرطاجي الكبير وقدرته على الارتفاع بجنوده الى مرتبة أعلى من مستواهم ، الى مستوى لا يبلغونه مع سواه .

وكان كل عضو في جيش هانيبال يعطي عن نفسه صورة جيدة . وكان هانيبال يصوغ هذا العطاء ، ويمزج المهارات الفردية ، ويصنع منها نسيجاً قوياً متيناً ، ووِحدة كلية متكاملة ، تماماً كما يفعل قائد الأوركسترا على رأس جوقة موسيقية . فعندما كان هانيبال يقود ، فان كل عضو في جيشه كان يعزف مساهماً في المعزوفة العامة . ولربما كان من أعظم ميزات هانيبال الأخرى حاسته التي لا تخطىء بخواص الأرض . لقد كان دوماً يجعل من الأرض حليفاً يقاتل من أجله . وكان يختار ميادين معاركه بعناية ، ويملي هذا الاختيار على خصمه ، ويرفض المعركة بانتظار العثور على الأرض التي توافق هواه . والاستثناء الوحيد لهذه القاعدة كان في « زاما » ، حيث لم تكن له حرية الاختيار .

وكان ماهراً في التغلب على الصعوبات أو التحايل عليها ، ولم يكن يتمسك بأمر ما إذا رأى مصلحة في التخلي عنه . ولم يكن أيضاً بالرجل الذي يشتق طريقه برأسه ، بهجوم جبهوي ، وذلك ما ظل باستطاعته أن يجد سبيلاً الى باب خلفي أو جانبي يمر منه . وكان فوق ذلك شديد العناية بجنوده حريصاً على سلامتهم ، الأمر الذي كان يجعله قريباً الى قلوب الجنود محبوباً منهم ، متمتعاً بعرفانهم وتقديرهم الكبير .

نقاط الضعف في نظر المحبين

يكاد هانيبال يكون ، في نظر المعجبين به وتقديرهم ، منزهاً عن الأخطاء

والعيوب . انهم لا يرون ولا ناحية ضعف في حياته العسكرية كلها ، وذلك رغم انتقاد تصرفاته من قبل العديد من المؤرخين والأخصائيين ، وخاصة لعدم مسيره على روما مباشرة عقب معركة « كانه » . وقد يكون خطأه الأول والوحيد ، برأي أنصاره ، قراره بأن لا يخوض معركة مع شيبيو الأب ، على نهر الرون . ومع ذلك فهم يقولون أن هذا القرار كان في حينه منطقياً سليماً ، اذ لم يكن هناك من داع للمغامرة بمعركة في ذلك الوقت بالذات ، وعند تلك البقعة بالذات أيضاً . فقد كان من المحتمل التعرض الى نتيجة غير مريحة ، في حين كان يتوقع أن يكون القتال مستقبلاً أجدى في ايطاليا وأحسن رشداً . ولكن ، وكما جرت الأمور فيما بعد ، فان ذلك القرار ربما كان خاطئاً ! . فلو أن هانيبال تصدى لشيبيو عند نهر الرون ، فإن النتيجة كانت ولا بد تدمير الجيش الروماني ، وعزوف روما عن غزو اسبانيا ، في تلك السنة على الأقل . ومع وجود هانيبال يمرح ويسرح على كيفه في ايطاليا ، فلربما لم يكن من المحتمل أن ترسل روما جيشاً الى غزو اسبانيا في السنة التالية ، أو في السنة التي بعدها . . سنة أو سنتان أو أكثر كان أسد روبال برقه سيستفيد من مرورها لتوطيد سيطرته على شبه الجزيرة الايبرية[1] ، وبحيث يصير بوسعه نتيجة لذلك أن يبعث بالامدادات اللازمة الى شقيقه في ايطاليا ! . ومن يعلم ما الذي كان من الممكن أن يحدث ! . ولربما كان مصير الحرب البونية الثانية قد تقرر بامتناع هانيبال عن القتال عند نهر الرون ، وبقرار شيبيو الحكيم بالاستمرار على حركة جيشه الى اسبانيا ! .

وقد انتقد هانيبال ، أيضاً ، لخلو جيشه من سلاح الحصار ، وكان ذلك حقيقة ، مخجلة أحياناً ، بيد أن أنصار هانيبال يقولون أنه كان يشاركه في ذلك التقصير ـ اذا صح أنه تقصير ـ كل قائد في زمن كان فيه الدفاع المتمثل بالأسوار والحصون أقوى من الهجوم . وهو قول هراء دون شك ، ويعبر عن جهل أصحابه بما كان من حروب الاسكندر الكبير ومعاركه الرائعة قبل ذلك

(١) الاسم القديم لما هو اليوم اسبانيا والبرتغال .

الوقت بقرن ونيف من الزمن ! . وكذلك انتقد هانيبال لجهله أو قلة اهتمامه بالخطورة الاستراتيجية للسيطرة البحرية . وكان ذلك حقيقة أيضاً ، وغريباً صدوره عن رجل ينتسب الى أمة بحرية عريقة ! . لقد كان ، كنابوليون الفرنسي ، رجل الأرض اليابسة في طبيعته ونفسيته ، أو كان لا يعتقد بكفاءة البحرية القرطاجية واستطاعتها ، وذلك على أساس سجلها السيء خلال الحرب البونية الأولى ، واذا كان ذلك هو اعتقاده ، فقد كان مصيباً ، كما ظهر بالتجربة فيما بعد . وهناك ما يدعو الى الشك بأنه كان باستطاعته فرض شخصيته ، أو إحداث تأثير في قضايا البحر وسياسته . كانت في اسبانيا عمارة بحرية موضوعة تحت تصرفه ، لكن لا دليل على أنه استعملها أو استفاد منها ، كما لم يستفد أو يستعمل ، فيما بعد في ايطاليا ، أسطول تارنتين الذي كان ، على صغره ، قوياً فاعلاً الى درجة معقولة ، وذلك بحجة عدم التدخل في الشؤون الداخلية لحلفائه الطليان . ولا يسع المرء الاّ أن يخرج بقناعة من أنه كان لا يدرك أهمية السيطرة على البحار ، ولا يقيم وزناً لسلاح البحرية ، وإذا صح ذلك فهو يعني أنه كان يجهل القيمة والخواص الجغراسية لكل من قرطاجة وروما على السواء . ولكن هذا القول مرفوض من أنصار هانيبال بكل تأكيد .

منزلة هانيبال بين قادة التاريخ

لكي يمكن تعيين مستوى البطل القرطاجي كقائد على مستوى القادة العظام ، كما يقول محبو هانيبال ، فيجب لذلك أن يوازن مع معاصريه ، وأن يقارن مع قادة آخرين . فيما يتعلق بالقادة لدى الطرفين ، روما وقرطاجة بوجه عام ، فلا حاجة لقول كثير في هذا الصدد . فقد كان القادة الرومان ، باستثناء القليل ، أكفاء لكن عاديين وغير بارزين ، منضبطين يتقيدون بحرفية الأوامر والتعاليم ، ولا يقدمون على مبتكر أو جديد . وكان مارسللوس أشبه الناس ببلوخر[1] البروسي ، مفعماً بالضراوة والحيوية القتالية ، ان لم يكن بالمهارة

(١) قائد بروسي كان لاشتراكه مع حليفه البريطاني وللنكتون ، في معركة واترلو عام ١٨١٥ ، الأثر الحاسم في هزيمة نابوليون في تلك المعركة الفاصلة .

التكتيكية الكبرى ، وكان موته خسارة كبرى لروما ولا شك . وقد أظهر اكلوديوس نيرو ، في معركة ميتوروس ، تفهماً عميقاً للاستراتيجية والتكتيك على السواء، وكان ولا جدال جديراً بالدرس والمتابعة لو أمكن رؤيته مقاتلاً في مكان آخر . انه لمن العسير تقييم قائد على أساس معركة واحدة . وقد أظهر فابيوس حساً صحيحاً وادراكاً عميقاً وواقعياً . وهناك جدل حول ما اذا كانت استراتيجيته ، التأخيرية الاحتوائية ، قد أنقذت روما فعلاً ، بمنحها الوقت اللازم للم شعثها واستعادة زمام أمورها بعد كارثة ترازيمين . الا أنه يحتمل ، من جهة ثانية ، ان كانت هذه السياسة سلبية أكثر مما ينبغي ، وإنها لذلك قادت مباشرة الى كارثة « كانه » . ومهما كان الأمر فانه لا يمكن انكار انه كان ذا شجاعة اخلاقية كبيرة ، معوضاً بذلك ، الى حد ما ، عن محدوديته في مجالي الاستراتيجية والتكتيك . وفيما يتعلق بشيبيو الأب ، فقد أبدى ، كما رأينا ، اجتهاداً سليماً وادراك صحيحاً للأمور بارساله جيشه الى اسبانيا ، عوضاً عن الرجوع به الى ايطاليا ، لكنه لا يفرض شخصيته من الناحية التكتيكية . وأنه لمن الواضح البين ، رغم مزاعم بعض مؤرخي الرومان ، أن هانيبال لم يتعرض قط ، أثناء كل سنواته العديدة في ايطاليا ، الى خطر الهزيمة ، وأنه كان في الواقع عملاقاً بين أقزام .

نأتي الى موضوع شيبيو الابن ، أو شيبيو الأفريقي ، كما صار يلقب بعد انتصاره على قرطاجة في معركة زاما ، والى ما يزعم من أنه كان أفضل من هانيبال . لنبدأ أولاً بمناقشة انجازاته ؛ ففي حملته الأولى في اسبانيا ، أظهر بعد نظر استراتيجي كبير ، وجرأة تكتيكية عظيمة في تخطيطه واستيلائه على قرطاجة الجديدة ، وذلك رغم أن الوضع في هذه المدينة كان مساعداً له ومعيناً على التوفيق والنجاح ، من جراء سوء التعاون والتنسيق بين القادة القرطاجيين الثلاث في اسبانيا. وكانت انجازاته بعد تلك العملية، وإن اتسمت بالكفاءة، لا تعتبر من النوع الخارق للعادة. وقد هزم أسد روبال، شقيق هانيبال ونائبه في اسبانيا ، في معركة بائيكولا ، لكن لم يستطع منعه من الافلات بمعظم جيشه، والتوجه الى ايطاليا دون معارضة. ولو جمعنا كل انجازات شيبيو هذه فانها لا تتوازن مع أعمال هانيبال في ايطاليا، في ظروف أشد وأقسى.

ومن اسبانيا ننتقل الى الساحة الأفريقية . ان استراتيجية شيبيو ، في هذه الساحة ، لم تكن بأية حال شيئاً جديداً ؛ فقد سار فيها على خطى أغاثوكلس وريكولوس ، ولولا وجود هانيبال في إيطاليا لكانت روما قد قامت بمثل هذا الغزو قبل عام ٢١٨ ق م . وكانت ادارته للغزو تبدو ، مقارنة مع ادارة هانيبال لغزوه في ايطاليا ، مترددة ومغالية في الحذر والحيطة . وعلى كل حال فإن الانتقاد سهل ، خاصة بعد أن أعطت أساليب شيبيو أكلها في النهاية . نأتي أخيراً الى معركة زاما نفسها . أننا لا نستطيع أن نجد خطأ في استراتيجية شيبيو وتكتيكه ، سواء في استدراجه لهانيبال بعيداً عن قاعدته ، أو بعبثه نهباً وتدميراً في سهل بقراده ، وذلك للضغط على قرطاجة بتعريض مصدر تموينها الرئيسي الى الاتلاف والخراب ، وحملها بالتالي للضغط على هانيبال وارغامه على خوض معركة حاسمة على أرض لم يختارها بنفسه ، وقبل أن يكون مستعداً للقتال .

غير أن شيبيو لم يأت في زاما بتكتيك جديد ؛ فقد نظم جيشه للقتال بالأسلوب الروماني المعتاد ، باستثناء الممرات التي خصصها لمرور الفيلة . وقد ربح المعركة بفضل تفوق مشاته نوعياً ، وبثقل تفوقه العددي في سلاح الفرسان . كان شيبيو ولا شك أفضل قادة روما في ذلك الوقت ، ولكن هانيبال كان يبزه عسكرياً في كل شيء .

وإذا نحن أطلنا البحث ، تفتيشاً عن قرين لهانيبال ، فاننا لن نجد سوى الاسكندر الكبير أهلاً لذلك . لا يستطيع أحد أن ينكر مكانة الاسكندر بين أعاظم قادة التاريخ . وعند مقارنة انجازاته مع انجازات هانيبال ، فلا يسع المرء الّا أن يعترف بالميزات والامكانات التي كانت متيسرة لتصرف الاسكندر ؛ فقد ورث عن أبيه أحسن جيش في عالم ذلك الزمن ، ولم يُواجه في الميدان قط بجيش من نوعه ومثيله . صحيح أنه كان دائماً أضعف من خصومه عدداً ، لكن هذا لا يغير من جوهر الموضوع كثيراً ، لأن الأعداد لم تكن يوماً ما بديلاً أو استغناء عن النوعية ، كما ثبت ذلك مراراً وتكراراً . وقد وُجه الاسكندر بسلسلة طويلة من القادة المحدودين ، وكذلك جرى الأمر مع هانيبال ، لكن بفارق أن الاسكندر لم يواجه قط بقائد من مستوى شيبيو

الإفريقي ، ولا بجيش من نوع ومستوى جيش هذا الأخير . وهناك فارق أعظم وأهم ، وهو أن الاسكندر ما كان قائد جيش فحسب ، وإنما كان أيضاً ملكاً مطاعاً ، وحاكماً متفرداً يتصرف بشؤون الدولة دون الرجوع الى حسيب أو رقيب . كان يقرر بنفسه استراتيجيته ، للحرب كلها وليس لجزء منها فحسب . ومع أننا لا نحاول مطلقاً ، ولا بحال من الأحوال ، أن ننتقص من أعمال الاسكندر وانجازاته ، لكن لنشير فقط الى أنها قد تحققت في ظروف وشروط كانت أفضل وأكثر ملاءمة من ظروف هانيبال . وإذا عمد المرء الى القيام بموازنة القرطاجي الكبير مع الاسكندر المكدوني ، فمن العسير عليه أن يلاحظ رجحانا لاحدى كفتي الميزان على الأخرى .

وهكذا فإن النتيجة التي ينتهي اليها أنصار هانيبال هي أن بطل قرطاجة يحتل ، بموجب جميع الموازنات والحسابات ، مكانه مع أعظم قادة التاريخ ، قديماً وحديثاً . وقد يكون من المفيد أن لا نتوقف عند هذه النقطة ، بل نستمر قليلاً مع هذا الموجز ، لنرى كيف يجيب هؤلاء الأنصار والمؤيدون على السؤال التالي :

ـ هل كان باستطاعة قرطاجة أن تربح الحرب ؟

انهم يجيبون على هذا السؤال بالنفي ؛ فموارد روما وامكاناتها المادية والبشرية ، حسب رأيهم ، كانت أكثر بكثير من موارد قرطاجة ، وكان الرومان ، على وجه العموم ، أحسن ادارة لأعمالهم ، وأكثر اخلاصاً وتفانياً في سبيل الواجبات التي كانت تُلقى على عواتقهم . ومن الناحية السياسية ، فان مستعمرات روما والأقطار المتحالفة معها كانت أكثر استقراراً وأعظم ولاء . وهناك نقطة أخيرة لا بد من ذكرها ، وهي أن الممتلكات الرومانية ، سواء في ايطاليا الكبرى الأغريقية ، أو في أتروريا والسمنيوم ، كانت أفضل تقدماً وأرقى حضارة من ممتلكات قرطاجة في اسبانيا وأفريقيا . لم تفكر قرطاجة يوماً في تحضير القبائل الأفريقية ، أو رفع مستواها والعمل على اكتساب ثقتها وحبها وولائها . وقد عمل هانيبال وأبوه من قبل على تحسين أحوال القبائل الايبرية واكتساب عواطفها ، لكن لم يتوفر لهما الوقت الكافي لتنظيم هذه القبائل

واستيعابها وصهرها ككل سياسي قوي متين . وكذلك كانت الهيمنة القرطاجية على القبائل الأفريقية وعلى المستوطنات الفينيقية في هذه القارة قاسية مهينة ، بعكس الاحتلال الروماني في ايطاليا ، الذي كان قد جرى واستمر بطريقة أكثر انسانية مما عرف فيما بعد عن الاحتلال الروماني لمناطق أخرى من العالم . وعند نشوب الحرب البونية الثانية ، كان قسم كبير من المناطق الايطالية قد سلم راضياً بسيطرة روما ، دون استياء أو ضغينة .

كانت ميزة قرطاجة تقتصر على تجارتها البحرية الواسعة ، وعلى ممتلكاتها في اسبانيا ومناجم الفضة في شبه الجزيرة هذه ، غير أن هذه الميزة كانت عرضة للخطر والضياع أثناء الحرب ، أو الى التقلص والانحلال من جراء ذلك . كان وضعها في اسبانيا قوياً وضعيفاً في نفس الوقت ؛ فقد كانت تأخذ من هذه البلاد معظم ثروتها وعدداً كبيراً من أبنائها جنوداً في قواتها المحاربة ، لكنها كانت حديثة العهد باحتلال ممتلكاتها في شبه الجزيرة ، ولم يكن قد تحقق بعد اكتساب القبائل وترويضها ، بحيث أنه عندما قامت روما بالغزو بدورها ، فقد وجدت هذه القبائل على تمام الاستعداد للسير في ركابها ، تبعاً للأهواء والمصالح الذاتية . والواقع أن الاسبانيين ، في الحرب البونية الثانية ، قد قاتلوا بحماس واندفاع مع كلا الجانبين على السواء .

هدف هانيبال من حملته الايطالية

أدى هدف هانيبال، من نقل الحرب مع روما الى ايطاليا نفسها، الى تغيير ميزان القوى في البحر الأبيض المتوسط . كان هانيبال ، أولاً وقبل كل شيء ، خادماً لقرطاجة . وكان مقتنعاً من أنه لا أمن ولا هدوء ولا راحة بال لبلاده ما استمرت روما مسيطرة على شبه الجزيرة الايطالية ، وان نجاح روما ، في وضع يدها على صقلية وسردينيا ، لم يكن سوى مقدمة لتضارب المصالح واصطدامها مع قرطاجة في المستقبل ، وبشروط ما كانت لتكون لصالح القرطاجيين . كان هانيبال يحلم بعالم متوسطي تعيش فيه شعوب اسبانيا وغاليا

وايطاليا واليونان مجتمعة برضاها واختيارها ، في كيان واحد مؤلف من أقطار حرة متحالفة ، بزعامة قرطاجة .

انه حلم ساذج ، وفكرة تبدو غير معقولة ، خاصة وأنه لم يعرف عن قرطاجة ، الأمة والدولة وطغمتها الأرستقراطية المتسلطة على الحكم والناس أباً عن جد ، سوى أسوأ معاملة للسكان الأصليين الأفارقة ، وللمستوطنات الفينيقية التي كانت قائمة ، قبل ولادة قرطاجة ، على سواحل أفريقيا الشمالية . الاّ أن هناك بعض الوقائع المؤيدة لوجود تفكير كهذا لدى هانيبال ؛ فقد خطا مبدئياً في هذا الاتجاه في اسبانيا ، على أعقاب تسلمه السلطة أثر اغتيال صهره أسد روبال الملقب بالبديع . ففي تعامله مع القبائل الايبرية أخذ يستعمل سياسة الترغيب والاقناع بدل الضغط والاكراه . ولولا الغزو الروماني ، الذي أشعل نيران العصيان القبلي ، لكان من المحتمل جداً أن تتطور اسبانيا وتتحول تدريجاً الى دولة ذات استقلال داخلي تحت السيادة القرطاجية ، لكن شرط أن تبدأ قرطاجة بالتخلص من طغمتها الحاكمة الفاسدة . وكان هانيبال قد أقام علاقات ود وصداقة مع معظم القبائل الغالية شمال جبال الألب وجنوبها ، وكان يأمل ، مع الوقت ، أن ينجح في حمل هذه القبائل على الاشتراك ، على نحو ما ، في التحالف الكونفدرالي الذي كان يطمح الى تحقيقه . وكان حجر الزاوية في قيام مثل هذا البناء هو جنوب ايطاليا ، أي ما كان يعرف آنذاك باليونان الكبرى ، ومعظم سكانها من أصل يوناني ، وكذلك ، ولو بدرجة أقل ، مدن أتروريا وسمنيا . وكانت منطقة كامبانيا تتمتع بطاقة صناعية كبيرة ، ومدينة « كابوا » تلي روما بالثروة والنفوذ وعدد السكان . أضف الى ذلك حنين اليونان الكبرى الى الحياة الدمقراطية على طريقة الآباء الأغريق . وكان لا بد لذلك من خطوة مبدئية ، ألا وهي تحطيم طاقة روما وقدرتها العسكرية في ساحة الحرب ، وبذلك تستعيد اليونان الكبرى سيادتها واستقلالها .

ربما كان ذلك حلماً من الأحلام ! . وانه لمثير ومشوق أن نفكر ونتساءل عما كان من الممكن أن يحدث للعالم فيما لو كان ذلك الحلم قد تحقق ! .

كان العالم سيتغير ولا بد ، الاّ أن من المشكوك فيه أن يكون التغيير مقبولاً من الأرستقراطية الفاسدة الحاكمة في قرطاجة أبا عن جد ! . غير أن هانيبال ، وقد عززه الانتصار والظفر ، ربما كان يأمل ، على أساس ذلك ، أن يكون بوسعه أن يجلب الديمقراطية الى أهله وبلده . ولكن هل كانت الفكرة ، أو الحلم قابلاً للبقاء حياً بعد هانيبال ، على افتراض أن هذا الأخير كان قد تمكن من تحقيق حلمه ؟! . ان هذا لأمر مشكوك فيه ، فالتحالف بين أقوام كثيرة التقلب والأهواء ، وبين حكام يستسيغون كل شيء في سبيل مطامعهم ، لن يكون من المتانة والقوة بحيث ينقاد لذوي الاعتدال ودعاة النفع العام .

غير أن الحلم لم يتحقق ؛ لقد فشلت جهود هانيبال في هذا السبيل وخابت مشاريعه ، أساساً لأنه قد غالى في تقديره لدوافع النقمة والعصيان في ايطاليا ، ضد روما . ربما كان قد جاء متأخراً ٥٠ سنة عن الوقت المناسب . لقد كان لمدن ومواطني أترووريا وسمنيا ، ولسكان كامبانيا ومناطق أخرى في الجنوب الايطالي ، أسباب وروابط عديدة تحملهم على البقاء منتسبين الى روما والوقوف الى جانبها ، وكانت أقوى وأشد من تلك التي كان من المأمول أن تدفعهم الى محاربتها ، وكان هانيبال وجنوده بنظر أولئك السكان غرباء وقوماً بدائيين ، أضف الى ذلك أن السكان اللاتين لم يفكروا قط في الانفصال عن روما . ولكن ، ورغم كل ذلك ، ولو أن اسبانيا قد ثبتت وأمدت بالمؤن والنجدات ، ولو أن قرطاجة كانت أكثر نشاطاً وبذلاً وواقعية ، فعملت فعلاً للسيطرة على البحر ، وعلى دعم هانيبال وامداده بعزم ونية مخلصة ، ولو أن الغزو القرطاجي لصقلية ، والدعم لسيراقوزة كانا قد جريا بفاعلية وبادارة قادة أكفاء ، فإن قوة روما كانت ولا بد ستضعف ، الى درجة ربما كانت ستصدع قبضتها على كل ايطاليا الى حد كبير . ان كل ما يمكن قوله بكل تأكيد ، هو أن روما لم تتعرض بعد هانيبال الى ما كان ممكناً أن يمنعها عن الصيرورة سيدة على العالم في ذلك الزمان ، وهي بالتأكيد لم تنس قط هانيبال ، ولربما كان عدم النسيان هذا هو النتيجة الحقيقية لأعمال القائد القرطاجي الكبير .

الفصل السابع عشر

تقييم لهانيبال على اساس الوقائع والنتائج

قرطاجة دولة فاسدة ـ رأي ليدل هارت ومونتغومري ـ
من الأفضل: هانيبال ام شيبيو ؟ـ فشل هانيبال في ايطاليا ـ
لماذا انتصرت روما ـ مسؤولية هانيبال في خسارة الحرب ـ خلاصة.

OOOOOOOOO

قام التقييم السابق لهانيبال على العاطفة ، وعلى كثير من الافتراضات والتمنيات . انه تقييم متأثر بمناقبية القائد القرطاجي وسلوكه العام النبيل ، وبمشاعر الأسى والألم لما آل اليه مصيره ومصير قرطاجة بعد حروب طاحنة . ويخطىء من يرى في الصراع بين روما وقرطاجة صراعاً بين شرق وغرب ، فمثل هذا التفكير ، أو قل هذه الشعارات ، لم تكن معروفة في ذلك الزمن . لقد كان الأمر مجرد نزاع على البقاء ، وقد انتهى لصالح الأصلح ، وهذا هو ناموس الحياة . وقد ينحاز البعض عاطفياً الى جانب قرطاجة ، بدعوى أنها كانت فينيقية ، ومهداً وموطناً لحضارة رفيعة !. . والواقع أن قرطاجة لا تستحق عطفاً ولا احتراماً ؛ فقد كانت دولة فاسدة متفسخة ، وسلطة استعمارية من أحط درجة ، وكانت تحكمها طغمة من التجار وأصحاب المصالح الأنانيين الجشعين ، الذين كانوا مستعدين للتضحية بكل شيء لقاء الربح الشخصي . وتبان هذه الصورة بوضوح في تتبعنا لسياق الأحداث خلال الحربين البونيتين الأولى والثانية ، وفي معاملة القرطاجيين للمدن الفينيقية الأخرى على الساحل الأفريقي ، ولسكان أفريقيا الأصليين ، معاملة كانت في النهاية وبالاً على قرطاجة نفسها ، اذ ملأت قلوب أولئك الناس حقداً وضغينة ، وجعلت مدنهم

وأقاليمهم مفتوحة في وجه الغزاة يمرون منها دون عائق حتى أسوار قرطاجة. زد على ذلك إصرار الطغمة الحاكمة على تسليم المناصب القيادية، في البر والبحر، الى عدم الاكفاء، فقط لأنهم كانوا من أبناء الذوات، أي من أفراد الأرستقراطية التجارية المتسلطة على المدينة والدولة منذ تأسيسها وحتى نهايتها المفجعة.

إن التمنيات والافتراضات، في حد ذاتها، هي دلالة على نقاط الضعف في قيادة هانيبال. ولقد كان استراتيجياً فاشلاً دون جدال، وكان حتى معركة «كانّه» تكتيكياً متفوقاً بارزاً، لكن في حدود مقتصرة على ميدان المعركة، وعلى كل معركة بالذات، بمعنى أنه لم تكن صلة عملياتية بين معركة وأخرى، ولا استغلال للنصر استراتيجياً في سياق مجهود عام يجري بتخطيط ومتابعة. كانت هذه المعارك مجرد عقبات على طريقه الى جنوب ايطاليا، الى حيث كان يحلم باستخدام هذا الجنوب، اليوناني الثقافة والتاريخ، كقاعدة لتحطيم الكونفدرالية الرومانية، وقاعدة للمواصلات البحرية على أقصر طريق مع قرطاجة. لقد صرف كل ذلك الجهد لمجرد الحصول على قاعدة!.

ونرى هانيبال، بعد معركة «كانّه» يكرر نفسه، فلا معارك وانتصارات حاسمة، ولا استطاعة على اقتحام أضعف الحصون والأسوار. لقد انصرفت مواهبه واستطاعاته، كل سنوات وجوده في ايطاليا، أي لمدة ١٤ عاماً ونيف، على الافلات والزوغان من جيوش روما، لكن لتقل قواه يوماً بعد يوم، ودون أن يحقق أي نجاح عملي في اتجاه اقامة القاعدة التي كان لا بد من قيامها ليمكن لحلمه أن يصير حقيقة، أو ليسير في طريق التحقيق!.

هانيبال في رأي ليدل هارت ومنتغومري

يعلق الناقد البريطاني الذائع الصيت، النقيب ليدل هارت، على معركة «زاما» بقوله أن أستاذ حرب ـ هانيبال ـ قد لاقى أستاذ حرب آخر ـ شيبيوـ، وكانت «زاما» هي المناسبة الوحيدة لالتقاء القائدين الخصمين،

وجهاً لوجه ، في ميدان المعركة .

ويقول المارشال البريطاني مونتغومري ، بطل حرب العلمين ، بصحة ادارة هانيبال للمعركة في « زاما » . كان جيشه ، في هذه المعركة ، أضعف نوعية وتسليحاً من جيش خصمه ، وضعيفاً في الخيالة بنسبة واحد الى أربعة ، مما جعله عاجزاً عن العمل والمناورة بتكتيكات الإحاطة والتطويق ، وكانت سبيله الى انتصاراته السابقة . وفيما يتعلق بالفيلة ، فقد كان عليه أن يغامر باستعمالها ، لأنه لم يكن لديه بديل عن ذلك ، وكل شيء كان معلقاً على سلوكها ، وقد حصل هذا بالفعل . فقد تقهقرت الفيلة بدل أن تتقدم ، وكان ذلك أول الكارثة . الاّ أنه رغم ذلك ، رغم ما أحدثته الفيلة من فوضى ومن تقتيل في صفوف الخيالة ، وباحتفاظه بخيرة مشاته حتى اللحظة الأخيرة ، فقد كاد هانيبال أن يفوز .

وأن شيبيو ، بالمقابل ، لم يرتكب خطأ في « زاما » ، وكان قيامه بإعادة ترتيب قواته وتنظيم صفوفها في إبان المعركة ، بهدوء وبرودة أعصاب ، عملاً رائعاً ، عمل معلم بارع وأستاذ قدير ، وقد انتهت المعركة لصالحه بعودة الخيالة الرومانية وحليفتها الخيالة النوميدية إلى مهاجمة القوات القرطاجية في الوقت المناسب ، وبتفوق مشاة اللجيون بالخواص القتالية . وكان لشيبيو فضل كبير في ذلك بكل تأكيد ، من حيث الإعداد والتدريب والتخطيط . لقد قام هانيبال ، في تلك الموقعة ، بكل ما كان من الممكن عمله . وهو في عام ٢٠٢ ق م ، وبعد ١٦ عاماً من قيادة عليا وحروب متواصلة ، ربما كان التعب قد نال منه وأضعفه الإجهاد ، ولذا لم يستطع أن يعطي في « زاما » أفضل مما أعطى . أما شيبيو فقد كان ، على العكس من ذلك ، في قمة نضوجه وتألق عبقريته .

ويمضي مونتغومري متابعاً فيقول أن شيبيو كان ولا جدال أحسن القادة الرومان إبداعاً في التكتيك . وقد أدرك منذ البداية أن الضعف الكبير في الجيوش الرومانية كان النقص في الخيالة . كانت مشاة « اللجيون » أفضل

مشاة في ذلك الزمن ، غير أن هذه المشاة كانت معاقة ومحدودة الأبعاد لعدم استنادها على سلاح فرسان قوي الى درجة الكفاية . وكان هذا الضعف قائماً منذ زمن قديم ، والسبب في عجز جيوش روما عن الوقوف نداً لجيوش مكدونيا في القرن الرابع قبل الميلاد . وقد عالج شيبيو هذا النقص ، ولو لمدة محدودة ، مدة قيادته ، وربح من جراء ذلك معاركه في بقراده وزاما . وإن إدراكه للضرورة الماسة لسلاح الخيالة ، وتكتيكه في استعمال هذا السلاح لدليل على عقلية متفتحة وطبيعة عملية . كان شيبيو في ذلك مقلداً لهانيبال ، ولو بطريقة عفوية ، وهو اعتراف ضمني بأستاذية القائد القرطاجي وتقدير لنبوغه ومواهبه ـ وكان هانيبال نفسه مقلداً في هذا الصدد لأستاذ أكبر ، للاسكندر الكبير ـ . لقد استعمل شيبيو سلاح الفرسان تبعاً للتكتيك الذي اختطه الاسكندر من قبل وهانيبال من بعد ، وكان ترتيب قواته في إيليبا كثير الشبه بترتيب قوات هانيبال في « كانه » . ومن سوء حظ الرومان أن شيبيو ، نظراً لضيق الوقت ومحدودية مدة قيادته ، قد اضطر الى تدارك النقص في سلاح الخيالة اعتماداً على خيالة الأحلاف والمرتزقة ، بدلاً من العمل على تجنيد الرومان وتعويدهم على هذا السلاح .

من الأفضل : هانيبال أم شيبيو

كان هانيبال وشيبيو موفقين كلاهما في التعامل مع الجند والأحلاف . فقد غزا هانيبال ايطاليا بجيش كان خليطاً من الأجناس واللغات ، ومن مواليد جميع بقاع البحر المتوسط الغربية . وقد قام بإعداد وتنظيم وتدريب هذا الجيش على أحسن وجه ، وانتصر بواسطته في معارك عديدة . لقد استمر يقاتل في ايطاليا مدة ١٦ عاماً بصورة متواصلة ، دون أن يتحرر جيشه ولا مرة من عمل الميدان ، ودون أن تبدر من هذا الجيش أية بادرة جدية للتمرد والعصيان تجاه قائده الأعلى وتجاه ضباطه القرطاجيين ، ولا تجاه عناصره بعضها ضد بعض ، وفي هذا دليل قاطع على أستاذية هانيبال في قيادة الرجال وعلم النفس . ولم تكن هذه المقدرة مقتصرة على مجال الحفاظ على

المعنوية واللحمة والتكامل في الجيش فحسب ، بل وشملت أيضاً مجال خصومه والتغرير بهم ، كما فعل قبيل موقعة ترازيمين . لقد كان هانيبال وشيبيو يتمتعان كلاهما بالشجاعة والجرأة ، وبشعبية طاغية لدى الجنود على مختلف المستويات .

قد يتعادل شيبيو وهانيبال نظرياً في مجال التكتيك ، ولكن شيبيو يتفوق عملياً ، ولو بالنقاط ، بفعل انتصاره في « زاما » . أما من الناحية الاستراتيجية ، فان شيبيو يعلو على هانيبال كثيراً دون أي شك . وكان لهذا التفوق الكلمة الأخيرة والقول الفصل في مصير الحرب البونية الثانية ، وبالتالي في مصير قرطاجة وزوالها من دنيا الوجود كدولة وكأمة ، وهو التفوق الذي جعل من شيبيو أحد أعظم قادة التاريخ القديم .

ونحن عندما نتصفح أحداث الحرب البونية كلها ، فإننا نلمس لدى الزعامة القرطاجية ، مدنية وعسكرية ، وعلى مدى حقب وعقود ، تقصيراً فاضحاً في المجال الاستراتيجي بصورة تكاد تكون عامة ، وقد لا نخطىء اذا قلنا بأن هذا العجز لدى هانيبال كان بمثابة إرث عنصري متوارث جيلاً عن جيل .

فشل هانيبال في ايطاليا

كانت استراتيجية هانيبال في ايطاليا فشلاً تاماً ، وأن انتصاراته الثلاثة ، ما بين عام ٢١٨و٢١٦ ق م ، لم تحدث تصدعاً ذا بال في الكونفدرالية الايطالية ولا لدى الشعب الروماني كما كان يرجو ويأمل . ولقد كان مهاربال ، قائد خيالته ، على صواب في قوله له ، مباشرة بعد معركة « كانّه » : «لقد منحتك الآلهة معرفة بكيف تكسب معركة، ولكنها بخلت عليك بكيف تستفيد من مكاسبك وانتصاراتك » ! .

والعجيب أن هانيبال لم يصطحب معه ، عندما بدأ حركته الى ايطاليا ، سلاحاً للحصار ، ولا أسس مثل هذا السلاح بعد عبوره لجبال الألب ودخوله الأراضي الايطالية . لقد كان هذا السلاح ضرورياً حتى لو لم يكن في نيته

قط ، منذ البداية ، أن يهاجم روما ، وإنما ، على الأقل ، لإخضاع الحصون والقلاع والمعسكرات المنيعة التي كان فابيان يقيمها في وجهه والتي عليها بنى هذا الأخير تكتيكه الأرهاقي واستراتيجيته الاحتوائية الإعاقية ، وكانت بمثابة الشوك الجارح في خاصرة هانيبال وأنكى .

وقد يخيل للمرء أن هانيبال قد بلغ عند « كانّه » حد نبوغه الأقصى ، واستمر عقبئذ على نفس المستوى ، إن لم يكن قد انحط عنه . فلقد خسر زمام المبادرة كلياً منذئذ ، وسمح لفابيوس بتحويل مجرى الحرب ومدها ضده ، ليجد بالتالي نفسه محدود الحركة في جنوب ايطاليا . ومن الغريب أنه لم تكن لديه معرفة كافية بالاستراتيجية البحرية ، بدليل أنه لم يستعمل سلاح البحرية وقد توفر لديه ، ولم يقدر أهميته وفوائده .

وعلى عكس هانيبال ، فقد تجلت عبقرية شيبيو العسكرية في ابتكاراته وبعد نظره الاستراتيجي . كان دائماً يستهدف غرضاً استراتيجياً خطيراً ، قاعدة الخصم كلما أمكن ذلك ، محققاً لأعظم النتائج الرابحة مباشرة كل مرة . وقد غير استيلاؤه الصاعق على قرطاجة الجديدة مجرى الحرب في اسبانيا رأساً على عقب ، واختتم بذلك أول مرحلة في طريق النصر النهائي لصالح روما . وكانت استراتيجيته في إبقاء هانيبال محتوى في ايطاليا الجنوبية ، والتوجه رأساً الى غزو أفريقيا ومهاجمة قرطاجة في عقر دارها ، ناقلاً بذلك الحرب وويلاتها الى ديار القرطاجيين ، وحاملاً لهم بالتالي على التخلي عن كل نشاط في ايطاليا ، كان ذلك كله تفكيراً استراتيجياً رائعاً ، من قبل استراتيجي عبقري . وكذلك كانت استراتيجيته في استدراج هانيبال بعيداً عن قاعدته ، والمجيء به الى « زاما » قبل أن ينتهي من تهيئة جيشه ، فيرغمه على خوض معركة فاصلة على ساحة قتال قد اختارها شيبيو بنفسه. لقد مثل القائد الروماني ، في تحركه وعبثه في سهل بقراده الخصب ، مخرباً ومدمراً ، تهديداً خطيراً لقرطاجة في مصدر رئيسي لطعامها وتموينها . وهو ، بحمل هانيبال على الابتعاد عن قرطاجة في طريقه الى « زاما » ، فقد قصر المسافة التي كانت تفصله عن حليفه مازينيسا ، والتي كان على هذا الأخير أن يقطعها للالتحاق به مع

خيالته ، ليحصل من جراء ذلك على تفوق ساحق في سلاح الفرسان ، وهو التفوق الذي حسم المعركة لصالح الرومان في « زاما » . ان المغامرة بخوض معركة حاسمة دون استعداد كاف ، انقاذاً لمصدر تموين ولو رئيسي ، لدليل على قصر نظر القرطاجيين وشيوخ حضارتهم . وقد أخطأ هانيبال خطأً مميتاً بالاستجابة الى هذا الدافع ، وكان عليه بالأحرى أن يختط ويتبع استراتيجية تأخيرية إعاقية واحتوائية ، على طريقة فابيان بعد « كانّه » ، وذلك الى أن ينتهي من إكمال استعداداته ، ويوجد الفرصة المناسبة والميدان المؤاتي لخوض المعركة .

لماذا انتصرت روما

الانتصار النهائي لروما على قرطاجة ، في الحرب البونية الثانية ، كان نتيجة طبيعية لتفوق زعامتها السياسية وقوة شعبها وجلده ، بعد معركة « كانّه » خاصة ، وكذلك لتفوقها في البحر وفي الاستراتيجية السياسية والعسكرية . وكان أيضاً ، وبالتالي ، نتيجة لأخطاء القرطاجيين الاستراتيجية والتكتيكية والسياسية ، وفساد نظام الحكم في قرطاجة وبلادة الحكام فيها وأنانيتهم ، وقصر نظرهم ، وسوء معاملتهم لأقربائهم الفينيقيين في أفريقيا وللأقوام المغلوبة التي كانت تحت حكمهم ، وخاصة سكان أفريقيا الأصليين .

لقد قتل الجشع قرطاجة وأهلها ، وقد قامت دولتهم وامبراطوريتهم على منطق استغلال الأقوام البدائية والجماعات القبلية ، واستمر القرطاجيون يعملون بهذا المنطق الى أن انقرضوا . عاشت قرطاجة مدينة دولة حوالي سبعة قرون ، تستغل الآخرين استغلالاً جشعاً ، وتعامل المدن الفينيقية المجاورة معاملة الأتباع والمستضعفين ، حارمة لها من كل سيادة ، ومن كل قوة عسكرية هجومية أو دفاعية . كان الأفارقة الأصليون ، والفينيقيون على طول ساحل أفريقيا الشمالية أعداء لقرطاجة في دخيلتهم ، وعوناً لذلك عليها لكل غاز أجنبي ، بموقف سلبي معادي ، وبتوفير المعلومات والأرزاق للغزاة ، وبعدم تشكيلهم أي عائق بين الغازي وبين قرطاجة نفسها . وقد حصل وضع كهذا عند غزوة أغاثوكلس وريكولوس للساحل الأفريقي الشمالي ، ورغم ذلك فان

قرطاجة لم تعتبر ، ولم تحتط لعدم تكرر حدوثه كما وقع فيما بعد على يد شيبيو . لقد قامت قرطاجة وعاشت متعالية متقوقعة على نفسها وكبريائها ، لذا لم تجد ، عند الحاجة ، مساعدة من جار أو صديق .

لم يقم في قرطاجة نظام حكم صالح ، وما اندمج أهلها قط مع الأقوام التي وقعت تحت سيطرتهم . كان القرطاجيون عصبة من التجار أكسبتهم الثروة ، وغياب المنافسة والمعارضة الداخلية غطرسة وتعجرفاً، حتى اعتقدوا بأنهم من غير طينة البشر ، وحصروا كل شيء بأيدي طغمة تتوارث الحكم والسلطان أبا عن جد ، بعقلية جامدة لا تفهم غير المتاجرة ، ولا تتطور وتسير مع الزمن .

ويكفي للدلالة على ضعف هذه الدولة ، وفساد ادارتها وسوء زعامتها أن نستعيد بالذكرى مجريات الحرب والمنافسة مع روما خلال قرنين من الزمن ، في البر والبحر على السواء . فهذه المدينة ، التي أقامت دولة وامبراطورية على أساس التفوق في ركوب البحار،والتي كانت تمتلك عدداً كبيراً من الأساطيل ، وجزراً عديدة ، وأقاليم متعددة غنية ، قد تركت نفسها تهزم بحراً من قبل أناس لم يسبق لهم أن ركبوا البحار ، ولا خاضوا عبابه وعاركوا أمواجه . ثم لننظر اليها وهي تعهد بالقيادات الخطيرة والمراكز الحساسة الى أفراد كل ميزتهم انهم من أبناء العائلات المتنفذة ، وتستمر على هذا السياق رغم الخسائر والهزائم والكوارث المذلة المتأتية عن طريق أولئك القادة الفاشلين ! . وخير دليل على سوء نظام الحكم في قرطاجة ، وعلى عقم الشعب الذي يرضى بحكم من ذلك النوع ، أنه لم يخرج من أهل قرطاجة ، طوال قرنين من الحروب مع روما ، من أهل الجدارة والكفاءة ، سوى أفراد لم يتجاوزوا عدد أصابع اليد الواحدة ، كان منهم هانيبال ومن قبله صهره أسد روبال ووالده هاميلكار ! .

مسؤولية هانيبال في خسارة الحرب البونية الثانية ودمار قرطاجة

أشعل هانيبال نيران الحرب البونية الثانية قبل أن يكمل للأمر عدته ، ولذا خسر الحرب ومهد السبيل الى تدمير قرطاجة ، بنتيجة هذه الخسارة . وكان من أولى أخطائه اعتماده على قرطاجة كقاعدة رئيسية لحملته في ايطاليا ، مع العلم بأنها لم تكن أهلاً لذلك ، ولا تستطيع أن تقوم بمثل هذا العبء . انه ولا شك كان يعرف ذلك ، فقد سبق لأبيه أن أخذه وصهره معه الى اسبانيا ، نازحين الى شبه الجزيرة الايبرية قرفاً من قرطاجة ، وأملاً في إصلاح أوضاعها الفاسدة ، عن طريق بناء مجتمع فتي جديد ناشط ، على الأرض الاسبانية . وكذلك فإن اعتماده على اسبانيا كقاعدة أخرى رئيسية لم يكن صحيحاً ، فالممتلكات القرطاجية في شبه الجزيرة لم تكن مستقرة ولا مؤهلة لذلك ، ولم يكن له فيها قائد خلف يصح الاعتماد عليه .

وكانت استراتيجية هانيبال كلها خاطئة وفاشلة . لا نعلم من الذي وضع استراتيجية الحرب البونية الثانية ، هل كانت من وضع هانيبال أم من وضع سواه ، أو هل وضعها بالاشتراك مع آخرين . لقد كانت توجد في قرطاجة إدارة للحرب ، أي وزارة دفاع بلغة اليوم ، ولكننا لا نعلم ما كان دورها ومسؤوليتها في التخطيط لهذه الحرب . ولكن أياً كان المسؤول عن هذه الناحية ، فإن هانيبال لا يعفى من تبعاتها لثلاث أسباب :

١ ـ لقد قام بالتنفيذ .

٢ ـ وكان أنصاره ، الى حد ما ، نافذي الكلمة حالئذ في قرطاجة ، وقد شاركوا في التخطيط والاعداد .

٣ ـ كان هانيبال وحده الآمر المتصرف الناهي في ايطاليا ، بعيداً عن رقابة قرطاجة واشرافها ، لمدة ١٥ عاماً ونيف ، وقد ضُربت النقود باسمه ورسمه .

الهدف الاستراتيجي للحملة

نتعرض الآن الى بحث الهدف الاستراتيجي للحملة الايطالية ، أي الى بحث الغرض الأسمى الذي دعا الى غزو ايطاليا ، ألا وهو فصم عرى الكونفدرالية الايطالية القائمة آنذاك بزعامة روما ، واستبدالها بكونفدرالية أخرى أكثر دمقراطية ، بزعامة قرطاجة . كان هذا هو الهدف ، كما يدعي أنصار هانيبال ، وكان حلماً غير قابل للتحقيق . ذلك أنه لم يكن من الممكن لمجتمع قد هرم وشاخ ، وحل به القحط فكراً وروحاً ، كما كان عليه المجتمع القرطاجي يومذاك أن يفرض مشيئته وتفكيره على مجتمع ناشط فتي ، متعطش للقوة والحياة ، كالمجتمع الشاب الفتي في روما في ذلك الزمن . لم يكن من الممكن لممثل طغمة من التجار الجشعين ، الذين عجزوا ، بعد قرون ، عن تشكيل أمة قوية والخروج بمنطق الدولة ومفهومها عن حدود العائلة والمدينة ، أن يكون قادراً على تحقيق فكرة كالتي تُنسب الى هانيبال . وكان الجيش ، وهو الأداة الى تحقيق الفكرة وفرضها ، خليطاً من العناصر والأجناس المتخلفة بمقياس الأقوام التي كانت تؤلف الكونفدرالية الايطالية ، وكان عليه لذلك أن يقضي بالعنف والقوة على كل مقاومة في شبه الجزيرة . إن تبني هانيبال لذلك الهدف ، وانطلاقه الى تحقيقه ، لدليل على سذاجة وجهل بامكاناته واستطاعات قومه ، وجهل كذلك بحقيقة واستطاعات الطرف الذي كان يقف في وجه تحقيق ذلك الهدف .

في الاستراتيجية الصحيحة ، الخطوة الأولى هي الصدق والأمانة في المعرفة وتقييم الذات والخصم ، وإلّا فالبداية خاطئة ، والنهاية لذلك فاشلة في معظم الأحيان ! . وأخيراً كيف يمكن للأوليغارشيّة[1] القرطاجية أن تقنع الآخرين بدعواها الى كونفدرالية جديدة وديمقراطية ؟!

هذا من حيث الهدف الاستراتيجي العام . نتعرض الآن الى النواحي الاستراتيجية من حيث البنية والتطبيق . إن المهمة ، التي أخذها هانيبال على

(١) الحكم من قبل فئة قليلة متسلطة ومستغلة .

عاتقه ، كانت تتطلب قواعد قوية ، ومواصلات مأمونة مضمونة ، ومرحلية متدرجة ، وجهاز ادارة وتخطيط ومقاتلة كفؤاً وعلى درجة عالية من اللحمة والتماسك والتكامل ، مؤمناً بالفكرة مخلصاً لها ، محارباً من أجلها وليس بقصد السبي والغنائم والفوائد المادية الأخرى ، ولو بصورة غير مباشرة .

القواعد

اعتمد هانيبال ، أساساً لحملته ، على قاعدتين : قاعدة برية كانت اسبانيا ، وقاعدة بحرية تكونت من قرطاجة ومن جزرها في البحر الأبيض المتوسط . وكان الاعتماد على القاعدتين في غير محله ؛ فالقاعدة الاسبانية كانت ، كما يعترف المدافعون عن استراتيجية القائد القرطاجي ، ضعيفة هشة ، معرضة للضياع في كل وقت ، وما كان جهازها الاداري والقيادي ، عسكرياً ومدنياً ، على مستوى الأحداث . وكان هذا ما تحقق فعلاً ، كما سبق وظهر في سياق عرضنا للأحداث في الفصول السابقة .

اما القاعدة الأخرى ، قرطاجة وجزرها البحرية ، فلم تكن جديرة بالثقة والاعتماد ، وقد ثبت ذلك بوضوح في الحرب اليونية الأولى ، وفي عجز الزعامة القرطاجية عن استخلاص الدروس والعبر من أحداث تلك الحرب . زد على ذلك ما كان متفشياً في جهاز الحكم من فساد وعجز ومحسوبية ، ولا نظن ان هانيبال كان يجهل ذلك ، وكان قد صحب أباه يوم نزح عن قرطاجة الى اسبانيا يأساً من سوء الأوضاع في بلده ، وقناعة باستحالة إصلاحها وتقويمها دون مساعدة خارجية . وما علينا إلّا ان نعود الى الفصول السابقة ، الى تفاصيل الأحداث والمعارك ، في قرطاجة وعلى سطح البحار ، وفي صقلية وسردينيا وسواحل ايطاليا الجنوبية ، لتظهر لنا هذه الحقيقة بوضوح وجلاء لا غموض فيه .

المواصلات

كان الاسكندر الكبير لا يتحرك من نقطة الى أخرى الّا بعد ان يضمن

سلامة مواصلاته ومؤخرته ومجنباته بصورة مؤكدة ، ولم يحقق هانيبال شيئاً من مثل هذا الضمان . فبالإضافة إلى ان قاعدتيه لم تكونا مضمونتين ويعتمد عليهما ، فإننا لا نرى ما هو الضمان الذي كان لسلامة حركاته ومواصلاته ، بعد ان عبر نهر الإيبرو. والقول بأنه كانت له صداقات مع القبائل على طول طريقه ، فإن هذه الصداقات لم تكن كما ظهر كافية لمنع القبائل عن معارضته عند نهر الرون ، وفي جبال الألب فيما بعد . واذا سلمنا جدلاً بأن الطريق كانت مفتوحة ومضمونة لمروره ، فإنها كانت كذلك أيضاً للرومان، بل وبصورة أضمن ، وكان باستطاعة هؤلاء ان يقطعوها من نقاط عدة ، آتين بطريق البحر الذي كانوا يسيطرون على أمواهه وسواحله بفضل تهاون قرطاجة ، وعجز بحريتها ، وبخل وقصر نظر طغمتها الحاكمة .

ثم ما هي الفائدة الجلّى ، التي جناها هانيبال من سلوكه عبر جبال الألب ، ليضحي في سبيل ذلك بثلاثة أرباع جيشه ؟ ثم أين كانت عيونه وأرصاده واستعلاماته ، لتجنبه مهاجمة الجبليين لجيشه ، ولكي لا يغرر به ويُساق مضللاً عمداً في طريق خطر مسدود ؟ واذا نظرنا الى اجتيازه لتلك الجبال كبطولة وكعمل لم يقدم عليه أحد من قبل ولا من بعد حتى نابليون بونابرت ، فإن النتيجة على كل حال لم تعد بخير او فائدة ! .

لقد خسر ربع الجيش تأميناً للطريق ،وخسر ربعين آخرين ثمناً لاجتياز الجبال ، وقد تخلى أيضاً ، في سبيل ذلك وعلى ذمة مؤيدي سياسته ، عن سلاح الحصار ومعداته الثقيلة ، وكانت حملته في أشد الحاجة إليها ، وقد جاء وقت كان فيه عاجزاً عن اقتحام أبسط الحصون والقلاع بسبب ذلك . والقول بأنه لم يكن من الممكن ، في ذلك الوقت ، اقتحام الأسوار والدفاعات ، هو قول غير صحيح ، والاّ كيف توصل الاسكندر الكبير ، قبل قرن ونيف من الزمن ، الى اقتحام أسوار ثيبا وصور وغزة ، وكانت أقوى من كل موقع محصن واجه هانيبال في ايطاليا ! . ولا ندري لماذا اختار ذلك الطريق على شُدته ووعورته . فلا هو صان ثلاثة أرباع جيشه من الخسارة والدمار ، ولا هو حقق من وراء ذلك مفاجأة للرومان . وهو حتماً لم يكن ليدفع مثل هذا الثمن

الفاحش لو سار على الطريق الساحلي ، متدرجاً على مهل ، وقاضياً في طريقه على كل مقاومة ، يرافقه أسطوله على محاذاة الشاطىء ، حاملاً لأرزاقه وحامياً لميمنته ، لا يتحرك من مرحلة الى أخرى إلّا بعد ان يخلف وراءه قاعدة مضمونة وأقواماً صديقة ، على طريقة الاسكندر . كان غرضه ، منذ البداية ، ليس هو احتلال روما العاصمة او مهاجمتهما ، ولا الاستيلاء والتمركز في بعض نواحي ايطاليا الشمالية ، وانما اجتاز غاليا جنوبها وأواسطها ، وكل ايطاليا من شمالها حتى جنوبها ، وقصده ان يقيم في هذا الجنوب قاعدة بحرية ورأس جسر ساحلي تقصده السفن القرطاجية حاملة المؤن والمدد . وكان يعتقد ان وجود قاعدة قرطاجية في الجنوب الايطالي سيتسبب في اثارة ايطاليا اليونانية وتشجيعها على الانسلاخ عن روما لتكون بعدئذ نواة للكونفدرالية الجديدة التي كان يعتزم اقامتها في ايطاليا . لقد كان من الأفضل ، في رأيي ، ان يرسل هانيبال بعض قواته بحراً الى صقلية ،ليقضي على كل مقاومة في هذه الجزيرة ، وليجعل منها قاعدة أمينة مضمونة ، ومن ثمّ تقفز قواته الى جنوب ايطاليا ، والمسافة البحرية بين الجزيرة والكعب الايطالي قصيرة جداً ، وكان من الممكن اجتيازها بسهولة ودون كبير خطر ، باستعمال ذكي وشجاع للسفن القرطاجية التي كانت متوفرة لتصرف هانيبال في ذلك الوقت . وعلى هذا الأساس فقد كان من الأفضل ان تتألف حركة الهجوم والانتقال الى ايطاليا من شقين : قسم من القوات يسير من اسبانيا على الساحل ، بقيادة هانيبال ، وقسم آخر يقفز من قرطاجة الى صقلية ، ومن هذه الى ايطاليا بعد تأمين السيطرة الكاملة على الجزيرة .

في التنفيذ

وكان خطأ هانيبال ، الخطأ الذي كلفه غالياً ، والذي ارتكب منذ خطواته الأولى ، هو عدم تصديه لجيش شيبيو الأب وتدميره ، وذلك قبل ان يتابع هانيبال طريقه الى جبال الألب . لقد كان ذلك الجيش الروماني تهديداً خطيراً مباشراً للقاعدة الاسبانية . واذا كان هانيبال لم ير في ذلك الجيش خطراً ذا بال ، اما استصغاراً لشأنه ، او اعتماداً على كفاءة شقيقيه في اسبانيا وقدرتهما

على تصفيته ، فقد كان خاطئاً في كلا الاحتمالين . لقد استهل ذلك الجيش الروماني عملية ومرحلة طرد القرطاجيين من اسبانيا ، وما كان أشقاء هانيبال ومعاونوهما بالقادة الكفء للقيام لما كان يؤمل منهم ان يقوموا به .

وكان الخطأ الثاني الاستراتيجي والتكتيكي ، عدم التوجه الى روما لاحتلالها ، او لحصارها على الأقل ، وذلك فور ان خرج هانيبال من منطقة جبال الألب ، عوضاً عن تجنبها ومتابعة سيره باتجاه الجنوب الايطالي . واذا كان هناك ما حال دون مهاجمة الحاضرة الرومانية في بداية الأمر ، فإن شيئاً كهذا لم يكن قائماً عقب الانتصار الساحق في معركة « كانّه » ، او عقب الفوز السابق في تريبيا وترانزيمين . وكان مهاربال على صواب عندما أشار على هانيبال ، عقب « كانّه » ، بالزحف حالاً على روما . والقول بأن المسافة بين « كانّه » وروما كانت طويلة ، وانه كان يلزم لقطعها حوالي ثلاثة أسابيع ، هو قول غير صحيح . كانت هذه المسافة حوالي ٤٠٠ كيلومتر ، وكان بإمكان مهاربال ان يقطعها مع خيالته في غضون خمسة أيام ، وان يقطعها هانيبال مع باقي الجيش في ظرف سبعة أيام او ثمانية ، أي بعد يومين او ثلاثة أيام من مهاربال ، وذلك بمسيرات شاقة غير مستحيلة . لقد سبق للاسكندر الكبير ان قطع مسافة مماثلة ، كانت تفصله عن دولة ثيبا ، في ظرف خمسة أيام . كما قام شيبيو الأفريقي ، وهو في طريقه الى مهاجمة قرطاجة الجديدة والاستيلاء عليها ، بقطع مسافة ٤٨٠ كيلومتراً في ظرف أسبوع . ولا نرى سبباً معقولاً كان يمنع جيش هانيبال من مجاراة جيش الاسكندر ، في مسير شاق قام به هذا الجيش منذ أكثر من مئة عام ، او مجاراة جيش شيبيو الأفريقي في مسيره السريع الشاق الى احتلال قرطاجة الجديدة ، وكان هذا الجيش يومئذ أحط مرتبة وأدنى كفاءة من جيش هانيبال . اما القول بأن هذا الجيش كان تعباً منهكاً على اثر معركة « كانّه » فأمر مرفوض ، اذ كان يكفي بضع ساعات لجيش منتصر ليستريح ويتخلص من آثار المعركة ، ولينطلق بعدئذ سريعاً صوب العاصمة الرومانية .

وكذلك هو مرفوض الزعم بأن هانيبال قد امتنع عن التحرك لمهاجمة

روما ، لأنه لم تكن لديه معدات للحصار واقتحام أسوار المدينة بالقوة . وعلى افتراض عدم توفر مثل هذه المعدات ، فقد كان عليه ان يحاصر المدينة ، مانعاً عنها المؤونة والمدد وكل اتصال مع الخارج ، عاملاً أثناء ذلك على تحضير الآلات اللازمة لاقتحام الأسوار ودكها . وربما كان سيتأتى عن حصار كهذا توقف أعضاء الكونفدرالية الايطالية عن ارسال النجدات الى روما ، بانتظار نتائج الحصار . ولو سلمنا جدلاً بأن تخلي هانيبال عن مدفعيته وسلاح حصاره كان تيسيراً لعبور جبال الألب ، فلماذا لم يبادر عاجلاً الى اعادة تأسيس هذا السلاح الحيوي وتنظيمه بعد ان دخل الأرض الايطالية ، وقد أمضى زهاء ١٦ عاماً في هذه الأرض ! .

وهو غريب كذلك الادعاء بأنه كان من المستحيل ، في تلك الأيام ، ان يتوفق جيش غاز في اقتحام مدينة محصنة ! . فقد افتتح الاسكندر الكبير مدينة صور بعد حصار فريد دام سبعة أشهر ، واقتحم بعد ذلك بقليل مدينة غزة القوية التحصين ، بعد حصار دام شهرين ، وكانت صور ولا شك أمنع وأقوى تحصيناً من مدينة روما ، وقد سبق للملك نبوخذنصر ان ارتد عنها خائباً بعد حصار استمر ١٣سنة . وكذلك اقتحم شيبيو الأفريقي قرطاجة الجديدة بعد حصار ثلاثة أيام ، وكانت السلالم هي كل ما كان لديه من معدات الحصار والاقتحام . واننا نتساءل كيف يجوز التوجه الى تدمير دولة كونفدرالية فتية قوية ، كروما في ذلك الوقت ، دون سلاح حصار يكون قادراً على اخضاع مدينة محصنة ، او قادراً على الأقل على تدمير حصن بسيط او معسكر بدائي التحصين كان يعبث بمؤخرات هانيبال وقوافل تموينه وخطوط مواصلاته ، وكان كذلك قاعدة في استراتيجية فابيوس الاعاقية الاحتوائية ! .

ويخيّل إليّ ان امتناع هانيبال عن التوجه بسرعة خاطفة الى احتلال روما او حصارها ، بعد انتصاره الساحق في « كانّه » ، كان مرده رفض القائد القرطاجي ان يتخلى عن الغنائم والأسلاب الوفيرة ، التي كانت تثقل حركة الجيش وتعيق سرعته . لقد تغلبت الفطرة التجارية الموروثة على الحاسة الاستراتيجية والادراك التكتيكي السليم ، وكانت هذه الفطرة في النهاية وبالاً

على هانيبال ، كما كانت هي نفسها المسبب الأول في خراب قرطاجة وتدميرها .

ونتساءل ، أيضاً ، كيف نصبو الى تدمير كونفدرالية ناشطة ، واستبدالها بكونفدرالية أخرى تكون من صنعنا ، دون ان نستطيع بناء قوة حربية تتعاظم باضطراد ، ودون ان ندري كيف نستغل قوات حلفائنا وأساطيلهم في هذا السبيل ، وهل يجوز الإمتناع عن هذا الاستغلال بدعوى عدم التدخل في شؤون الحلفاء الداخلية ! .

وكانت آخر الأخطاء ، وأوخمها سوءاً وعاقبة ، في زاما . كان الجيش القرطاجي ضعيفاً في الخيالة ، وتسببت قرطاجة في حرمان نفسها من الخيالة النوميدية التقليدية، نتيجة لسوء معاملتها لمازينيسا ، وحرمانه من ارث أبيه في الملك ، لصالح صهر أسد روبال جيسكو وزوج ابنته ، سيفاكس . وكانت المشاة ضعيفة الاعداد والتدريب ، وقد جرى جمعها وتجنيدها على عجل . كانت الاستراتيجية الصحيحة بالنسبة لقرطاجة ، ولمثل ذلك الظرف ، هي نفس استراتيجية فابيوس ، اي سياسة الاحتواء ، والاعاقة ، وتطويل الوقت ، وتجنب المعركة الفاصلة ، وذلك الى ان يكتمل الاعداد والتدريب ، وتكتمل النواقص ، وتحدث الفرصة المؤاتية وتوجد ساحة القتال المناسبة . لا يقبل من قائد من مستوى هانيبال ان يقامر بحياة جيشه ومصير وطنه لإنقاذ وحماية محاصيل الأرياف وسهل بقراده من عبث شيبيو وتخريبه ! ، وكانت هذه المقامرة هي الخطوة التي كان شيبيو ينتظرها من وراء عبثه وتخريبه . ومهما كان من الممكن ان تكون نتائج عبث شيبيو وتخريبه ، فإنها ما كانت لتكون أشد سوءاً وأعظم خطراً مما انتهى اليه مصير قرطاجة بعد معركة زاما الكارثة ! .

كان بوسع قرطاجة ان تتحمل الشدة وعسر التموين وقلة الطعام لمدة من الزمن مهما طالت ، وقد سبق لروما ان فعلت كذلك مراراً . ولا نظن ان قرطاجة كانت عاجزة عن تدبير نواقصها من مصادر أخرى خارج سهل بقراده ، وقد حوصرت فيما بعد ، بعد حوالي نصف قرن من الزمن من معركة زاما ،

واستطاعت ان تصمد للجوع والحصار ثلاث سنين ، ولكنه البخل والجشع ، كانـا يتحكمان بتفكير زعماء قرطاجة ونفسية طغمتها الحاكمة . ان التموين بعيداً عن سهل بقراده ربما كان يتطلب نفقات باهظة ما كان أولئك التجار بمستعدين لتحملها ، كما كانوا من قبل غير مستعدين للوفاء بالتزاماتهم في دفع رواتب المرتزقة ، وقد تراكمت سنة تلو أخرى ، وذلك في دولة قامت عسكريتها على هذا الأساس من المقاتلين ! .

لقد أمضى هانيبال مع جيشه ، في إيطاليا ، زهاء ١٦عاماً دون انقطاع ، قضاها في عمليات ومعارك كادت تكون مستمرة متواصلة ، وقد بقي الجيش القرطاجي منضبطاً وتحت سيطرة قائده ، فلا تمرد ولا حوادث هروب وفرار خطيرة ، وهذا في حد ذاته إنجاز قيادي رائع . ولكن الاحتفاظ طول تلك المدة ، في عمليات متواصلة ، بجيش بعيداً عن الأهل والأوطان ، لهو في عرفي خطأ استراتيجي وقيادي بليغ . فكيف يمكن ان تصان المعنويات تلك المدة الطويلة ، بعيداً عن الأحباب والأعزاء ، ودون اتصال من أي نوع كان ؟ وماذا تفيد الغنائم والأسلاب اذا لم يستفد منها الأهل والأولاد ، واذا لم ينعم صاحبها المرتزق بفوائدها او عوائدها على مشهد من الأصحاب والجيران وأفراد القبيلة ؟ ! وقد كان لهذا الأمر ولا شك تأثيره السيىء على المعنويات ، تمثل في انخفاض الفاعلية والضراوة ، ولو بصورة بطيئة ، اعتباراً من موقعة « كانّه » ، أي بعد مضي سنتين على الوجود في الديار الايطالية .

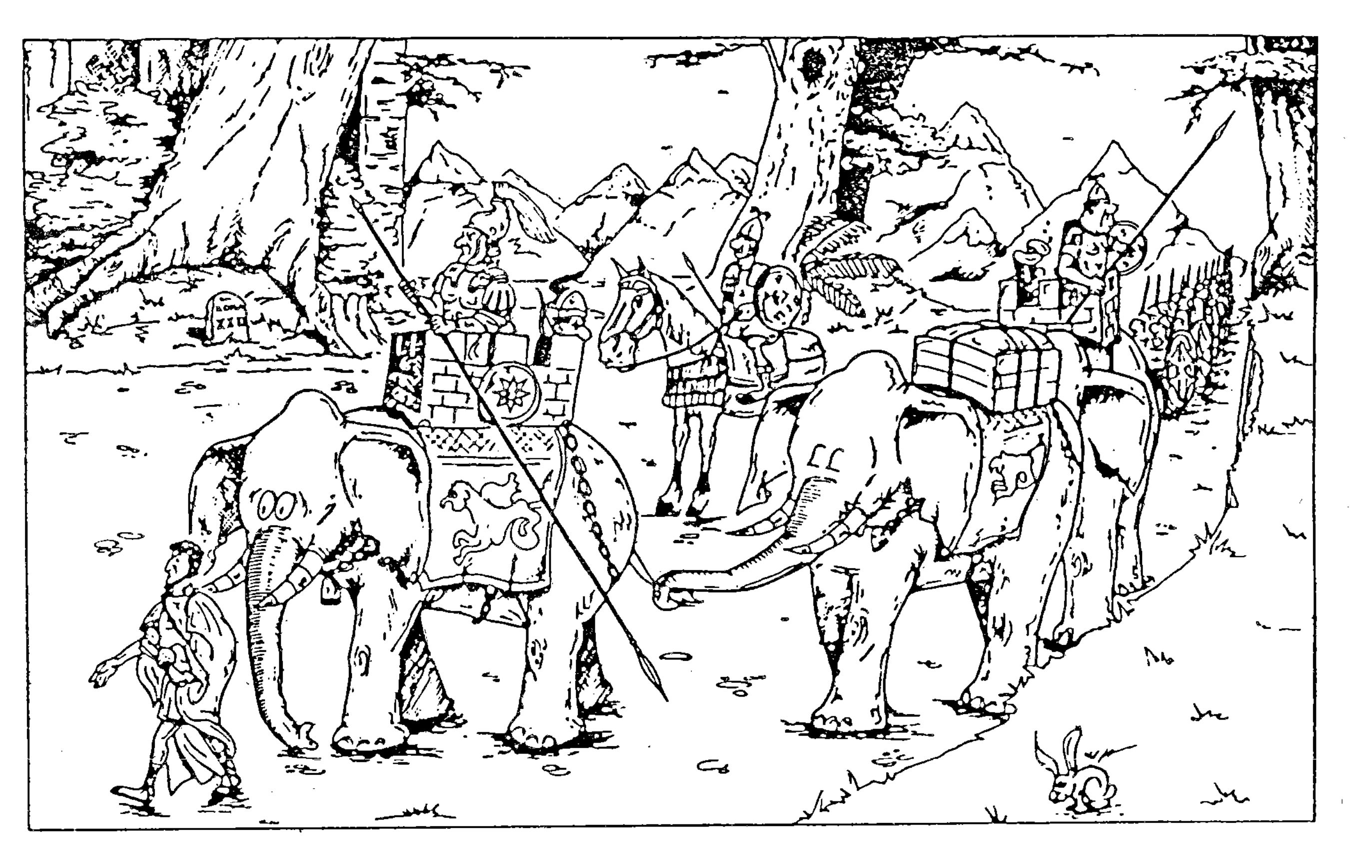
كان هانيبال في ايطاليا مقطوعاً عن كل اتصال او يكاد ؛ فلا طرق مواصلات مأمونة عاملة مع القواعد ، وبالتالي لا انتظام في التموين والمدد والمراسلة ، ولا امكان لاجراء مناوبة واستبدال للقوات ، ولا لاعطاء اجازات واستقبال وحدات جديدة من المجندين الاسبان او القرطاجيين . اما الاسكندر الكبير ، على عكس ذلك ، فقد كان يسهر على سلامة خطوط مواصلاته ، ويحول دائماً دون ان ينقطع او ينعزل عن قواعده . كان يمنح الجنود اجازات لقضائها مع عوائلهم ، ويتلقى بانتظام دفعات متكررة متجددة من الجند المدرب ، الذي كان يأتي بدم جديد الى القوات ، وبالمعلومات عن الأهل والأوطان .

خلاصة

استعرضنا، فيما تقدم ، وجهات نظر مختلفة حول القيمة القيادية لهانيبال ، وقد رأينا كيف ان البعض يعتبره قائداً عبقرياً رائعاً ، ويضعه في مصاف الاسكندر الكبير ان لم يفضله . ويراه آخرون قائداً تنحصر كفاءته في مجال التكتيك ، لكن دون ان تؤدي هذه الكفاءة الى نتائج مفيدة في المجال الاستراتيجي ، وهو المجال الذي يقرر مصير الحرب ككل .

وقد يخيل للمرء ان هانيبال كان كلاعب شطرنج ، ماهراً في هذه اللعبة الملكية ، همه ان يكسب الجولة على رقعة اللعب ، تذوقاً للذة الانتصار والفوز بالغنم من وراء كل جولة ، وليس لغايات أخرى ، او كان كمن له هدف ، لكن لا يعرف السبيل والواسطة الى بلوغه ، فيترك لذلك الأمر الى الصدف والمقادير . وقد نكون على خطأ في هذا الاجتهاد ، لكن كيف نبرر عجزه عن الاستفادة استراتيجياً من انتصاراته التكتيكية ، وخاصة بعد موقعة « كانّه » ؟ ! . وكيف نبرر سماحه لجيش شيبيو الأب بمتابعة حركته الى اسبانيا ، او تقاعسه عن تنظيم قوات أحلافه في ايطاليا في جيش فدرالي قوي فاعل ، او عدم استفادته من أسطول كابوا ، وكان أسطولاً على كفاءة عالية رغم قلة عدده ، خاصة وهو المقطوع او يكاد عن قواعده الأساسية ؟ ! . ثم كيف نبرر تسلميه القيادة في اسبانيا الى شقيقه أسد روبال ، الذي أثبتت الأحداث انه لم يكن كفؤاً لذلك ، او فقر الجيش القرطاجي بالقادة الاكفاء ، باستثناء هانيبال ؟ ! .

وفي الملحقين التاليين معلومات اضافية ووجهات نظر مختلفة ، وقد أوردناهما ، لاطلاع القارىء والباحث على هذه الوجهات المتباينة توفيراً لفرص الاطلاع على آراء مختلفة ، ومساعدة على تكوين رأي خاص ربما يكون صحيحاً او قريباً من الصواب والصحة . ان غرضنا هو المعرفة والافادة ، وهو ذاته الغرض من كل تأريخ جدي صحيح ! .



المسيرة في احتفال باستقبال منتصر كبير .

الملحق رقم ١

حول احتفال نصر للجنرال هانيبال

بقلم الجنرال افريت هيث

مجلة الجيش البريطاني ، نيسان ١٩٨٣

وزارة الحرب ـ معسكر مارثيوس ـ قرطاجة

احتفال نصر للجنرال هانيبال

المرجع :

أ ـ الأنظمة العسكرية القرطاجية .

١ ـ من المعلوم أن مجلس الشيوخ الروماني قد جرى على عادة تكريم جنرالاته الذين يحققون انتصارات رائعة وهم يمارسون قيادات مستقلة ، وذلك بأن يقيم لهم احتفالات نصر خاصة بهم . والاجراء لمثل هذه الحالة هو مسير احتفالي استعراضي لموكب عرض خلال المدينة ، وفي المقدمة أعضاء مجلس الشيوخ ومن خلفهم القائد المحتفى به ، الذي يتبع قائداً لمركبة حربية على رأس جيشه ، يلي ذلك الأسرى والعربات المحملة بالأسلاب والغنائم . وبعد الانتهاء من التجوال في المدينة ، وصلاة تكريس عند معبد جوبيتر في الكابيتول ، تنتهي الاحتفالات بمأدبة وصلوات دينية .

٢ ـ يعترف الرومان ، مثلنا تماماً ، بأن المواصلات الحديثة تفتقر الى الشيء الكثير . ونتيجة لهذا النقص فإن أنباء الانتصارات العسكرية ، الضرورية جداً لرفع معنوية الشعب (والجيش) ، لا تنتشر بسرعة كافية كما يقتضي لنصر أن يستغل بصورة كاملة . واحتفالات النصر ما هي الاّ وسيلة لاستغلال هزيمة الأعداء والتذكير بجلائل الأعمال الماضية . والغرض الرئيسي من كل احتفال ، كما أراده المشرع الروماني ، هو اعطاء سكان روما مشهداً ملموساً عن انجازات القادة والجيش ، والضرب على مشاعرهم تغذية

لروح الوحدة الوطنية والحماس الشعبي . وهذا الاحتفال هو أعلى تكريم روماني للقادة البارزين ، ولا يمنح الا نادراً . وان مجرد التفكير باستقبال باحتفال نصر ، عند العودة الى روما ، كان حاثاً للعسكرية الرومانية ، على مختلف المستويات ، ودافعاً لأفرادها على مزيد من جلائل الأعمال . وهذا في الواقع حافز رائع .

٣ ـ ان الجنرال هانيبال قد استدعي من ايطاليا الى أفريقيا ليقوم بطرد الجنرال بوبيليوس شيبيو من الأرض القرطاجية . ومن المتوقع وصوله الى قرطاجة في غضون ستين يوماً . ومعلوم أنه قد أحرز عدداً من الانتصارات الرائعة على الرومان . ولذلك ، وابرازاً لهذه الانتصارات ، ولاستعمالها مناسبة لأفراح شعبية (يتعزز من جرائها ، في هذه الظروف العصيبة ، الدعم الجماهيري لمجلس الشيوخ) ، فإني أقترح أن نتبنى طريقة الرومان في تكريم قادتهم البارزين ، وأن نقيم أول احتفال نصر للجنرال هانيبال .

٤ ـ مرفق بهذه المذكرة تنويه بأعمال الجنرال هانيبال ، فأرجوكم تعميمه والتعليق عليه .

هاميلكار جنرال

القائد الأعلى للجيوش القرطاجية عبر البحار

المرسل اليهم :

ـ للمطالعة وابداء الرأي :

- المستشار الاستراتيجي الأول
- مدير العمليات المتوسطية
- رئيس التحصينات العسكرية
- المدير العام لقضايا الحلفاء وأمور القبائل
- الأمين العام ، ميزانية ومالية
- المسؤول الرئيسي ، مصلحة التكريمات
- المراقب للأسلاب والغنائم الأجنبية
- عضو مجلس الشيوخ لدى الجيش

ـ للقرار :

- القنصل

تنويه على عموم الجيش

١ ـ كان الجنرال هانيبال ، منذ ١٨ سنة ، قائداً لجيشنا في ايبريا ، وكان عمره يومئذ ٢٦ عاماً فقط . وقد تلقى الأمر ، بعد سنتين من توليه القيادة ، بضرب الحصار على ساكونتوم ، المدينة المستقلة لكن الواقعة تحت الحماية الرومانية ، والتي كانت جادة ومثابرة على اثارة المشاكل ضدنا لدى القبائل المحلية . وبالرغم من وعورة الأرض ، واصابته بجرح بالغ ، فقد أجرى هانيبال الحصار بعزم واصرار ، وعمل على الاقلال الى أقصى حد من الخسائر بالرجال والحيوانات والمعدات ، وانتهى آخر المطاف باحتلال المدينة بعد حصار دام ٨ أشهر . وقد نظرت روما الى هذا الانتصار كإهانة موجهة اليها ، وعمدت لذلك الى اعلان الحرب على قرطاجة .

٢ ـ وقد برزت منذئذ مواهب الجنرال هانيبال وادراكه المتمكن للأمور الاستراتيجية . وعندما تلقى الأمر باجتياح الأراضي الرومانية ، فقد بدأ أولاً بتأمين متطلبات الدفاع عن ممتلكاتنا في شبه الجزيرة الايبرية . وكان تخطيطه لحملته الايطالية بعد ذلك متسماً بالدراسة العميقة والتحري الواعي الدؤوب لكل الخيارات والاحتمالات ، الأمر الذي يشهد له بالحذق والبراعة . انه لم يهمل مسائل التموين ، ولا أهمل موضوع اقامة علاقات طيبة مع القبائل التي كان عليه أن يجتاز مناطقها . وقد استطاع فوق ذلك أن يجتاز منطقة جبال البرنس (البيرينيه) ويعبر نهر الرون قبل أن يدرك الجنرال شيبيو ، القائد الروماني ، ان هدف الجنرال هانيبال كان عبور جبال الألب والدخول الى ايطاليا من جهة الشمال الغربي . هذا الاختيار للطريق ، بالتفضيل على سلوك طريق مباشر ، كان عملاً عبقرياً . وإن اجتياز نهر الرون ، الذي قوبل لسوء

الحظ بمقاومة جموع كبيرة من القبليين ، قد تم رغم ذلك بنجاح ، بعد أن قام الجنرال هانيبال بارسال قوة من الخيالة الى أعلى النهر ، حيث عبرت من هناك خفية وأخذت رجال القبائل المعادية من الخلف .

٣ ـ نحن الآن في شهر تشرين أول (أكتوبر) ، والجنرال هانيبال يواجه أعظم عقبة قد لقيها حتى الآن ، وهي عبور جبال الألب . وكونه قد تغلب على هذه العقبة الهائلة ، في ظروف طقسية فظيعة ، وفي وجه الكثير من القبائل المتصدية لمرورنا ، في غضون ١٥ يوماً فقط ، ومع جيش كان خليطاً من الأجناس المتباينة ، كل ذلك لهو في حد ذاته انجاز عسكري سيذكر بفخر على مدى العصور القادمة ، سواء بأقلام مؤرخينا ، أو بأقلام المؤرخين العسكريين الأجانب ، كمثال أعلى للقيادة المتميزة . وقد وصل ٢٠ ألفاً من المشاة ، و ٦ آلاف من الفرسان ، و ٩ أفيال الى وادي نهر بو ، رغم الخسائر الفادحة التي نجمت عن المهاجمات القبلية .

٤ ـ بينما كان الجيش القرطاجي يشق طريقه عبر جبال الألب ، كان الجنرال شيبيو يجمع قوة أكبر من جيشنا عند نهر بو . وفي تشرين ثاني (نوفمبر) ، التقى الجيشان عند نهر تيشينوس ، أحد روافد نهر بو . ورغم أن الجيش الروماني كان يتفوق عدداً ، فقد استطاع الجنرال هانيبال أن ينزل به ضربة قاصمة ، بواسطة خيالته النوميدية . وقد تقهقر الرومان بالهلع والفوضى ، وجرح قائدهم شيبيو .

٥ ـ وبعد شهر من ذلك التاريخ ، اجتمع جيش شيبيو مع جيش روماني آخر ، بقيادة الجنرال سمبرونيوس لونكوس . وقد تمكن الجنرال هانيبال ، باستعمال الخديعة والتضليل ، وتكتيكات الخيالة في الكر والفر ، وأخيراً بقيامه بهجوم مباغت بالفيلة ، تمكن من دحر الرومان عند نهر تريبيا وطردهم من غاليا ما بعد الألب . وكان التفوق القرطاجي على الرومان ، في هذه المعركة ، تاماً كاملاً .

٦ ـ كانت تعليمات الجنرال هانيبال وأوامره تطالب باضعاف الرومان وتحطيم معنوياتهم ، واستدراجهم الى معركة حاسمة ، والتوجه بعد ذلك الى روما نفسها . وقد اختار هنا أن يسلك طريقاً لم يكن متوقعاً ، بأن اجتاز سلسلة جبال الأبنين متوجهاً الى شمال أترووريا ، عوضاً عن اتباع الطريق المؤدي مباشرة الى روما . كانت الغاية من ذلك تغليب الحيلة والخداع في مواجهة القنصل فلامينيوس ، الذي كان جناحه قد طوي بحركة التفاف من قبلنا . وهكذا أخذ الجنرال هانيبال طريقه الى العاصمة الرومانية ، متبوعاً بعدو غافل عن مقاصده . وعند الوصول الى بحيرة ترازيمين ، وعلى طول الشواطىء الشمالية لهذه البحيرة ، نصب الجنرال هانيبال شركاً حاذقاً أوقع فيه الجيش الروماني بكامله ، وأنزل به حوالي ٢٥ ألفاً بين قتيل وأسير . وقد قتل القائد القنصل فلامينيوس ، أما قواتنا الباسلة فانها لم تصب بغير ١٥٠٠ اصابة ما بين قتيل وجريح .

٧ ـ بعد ثلاثة أيام من هذا الانتصار الرائع ، تمكن الجنرال هانيبال من تمزيق قوة رومانية قدرت بحوالي ٤ آلاف ، بامرة القنصل الثاني كنايوس سرفيليوس ، كانت قادمة لنجدة القنصل فلامينيوس .

٨ ـ ومع أن الجنرال هانيبال كان على مسافة بضعة أيام من روما ، فقد قرر رغم ذلك أن ينتظر الفرصة الملائمة . كانت تقارير الاستخبارات تفيد بأن تحصينات العاصمة الرومانية شديدة القوة والمناعة ، وأن السكان سيهرعون الى الدفاع عنها في حال تعرضها الى الهجوم ، زد على ذلك أنه لم تكن لدى الجنرال هانيبال معدات للحصار . ولكن ، وبالرغم من كل ذلك ، فقد كانت الآلهة قد نصحت بالقيام بهجوم فوري على المدينة ، وقالت بأن هذا الهجوم سينجح .

٩ ـ استراح الجيش طوال فصل الصيف ، قبل أن يقوم بعدئذ بنهب وتخريب أبوليا وكامبانيا. ولكن الجنرال هانيبال عجز عن استدراج فابيوس ، القائد الروماني الجديد ، الى خوض المعركة . فهذا القائد الروماني ، رغم

تفوقه بالأعداد ، لم يكن ليجرأ على تحدي جيشنا .

١٠ ـ خصص الشتاء الثاني للتدريب . وما أن انتهى هذا الفصل حتى انطلق الجنرال هانيبال من منازله الشتوية ، بحركة مفاجئة ، ليهاجم ويستولي على مستودع التموين الروماني الكبير في « كانه » . وقد أدرك العدو أن ليس باستطاعته القبول بهذه الاهانة الجديدة دون الرد عليها على نحو ما. وقد قال الجنرال هانيبال ، في تقريره ، أن الجيش الروماني ، عند قدومه الى « كانه » ، كان يتألف من ٦٦ ألف جندي مشاة ، و ٧ آلاف خيال . وكان تعداد الجيش القرطاجي فقط ٣٢ ألف جندي مشاة و ١٠ آلاف خيال .

١١ ـ وقد أظهر الجنرال هانيبال ، أثناء هذه المعركة ، تفوقاً في الأمور العسكرية لم يبلغه أحد من قبل في تاريخ الحروب . وكان مما لوحظ ، بصورة خاصة ، حذقه في توقيت مختلف الحركات في ميدان المعركة ، وبراعته الفائقة في التنسيق بين المشاة والخيالة . قتل من الرومان في هذه المعركة ٦٠ ألفاً من المشاة و ٤ آلاف خيال . وكان من ضمن قتلى الرومان أحد القنصلين ، و ٨٠ عضواً من أعضاء مجلس الشيوخ . وقد وقع في أسرنا ١٠ آلاف أسير . وكانت خسائرنا أقل من ٨٠٠ . وهذه المعركة هي أكبر هزيمة عسكرية حلت بروما حتى الآن .

١٢ ـ وكما أن الجنرال هانيبال كان لا يزال دون سلاح حصار لمواجهة تحصينات روما المتزايدة قوة ومناعة دون توقف ، وكذلك نظراً لضعفه في الطاقة البشرية ، لذا قرر مصيباً أن يقضي فصل الشتاء في « كابوا » . كان هدفه اكتساب حلفاء ليستطيع بواسطتهم بلوغ تعادل في الطاقة البشرية مع روما المتفوقة في هذه الناحية الى حد كبير . وكان هدفه أيضاً أن يستجلب الجيش الروماني الى معركة أخيرة تكون باتة حاسمة . وللأسف الكبير فإن هذا الهدف قد استعصي تحقيقه على الجنرال هانيبال ، نظراً لإحجام العدو وخوار عزائمه ، ولصعوبة الحصول محلياً على المؤن اللازمة . لكن الجنرال هانيبال استطاع رغم كل ذلك أن يضع يده على عدد كبير آخر من المدن والبلدان

(منها على سبيل المثال : تارانتوم ، كازيلينوم ، آربي . . الخ) وأن يفوز في عدة اشتباكات حاسمة على مدى ١٢ عاماً . وكان من المستحيل العثور على خطأ ولو بسيط في استراتيجيته ، وحركة جنوده وانتشارهم التكتيكي كل ذلك الزمن الطويل .

١٣ ـ بنزول الجنرال شيبيو على الأرض الأفريقية هذه السنة ، على رأس قوة كبيرة تقدر بحوالي **٢٥** ألف رجل ، ونظراً للتهديد الناجم عن ذلك بالنسبة الى قرطاجة ، لذا استدعي الجنرال هانيبال الى الوطن لمعالجة هذا الموقف المستجد ، ويقتضي أن يصار الى استقباله باحتفال انتصار .

مطالعة رقم (١)

١ ـ هذا اقتراح جديد ومثير للاهتمام ، ولكن التنويه يغالي ولو قليلاً في التعظيم والمديح . ولي بخصوص ذلك الملاحظات التالية :

أ ـ **فقرة ٢** : ـ انني لا أتفق معك على أن الدخول الى ايطاليا ، بطريق جبال الألب ، كان عملاً عبقرياً . ويجب شطب عبارة « لم يكن أمام الجنرال هانيبال مجال لاختيار آخر ، نظراً للتفوق الروماني الكامل على سطح البحار » ، هذا مع الاعتراف بأن عبور هذه الجبال قد سبب المفاجأة والذعر للرومان ، ويستحق الجنرال هانيبال لذلك تصفيق استحسان .

ب ـ **فقرة ١٢** : ـ (١) بعد معركة « كانّه » ، كانت روما مكشوفة لجيشنا . والأسباب المعطاة ، تبريراً لعدم المسير الفوري العاجل على المدينة ، هي أن دلت على شيء فعلى سوء تقدير مزعج مقلق للموقف من الناحية الاستراتيجية ، ونقص في العزم والبت ، أو حتى شيء أكثر شراً من ذلك . وقد حاول الجنرال هانيبال ، كبديل ، أن يستولي على نابولي وفشل . ولقد تراجع الى « كابوا » ليمضي في هذه المدينة ثمانية أشهر متتابعة دون عمل . ان الملذات الشهوانية ، التي كانت تعج بها تلك المدينة ، كانت فاعلة في استنزاف حيوية الجيش وقوته ولحمته ، الأمر الذي أدى الى خسارة الجنرال هانيبال للمبادأة ولم يستعدها قط بعدئذ ، الاّ على المستوى التكتيكي . كان عليه بالأحرى ، عوضاً عن « تشتية » الجيش لا غير ، ان يكون « **ماضياً حاداً في استغلال ثمرات انتصاره بعنف لا رادع له** » .

(٢) حظي الجنرال هانيبال ، بعد « كانّه » ، ببعض النجاحات القليلة

الأهمية ، وذلك حتى معركة ميتوروس ، لأربعة أعوام خلت ، عندما هُزم شقيقه الجنرال أسد روبال ولقي مصرعه . كان على الجنرال هانيبال ، حالئذ ، أن يدرك أنه لم يعد هناك أيّ أمل بالاستيلاء على روما ، وأن يشير علينا بذلك ، عوضاً عن التعلل بالآمال الكاذبة والنصر النهائي . إننا نجني اليوم النتائج المريرة لما كان من نقص فاضح في أحكامه واجتهاداته .

٢ ـ إن ممارسة الجنرال هانيبال للحرب ، في رأيي ، لا تستحق تكريمه بحفل انتصار على الطريقة الرومانية ، ومع أن سلوكه أحياناً كان في غاية الروعة ، في مراحل الحرب الأولى خاصة ، عندما كان يتكشف عن الحيلة الواسعة وعن نوع من الجرأة الاستراتيجية ، لكنه فقد الزخم والقوة الدافعة فيما بعد .

أرى أن يستقبل باستعراض عسكري فحسب .

التاريخ : غرة أيلول

التوقيع :

زنثيبوس ـ المستشار الاستراتيجي الأول

مطالعة رقم (٢)

١ ـ اني أوافق على تأسيس نظام احتفالي ، على الطريقة الرومانية ، لتكريم القادة المنتصرين ، لكني لا أعتبر الحصيلة النهائية لأعمال الجنرال هانيبال ولا أراها جديرة بأن يستقبل صاحبها باحتفال تكريم المنتصرين ؛ فلقد أخفق في بلوغ هدفه ، وهو الاستيلاء على روما . وكذلك فان استعراض نصر يستدعي مشاركة ١٠ آلاف رجل ، ولا يوجد الآن ، في قرطاجة ، سوى ٨ آلاف ، وليس من الممكن زيادة هذا العدد في الوقت الحاضر . ولذا أقترح أن يستقبل الجنرال هانيبال باستعراض قنصلي للجيش ، ومثل هذا الاستعراض يتطلب مشاركة ٥ آلاف جندي ، و ٥٠٠ حصان ، و ٥٠ فيلاً .

٢ ـ أما ملاحظاتي التفصيلية بخصوص التنويه فهي التالية :

أ ـ **الفقرة ٨** : ـ لقد فشل الجنرال هانيبال ، خلافاً لأوامره ، في الامساك بفرصة مهاجمة روما حال سنوحها ، وذلك خلافاً لما أشارت به الآلهة من توقع خير من وراء مثل هذا الهجوم . إن حسن الادراك وصحة التفهم لمدلولات العرافة لمن مميزات القائد الناجح الرئيسية ، وقد اعتُرف بهذا الأمر مؤخراً ، وجرى ادراجه في المنهج الدراسي لمعهد القيادة وهيئة الأركان . ومن الأشياء المؤيدة لذلك ، على سبيل المثال ، أنه في صباح معركة بحيرة ترازيمان ، سقط القنصل فلامينيوس عن ظهر جواده ، والأسوأ من ذلك ، أن رفضت الدجاجات المقدسة أن تأكل . وقد سخر فلامينيوس من هذه الدلائل والنذر ولذا لم يكن من الغريب بعد ذلك أن يقع فلامينيوس في المصيدة ، وأن يهلك مع القسم الأكبر من جيشه . وعلاوة على ذلك فقد كان الجنرال هانيبال ، كما يبدو ، نزوعاً الى تجاهل آراء هيئة أركانه . وأكرر

فأضيف ، كنهاية لهذه الفقرة ، ان الآلهة أشارت ، على كل حال ، الى أن هجوماً فورياً على روما كان سيكلل بالنجاح » .

ب ـ **الفقرة ١٢** : ـ ما هي الفائدة من ربح حرب استنزاف اذا لم تؤد آخر الأمر الى نصر كامل . ومنذ أن نزل الجنرال شيبيو من سفنه على الأرض الأفريقية ، كان لا مفر من القاء بعض الشك على الزعم بأننا ربحنا « حرب الاستنزاف » . لذا يقتضي شطب عبارة « حرب الاستنزاف » ووضع مكانها « مناوشات متنوعة » .

ج ـ **الفقرات ٤ ، ٦ ، ١١** : ـ يجب أن لا يغيب عن البال أن الجنرال هانيبال ، في معارك تيشينوس ، ترازيمان وكانه ، كان يقاتل جيوشاً غير متمرسة ، ويواجه قادة لا خبرة لهم ولا تجارب ميدانية سابقة . وكان باستطاعة أي جنرال قرطاجي أن يملي ارادته على جيوش وقادة من مثل هذا النوع دون صعوبة . لذا يجب شطب الجملة الأخيرة من الفقرة ٥ ، وأن تضاف الجملة التالية : « **كان التفوق القرطاجي على الرومان كاملاً** » .

د ـ **الفقرة ٩** : ـ حقيقة الأمر هي أن الجيش كان مشغولاً بالنهب ، والسلب ، وقطع الطرق ، ولم يكن لديه وقت للعمل على استجلاب الرومان الى المعركة .

٣ ـ لكن ، وبما أن الجنرال هانيبال قد حقق رغم ما تقدم من ملاحظات بعض الانتصارات المذهلة ، على مسارح متعددة ، وعلى مدى أعوام عديدة ، لذا أقترح أن ينعم عليه بأساور الميدان التالية :

أ ـ ساكنتوم .

ب ـ اجتياز الألب ومعركة تيشينوس .

ج ـ بحيرة ترازيمان .

د ـ كانّه .

هـ ـ تارنتوم .

التاريخ : غرة أكتوبر

التوقيع : هيميلكو
مدير العمليات المتوسطية

مطالعة رقم (٣)

١ ـ قواتنا ومعداتنا في ايبريا ، المخصصة لعمليات الحصار ، معروفة بأن لا مثيل لها قط . ولذلك فإنه لمما يدعو الى العجب الشديد ، وبالتالي وبالتأكيد الى التوبيخ والتعنيف ، ان يترك الجنرال هانيبال قافلة حصاره وراءه في ساكونتوم ، ليصير من جراء ذلك عاجزاً عن مهاجمة روما واقتحام أسوارها . وكان هذا الخطأ الفادح السبب الرئيسي لفشله في الوصول بحملته الى نهاية ناجحة .

٢ ـ فقرة ١ : ـ

أ ـ إن قضاء ٨ أشهر للتغلب على مدينة صغيرة كساكونتوم ، بينما كانت تتوفر جميع معدات الحصار والطاقة البشرية ، لعمل لا نرى فيه ، بالتأكيد ، « نشاطاً عظيماً وبراعة تكتيكية متفوقة » . يحذف هذا القول ويدرج مكانه « . . . . مثابرة ورغبة في تخفيض الخسائر بالرجال والحيوانات والتجهيزات ، أخيراً . . . » .

ب ـ ومن الواجب الاعتراف بأن الجنرال هانيبال قد جرح نتيجة لخروج المدافعين من المدينة ومهاجمتهم للقوات القرطاجية المحاصرة ! . إن المبدأ الأول من مبادىء الحصار ، كما يدرس في معهد المحاربة الحصارية ، وكما يطبق من قبل جميع الأفواج والكتائب والسرايا النظامية ، يقول باحكام حلقة الحصار حول المدينة واغلاق كل منفذ في هذه الحلقة . ولو كان هذا المبدأ قد اتبع في حصار ساكونتوم ، لكانت هذه المدينة قد سقطت في وقت مبكر خلافاً لما حصل بالفعل .

٣ ـ ان الجنرال هانيبال ، بفشله باصطحاب سلاح حصاره واستعماله ، قد تسبب في اطالة زمن الحرب بلا موجب . ولذلك فإني لا أوافق على ان يستقبل باحتفال انتصار ، ولا حتى باستعراض نصر . ولكني أرى ان صدور بيان عن مجلس الشيوخ قد يكفي ويكون بمثابة اقرار من الشعب بفضل الجيش وتقدير له . وقد راجعت ملحق النظام ١٤، في قسمه المتعلق بمثل هذا الموضوع ، فوجدته عتيقاً قد عفا عليه الزمن ، وكان قد نشر بعد الحرب البونية الأولى ، منذ ٣٨سنة ، وهو ينص ان حرس الشرف ، التابع لمجلس الشيوخ ، والمؤلف من منتخبين ممثلين لجميع أفرع الجيش ، مكلف بأن يخرج في مسير استعراض في حال صدور مثل هذا البيان . وسلاح الحصار ، منذ الحرب البونية الثانية ، تشكيل مستقل وكف عن ان يكون فوجاً متخصصاً في سلاح الفيلة ، وعليه لذلك ان يساهم بمفرزة في تشكيل الحرس السابق الذكر .

٣٠ اكتوبر
التوقيع : بوميلكار
رئيس التحصينات العسكرية

مطالعة رقم (٤)

١ ـ أشكرك لاعطائي هذه الفرصة لإبداء مطالعتي بخصوص التنويه الخاص بالجنرال هانيبال . ان الأسلوب الذي اتبعه الجنرال هانيبال ، في تعامله مع حلفائنا طوال وقت مديد من الزمن ، لأمر يتفق مع تقاليد الجيش القرطاجي وأعرافه العريقة ، وهو لذلك جدير بالثناء الى حد كبير . يجب ان يكافأ على ذلك بمنحه وساماً فضياً ؛ فلقد وحد ، بصورة فاعلة ، وفي جيش واحد ، جماعات متعددة الأجناس واللغات ، مختلفة العادات والأديان والتقاليد والخصائص العسكرية . وقد تمكن من الحفاظ على سلامة معنويات هذه الجماعات ، وذلك حتى في أوقات نقصت خلالها المؤونة وانقطع الأمل بفرص السلب والنهب على سلم كبير . يجب ان تذكر هذه الناحية في صلب التنويه . كما يجب ان يشار ، بوجه خاص ، الى طريقة تعامله المثالية مع الخيالة النوميدية ، وهي المعروفة بكثرة التقلب وسرعة الانفعال .

٢ ـ ولكني ، من جهة أخرى ، أراني مضطراً للقول بأن تعامله مع القبائل المحلية لم يكن مثمراً الى درجة كافية . ويخيل الي انه لم يقرأ النشرة المعنوية « اخضاع الجماعات العرقية : مبادىء وطرائق عمل » (مدونة تحت رقم ٥٥٠١١٤) ، والتي قام مكتبي بتوزيعها حتى مستوى السرية ، بعيد ابتداء حصار ساكونتوم . ان هذه النشرة لم تكتب على ألواح حجرية ، كما بلغني ذلك عن لسان بعض المتهكمين ، وهي في الواقع موجزة ودقيقة ، وقد طبعت على أحسن وأخف أنواع ورق البردي المتوفرة .

٣ ـ وللجنرال ولا شك فضل في التلاعب بأحد زعماء القبائل وتحويله الى العمل ضد أخيه ، قرب نهر الرون ، وكذلك فضل في استعمال أفراد من

قبائل البوئي كأدلاء فيما بعد . غير ان فشله الملوم في اقامة روابط ودية مع قبائل الأللوبروجس ، في جبال الألب ، قد ادى الى قيام هذه القبائل بمهاجمته باستمرار على مؤخرة قواته . وقد شجع هذا العمل المعادي قبائل سلتية ، في مناطق أخرى ، على ازعاج جنودنا ومضايقتهم ، زد على ذلك انه قد راح ما بين ٥ و ١٠ آلاف من رجالنا خسارة أثناء اجتياز الألب . وبناء على ذلك فإني أرى ان تضاف ، بعد كلمة «وادي»في الفقرة ٣ من مشروع التنويه ، جملة « بالرغم من الخسائر الفادحة التي وقعت نتيجة لهجمات القبائل» .

٤ ـ ان فوز الجنرال هانيبال ، في معركة تيشينوس ، دفع بالغاليين والليكوريين الى الاسراع للتطوع في جيشه . وقد انفصمت ، بعد معركة « كانّه » ، كثير من المناطق الايطالية عن الكونفدرالية الرومانية ، الا ان ذلك لم يكن كافياً . وقد استمر الجنرال هانيبال ، بالرغم من تقارير المخابرات المناقضة ، على التعلق بآمال قيام حلفاء آخرين لروما بالانفصام عنها . لقد أخطأ كثيراً في تقييم متانة الروابط الكونفدرالية ، كما ان توقعه قيام ثورة أهلية لم يكن سوى مجرد وحي من خياله وأوهامه ، وهو لو كان قد استشار المرشد المختص بأمور القبائل والأقوام المحلية ، لكان قد وقف على نوع الوضع على حقيقته .

٥ ـ وعلى كل فإني أعتقد ان من الممكن استخدام مناسبة اقامة احتفال انتصار لغايات مفيدة ، ولذا فإني أدعم هذا الاقتراح . فالاحتفال سيكون بمثابة تمرين ممتاز وواسطة فاعلة مثمرة لتمتين العلاقات مع الجماهير . واذا اعتمد هذا الأمر ، فيجب توجيه الدعوة الى حلفائنا الكبار لكي يساهموا بجنودهم في تشكيل الموكب ومسيره ، وسيساعد هذا الاشتراك على توطيد مشاعر الود والتعاون اللازم للمعركة الوشيكة ضد الجنرال شيبيو .

١٤ نوفمبر

التوقيع :

هاميلكار فريكا

المدير العام لقضايا الحلفاء والقبائل

مطالعة رقم (٥)

١ ـ انني في غاية القلق من جراء هذا الاقتراح بانشاء احتفالات انتصار ، والأسوأ من ذلك ان يكون أول احتفال في هذه السنة المالية .

٢ ـ ان الأعباء المترتبة عن استمرار الحرب القائمة ، على مثل هذا البعد عن ديار الوطن ، ولمدة تزيد عن ١٥ عاماً ، معروفة للجميع ولا حاجة لي الى الخوض فيها . لقد تسببت هذه الحرب في بذل كثير من التضحيات في سبيلها : ومن ذلك انها منعت اجراء كل المسابقات بالمركبات الحربية وبالفيلة طوال الأعوام الثمانية الماضية .

٣ ـ ان الاعتمادات المالية المركزية ، لهذه السنة ، قد استهلكت الآن جميعها في البحث وفي تطوير أوجه وأجهزة للحماية ضد المزراق الروماني الجديد ، وفي مواجهة التكاليف الفاحشة لزيارة الملك أنطيوخوس الثاني ، ملك سورية ، وفي شراء هدوء واستقرار بعض القبائل في موريتانيا ، وكذلك في شراء ومصادرة ٤٠ فيلاً تجارياً جديداً . وكنا نقوم بدراسات وحسابات لغرض تحقيق توفير في مصارفات العام المقبل عندما فوجئنا بنزول الجنرال شيبيو على البر الأفريقي . وقد اضطرنا هذا الحدث الى اجراء اتصالات عاجلة مع مكدونيا ونوميديا وسرقوسة طلباً لقروض اضافية . ان هذه الاتصالات لا زالت جارية ، ولا أتوقع ، لسوء الحظ ، ان نحظى بقروض في شروط مناسبة .

٤ ـ ان الاستعراضات العسكرية ، مهما يكن نوعها ، وحتى صدور بيان عن مجلس الشيوخ ، كلها اجراءات مكلفة بصورة فاحشة ، وفي ظروف التقشف التي نعيشها ، فإن كل انفاق اضافي لن يكون من السهل تدبيره . وفي

تقديري ان أحسن اعتراف بانتصارات الجنرال هانيبال العظيمة قد يكون في اقامة قوس نصر تدفع تكاليفه على أقساط ، مع احتمال تأجيل تسديد القسط الأول حتى السنة القادمة ، لكن مع الاشارة خصوصاً الى محدودية الاعتمادات المالية اللازمة من أجل شراء مواد البناء لمثل هذا القوس .

ديسمبر

التوقيع : مينيمال

الأمين العام ، ميزانية ومالية

مطالعة رقم (٦)

١ ـ ان التفكير باحداث تشريع باحتفالات نصر ،واجراء احتفال من هذا النوع للجنرال هانيبال ، سيخلق سابقة قد يندم مجلس الشيوخ على فعلها لمدة طويلة . واني أقترح ، قبل ان يتخذ قرار عاجل بهذا الخصوص ، ان يقوم مجلس الشيوخ بتكليف لجنة فرعية لتقوم ببحث مختلف العوامل ذات الصلة بالموضوع . واذا وافقت اللجنة الفرعية المقترحة على تحقيق هذا المشروع ، فسأقوم عندئذ باصدار التعليمات المتعلقة بذلك ، ابتغاء معرفة التعليقات وردود الفعل .

٢ ـ وبخصوص « أساور الحملة » ، فقد تترتب عن هذه المسألة أمور غير مرضية . فالأساور أولاً مرتفعة الثمن . وثانياً ، اذا جرى توزيع أسوارة باسم الحملة ، فقد يستدعي الأمر منح أقراط تقديراً للبسالة ، الأمر الذي سيستدعي بدوره تخصيص اعتمادات مالية اضافية ويداً عاملة ، وستكون دائرتي بحاجة إلى كتبة اضافيين لتنظيم الثناءات . ثالثاً ، ليس من المجهول ان جنوداً يبيعون أساورهم وأقراطهم،عاملين هكذا على ادخال الفوضى والاضطراب في السوق المالي ، ومتسببين بسقوط قيمة الدينار . ومن حسن الحظ انّ دار ضرب العملة قد حولت آليتها لصنع الرماح .

٣ ـ وفي حين انني أرى ان لا يروح الجنرال هانيبال وجنوده دون اعتراف بجلائل أعمالهم ، لذلك فإني أقترح ان يصار الى اصدار اسوار : بحملة واحدة مع أربعة خواتم باسم ساكونتوم ، اجتياز الألب ، تيشينوس ، بحيرة ترازيمين وكانّه . اما تارانتوم فانها ، في رأيي ، لا تستحق خاتماً . والاسوارة

المقترحة يجب ان تعطى فقط للجنود القرطاجيين والنوميديين . وقد فهمت من تعليقات القيادة العامة ان قوات الحصار الايبرية لم تساهم الا في معركة ساكونتوم فقط ، ولذا فإن عملاً محدوداً كهذا لا يستحق اسوارة مكافأة عليه ، وليس من الممكن منح خاتم دون اسوارة .

٨ يناير

التوقيع : هانو

المسؤول الرئيسي ، مصلحة التكريمات

مطالعة رقم (٧)

١ ـ اعتذر لتسببي في تأخير المسير الدائري لهذه الاضبارة ، وأود ان أضيف جديداً على مطالعتي السابقة .

٢ ـ لقد بحثت منذئذ في تكاليف بناء قوس نصر ، وما لم تتأمن الاعتمادات لذلك من ناحية ما (أسلاب من مغانم الجنرال هانيبال مثلاً ؟) ، فإنه لن يكون باستطاعتنا سوى اقامة قوس نصر صغير وغير مهيب من الحجر ، او اقامة قوس يكون أكبر قليلاً ومن الخشب . ولذلك فإني أرى ان من الأفضل اعتماد نصب مسلة مع كتابة لائقة على القاعدة .

آخر يناير

التوقيع : مينيمال

الأمين العام ، ميزانية ومالية

مطالعة رقم (٨)

١ ـ لا أريد أن أعلق على الوجه العسكري للتنويه فحسب .

٢ ـ ليس هناك من شك في ان انتصاراتنا في ايطاليا قد أبقت الشعب مقيماً على دعمه وتأييده لمجلس الشيوخ . لكن ان نقول بأن هذه الانتصارات قد ولدت احساساً عاماً بوحدة وطنية ، وبأن موكب انتصار وما يتبعه من احتفالات سيرفع المعنوية الشعبية لقول بعيد كلية عن الحقيقة والواقع . قد يساهم الاحتفال بتغذية المعنوية لا غير . وكان الشعب متحداً قبل ان يتولى الجنرال هانيبال قيادة الجيش الايبري .

٣ ـ اني اعتبر كل تلميح باحتفالات نصر أمراً لا داعي له ، كما انه ليس هناك من لزوم الى تعيين لجنة فرعية من أعضاء مجلس الشيوخ . ان احتفالات الانتصار ومواكبها قد تؤدي الى النيل من سلطة مجلس الشيوخ وهيبته ، والى تحويل ولاء الشعب عنه الى الشخص الذي يقام له الاحتفال . وقد يطمح الجنرال هانيبال ، في هذه الحالة ، الى منصب القنصل ، وهو مركز ليس لديه ما يؤهله لاشغاله ، وذلك بالرغم عن كفاءته التي لا شك فيها كقائد .

٤ ـ ونتيجة لسهو غير مقصود ، فإن الحملة الايطالية لم تعتبر قانوناً كخدمة فعلية الا بعد معركة تيشينوس . والقانون لا يجيز منح أساور او أقراط ما لم يكن الأمر متعلقاً بهذه الخدمة . ولا يجوز كذلك العمل في هذا الأمر بمفعول رجعي . وبناء عليه فإنه ليس من الممكن منح أسوارة او خاتم باسم ساكونتوم واجتياز الألب ومعركة تيشينوس .

٥ ـ وما من شك في انه يجب تكريم الجنرال هانيبال . . لكنه لم يحقق انتصاراً كبيراً منذ ١٢ عاماً . ويخيل الي ان زيارة بروتوكولية الى مجلس الشيوخ ، حيث يقدم اليه القنصل براءة استحقاق مزخرفة ، قد تكون كافية كظاهرة لتكريمه . ويجب ان يصدر ، بهذه المناسبة اذا حصلت ، أمر الى محرر « حوليات قرطاجة » ليأتي على تفاصيل الزيارة في صدر الصفحة الأولى .

فبراير

التوقيع : موريبوند
عضو مجلس الشيوخ لدى الجيش

مطالعة رقم (٩)

١ ـ يجري حالياً تحقيق بخصوص العديد من المخالفات المزعومة، تتعلق بالغنائم المتأتية عن سقوط ساكونتوم . لقد وصل الى قرطاجة شيء من هذه الغنائم ، مما كان قابلاً للنقل ، لكن دون قيمة حقيقية لأي منها، وفي حالة سيئة من العطل والحاجة الى التصليح . ولم يصل الى العاصمة أي رقيق ، لا ذكر ولا أنثى . ويعتبر هذا مخالفة صريحة للتعليمة المرجع أ ، التي صدرت عن مجلس الشيوخ ستة أشهر قبل ابتداء الحصار .

٢ ـ ويجب ان لا ننسى بأن لكل عضو في مجلس الحرب حقاً بأربعة مماليك من الأجانب كل سنة ، ممن يعيشون على نفقة الدولة . لم نتلق أي شيء من هذا ، من قبل الجنرال هانيبال ، طيلة سنوات قيادته .

٣ ـ ومع ان الجنرال هانيبال قد تصرف ببعض المال المستولى عليه في ساكونتوم ، للانفاق على عمليات أخرى ، فإنه لم يقدم قط الى هذه الادارة بياناً مالياً للتدقيق والموافقة ، وذلك رغم المطالبات المتكررة . وقد لوحظ ، في الواقع ، بعض الطيش والمحاولات الصبيانية من الدعابة والفكاهة في اثنتين من أجوبته التي أرسلها متأخراً بعد معركة كانّه .

٤ ـ مثل هذا الاختلاس الواضح للأموال العامة ، والغنائم والرقيق ، يجب ان يؤخذ في الحسبان عند النظر فيما اذا كان تكريمه باحتفال انتصار الشيء المناسب .

٥ ـ اني آسف لحصول هذا التأخير في ردي . لقد نتج ذلك عن غيابي مدة ١١ يوماً لحضور مداولات للرابطة المعادية لروما في أسبارطة . كما قد تأخرت عودتي بسبب حصول ثورة للأرقاء بحارة القادس . آذار

التوقيع : بوستار

المفتش العام

القـرارات

١ ـ قرأت كافة المطالعات باهتمام ، ولقد استهلكت الاضبارة وقتاً طويلاً حتى وصلت الي ، ولذا فقد صار الوقت الآن متأخراً جداً لامكان استقبـال الجنرال هانيبال باحتفالات انتصار او باستعراض نصر . انه اليوم بيننا منذ ثلاثة أسابيع .

٢ ـ ستقوم لجنة فرعية في مجلس الشيوخ في بحـث الاقتراح بمشروع قانون باحتفالات انتصار تقام للقادة المنتصرين في ساحات الحرب البعيدة عن أرض الوطن .

٣ ـ سيصار الى اصدار أسوارة واحدة باسم الحملة كلها ، مع خواتم باسم :

- بحيرة ترازيمين ،
- كانّه ،
- حرب الاستنزاف .

٤ ـ يقتطع راتب ٨ أشهر من راتب الجنرال هانيبال ، وذلك للمدة التي أمضاها غارقاً في الترف والبطالة في مدينة كابوا .

آذار

التوقيع : مرفيليوس

القنصل

الملحق رقم ٢

دفاعاً عن هانيبال

إن قيام الجنرال ايفريت هيث ، بنشر أوراق بخصوص اقتراح بمنح الجنرال هانيبال تكريماً باحتفال نصر بمناسبة عودته من إيطاليا ، كان حافزاً لي للكشف عن الرسالة المرفقة ونشرها . لقد كتب هذه الرسالة أحد ضباط هانيبال في حملة إيطاليا ، وهي موجهة إلى وزارة الحرب في قرطاجة .

إن الضابط صاحب الرسالة ، والذي وقع باسم جيسكو فقط ، هو على الأرجح غير الرجل المعروف باسم الجنرال أسد روبال جيسكو من قبل المؤرخين المعاصرين ، والذي قاد قوات قرطاجية في إسبانيا ومن ثم في أفريقيا ، الّا أن كاتب الرسالة قد يكون قريباً لذلك الجنرال . ومما يلفت النظر أن ذلك الضابط كان قائداً للواء الخيالة الذي يحمل اسم الملكة « سوفونيسبا » ابنة الجنرال أسد روبال جيسكو ، وزوجة الملك سيفاكس عاهل نوميديا (جزائر اليوم تقريباً) ، وربما كان الإسمان كلاهما لشخص واحد .

وقد استرعى انتباهي ، في الأوراق التي نشرها الجنرال ايفريت هيث ، ما ورد في التنويه من إشارة الى أن جيش شيبيو قد نزل في أفريقيا « في أوائل هذه السنة » ، وهو ما يعني في أوائل عام ٢٠٤ ق م بمفاهيمنا ، مع العلم بأن هانيبال لم يستدع إلى أفريقيا إلّا بعد هزيمة الملك سيفاكس النوميدي وأسره ، في صيف عام ٢٠٣ ق م . والظاهر أن الحكومة القرطاجية قد استمرت حتى ذلك الوقت على اعتقادها أن باستطاعتها احتواء الغزو الروماني وإحباطه دونما حاجة الى هانيبال وجيشه . كما أن هذه الحكومة ، حتى بعد هزيمة الملك النوميدي وأسره ، لم تكشف عن استدعائها لهانيبال إلّا نزولاً عند شروط

معاهدة الصلح التي تم الاتفاق عليها مع الحكومة الرومانية ، في نهاية عام ٢٠٣ ق م . هذا مع الاعتراف بأنه لا يسع المرء ، على ضوء ما تبع من أعمال قرطاجية ، غير الظن بأن محادثات الصلح الآنفة الذكر لم تكن غايتها سوى ضمان عودة الجنرال هانيبال سالماً مع جيشه من أفريقيا .

وأخيراً ، وقبل أن أترك الكلام لجيسكو ، أقول إني قد لاحظت أن الجنرال ايفريت هيث قد نقل التقويم القرطاجي ، النظام العددي ، بما في ذلك المصطلحات العسكرية ، الى التقويم الروماني . إني أرى هذا العمل خطأ ولا يتلاءم مع رسالة جيسكو التي نحن بصددها . وقد عمدت لذلك الى ترجمة عبارات الرسالة البونية الى ما اعتقد أنه أقرب معانيها في اللغة الانكليزية ، وجميع التواريخ هي بتوقيت قبل الميلاد . وفيما يلي ترجمة حرفية للرسالة البونية . . .

عن مجلة الجيش البريطاني ، عدد ٧٧ ، ١٩٨٤
بقلم ج . اف ـ لا زنبا

■

المقر العام ـ جيش ايطاليا
حد رومنتوم (سوسه)
مارش ، ٢٠٢

صاحب السيادة

إن معرفتي للمستوى العام لفاعلية وزارة الحرب ، في الصراع القائم بيننا وبين روما ، كانت تفرض عليّ أن أتوقع الكشف عن الأوراق السرية المتعلقة باقتراح تكريم للجنرال هانيبال « باحتفال نصر » على الطريقة الرومانية ، وتسرب فحواها الى الصحافة . لقد قابل الجنرال هانيبال هذا الأمر كله بالاحتقار الذي يستحقه ، لكن الكثير منا ، نحن ضباطه ، نرى أنه لا يسعنا التغاضي عما قد ورد في هذه الأوراق من أكاذيب وافتراءات مسيئة الى كفاءته وسمعته .

إن التنويه نفسه ، رغماً عن نية واضعه ـ أو بالأحرى نتيجة لاهتمام أولئك الذين مر بين أيديهم لابداء الرأي ـ مشوه مليء بالأخطاء . . . من ذلك : ـ

١ ـ إنه لخداع وتضليل القول ـ كما جاء في التنويه تحت رقم ٢ ـ بأن الجنرال هانيبال قد أُمر بغزو الأراضي الرومانية ، دون الإشارة ، في ذات الوقت ، بوضوح الى أن الخطة كانت أساساً من وضعه وتفكيره .

٢ ـ لم يكن هناك قط أي تفكير بالحركة بحراً ، نظراً للتفوق العددي الساحق للبحرية الرومانية .

٣ ـ لا علم لديّ بمصدر ذلك الزعم بأنه قد دخلنا الأرض الايطالية ولم يبق معنا سوى ٩ أفيال لا غير (المقطع الثالث من التنويه) . واني أعترف بأنني لا أستطيع أن أتذكر كم كان عدد الفيلة وقتئذ ، خاصة وقد جرى اتلاف السجلات المعنية بعد تسريح سلاح الفيلة ، وقد تم ذلك نتيجة لموت الفيلة ، باستثناء فيل واحد ، في شتاء عام ٢١٨ ـ ٢١٧ . لكن الذي أذكره ، بالتأكيد ، هو أن أغلبية الفيلة ،وكان عددها ٣٧ ، كانت لا تزال على قيد الحياة لتشترك معنا في معركة نهر تريبيا ، وهذا الأمر بارز بتأثير الدور التي لعبته في تحقيق النصر .

٤ ـ إن الاشتباك ، في تيشينوس ، كان أساساً مناوشة بواسطة الخيالة ، وكما هو حري بي أن أعلم ، فان مشاتنا لم تكن حاضرة في ذلك الاشتباك . أما العدو فقد تمثل بمشاته الخفيفة فقط .

٥ ـ وأن رواية أحداث معركة تريبيا ، كما ورد ذكرها في التنويه ، قليلة الشبه بالمعركة التي كنت أحد المشتركين فيها .

٦ ـ والقول (المقطع رقم ٨) بأن بحيرة ترازيمين واقعة فقط على مسيرة بضعة أيام من روما لقول فيه خداع وتضليل . . ان المسافة الفاصلة هي حوالي ١٦٠ كيلومتراً تقريباً . واذا كانت وزارة الحرب غير مدركة بأنه قد يلزم زهاء أسبوعين لقطع هذه المسافة ، بمعدل السير الطبيعي للجيوش الكبيرة ،

فاقتراحي لذلك أن يصار الى تعميم داخلي أوسع لنظام هذه الوزارة المتعلق بالمسيرات .

٧ ـ إن الخطة العامة للحملة ، كما وضعها الجنرال هانيبال ، والتي وافقت عليها وزارة الحرب ، لم يرد فيها قط ذكر لهجوم على روما ، باستثناء استهداف أغراض استراتيجية محدودة . ولم يكن ذلك لمجرد أننا كنا نفتقر الى معدات الحصار ، بل لأن مثل هذا الحصار كان قابلاً لأن يطول ، فيسمح هكذا للعدو بحشد وجلب موارده الكاسحة من الطاقة البشرية الى الميدان ، مما كان سيحد من قابليتنا للمناورات التكتيكية بصورة فاعلة . (وقولي بأن الخطة العامة للحملة قد نالت موافقة وزارة الحرب مؤيد بنصوص معاهدتنا مع ملك مكدونيا ، وهي نصوص يعلمها الجميع) .

٨ ـ لا أعلم ما هو الدليل ، الذي بنى عليه مدير العمليات المتوسطية (مقطع رقم ٨) زعمه بأن الفؤول كانت مؤيدة للهجوم على روما بعد معركة ترازيمين ، وأن الجنرال هانيبال قد تجاهل ذلك . هذا مع العلم بأن الجنرال هانيبال كان دائماً ملتزماً ومواظباً على القيام بواجباته الدينية ، كما يدل على ذلك بوضوح قيامه بزيارة هيكل ملكارت ، في قادس ، ليبدأ بذلك حركته الى إيطاليا . ومهما يكن الأمر ، فان الأنظمة تنص بوضوح على أنه إذا كانت الفؤول تتعارض مع المعلوماتية العسكرية ، فيجب حالئذ تجاهلها ، وكانت كافة معلوماتنا تشير إلى أن هجوماً على العاصمة الرومانية كان عرضة لأن يكون مكلفاً ، ولاحتمال أن يكون فشلاً ذريعاً ، وإذا كانت الآلهة قد تصورت غير ذلك فانها كانت مخطئة .

٩ ـ الأرقام المذكورة في المقطع رقم (١٠) ، بخصوص حجم الجيش الروماني في معركة « كانّه » ، لا تتفق مع أفضل البيانات المتوفرة ، التي تذكر أن عدد هذا الجيش كان ٨٠ ألفاً من المشاة و ٦ آلاف من الفرسان . أما قواتنا فكانت مؤلفة من ٤٠ ألف مشاة و ١٠ آلاف فارس .

١٠ ـ وكذلك هي خاطئة الأرقام المعطاة في المقطع رقم (١١) عن خسائر الرومان ، ومع أنه كان من العسير التحقق من صحة الأعداد نظراً

لضخامتها ، فان أفضل تقديراتنا تقول بأن قتلى الرومان بلغت ٤٧٥٠٠ من المشاة ، و ٢,٧٠٠ من الفرسان . وقد أخذنا ١٩,٣٠٠ أسير .

انتقل الآن إلى المطالعات الصادرة عن مختلف الشخصيات :

١١ ـ إن المستشار الاستراتيجي الأول مصيب في قوله بأن السبب الذي حملنا على غزو إيطاليا بطريق البرّ كان تفوق العدو بحراً ، لكنه لا يعَطي ما ينبغي من القيمة والوزن لقوة إدراك الجنرال هانيبال بأن الغزو براً كان ممكناً بصورة مؤكدة ، وذلك رغم الصعوبات الهائلة ، التي كانت ستردع ولا شك عن مجابهتها أصحاب المستويات الدنيا من القادة ، بمن فيهم بعض هؤلاء الذين يتجرأون اليوم على انتقاد الجنرال هانيبال . إن المسير إلى إيطاليا ، عبر جبال الألب ، كان عملاً عسكرياً بطولياً ، ولا مثيل له في تاريخ المحاربة .

١٢ ـ وإن تقييم مدير العمليات المتوسطية للموقف ، بعد معركة « كانّه » ، هو خاطىء كذلك . فروما لم تكن جاثمة « مفتوحة لجيشنا » . كانت معلوماتنا تقول بأن حامية المدينة كانت مؤلفة من لجيونتين رومانيتين ، مدعومتين بلجيونتين حليفتين مع الخيالة المرافقة ، أي ما يساوي مجموع ١٨ ألفاً من المشاة وألفين من الخيالة ، أضف الى ذلك أننا كنا نعلم بوجود حوالي ٦ آلاف روماني من مشاة البحر ، على ظهر الأسطول الذي كان وقتئذ في « أوستيا » ، وكنا نعلم أيضاً ، وفقاً للقانون الروماني ، أن معظم سكان روما كانوا ممن سبقت لهم خدمات عسكرية . وقد توصلنا بناء على كل ذلك الى الاستنتاج بأن جيشنا سيكون أقل عدداً من عدد المدافعين عن المدينة ، ناهيك عن القوات التي كانت ستتجمع أثناء الأسابيع الثلاثة أو الأربعة ، التي كان سيستهلكها قطع حوالي ٤٠٠ كيلومتر ، وهي المسافة التي كانت تفصلنا عن روما .

١٣ ـ ومن الواضح أن مدير العمليات المتوسطية قد أعطى اهتماماً كبيراً للتقرير الذي رفعه الماجور جنرال مهاربال بعد المعركة ، وكان معروفاً في ذلك الوقت أنه كان يشكو من المرض الذي أدى به فيما بعد الى دخول مستشفى الجيش للأمراض العقلية ، في الينابيع الحارة . وكان الجنرال هانيبال على

تمام الاطلاع بحالة الماجور جنرال مهاربال الصحية ، وحريصاً لذلك على أن لا يعهد اليه بأية قيادة هامة في المعركة ، وكان من أعراض الحالة العقلية للماجور جنرال مهاربال ادعاؤه بقيادة الفرقة النوميدية في القتال ، و ذلك في حين أن هذه الفرقة كانت بقيادة الليوتنان جنرال (فريق) حانو .ان تصرف الماجور جنرال (لواء) مهاربال ، المنافي للضبط المسلكي ، في هنيهة النصر ، كان سيؤدي به الى المثول أمام المجلس العرفي ، لولا نفور الجنرال هانيبال نفسه من أن يرى الاهانة تحل بضابط كان قد أبلى بلاء رائعاً في معركة ترازيمين .

١٤ ـ وبخصوص ما يزعمه مدير العمليات المتوسطية ، عن أن الملذات الشهوانية ، في مدينة « كابوا » ، قد استنزفت قوى جيشنا ونشاطه ولحمته ، فانه كما يبدو زعم لا يستند الا على دعاية من جانب العدو ، وهو زعم يظهر بطلانه جلياً بسلوك الجيش فيما بعد .

١٥ ـ وان الخمسين عاماً من وجود مدير العمليات المتوسطية موظفاً في خدمة الدولة ، منذ الغزو الروماني السابق ، يجب أن لا تعمي عيون أحد عن : ـ

أ ـ أنه الآن في سن الثمانين . .

ب ـ وأنه ينتسب أصلاً الى بلد كانت أخيراً في حرب ضدنا . . وقد كتبت الى مدير الاستخبارات العسكرية المضادة ، مقترحاً قيامه بتحريات احتمالاً لوجود علاقة ما بين هذا الماضي وبين زيارة قام بها مؤخراً مدير ادارة الأسلاب والغنائم الى اسبارطة ، الموطن الأصلي لمدير العمليات المتوسطية . وبامكاني أن أضيف ، أنه لو لم يكن هناك اعتقاد بأن مدير العمليات المتوسطية مصاب في عقله ، فان رئيسي ومنتدبين عني كانوا ولا شك سيتوجهون اليه طالبين تفسيراً عن ملاحظته بأن « دوافع الجنرال هانيبال لعدم السير على روما تدل على نقص في عزيمته وتصميمه ، أو على شيء آخر أشد وأدهى » .

١٦ ـ والظاهر أيضاً أن مدير العمليات المتوسطية يرزح تحت سوء فهم واعتقاد خاطىء بأن هدفنا الأولي كانت مدينة روما بالذات ، وكان هو لذلك

صاحب القول الهراء بفشل الجنرال هانيبال في تقدير قيمة الفؤول وتأويل معانيها بعد معركة ترازيمين . وفيما يتعلق بقوله بأن « أيّ جنرال قرطاجي كان باستطاعته أن يفرض ارادته على الجيوش التي هزمناها »، فليس بوسعي أن أقول سوى أن مثل هذا الادعاء لا أثر له في سجلات الجنرالات القرطاجيين ، بالاستثناء المشرّف لوالد الجنرال هانيبال ، سواء في هذه الحرب أو قبلها .

١٧ ـ ومن المؤسف أن أقول بأن رئيس التحصينات العسكرية يبدو، بصورة محزنة ، فاقداً للتماس مع حقائق المحاربة الحصارية ، وربما كان هذا هو المتوقع من ضابط لم يسبق له قط أن سمع منجنيقاً وهو يطلق في وطيس المعركة . ولمثل هذا الشخص أقول أنه ليندر العثور ، في التاريخ المعاصر أو التاريخ الماضي ، على مثال عن الاستيلاء على مدينة مسوّرة دون حصار طويل ومكلف ، أما المدن التي تسقط بسرعة ، فهي جميعها قد أخذت بفعل الغدر والخيانة . وان الاستيلاء على قرطاجة ، من قبل الجنرال الروماني ، شيبيو ، لهو ، دون ريب ، حادث استثنائي ، كما أن حامية المدينة كانت قليلة العدد بصورة غير معقولة ، نظراً للاهمال المخزي وللمبالغة في تقدير الذات وفي الغنتريات لدى قادة جيوشنا آنذاك في اسبانيا . وربما يحلو لرئيس التحصينات العسكرية أن يعرفنا بأيّ نوع من معدات الحصار كان علينا أن نأخذ معنا الى ايطاليا ، وانه كيف كان علينا أن نعمل لايصال هذه المعدات الى هناك ؟ الحقيقة في هذه المسألة ، كما يعلمها جيداً كل من سبق له أن اشترك في قتال حصاري ، هي أنه قد جرت العادة على بناء المعدات اللازمة للحصار عند مسرح الأحداث نفسه ، كما سبق وفعلنا في حصار كازيلينيوم ، كوماي ، تارنتوم ولوشري ، وهذه بعض من كثير .

١٨ ـ إن المدير العام لأمور الحلفاء والقبائل يعبر عن تقدير صحيح لانجازات الجنرال هانيبال الرائعة بالجمع في جيشه بين عناصر متنافرة ، وصهرها وتحويلها الى آلة حربية مخيفة . الاّ أن تعليقات هذا المدير العام بخصوص تعامل الجنرال مع القبائل المحلية تنمّ أيضاً عن نزعة متأصلة لدى المقيمين الجالسين خلف المكاتب الى التفلسف والانتقاد . فالجنرال

هانيبال ، في تعامله مع قبائل الأللوبروجس، قد اتخذ اجراءات دقيقة لتحاشي الاصطدام مع هذه القبائل ، ومن ذلك بقاؤه جنوب نهر الايزر ، بقصد الالتفاف هكذا حول منطقتها . أما ما قد حصل بعد ذلك ، من هجوم لهذه القبائل علينا ، فاننا لم نتسبب في حدوثه ، وجرى الهجوم المعادي في منطقة قبائل فوكونتي ، حيث كانوا يبيتون الليل ، تاركين مواقعهم المسيطرة على الممر ، وهي عادة سمحت للجنرال هانيبال بوضع يده على هذه المرتفعات ليلاً ، قبل أن نبدأ الحركة في محاولتنا لعبور الممر .

زد على ذلك أن قبائل فوكونتي - باستثناء بعض العناصر العاصية - لم تكن ، كقبائل الأللوبروجس ، شديدة العداء أو مشجعة لبقية القبائل على مهاجمتنا . وقد كفى ردنا الدموي لهجومهم الأولي ليكفينا شرهم ، وليصرف القبائل الأخرى ، المقيمة في جوار الفوكونتي ، عن التفكير بالقيام بأية محاولة ضدنا . وكان فقط بعد أن غادرنا تلك المنطقة أن تجددت المهاجمات - وذلك رغم التأكيدات الجازمة وعهود الصداقة الكثيرة - من قبل المحليين المعنيين ، والذين لم ينقذنا منهم سوى مهارة قائدنا ويقظته الساهرة . ان خسائرنا في الألب كانت ثقيلة دون جدال ، وفي الواقع أثقل مما ذكره المدير العام لادارة أمور الحلفاء والقبائل . لقد قال أن خسائرنا كانت ما بين ٥ و ١٠ ، وهو يعني كما أفترض ما بين خمسة وعشرة آلاف ، الاّ أن الرقم الأعلى الذي يذكره ، أي عشرة آلاف ، هو فقط نصف المجموع الحقيقي للخسائر ، وكانت ١٨ ألف مشاة و ٢٠٠٠ خيال .

وكان قائدنا قد توقع حصول مثل هذه الخسائر ، وأجرى حساباته بناء على ذلك ، ضمن حدود اللوجستيك . ومن المشكوك فيه أنه كان باستطاعة أيّ جنرال آخر أن ينجح في اجتياز جبال الألب . ونحن الذين خرجنا من هذا الاختبار أحياء ، كنا نكفي لمتابعة المهمة ، كما تدل على ذلك نجاحاتنا المتتابعة فيما بعد

١٩ - المقطع ٤، من مطالعة مدير ادارة أمور الحلفاء والقبائل ، هي لأول وهلة وثيقة الصلة بالموضوع . فقد كانت المعلوماتية ولا شك تقلل دوماً

من قيمة الولاء الايطالي الموضوع في غير محله ، وخاصة ولاء الجماعات اللاتينية وخضوعهم لاستبداد أسيادهم الرومان . . كل ما أستطيع قوله بهذا الخصوص أنه كان من المستحيل ، أو يكاد ، تمييز أية ظاهرة ثبات واستمرارية في السلوك الداخلي أو الخارجي للطبقة العادية من الايطاليين . بيد أن مديرية أمور الحلفاء والقبائل تُحمِّل نفسها بعض اللوم لحساباتنا الخاطئة ، التي بنيت أساساً على اجتهاد هذه الدائرة وتقييماتها لما كان يحتمل حدوثه من تفاعل لدى حلفاء روما حيال غزونا . . والجدير بالملاحظة ، بهذه المناسبة ، أن التقييم الشخصي للجنرال هانيبال ، عن الأوضاع في الشمال الايطالي ، كان هو أيضاً كثير البعد عن الدقة والواقع . لكن ، وبالرغم من كل ما ذكر ، فان وزارة الحرب ، ككل ، يجب أن تتحمل كامل المسؤولية لفشلها الاجرامي في تجهيزنا وتلبية مطالبنا من المعدات والامدادات اللازمة ، اذ لم يكن بدون ذلك باستطاعتنا أن نقدم الحماية الكافية لكل أولئك الذين كانوا حلفاء لروما قبل أن يلتحقوا بنا . لقد اكتسبنا الى جانبنا عدداً كبيراً من الأطراف التي كانت حليفة لروما ، وهو عمل يعتبر بحد ذاته انجازاً عظيماً من قبل جيش لم يتجاوز قط حدود الخمسين ألفاً .

٢٠ ـ لا تسمح أنظمة الجيش بالتعليق على وجهات النظر التي تصدر عن موظفين مدنيين ، ولذا فاني أتجاوز وجهات نظر هؤلاء ومطالعاتهم ، بما فيهم عضو مجلس الشيوخ موريبوند ، باستثناء الاشارة الى أن النشاطات الأخيرة للمفتش العام تستدعي تدقيقاً وتحرياً من قبل الشعبة العسكرية لمقاومة التجسس ، نظراً لأنه اسبارطي الأصل ، ولأن اسبارطة كانت حليفة لروما أثناء الحرب الأخيرة في اليونان ، ولأن من العسير أن نصدق بأنها سمحت لتكون أرضها مكان اجتماع لرابطة معادية لروما ، كما يزعم المفتش العام ، وكما يقول بأنه قد شارك في ذلك الاجتماع . ويضيف فيدعي أن عودته قد تأخرت بسبب تمرد العبيد بحارة القادس الذي كان يقله ، وهذا الادعاء هو الكذب الصراح ، اذ بحريتنا ، كما أعلم ، لا تستخدم لا هي ولا أية بحرية لدولة أخرى عبيداً لتجديف قوادسها . وقد سبق لي فألمحت الى احتمال أن تكون

لهذا التصرف المشبوه علاقة بواقع انتساب المفتش العام ، أصلاً وولادة ، الى اسبارطة .

٢١ ـ الاّ أن الوجه الأكثر جدية ، في كل هذه القضية ، هو أن التهجمات على الجنرال هانيبال ما هي الا وسيلة لتحويل أنظار الشعب عن تقصير وزارة الحرب بوجه عام ، وأميرالية البحر بوجه خاص ، ومسؤوليتهما المباشرة عن وضعنا الحالي المحفوف بالمخاطر . ان وزارة الحرب قد أخفقت ، كما يبدو ، في ادراك ما هو معروف للجميع منذ زمن ، وهو أنه لا يمكن قهر روما الاّ في ايطاليا . وكذلك أخفقت في ادراك أن الجبهات الخارجية الأخرى ، لا تستحق الدعم والاسناد الا إذا كانت تؤدي الى صرف أنظار العدو وتحويل انتباهه عن جبهة الحرب الرئيسية ، وبشرط أن لا تأخذ تلك الجبهات الصدارة والأسبقية مكان ساحة العمليات الايطالية . ولكن ما جرى كان غير ذلك ؛ فقد أرسل أكثر من ٨٠ ألف مقاتل للمحاربة في ساحات مختلفة ، في حين اقتصر امداد الجنرال هانيبال ، طيلة سنوات حروبه في ايطاليا ، على ٤ آلاف رجل لا غير ، وكان هو نفسه قد أبان كيف يمكن افتتاح جبهات جديدة مع استعمال الحد الأدنى من الرجال والموارد . ومن الأمثلة على ذلك الحرب في صقلية ؛ فهذه الحرب استمرت متقدة مدة ٤ سنوات ، ويعود الفضل في حدوثها لجهود ومواهب رجلين بارزين ، هما المبعوثان هيبوكراتس وايبيثايوس ، وكان الجنرال هانيبال قد أرسلهما الى سرقوسة بنفسه .

٢٢ ـ أما فيما يتعلق بعجز الأميرالية ، فاني أعترف بأنه كان لروما ، عند نشوب الحرب ، تفوق عددي كبير في السفن الحربية ، كما أني مستعد لقبول أنه كانت هناك عوامل خارجة عن ارادة هذه المؤسسة ، وقد منعتها هذه العوامل عن اعتماد برنامج للتوسع البحري ، لكني أشك ضمناً بأنه كان يوجد تفكير ببرنامج توسع لدى الأميرالية ، وبأنه كان لدى أيّ فرد من أفرادها استعداد لتحدي لاشعبية مثل هذه البرامج ، وبخاصة لدى الأغنياء ، وذلك تحسباً للضرائب الاضافية ، التي كانت ستفرض ولا بد لتمويل المشروع .

ومن ثم فان كل جندي يعلم ، ما عدا بعض ضباط البحرية كما يبدو ، أن السفن الحربية لا تصمم وتبنى لمجرد أن تبقى على سطح الماء زمناً طويلاً ، ولذلك فانه لا يمكن لأيّ شكل من الحصار البحري أن يكون فاعلاً طول الوقت ، وبصورة تامة . وقد أمكن ، مرات ومرات ، لأسطول صغير تحت قيادة حازمة حاذقة ناشطة أن يفعل كل شيء تقريباً، باستثناء مواجهة أسطول كبير في معركة على سلم كبير . وبناء على هذا فإن أسطولنا نفسه ، على قلة عدده ، قد استطاع مرة أن يجلب امدادات الى لوكري ، في جنوب ايطاليا عام ٢١٥ ، والى سرقوسة عدة مرات عام ٢١٣ وعام ٢١٢ . وهذا الأسطول ، منذ وقت قريب ، لم يقم فقط بنقل جيش الجنرال ماكو الى الشمال الغربي من ايطاليا ، بل وقام أيضاً بتزويده بالمؤن في عدة مناسبات . ولا تعني هذه النجاحات المحدودة من قبل أسطولنا الا تبيان الاخفاقات المخجلة للبحرية القرطاجية في أماكن أخرى . فقائدها الأميرال بوميلكار ، الذي قاد الأسطول في عمليات لوكري وسرقوسة الناجحة ، هو نفسه الذي رفض أن يشتبك مع أسطول العدو عند رأس باشينيون ، عام ٢١٢ ، رغم أنه كان يتمتع آنئذ بتفوق عددي في ذلك المكان ! . فاذا وضعنا الأحداث العرضية جانباً ، فباستطاعتنا أن نقول بأن بحريتنا كانت فاشلة بصورة مخزية . . انها لم تقم بشيء لمضايقة العدو على خطوط تموينه ، مع أن هذه الخطوط ـ مع اليونان واسبانيا بصورة خاصة ـ كانت دوماً معرضة . . وقد فشلت البحرية كذلك في مساعدة حليفنا الوفي ، ملك مكدونيا ، ولما أرادت مساعدته كان الأوان قد فات . . وكانت دائماً فاشلة في الاغارة على سواحل العدو ، في خين سمحت للعدو بالاغارة على سواحلنا دون أية معارضة تقريباً . . وقد وجب الانتظار حتى عام ٢٠٨ لكي يغامر أسطولنا بتحدي السفن الرومانية التي كانت تغير على أراضينا . . وأخيراً ، وكتتويج لسجلها المعيب ، فقد فشلت البحرية في منع العدو من النزول على شواطئنا ، وذلك رغم أن سفنه الناقلة لم تكن ، كما علمت ، محروسة بسوى ٤٠ سفينة حربية لا غير ، بينما كانت سفننا ولا زالت تعد أكثر من ٥٠٠ سفينة مختلفة الأنواع . وفي رأيي ، يا صاحب السيادة ، انه إذا كانت توجد عدالة في هذا العالم ، فيجب تحويل هيئة أركان الأميرالية بجملتها ،

وكل ضابط بحري فوق رتبة كابتن ، الى المجالس العرفية ، حتى إذا وجدوا مذنبين ، يصار الى صلبهم .

٢٣ ـ ان سمعة الجنرال هانيبال لا تحتاج لدفاع من قبلي ، بيد أني لا يمكن أن أسمح بأن تمر ، دون تعليق ، ملاحظات لأناس هم يقيناً إما خرفون ، أو هم على جهل فاضح بحقائق المحاربة المعاصرة ، أو خونة ، أو ربما هم مهتمون فقط بتغطية فشلهم في توفير الدعم اللازم لرجل أتشرف بالعمل تحت قيادته منذ **١٩** عاماً ! .

وتقبلوا فائق الاحترام

التوقيع : جيسكو
عقيد ، قائد لواء الخيالة الثالث
(لواء الملكة سافنبا)

الملحق رقم ٣

تاريخ هانيبال بصورة موجزة[١]

(٢٤٧ - ١٨٣ق . م .)

تمهيد وخلفية تاريخية

أ - قرطاجة ولمحة تاريخية مختصرة .

إن هانيبال ، موضوع هذا المقال ، هو قائد عسكري من أعاظم القادة العسكريين في التاريخ القديم ، وأعظم رجل أخرجته المدينة الدولة قرطاجة ، خلال كل تاريخها الطويل ، الذي دام زهاء ثمانية قرون . ولكن من هي قرطاجة ، وما قصتها ، وما كان دورها على المسرح العالمي والميدان الانساني ، وفي أي عصر من العصور ؟ . ولذا فإننا قبل أن نخوض في موضوعنا الرئيسي ، فإن علينا أن نجيب على هذه الأسئلة ، ولو بأدنى ما يمكن من الايضاح والاختصار .

قامت المدن الفينيقية ، في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ، وبخاصة صيداء وصور ، بدور رائد في الحضارات القديمة . كان الفينيقيون بحارة لم يعرف العالم القديم لهم مثيلاً في الشجاعة والاقدام والمهارة في ركوب البحار . كانوا ، منذ فجر التاريخ ، يمخرون بسفنهم عباب البحار المجهولة ، تجاراً ومستكشفين ، مقاتلين عند الحاجة ، مقيمين محطات تجارية ، وأحياناً مستوطنات صغيرة، حيث تدعو الضرورة والمصلحة . هؤلاء الفينيقيون هم أول من عبر مضائق أعمدة هرقل - جبل طارق فيما بعد - وأول من توغل في بحر الظلمات ، البحر الأطلسي ، حتى بريطانيا ، حيث أقاموا تجارة رابحة للقصدير .

---

(١) من مقال للمؤلف ، في مجلة الدفاع الاسلامي ، بتوقيع ابن خلدون . وهو بمثابة موجز لما تقدم في هذا الكتاب .

١ ـ تأسيس قرطاجة

وُضع حجر الأساس عام ٨١٤ ق م ، كما يترجح ، من قبل بعض أهل صور ، أو من قبل أوتيقة (عتيقة) المستوطنة الفينيقية المجاورة . أما الأسطورة فتقول إن الملكة إليسا ملكة صور هي التي بنت المدينة ، وكان شقيقها بيغماليون قد قتل زوجها ، ففرت هاربة مع بعض أنصارها ، وجاءت إلى الشمال الأفريقي ، حالة أول وصولها ضيفة على المستوطنة أوتيقة . ثم جرى اتصال مع ملك الاقليم المحلي ، واتفقت إليسا معه على أن يبيعها قطعة أرض على الساحل ، بمساحة جلد ثور . وعندما حان موعد التنفيذ ، وإذ بالملكة وصحبها يحضرون وقد قطعوا جلد الثور وحولوه الى حبل رفيع طويل ، وطالبوا بتنفيذ البيع مساحة تكون دائرتها بطول ذلك الحبل الجلدي . واذا صح ذلك ، فإن المدينة تكون قد قامت على أعقاب جريمة ، وتأسست نتيجة لخدعة غير شريفة ، لتعيش سبعة قرون او ثمانية ، ولتنتهي مدروسة مسواة بالأرض لطغيان حكامها ، وفسق مترفيها . لقد دمرت كلية ، وأحرق مبانيها وسكانها وتحولوا رماداً تذروه الرياح !

دعيت المدينة ، عند تأسيسها ، باسم « قريات حديثات » أي البلدة الجديدة ، وتحول هذا الاسم لدى اليونانيين الى « قرشدون » ، وحوله الرومان بدورهم الى « كارتاكو » ، وتدعى اليوم عالمياً باسم قرطاجة . وقد اختير موقعها بدقة وعناية . كان شبه جزيرة صغيرة ، عميق المياه جيد الوقاية ، داخل مرفأ طبيعي هو اليوم خليج تونس . وكانت المنطقة المحيطة خصبة ، وفيرة المياه . كان الفينيقيون بحارة وتجاراً لا جنوداً . ولكن بدلاً من أن تظل قرطاجة محطة تجارية ، فقد تطورت بسرعة لتغدو مع الأيام أكبر مدينة تجارية على ضفاف البحر الأبيض المتوسط .

كان جل اهتمام الأهالي ، في بداية أمرهم ، موجهاً للتجارة والصناعة الخفيفة ، ثم وجدوا بالتالي أن بحرهم مليء بالأسماك ، وأن الأرض حولهم كثيرة الخيرات لخصوبتها ، فأخذوا يولون هذه النواحي عنايتهم واهتمامهم ،

وما لبث نشاطهم ، في هذا المجال ، أن امتد شرقاً على طول الساحل حتى ليبيا وبرقة وغرباً حتى الجزائر والمغرب ، محولين تلك الأراضي الخصبة الى مزارع ، لا بأيديهم وعرقهم ، وإنما بالعمل الجبري للسكان الأصليين .

وكان القرطاجيون ، بتأثير أراضيهم الغنية ، بالاضافة الى سيطرتهم على البحار الغربية ، ومهارتهم الصناعية ، وكفاءتهم الموروثة كأعظم المغامرين في العالم القديم ، قد عزلوا أنفسهم عن أسلافهم . صاروا كلاً مستقلاً بذاته ، وحولوا محطتهم التجارية الى أكبر مدينة في ذلك الزمن .

كان مناخ المدينة بارداً في الصيف ، بفضل رياح الشمال ، لكنها كانت أيضاً تضيق بالزوابع الشرقية ، وترهق أحياناً بالحر بفعل أرياح السموم القادمة من الصحراء الكبرى ، الى الجنوب . كانت المدينة ، على رابيتها وشبه جزيرتها ، تشبه جزيرة او تكاد . كانت كعالم صغير قائم بذاته ، يحده البحر والجبال والصحراء ، معزولاً بالبعد والرمال عن القارة الأفريقية العملاقة .

وكان السكان وثنيين يعبدون الأصنام ويقدمون لها القرابين البشرية ، وكان ملكارت أعظم أصنامهم ، وقد جلبوه معهم من صور ، كما جلبوا ايضاً بقية العبادات والطقوس الوثنية . وكانوا لا يتوجهون في رحلة بحرية او حملة عسكرية إلا بعد أن يقوموا بزيارة ملكارت ، وذبح الضحية عند أقدامه ، طلباً للرضى والبركة .

٢ ـ التطور والاتساع

مع ازدهار التجارة والصناعة ، اتسعت المدينة حتى بلغ محيطها قرابة ٣٥كيلومتراً ، وبلغ تعداد سكانها ما يربو على ٧٥٠ الف نسمة . كانت الحياة ، في أيام قرطاجة الأولى ، تجري على النمط المألوف في كل مستوطنة فينيقية ، أي تجارة ، وزراعة بالواسطة ، وصناعة خفيفة . ثم طرأ تبدل في أسلوب المعيشة والحياة ، في منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، ففي ذلك



تمثال نصفي لهانيبال

الوقت ، أخذت المدينة ، بزعامة رئيس يدعى مالكوس ، تستولي على المناطق المجاورة ، على الساحل وعلى ضفاف نهر بقرادة . وهكذا فرضت قرطاجة هيمنتها على مناطق واسعة ، وعاملت الأفارقة المحليين ، سكان البلاد الأصليين ، معاملة الأقوام المغلوبة المستضعفة ، مع قليل من الحقوق ، وكثير من الواجبات والضرائب الباهظة ، في حين سمحت ببعض الاستقلال الذاتي للمدن الفينيقية الأخرى ، لكن بعد أن دمرت دفاعاتها ، ومحت حصونها وأسوارها ، وحرمتها من كل سياسة خارجية . ولقد دفعت قرطاجة ثمناً غالياً فاحشاً لهذه المعاملة الجائرة الطائشة ، مرات عديدة ، كانت آخرها التدمير

التام والزوال من دنيا الوجود . فقد كان الغازي الخارجي يجد نوعاً من العون والمساندة ، والأرزاق والمعلومات من لدن السكان الأصليين ، ومدناً فينيقية مفتوحة عاجزة ، حتى لو أرادت ، عن القتال والمقاومة .

بعد أن انتهت قرطاجة من فرض هيمنتها على جميع المناطق الأفريقية المحيطة بها ، أخذت تتطلع بأنظارها وطموحاتها عبر البحار ، وتعمل لفرض سيطرتها على كافة المستوطنات والمحطات الفينيقية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ، على طول الساحل الأفريقي ، وجنوب اسبانيا ، وعلى جزر سردينيا وصقلية وكورسيكا . وكان لزاماً عليها لذلك أن تتجهز بأسطول بحري حربي قوي ، للتصدي لقراصنة البحر من جهة ، ولردع الأمم الأخرى عن منافستها ومنازعتها على أسواقها التجارية . وقد أدت هذه السياسة لأول مرة في تاريخ قرطاجة ، الى احتكاك مع روما ، الدولة الايطالية الفتية الناشئة ، والى توقيع معاهدة منعت بموجبها السفن الرومانية من الابحار في حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي ، وتكرس هذا الحوض ، لمدة ، كبحيرة قرطاجية .

٣ ـ نظام الحكم

لا يعلم ، بالضبط ، شيء عن نوع وطبيعة المؤسسات التي كانت تحكم قرطاجة ، وذلك لغياب المصادر والوثائق الخطية الصحيحة . لكن يقال إن نظام الحكم بدأ ملكياً ، ثم استبدل بعد وقت بمجلس رئاسي يتكون من هيئة من زعماء العائلات القوية ووجهاء الفعاليات الاقتصادية . ويقال أيضاً إنه كان هناك مجلس تشريعي ، أو مجلس شيوخ يدعى سوفيتس ، مكون من ٣٠٠ عضو ، ومجلس ثان يتألف من ١٠٠ عضو ينتخبهم مجلس الثلاثمائة ، أو كان هيئة مستقلة تماماً عن هذا المجلس ، ويتولى السلطة التنفيذية .

٤ ـ العسكرية

إن العائلات القرطاجية ، التي كانت تحتكر التشريع والادارة ، لم تكن نفسها التي تقدم قيادة الجيوش والأساطيل ، إنما كان لها الاشراف والسلطة

على هؤلاء القادة . كان القائد الفاشل يمثل أمام مجلس المئة ، فيبرأ أو يصلب اذا لم تكن أجوبته مقنعة . وكان من المحتمل أيضاً لقائد عظيم النجاح أن يلقى مصير الفاشل نفسه ، تخوفاً من أن يحمله نجاحه على إحلال نفسه مكان المجلس الحاكم . كانت هذه المعاملة الصارمة للقادة العسكريين معوضة وموازنة بكثير من حرية التصرف في القيادة ، بعكس ما كان عليه الحال مع القادة الرومانيين . وربما كانت هذه المعاملة مطبقة في عهود فتوة قرطاجة وشبابها ، لكن لم نعثر لها قط ، باستثناء حالة واحدة فقط ، على تطبيق أثناء الحروب مع روما ، الحروب البونية الثلاثة ، وقد استمرت مدة قرن وربع من الزمن ، كانت قرطاجة خلالها تنتقل ، براً وبحراً ، من هزيمة الى أخرى ، مما يدل على أن مرحلة التفوق والصعود نحو القمة قد توقفت عند حلول القرن الخامس قبل الميلاد ، وأن مرحلة الانحدار والتفسخ والانحلال قد استمرت منذ ذلك التاريخ لتنتهي بموت قرطاجة وفنائها ، عام ١٤٣ق م .

وفي حين كان استخدام الأجانب لقاء الأجر قاعدة التجنيد لقوات قرطاجة ، نظراً لمحدودية عدد السكان ، فإن البحرية كانت على عكس ذلك عملاً قومياً داخلياً صرفاً . كانت البحرية القرطاجية تسيطر ، عند بداية الحروب مع روما ، سيدة على حوض البحر المتوسط الغربي . وكانت سفن الحرب الفينيقية مكونة من خمس طبقات للتجذيف ، كل سفينة تحمل ٢٠٠ جذاف ، ٤٠ جذافاً في كل طبقة ، وتحمل أيضاً ١٢٠ من جنود البحر ، وكان سلاح السفينة الرئيسي كبش دك عظيم الصدم والدق والفاعلية . كانت هذه السفن خفيفة الحركة ، سهلة التشغيل والمناورة ، وقد برع بحارتها ، في مرحلة التفوق والصعود ، في الملاحة والحركات المعقدة المطلوبة لمعركة بحرية .

٥ ـ سياسة أمبريالية

الى شمال قرطاجة ، عبر ١٥٠ كيلومتراً من أمواه البحر ، تقع جزيرة

صقلية الخصبة التربة . كانت هذه الجزيرة ، منذ عصور التاريخ الأولى ، محط أنظار اليونانيين والفينيقيين على السواء . وكانت سواحلها مزروعة بمحطات الفينيقيين التجارية ، وبالمستوطنات اليونانية ، والقتال سجالاً بين الفريقين ، طيلة قرون .

وابتداء من عام ٤٨٠ق م ، صارت صقلية نقطة انطلاق لقرطاجة ، في سياسة توسع أمبريالية على نطاق واسع . كانت قرطاجة كنسيج عنكبوت من المتاجر والمواصلات المنتشرة شرقاً حتى مصر والمشرق ، وغرباً حتى أماكن لم تكن لتخطر على بال ، الى ما بعد إسبانيا . لقد زرع القرطاجيون إبان سنوات نهضتهم بعد أعمدة هرقل - جبل طارق - حيث يلتقي البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الأطلسي بحر الظلمات ، محطاتهم التجارية متناثرة حتى بريطانيا وشواطىء البلطيك ، وكذلك حتى جزر الكناري ، والكمرون ، وجزائر الخالدات . وفي البحر الأبيض المتوسط كانت جزر مالطة والليباري مرافىء قرطاجية ، وكان في دائرة نفوذ قرطاجة ، علاوة على صقلية ، كل من سردينيا وجزائر الباليار .

٦ - الاحتكاك واشتعال الحروب

كان لا بد لسياسة قرطاجة التوسعية الأمبريالية ، من أن تؤدي ، عاجلاً أم آجلاً ، الى صدام مع الحكام الوطنيين المحليين ، ومع الدول المجاورة في ايطاليا وغاليا واليونان . وقد حدثت أول مصادمة مسلحة بين قرطاجة وحكام سراقوسة الوطنيين ، في صقلية ، عام ٤٨٠ق م ، واستمرت على حال من الأخذ والرد زهاء قرنين من الزمن ، حتى عام ٢٦٤ق م ، لتؤدي آخر المطاف ، في هذه السنة بالذات ، الى نشوب الحرب بين قرطاجة وروما ، فيما يعرف في التاريخ باسم الحرب البونية الأولى . وكان السبب المباشر لهذه الحرب نزاعاً بين المدينتين الصقليتين ، مسانا (مسينا اليوم) وسراقوسة ، وتورط كل من روما وقرطاجة في هذا النزاع .

وكانت بعد ذلك حرب بونية ثانية ، وهي ما تعرف أيضاً بحرب هانيبال ، وحرب بونية ثالثة . وجميع هذه الحروب البونية ، التي استمرت قرابة قرن

وربع قرن من الزمن ، قد انتهت بخسارات لقرطاجة ونجاحات لخصمها اللدود ، روما الدولة الفتية الناهضة . إن غرضنا من هذا المقال هو الحرب البونية الثانية ، ودور هانيبال العسكري في هذه الحرب .

ب ـ الجيش القرطاجي

١ ـ التأليف

ينظر الى الجيش القرطاجي ، عادة على أنه كان مجموعة متنافرة من الأجناس والعناصر المرتزقة . وكان هذا صحيحاً في العصور الأولى من تاريخ قرطاجة ، لكنه لم يكن كذلك بكليته في فترة الحرب البونية الثانية . لم يكن من الممكن ، على أية حال ، اعتبار الجيوش القرطاجية كجيوش مواطنين يتجندون ويقاتلون دفاعاً عن وطن ، مثلما كان عليه الحال لدى منافسة قرطاجة القوية وعدوتها اللدودة ، روما .

إلا أن الجيش القرطاجي لم يكن مرتزقاً بمعنى محاربته بعناصر مأجورة غريبة عن قرطاجة ، وإنما كان يتألف ، أثناء تلك الحرب ، من عناصر مأخوذة ، الى حد كبير ، من الأقاليم التي تحكمها قرطاجة أو الخاضعة لنفوذها . وهو بهذا المعنى كان أقرب ما يمكن الى جيش محترف لقاء المعاش ، شبيه بالجيوش التي تتبناها الامبراطوريات عادة ، باستثناء روما ، كالجيش الذي شكله الاسكندر الأكبر بعد ان نادى بنفسه امبراطوراً على فارس ، وكالجيش الامبراطوري البريطاني ، الذي كان يتجند من الهند والمناطق المجاورة . وقد كان لدى قرطاجة ، بالمعاش ، مجندون من خارج الأقاليم التي كانت تحت حكمها أو نفوذها، إلا أن هؤلاء كانوا قلة ، لأن الطاقة البشرية كانت متوفرة للدولة في ممتلكاتها الخاصة .

وقد تألف الجيش القرطاجي ، في أوائل تاريخه ، من نخبة نواة صغيرة من المواطنين . لكن هذه النواة أخذت تتضاءل مع كبر قرطاجة واتساعها وازدياد ممتلكاتها ، وذلك لأن القرطاجيين صاروا يبحثون ، لصرف وقتهم واستعماله ، عن مجالات أفضل من مجال عمل متعب وخطر كالمحاربة . بيد

أن تنظيم الميليشيا الوطنية استمر قائماً ، وكان بمثابة احتياط للطوارىء والأزمات . لكن مستويات الشجاعة واللياقة والتدريب كانت تسير ، مع ازدياد الغنى والترف وفساد الحكم ، متدنية من جيل إلى جيل ، بصورة مضطردة ، بحيث غدت تشكيلات القرطاجيين الوطنية الشعبية ، المعدة للنجدة في الحالات الطارئة والحرجة ، على قدر ضئيل من الكفاءة والجاهزية ، كما كتب لهانيبال أن يلمسه في أواخر أيامه .

كان لقرطاجة ، قبل حروبها مع روما ، وحدة نواة نخبة من المقاتلين الأشداء ، منتقاة ومنظمة وعاملة على نحو مماثل للأسس التي قامت عليها العصبة المقدسة في ثيبا، وكـان العام **٣٣٩**ق م هو آخر عام تحدثت فيه الأخبار عن هذه الوحدة ، ولذا يحتمل أنها قد صارت ، في شيخوخة قرطاجة وهرمها ، نوعاً من حرس للمتعة ، وللزينة والأبهة والمظاهر الفارغة .

٢ ـ التسليح والتنظيم

نُظمت الميليشيا الوطنية وسُلحت كتشكيلة مشاة ، سلاحها رمح ثقيل وسيف . كان الفرد يلبس خوذة ، ودرع ساق يغطي من الكعب حتى الركبة ، وترساً كبيراً مدوراً قطره **٣** أقدام وفي وسطه عقدة ورزة . هناك اختلاف على نوع اللباس ، لكن الغالب أنه كان قميصاً فضفاضـاً يصل حتى الركبتين ، ولم يكن جندي المشاة يزود بدرع للصدر .

وإذا كان القرطاجيون ، في أيام هانيبال ، قد عافوا تعاطي الجندية والاقبال عليها كمواطنين مسؤولين ، فهناك أدلة على أن بعض علية القوم كانوا يشكلون نواة الخيالة الثقيلة ، لكن بعدد صغير نسبياً . كان هؤلاء الخيالة يلبسون سترة ضيقة ، وحذاء عالي الساق مفتوح الأصابع ، وصدرية مدرعة ، وخوذة معرفة بالأسود والأبيض ، وترساً مدوراً قطره قدمان . وكان السلاح رمحاً قصيراً ومزراقين ، وسيفاً اسبانياً . كانت هذه الخيالة القرطاجية معززة ، دون تحديد ، بعناصر من تجنيد ليبي وفينيقي ، سلاحها مماثل لسلاح القرطاجيين

ولو أقل تألقاً وكلفة . وكانت تنتظم ، كاليونانيين ، في كوكبات من ٦٤ خيالاً ، وكانت الكوكبة تصطف عادة على ثمانية صفوف ، كل صف من ٨ خيال .

كانت المشاة الليبية الأفريقية تشكل العمود الفقري للقوات التي أرسلت بادىء الأمر إلى اسبانيا ، ثم أخذ عددها يتضاءل مستبدلاً بمجندين اسبانيين ، بأعداد تتزايد باضطراد . وكان الأفراد في هذه المشاة مسلحين ومجهزين كميليشيا المواطنين القرطاجيين ، لكن هانيبال ، بعد انتصاراته الأولى في ايطاليا ، عمد فأعدهم وجهزهم على الطريقة الرومانية . كان التشكل المعتاد للقتال كتشكل الفالانج اليونانية ، هوبليت ، بعمق ثمانية صفوف ، بين الجندي والذي يليه في الصف ٣ أقدام ، وبينه وبين الذي يليه خلفاً ٣أقدام أيضاً ، وكانت هذه المسافة الفاصلة تخفض الى النصف في حالة الدفاع .

وكان الليبيون يقدمون أيضاً المشاة الخفيفة ، سلاحها المزاريق ، ولباسها قميص بلا أكمام ، وتحمل ترساً صغيراً من الجلد . كان أفراد هذه المشاة يتميزون بشعور رؤوسهم ، كل قبيلة تحلق الرأس بطريقة تختلف عن الأخرى ، وكان بعضها يضع ريش النعام على هامته .

بيد أن أهم العناصر ، التي كانت تتمثل في الجيش القرطاجي ، كانت تأتي من نوميديا ، الجزائر اليوم . فالنوميديون كانوا أفضل الخيالة في عصرهم ، يعيشون مع الخيل ، يركبون ظهورها عارية منذ نعومة أظفارهم . كانوا يلبسون قميصاً بلا أكمام ، ويتمنطقون عليه بحزام ، ويحملون ترساً صغيراً من جلد . وكان المزراق سلاحهم الرئيسي ، بالاضافة الى خنجر أو فأس للالتحام القريب . كانت خيولهم صغيرة الجسم ، هزيلة عجفاء ، لكن صبورة على التعب والمشاق الى درجة لم تكن لتبلغها الخيول الثقيلة أو المتوسطة في تشكيلات الخيالة الثقيلة . وكانوا في الالتحام القريب أدنى منزلة من خيالة الرومان ، لكن كانوا متفوقين في الاستطلاع والمناوشة ، لا مثيل لهم في الكمين ، وفي البحث عن العلف والمؤونة . وكانوا ينتظمون في كوكبات من ٦٤ خيالاً في الكوكبة ، تماماً كما في الخيالة النظامية ، إلا أن قتالهم كان

يجري بالجماعات المتفردة . لقد كانوا جزءاً أساسياً مندمجاً في الجيش القرطاجي . وكان لانصرافهم عن هانيبال ، وانضمامهم الى الرومان ، التأثير الكبير في هزيمة قرطاجة ، في معركة زاما ٢٠٢ق م .

ومن نوميديا أيضاً ، علاوة على الخيالة ، كان في الجيش القرطاجي كذلك مشاة خفيفة ، بنفس تسليح وتجهيز مواطنيهم في الخيالة ، لكن دون منزلة هؤلاء في التأثير والفاعلية .

٣ ـ الجيش في اسبانيا

كانت اسبانيا لقرطاجة أرضاً خصبة للتجنيد ، غير ان استعمال المجندين الاسبان في بلادهم لم يكن أمراً مضمون العاقبة . ومع أنه لم تقم دلائل على وقوع حوادث نقص في الولاء والاخلاص لهانيبال من قبل جنوده الاسبان في ايطاليا ، فإن هناك عدة حالات فرار من العناصر الاسبانية في جيشي روما وقرطاجة ، في اسبانيا نفسها . والاعتقاد الغالب ان الولاء أو عدمه كان بمثابة رد فعل لشخصية القائد وقدرته على التأثير في جنوده .

كان المجندون الاسبان يلبسون قميصاً مفتوح العنق على شكل العدد (٧) ، ناصع البياض ، قصير الأكمام ، بحاشيات قرمزية أو أرجوانية . وكانت المشاة الاسبانية ثلاثة أنواع . . الأول ، المشاة الخفيفة ، وكانت تدعى كائتراتوس ، وتحمل ترساً مدوراً ، وعدة مزاريق خفيفة ، وسيفاً قصيراً . كانت هذه المشاة ممتازة في أعمال المناوشة ، وقد استعملت كذلك من قبل القرطاجيين ومن قبل الرومان من بعدهم . والنوع الثاني كان المشاة الثقيلة ، وتتميز بمعطف أسود ، وتحمل ترساً بيضاوياً كبيراً مضلعاً ، وسلاحها مزاريق حديدية ثقيلة ، وسيف قصير للقطع والطعن .

كانت اسبانيا في ذلك الزمن متقدمة في انتاج الحديد ، ولذا كان الجنود الاسبان يستعملون خوذات حديدية ، بدل الخوذات البرونزية الشائعة في تلك الأيام . أما النوع الثالث من المشاة فكان المقالعية ، أي حملة المقاليع ،

وكانوا بمعظمهم من جزر الباليار . كان عدد المقالعية في الجيش قليلاً ، بضع مئات ، لكن كانوا رماة حجارة ماهرين ، يستعملون أنواعـاً مختلفة من المقاليع ، للرمي البعيد والرمي القريب .

وكانت الخيالة الاسبانية موزعة أيضاً الى ثقيلة وخفيفة . كان سلاح الخيالة الخفيفة المزاريق والسيف وترساً صغيراً مدوراً ، وكان سلاح الخيالة الثقيلة السيف ، ورمحاً طويلاً للطعن ، وترساً كبيراً مقوساً نوعاً ما ، ومكوناً من ثلاثة الواح خشبية ملصقة .

٤ ـ الجيش القرطاجي في ايطاليا

بعد أن دخل هانيبال بجيشه الى ايطاليا ، عام ٢١٨ق م ، أخذ يستعين بكثير من المجندين الغاليين . كان الغاليون شجعاناً بواسل ، لكنهم لم يتوصلوا قط الى مكانة ومنزلة الاسبانيين والأفارقة في صفوف الجيش . فقد كان الغاليون مفرطين في الفردية والأنانية ، كل لنفسه ، لا يستجيبون باخلاص وطيب خاطر للنظام والانضباط . وكان هانيبال يستعملهم كمواد مستهلكة متوفرة ، محتفظاً بخيرة عناصره لحين الحشرة والملمات .

كان الغاليون ، في الأساس ، مشاة يقاتلون مكشوفي الصدر ، مع الاحتفاظ على الكتف أحياناً بمعطف فضفاض . وكانوا يتجهزون بمزاريق ، لكن سلاحهم الرئيسي كان سيفاً طويلاً حاد الرأس ، من حديد ، صالحاً للقطع فقط ، ومن مادة معدنية رديئة ، بحيث كان يلتوي بسهولة . ولما كان من اللازم لسيف القطع الطويل متسع من المجال ليحسن استخدامه ، لذا فإن المشاة الغالية كانت تصير شبه عاجزة عند الوصول الى القتال بـالكتل المتراصة . وكان الترس الغالي كبيراً وتعوزه الرشاقة وإتقان الصنعة . وكان الغاليون ، عند هجومهم ، يشكلون منظراً مرعباً ، غير أن الثبات في وجوههم سريعاً ما كان يفل عزيمتهم ، ويثبط همتهم . وكانوا معروفين ، على وجه العموم ، بالتقلب وعدم الاعتمادية .

وقد انضم الى جيش هانيبال ، في ايطاليا ، عدد كبير من السكان المحليين من فئة الناقمين على روما . وقد سلحهم هانيبال وجهزهم من مخلفات الجيوش الرومانية ، فأخلصوا العمل معه ، وانتهوا فصاروا كالغاليين جزءاً تكاملياً مندمجاً في الجيش القرطاجي . وقد أخذ هانيبال عن اسبانيا طريقة استعمال مركبات النقل الخفيفة القوية ، المجرورة بالثيران ، وخصصها في الجيش لقطار التموين فقط .

٥ ـ الفيلة في الجيش

نصل الآن الى آخر العناصر وأكثرها إثارة في الجيش القرطاجي ، الى فيل القتال . يميل الخبراء العسكريون اليوم الى رفض الفيل كسلاح ، ويرون أنه كان على العكس مصدر خطر على صاحبه أكثر من خطره على العدو . لكن الفيلة كانت تشكل جزءاً هاماً في جيوش الشرق الأوسط والأقصى والهند منذ مئات السنين ، وما كان العسكريون في ذلك الزمن بالجهلة ، ولذا فيبدو لنا أن الفيل كان سلاحاً له قيمته الكبيرة ، وذلك خلافاً لما يقوله خبراء اليوم .

بدأ استعمال الفيل كسلاح في الهند على الأرجح ، وكان يوجد في هذه البلاد بأعداد كبيرة . إن الفيل الهندي وديع ، وأسهل على التدجين من الفيل الأفريقي ، بصرف النظر عن كونه أصغر من هذا الأخير حجماً . يبلغ الفيل الهندي ١١ قدماً من رجله حتى كتفه ، بينما يصل الفيل الأفريقي الى ١٣ قدماً . وقد تعرض الأوروبيون الى أول مواجهة لهم مع الفيل في ميدان القتال ، عندما غزا الاسكندر الأكبر الهند ، وتحارب مع الملك الهندي بوروس ، عند نهر هيداسبس . هناك أدلة على أن الفرس الأخيمينيين قد استعملوا الفيلة في جيوشهم ، وأن بعضاً منها قد اشترك ضد الاسكندر في معركة كوكميلة (أربيل) ، لكن دون تأثير يذكر على سياق المعركة . ويبدو أن الاسكندر لم يؤخذ بقيمة الفيلة كسلاح ، وذلك بالرغم عما قد لحقه منها من الازعاج الكثير في موقعة هيداسبس ، كما لم يعرف عنه أنه كان في نيته انشاء وحدات من هذه الحيوانات .

لكن الفيلة ، في عهود خلفاء الاسكندر ، أدخلت للعمل في عداد الجيوش اليونانية . فالقائد سلوكوس ، الذي كان يسيطر على القسم الشرقي من امبراطورية الاسكندر ، هو الذي يعود اليه الفضل بادخالها ، وهو أول من استعملها . فقد أخذ (٥٠٠) فيل هندي لقاء تخليه عن كامل المنطقة الواقعة شمال نهر السند ، وقد التقى مع هذه الكتلة من الفيلة بأنطيوخوس ، الذي كان حتى ذلك الالتقاء يطالب بتاج الاسكندر ، وهزمه في معركة ايبسوس . ولم يخل جيش يوناني ، خارج أوروبا ، من الفيلة منذ ذلك التاريخ .

تألفت تشكيلات الفيلة من كتائب من ٦٤ فيلاً في الكتيبة ، موزعة على سريتين (أو كوكبتين) من ٣٢ فيلاً في كل سرية . وتتوزع السرية بدورها الى فصيلتين من ١٦ فيلاً في الفصيلة ، وتنقسم هذه الى حضيرتين (أو جماعتين) من ٨ أفيال في كل حضيرة ، والحضيرة الى زمرتين من ٤ أفيال في الزمرة . وكان لكل فيل اسم خاص يعرف به ، وخادم يرعاه ويعتني به منذ طفولته ، ويعمل على أن تقوم إلفة ومعرفة بينه وبين الحيوان .

كان الرومان قد واجهوا ، قبل الحرب البونية الأولى ، الفيلة في حربهم مع بيرروس ، دكتاتور إبيروس . وقد استعملت قرطاجة الفيلة منذ وقت مبكر ، ويبدو أن قليلاً من فيلتها كانت هندية . فالهند كانت بعيدة ، ولائحة الطالبين للفيلة الهندية كانت طويلة ، وقرطاجة في ذيل هذه اللائحة ، وكانت لا تحصل على طلبها من الهند إلا بصعوبة ، وبالثمن الفاحش . ولذا اتجهت بأنظارها الى فيل الغابات الأفريقية ، الذي يكاد ينقرض اليوم . كان الفيل موجوداً في وديان جبال الأطلس ، وعلى السواحل المغربية . وكان ارتفاعه (٨) أقدام فقط ، وأقل قوة وارتفاعاً من الفيل الهندي ومن الفيل الأفريقي الضخم ، لكنه كان مع ذلك حيواناً يدعو للقلق والخشية .

كانت الفيلة ، تكتيكياً ، تصطف على نسق على جبهة الجيش ، وتستعمل لافتتاح الهجوم . وكانت تحشد أحياناً عند أحد الأجنحة ، أو عند بعض نقاط الجبهة اذا كانت قليلة العدد . كان استعمالها ضد خيالة العدو

ممكناً فقط اذا كانت هذه الخيالة غير مدربة على العمل مع الفيلة أو ضدها . وكانت تفصل بين الفيل والآخر مسافة (١٠٠) قدم تقريباً ، وذلك حسب الظروف . وعندما كانت هذه الفواصل أكبر ، والفيلة قليلة ، فقد كانت توضع في الفواصل وحدات مشاة خفيفة مختصة بالعمل مع الفيلة وحمايتها من رماة العدو وقذائفه . وكان سلاح الفيل الأقوى هو الرعب الذي كان يثيره في نفوس الأعداء ، ممن لم يكونوا قد واجهوا الفيلة من قبل . غير أن الفيلة سريعاً ما تفقد خطرها اذا استطاع المرء أن يسيطر على أعصابه . إنها تصاب بالذعر بيسر وسهولة ، وكان أكثر ما يحدث لها ذلك بفعل الضجيج المفاجىء ، كما وقع لفيلة هانيبال في زاما . وكانت الفيلة أيضاً كثيرة الاعورار بالقذائف النارية .

واختصاراً فإن باستطاعتنا أن نقول إن استعمال الفيلة في الحرب كان دائماً نوعاً من مقامرة ، وخاصة اذا كانت ناقصة التدريب والمران ، ووجهت بجنود وقادة من ذوي الخبرة والحيلة . ولكنها كانت على كل حال ، عند هجومها ، منظراً يقتضي لمواجهته كثير من الشجاعة والعزم وقوة الارادة .

وأخيراً فإن الجيش القرطاجي ، بتشكيلته الأممية ، لم يكن ليستطيع الوقوف في وجه جيش من المواطنين إلا إذا كانت قيادته من نوع متميز وغير معتاد ، وكانت القيادة في جيش المواطنين دون المستوى المطلوب . إن الجيش المرتزق ، المتعدد الأجناس والعادات ، الذي يتجند لقاء الأجر وليس في سبيل وطن أو عقيدة ، يكون مزاجي السلوك والتصرف ، إلا في ظروف خاصة ، عندما يتوفر النهب والسلب والسبي والغنائم ، أو عندما توجد على رأسه إدارة وقيادة وضباط من نوع قليل المثال .

هانيبال القائد
التعريف ـ الحروب ـ الاستراتيجية والتكتيك
التقييم العام

أ ـ تعريف

إن هانيبال هو أعظم رجل أخرجته قرطاجة ، الدولة المدينة ، في كل تاريخها الذي استمر زهاء ثمانية قرون ، وهو قائد عسكري يعتبره الكثيرون من أعاظم قادة التاريخ .

هناك رواية تقول بأنه ولد في جزيرة مالطة ، إلا أن الغالب أنه ولد في مدينة قرطاجة ، عام ٢٤٧ق م ، وقد مات منتحراً بالسُم ، في قرية ليبيسا، من أعمال مملكة بيثينيا ، على ساحل البحر الأسود ، فيما هو جزء من تركيا الآن ، عام ١٨٣ق م .

إن الاسم الفينيقي الكنعاني هو هنيبعل ، وتعني كما نظن شيئاً شبيهاً بمعنى محبوب الرب ، أو مختار الإلّه ، أو عبـد اللـه ، وقد تحرف الاسم الفينيقي الأصلي ، بالاستعمال أجنبياً ، بحيث صار يعرف عالميـاً باسم هانيبال ، وهي التسمية التي نعتمدها في هذا المقال .

كان الابن البكر لهاميلكار برقه . وبرقه هي كنية العائلة أو اسمها ، وتعني الصاعقة بالفينيقية . وكان له شقيقان : أسد روبال أي الأسد الغضنفر ، وماكو . وقد قتل أسد روبال في ايطاليا ، في معركة ميتـوروس ، عام ٢٠٨ق م ، وكان في طريقه مع جيش للاجتماع بشقيقه هانيبال في جنوب ايطاليا . أما الشقيق الأصغر ماكو ، فقد هزم وجرح في معركة مع الرومان في ليكوريا ، جنوب ايطاليا ، وتوفي متأثراً بجراحه وهو على سطح البحر ، عائداً مع من نجا من جيشه الى قرطاجة ، عام ٢٠٣ق م .

١ ـ نشأته وأوصافه

كانت عائلة برقه من عائلات قرطاجة البارزة ، وتعود بنسبها الى الملكة



الفيل في جيش هانيبال

إليسا ، المؤسسة الأسطورية لقرطاجة في أفريقيا الشمالية . وكان للأب ، هاميلكار برقه ، قصر أنيق بين القصور البيضاء المشيدة على ربوة بيرسا ، في المدينة الكبيرة ، يطل على مياه الخليج العميقة ، ويشرف على مياه المتوسط المتموجة ، أبعد الى الشمال .

عاش هانيبال كل سنوات عمره تقريباً ، بعيداً عن وطنه ، في اسبانيا وايطاليا وآسيا الصغرى . وقد مارس مهنة السلاح منذ صغره ، واطلع على تاريخ المحاربة لدى الأغريق والرومان ، وتربى عسكرياً تلميذاً لوالده ولصهره أسد روبال البديع . كانت سنه ٢٦ عاماً عندما انتخب للقيادة في اسبانيا خلفاً

لزوج أخته ، وكان قبلئذ يمارس قيادة ميدانية منذ ثلاثة أعوام .

قضى بطلنا كل صباه وشبابه في اسبانيا ، وترعرع على حب هذه البلاد وأهلها ، وكان يعرف هؤلاء أحسن من معرفته لمواطنيه في قرطاجة . كان يلبس لباس الاسبان المريح المتين ، لا شيء يميزه عن الآخرين سوى رجولته البارزة وشبابه الفياض ، وسوى جودة أسلحته وحلة جواده الفخمة . وقد تزوج الأميرة أميلكا ، وكانت ابنة لأحد شيوخ القبائل الاسبانية ، وربما كان ذلك الزواج زواج حب ، أو كان زواجاً لدافع سياسي ، أو كان الاثنين معاً .

كان هانيبال شخصية محبوبة ، يبتسم للنكتة المؤدبة ، وينجح في استخراج الأحسن من لدن الآخرين . وكان قوي الجسم متين العضل ، صبوراً على الحر والبرد والتعب والعطش والجوع ، جريئاً مقداماً ، وخيالاً ماهراً ، معتدلاً في الطعام والشراب ، قليل النوم . وقد اعترف خصومه الرومان بأنه كان موهوباً حاذقاً مدبراً ، ومقاتلاً ممتازاً ، يشارك جنوده المشاق والحرمان والأخطار ، ولا يتباخل عليهم في طعام أو شراب أو تسلية . أما عن بنيته البدنية ومظهره الخارجي ، فلا شيء يعرف عنهما سوى ما توحي به التماثيل وقطع النقود القديمة .

يوجد له تمثال نصفي في كوبنهاجن، وتمثال نصفي آخر في مدريد ، وقد اكتشف له عام ١٩٤٤ تمثال نصفي من البرونز . يستدل من هذه التماثيل وقطع النقود أن هانيبال كان شاباً حليقاً ، برأس مستدير ، عريض الجبهة نافرها ، كظ الحاجبين بارزهما ، طويل الأنف معكوفه وينتهي بمنخرين كبيرين . وكان له فم صغير بزوايا ذاهبة الى أسفل ، وشفتان مليئتان ، الشفة السفلى ذاهبة قليلاً الى الداخل ، كل ذلك بالاضافة الى ذقن قوي . وهذه السمات كلها ميزات أفريقية إغريقية ، وتدل على وراثة فينيقية أفريقية مع مزيج يوناني .

٢ ـ والده

كان هاميلكار برقه ، والد هانيبال ، قائداً عسكرياً ناجحاً ، ومواطناً

مخلصاً غيوراً على مصالح وطنه ومواطنيه . وكانت قرطاجة في زمانه فاسدة متفسخة . وكان هاميلكار يتمتع بموهبة اكتساب ثقة من يعملون معه ومحبتهم ، أعواناً وأتباعاً . وقد ذهب الى جزيرة صقلية ، عام ٢٤٧ ق م ، قائداً لأحد الأساطيل ، فاستطاع في ظرف مدة قصيرة أن يثبت وجوده وأن يبرهن عن خبرة ومهارة في الادارة والقيادة .

قدمت عائلة برقه ، في الأصل ، من مقاطعة برقه ، وكانت في المجتمع القرطاجي عائلة قوية، لكنها لم تكن في ذلك الوقت تعتبر في عداد العائلات الأولى في قرطاجة . وقد اشترك هاميلكار في معارك الحرب البونية الأولى في صقلية ، وتقلد في هذه الجزيرة عدة مناصب قيادية ، وكان بوجه عام ناجحاً في حروبه لكن في حدود محلية ، دون تأثير على مجرى الحرب ككل . وبعد خسارة قرطاجة للحرب وعقدها الصلح مع روما ، غادر هاميلكار جزيرة صقلية بطلب من الرومان ، وعاد الى قرطاجة حيث أخذ يحاول ويدعو الى إصلاح نظام الحكم ووضع حد للفساد والمحسوبية ، ففشل .

وكان بنتيجة ذلك الفشل ، واليأس من ايقاف تردي الأوضاع العامة في قرطاجة ، أن قرر هاميلكار مغادرة أفريقيا ، والتوجه مع بعض خلصائه الى الممتلكات القرطاجية في شبه الجزيرة الايبرية ، آملاً أن يتوصل مع الزمن الى تحقيق سيطرة كاملة على شبه الجزيرة ، وترويضها ، وبالتالي بناء امبراطورية جديدة يكون باستطاعتها أن تعيد قرطاجة الأم الى سابق عهدها المشرق ، وأن تضع حداً لتحديات روما وتتصدى بنجاح لاعتداءاتها وتوسعاتها. وقد جعل هاميلكار من هذا التصور هدفاً له وغاية ، ونجح وأصدقاؤه في حمل مجلس الشيوخ على توليته قيادة جيش ، وتكليفه بإخضاع مناطق القبائل على طول ساحل أفريقيا الشمالية ، وفي ممتلكات قرطاجة في اسبانيا، وكان هذا القرار مرض للطرفين: لمجلس الشيوخ بابتعاد هاميلكار عن قرطاجة ، ولهاميلكار كواسطة عملية الى تحقيق أهدافه الاصلاحية وطموحاته البناءة .

٣ - أمبراطورية آل برقه

غادر هاميلكار قرطاجة على رأس جيش صغير ، متحركاً على طول الساحل ، تواكبه بحراً بعض السفن التجارية ناقلة تجهيزاته ومستودعاته . وقد ترك في بيت العائلة، في قرطاجة، زوجته وبناته وولديه الأصغرين أسد روبال وماكو . أما ولده الأكبر هانيبال ، وعمره يومئذ (٩) سنوات ، فقد رافق والده في رحلته الى الأرض الجديدة ، كما كان قد صحبه قبلاً ، منذ سن الخامسة ، في قتالاته ضد الرومان ، في جزيرة صقلية . وقد تحدث هانيال ، بعد سنين من ذلك التاريخ ، وكان يعيش منفياً في بلاط الملك السوري أنطيوخوس الكبير ، عن رحلته مع أبيه الى اسبانيا فقال :

- عندما كان عمري ٩ سنوات، اصطحبني والدي معه الى معبد ملكارت في قرطاجة ، مع الضباط والأنصار الذين كانوا سيرافقونه الى اسبانيا ، وذلك لأداء قسم الولاء قبل الرحيل ، جرياً على العادة المتبعة ، أمام إلّه المدينة ، إلّه صور الأول ، الإلّه الذي كان هاميلكار قد نذر نفسه اليه . وتابع هانيبال يقول :

- في المعبد ، أخذني أبي من يدي ، وقادني حتى الهيكل ، حتى الضحية التي كانت قد قدمت قرباناً للإلّه ، وهنا أخذ بيدي الأخرى ، ووضعها على الضحية ، وطلب مني أن أقسم بأن لا أكون أبداً صديقاً لروما ، وقد فعلت ، وحافظت دوماً على قسمي .

في صيف عام ٢٣٦ق م، عبر هاميلكار بقواته من أفريقيا الى أوروبا، مستبقاً بذلك العبور العربيَ بعدة قرون . عرف الفينيقيون مدينة قادش ، منذ مئات السنين ، كمستودع تجاري وميناء رئيسي على طريق التنك والقصدير ، وقد دخلها هاميلكار الآن للاستيطان وليس لمجرد التجارة . كانت شبه الجزيرة الايبرية ، أو اسبانيا الكبرى ، مقسمة في ذلك الزمن الى ثلاثة أقسام . كان القسم الأول يتألف من المناطق الممتدة على طول السواحل الجنوبية والشرقية ، وكانت مناطق عامرة وتحتوي على كثير من المدن ، وسكانها

خليط من الفينيقيين واليونانيين والاسبانيين . وكان القسم الثاني يتكون من أواسط اسبانيا ، حيث كان الغاليون الأوائل قد امتزجوا مع السكان الأصليين ليشكلوا مجتمعاً قبلياً من الفرسان والمحاربين الأشداء ، مجتمعاً مزاجياً عاطفياً ينتقل ما بين النقيضين ، الصداقة والعداوة ، بسرعة ما بين لحظة وأخرى . أما القسم الثالث والأخير فكانت تسكنه أحدث الهجرات الغالية ، التي لم تكن بعد قد امتزجت مع بقية السكان .

عمل هاميلكار ، على مدى (٩) سنين ، على إكمال الاحتلال القرطاجي لوسط اسبانيا ، مستعملاً لذلك التفوق العسكري ، والرهائن ، والأتاوات والغرامات ، وصلب الملوك والشيوخ للاخلال بالعهود أو العبث بالنظام والأمن. وكان من نتائج هذه السياسة أن اغتيل عام ٢٢٨ ق م . وقد اجتمع الضباط عقب ذلك ونادوا بزوج ابنته ، أسد روبال الملقب بالبديع ، خلفاً له .

اعتمد أسد روبال على الدبلوماسية أكثر من اعتماده على قوة السلاح. ونجح في بسط السلطة القرطاجية وتوسيع دائرة نفوذها من قادش حتى البحر المتوسط ، وشمالاً حتى نهر إيبرو . وقد أسس قرطاجة الجديدة على البحر المتوسط ، قرطاجنة الحالية ، واتخذها مقراً لقيادته ، وقد اغتيل بدوره ، عام ٢٢٠ ق م ، بعد حكم استمر ثمانية أعوام ، فانتخب الضباط هانيبال خلفاً له في القيادة . وقد رفضت قرطاجة الموافقة على هذا الاختيار في بادىء الأمر ، لكنها اضطرت في النهاية الى القبول ولو على مضض ، لتمسك الضباط بقرارهم ورفضهم لأي حل سواه .

ب ـ الحرب مع روما

١ ـ أسباب الحرب

ازدهرت اسبانيا القرطاجية في عهدأسد روبال البديع ، وخاصة قرطاجة الجديدة ، وغدت هذه المدينة مركزاً تجارياً هاماً . وقد أقلق هذا الازدهار روما

اليقظة المتربصة ، وأثار اهتمام مدينة مسيليا ـ مرسيليا الفرنسية حالياً ـ وغيرتها ، وتخوفها على مستقبلها التجاري من منافسة قرطاجة الجديدة ، وكان أن تقدمت بالشكوى الى روما ، وكانت لهذه حليفة وصديقة .

أعطت هذه الشكوى حجة لروما بالتدخل ، فأرسلت الى اسبانيا سفارة أدت الى اتفاق مع أسد روبال بعدم تجاوزه لنهر الايبرو ، شمالاً ، وبقي هذا الاتفاق سارياً في حياة أسدروبال . ولكن الاختلاف عاد فتجدد مرة أخرى ، وذلك عندما عبر هانيبال بقواته نهر ساكنتوم ، الواقع سبعين كيلومتراً الى الجنوب من نهر ايبرو . فقد ادعت روما أن نهر ساكنتوم هو الحد المتفق عليه مع أسد روبال والذي لا يجوز أن يتجاوزه القرطاجيون الى الشمال ، في حين أصر هانيبال على القول بأن نهر ايبرو هو الحد المتفق عليه . وقد زاد الطين بلة أن قام هانيبال ، عام **٢١٩** ق م ، باكتساح مدينة ساكنتوم ، الواقعة بين نهري جوكار وايبرو ، وتدميرها ، وكانت قد وضعت نفسها تحت حماية روما . ولما رفضت قرطاجة الاستجابة الى مطالب روما بتسليم هانيبال اليها لمحاكمته ، والانسحاب من ساكنتوم ، ودفع غرامة مناسبة ، ردت روما على ذلك بإعلان حالة الحرب بين البلدين ، وهكذا نشبت الحرب البونية الثانية .

كانت موازين القوى متعادلة لدى الطرفين ، ظاهرياً على الأقل . لكن روما كانت تتفوق في النوعة والمعنوية والزعامة السياسية ، وتقدم للحرب كل ما تحتاجه من عزم وجهود وأموال ودماء . هذا بعكس قرطاجة ، التي قام اعتمادها ونوعيتها على شخص هانيبال ، والتي كانت تجهل حقيقة نفسها وحقيقة خصمها ، وكانت الأنانية والمحسوبية والدرهم والدينار يعميها عن تفهم مصالحها الحقيقية ، وعن التخطيط والعمل بمنطق سليم وتدبير حكيم وادارة قادرة . .

٢ ـ هدف هانيبال من الحرب

تعتبر الحرب البونية الثانية ، بالأصح ، حرب هانيبال ، وكان مصمماً على فرض الأحداث على روما ، وعلى نقل الحرب الى ديارها ، الى ايطاليا

بالذات . كان هانيبال يتوخى ، من وراء غزوه لروما في عقر دارها ، أن يحطم الفدرالية الايطالية القائمة بزعامة روما ، وأن يستبدلها بفدرالية جديدة موسعة تدخل فيها كل ايطاليا بما في ذلك الغاليون في الشمال ، وكذلك غاليا واسبانيا ، وبزعامة قرطاجة هذه المرة ، ولقد وضع خطة الحرب على هذا الأساس .

ولهذا التفكير محبذون ومعارضون . فالمحبذون يرونه صحيحاً سليماً من الناحيتين الاستراتيجية والتكتيكية، وقابلاً للتحقيق . أما المعارضون فينظرون اليه كمجرد حلم ، وكمغامرة لم تكن محمودة العواقب . إن الحرب ، في كل زمان ومكان ، قواعد وإمكانات ولوجستيك ، ولم تكن قواعد هانيبال قوية مضمونة ، وامكاناته كافية ، ولوجستيكه صحيح سليم . لقد انخرط في مقامرة وليس في يده أوراق رابحة ، باستثناء الجيش ، ولكن هذا الجيش نفسه كانت قيمته رهناً بشخصية قائده ووجوده ، أي قيمة تقوم على أساس شخص واحد ، وكان عدده غير كاف للمهمة المطروحة .

٣ ـ الخطة

تكونت خطة هانيبال من النقاط التالية :

ـ التوجه الى ايطاليا بطريق البر ، مروراً باسبانيا فغاليا فشمال ايطاليا عن طريق جبال الألب .

ـ اجتياز كل ايطاليا ، بقصد الوصول الى الكعب الايطالي حيث تقام قاعدة عمليات ومرافىء مضمونة لتلقي الامدادات بحراً من قرطاجة .

ـ تدمير كل جيش روماني يعترض هذا المسير ، مع الأمل بأن يؤدي ذلك الى النيل من سمعة روما وهيبتها أمام أطراف الفدرالية الايطالية الأخرى ويشجعها على الانسحاب من هذه الفدرالية ، أو الامتناع عن مساعدة روما والوقوف الى جانبها في الحرب .

ـ حمل روما على الرضوخ والاستسلام ، بفعل تحطيم جيوشها ،

وانصراف الأنصار والأحلاف عنها ، وانفرادها لوحدها آخر الأمر في الساحة .

ـ إقامة الفدرالية الجديدة المتوخاة بزعامة قرطاجة .

ج ـ التنفيذ والأعمال القتالية

١ ـ الطريق الى ايطاليا

كان الطريق الى ايطاليا واحداً من اثنين ، فإما البر وإما البحر ، وقد اختار هانيبال طريق البر ، بدعوى أنه لم يكن بديل سواه ، وأنه كان لروما سيطرة كاملة على البحار ، وهي دعوى مشكوك في أمرها . صحيح أن قوة هانيبال البحرية لم تكن تتجاوز يومذاك خمسين قادساً ، في حين كان لروما لا أقل من (٢٢٠) سفينة حربية عاملة . ولكن صحيح أيضاً أن قرطاجة ، لو قامت بالجهد اللازم ، لكان بوسعها أن تجهز أسطولاً إضافياً بما لا يقل عن (١٠٠) سفينة أخرى . وكان من العسير جداً في ذلك الزمن الوصول الى سيطرة كاملة على البحر ولو بأسطول متفوق ، زد على ذلك أن الأسطول الروماني كان موزعاً على عدة مناطق ، بحيث أنه لو قامت قرطاجة بحشد أسطولها كله لكان باستطاعتها أن تتعادل مع أية قوة رومانية تعترضها ، هذا إن لم تحصل على تفوق موضعي على الرومان . وما من شك في أنه لو كان هانيبال قد اختار الحركة بحراً ، وأُعطي السفن الحربية اللازمة ، لكان وجد دون صعوبة جميع سفن النقل الكافية لحمل جيشه ، والوصول الى جنوب ايطاليا بخسائر أقل وبوقت أسرع مما اقتضاه الطريق البري الذي اتبعه .

في عام ٣١١ ق م ، يوم كانت قرطاجة سيدة على البحار ، نجح أغاثوكليس ، دكتاتور سراقوسة ، على ظهر (٦٠) سفينة ، بالابحار من صقلية الى ساحل أفريقيا الشمالية ، مع جيش من (١٤) ألفاً ، وذلك رغم وجود الأساطيل القرطاجية . وفي عام ٢٥٦ ق م ، نجح الرومان بإنزال ٤٠ ألفاً على أبواب قرطاجة ، بعد أن هزموا في معركة بحرية أسطولاً قرطاجياً يفوقهم عدداً . وهكذا فإننا لا نرى سبباً معقولاً لامتناع هانيبال عن سلوك الطريق البحري الأسرع والأقرب والأضمن ، إلا لأنه كان لا يطمئن الى ركوب البحر ،

أو كان لا يثق باستطاعة الأسطول القرطاجي على نقله وإيصاله سالماً الى البر الإيطالي .

كان البديل للطريق البحري طريقاً برياً ، عسيراً خطراً . . حوالي ١٣٠٠ كيلومتر على خط جوي مستقيم ، وربما أكثر ، مع عبور لنهر كبير ، نهر الرون ، ولعدة أنهار أخرى من حجم أصغر ، واجتياز لسلسلتين من الجبال الضخمة الشاهقة ، سلسلة جبال البرنس بين اسبانيا وغاليا (فرنسا) ، وسلسلة جبال الألب بين غاليا وايطاليا ، وقد لزم لذلك أن يتخلى عن أسلحته الثقيلة ، أسلحة الحصار وتجهيزاته ، وأن يجتاز مناطق مجهولة ومعادية ، وأن يسير على ضوء معلومات غير كافية عن الأرض والسكان . لقد خاض مع السكان عدة معارك كان من الممكن تجنبها ، وضل طريقه في جبال الألب واقتيد وجيشه الى كمين . وكان الجيش القرطاجي ، عندما بدأت الحركة ، يعد حوالي مئة ألف مقاتل ، فوصل منه الى ايطاليا سالماً ربعه تقريباً ، وراح الباقي بين حاميات قد أفرزت على طول الطريق للحفاظ على مواصلاته مع اسبانيا ، وبأعداد لم تكن كافية كما ثبت فيما بعد ، وبين خسائر راحت ضحية للأعمال العدائية وللأنواءوالمستنقعات والأمراض . وقد جعله تخليه عن أسلحة الحصار عاجزاً عن التغلب على أصغر الحصون والقلاع ، بصورة غالبة .

تحرك هانيبال يقصد ايطاليا ، بقوة مبدئية كان تعدادها تسعين ألف راجل ، واثني عشر ألف خيال ، وسبع وثلاثين فيلا . ولكنه عندما وصل أخيراً الى الأرض الايطالية ، بعد عدة شهور ، فإنه لم يكن قد بقي معه من جيشه سوى (٢٠,٠٠٠) راجل ، و(٦,٠٠٠) خيال و (١٠) أفيال .

٢ ـ القتال أثناء الطريق

قضى هانيبال زهاء ستة أسابيع في قتال مع القبائل الاسبانية شمال نهر ايبرو . وخاض في غاليا ، عند عبوره لنهر الرون ، معركة مع أكبر القبائل الغالية في المنطقة . وقد شق طريقه في جبال الألب بعد اشتباكين مع الجبليين .

كان الرومان في هذه الأثناء ، قبل أن يعرفوا شيئاً عن حركة هانيبال ووجهته ، قد وجهوا حملة الى غزو اسبانيا ، بقيادة القنصل شيبيو الأب . وقد أبحرت هذه الحملة الى مقصدها ، وعرجت في طريقها على مرفأ مسيليا (مرسيليا اليوم) حليفة روما ، حيث توقفت بقصد الاستراحة والتموين . وعند هذا الوقت بالذات علم شيبيو قائد الحملة بوجود هانيبال عند نهر الرون ، كما علم هانيبال بوجوده بعد اشتباك لمفارز استطلاع من خيالة الطرفين . وكان تصرف القائدين ، في هذه المناسبة ، مختلفاً . .

ـ فلقد تجنب هانيبال المعركة ، تاركاً جيشاً رومانياً في مؤخرته وعلى طريق مواصلاته ، وفي طريقه الى اسبانيا ، الى قاعدته القرطاجية الأولى . .

ـ أما شيبيو فقد تحرك صاعداً باتجاه نهر الرون ، بقصد المعركة مع الجيش القرطاجي ، لكن وصل متأخراً ، اذ وجد هانيبال قد سبقه بمسافة ثلاثة أيام ، في طريقه الى جبال الألب . .

ـ لم يتخل شيبيو لذلك عن مهمته الأساسية ، وعمد فوضع شقيقه على رأس الجيش ليتابع مسيره الى اسبانيا ، بينما عاد هو الى ايطاليا لتنظيم الدفاع في وجه هانيبال .

لا ندري ما هي الأسباب التي حملت هانيبال على عدم التعرض لذلك الجيش الروماني ، الذي كان تهديداً لمواصلاته وقاعدته الأساسية في اسبانيا ، ولسنا في معرض التكهن بالتعليل والمبررات. المهم في الأمر هو القول بأن تصرف القائد الروماني كان صائباً صحيحاً من جميع النواحي ، الاستراتيجية والتكتيكية ، وكان له الفضل الأكبر في انتصار روما في هذه الحرب وفي ما تلاها من حروب . أما تصرف هانيبال فقد كان خاطئاً استراتيجياً وتكتيكياً ، وكانت له أخطر النتائج على سياق الحرب ومصيرها ككل .

٣ ـ المعارك في ايطاليا

قضى هانيبال في ايطاليا مدة (١٦) عاماً ، خاض مع الرومان خلالها

معارك عديدة كان النصر في معظمها حليفه ، لكن دون أن ينجح في أي منها بصورة حاسمة للحرب ، ولا أن يحقق من ورائها شيئاً باتجاه هدف الحرب الرئيسي ، وهو فصم عرى الكونفدرالية الايطالية بزعامة روما . وقد تعاونت معه في ايطاليا أقاليم وأطراف عدة ، إلا أنه فشل في ربطها مع بعضها ، وتوحيد جهودها ، والاستفادة منها ، براً وبحراً ، في ساحات القتال مع روما .

وهو لم يستفد استراتيجياً كذلك من انتصاراته الميدانية . أما أهم معاركه فتأتي مندرجة بالترتيب الزمني ، على النحو التالي :

- معركة نهر تريبيا ، ٢١٧ ق م .
- معركة بحيرة ترازيمين ، منتصف عام ٢١٧ ق م .
- معركة كانه ، عام ٢١٦ ق م .

تعتبر معركة « كانـه » أعظم هـذه المعارك الثـلاث ، وينظر اليهـا الأخصائيون بمثابة معركة ابادة كاملة . خسر الرومان في هذه المعركة حوالي (٥٠,٠٠٠) قتيل و(٢٠,٠٠٠) أسير ، وقدرت خسائر القرطاجيين بحوالي ثمانية آلاف قتيل . وقد بلغ هانيبال في موقعة « كانه » ذروة إبداعه التكتيكي ومهارته الميدانية ، ووقف منذئذ عند هذا الحد ، بينما أخذ القادة الرومان يزيدون مهارة ومقدرة يوماً بعد يوم الى أن تغلبوا عليه في معركة زاما الحاسمة ، بقيادة شيبيو الابن ، الملقب بالافريقي ، عام ٢٠٢ ق م .

ينظر الى معركة « كانه » بمثابة المعركة البالغة حد الكمال ، نسبياً بمنظار ذلك الزمن . واننا نعرض فيما يلي وصفاً موجزاً لهذه المعركة ، لا كمثال يحتذى اليوم من حيث البنيان والصور والجريان والمرحلية ، فهذه أشياء قد عفا عليها الزمن ، وانما من حيث الاستهداف والنتيجة ، وابتغاء أن يستألف القارىء مع تطور القتال عبر العصور .

٤ ـ معركة « كانه »

تقع بلدة « كانه » على بعد ثمـانية كيلومتـرات من ساحـل البحر

الأدرياتيكي ، على مرتفع قائم على الضفة اليمنى لنهر أوفيدوس . وقد التقى الجيشان على الضفة اليسرى للنهر ، على أرض منبسطة مسطحة ، خالية من العراقيل والأشجار ، مثالية لحركات الخيالة القرطاجية . وكان التاريخ (٢) آب عام ٢١٦ ق م .

كان عدد الجيش الروماني (٨٠) ألف راجل و (٦) آلاف خيال ، مع عدد كبير من دواب الحمل والنقل والجر . وهذا العدد هو مجموع (٨) لجيونات رومانية ، و (٨) لجيونات من الأطراف المشتركة في الفدرالية الايطالية ، بالاضافة الى الخيالة المعتادة الملحقة بكل لجيون . وكان عدد الجيش القرطاجي (٣٠) ألف راجل و (١٠) آلاف خيال.

تشكل الرومان للمعركة على الطريقة التقليدية ، المشاة الخفيفة في المقدمة أمام الجبهة ، وجاءت اللجيونات بعد المشاة الخفيفة ، جنباً لجنب ، لجيون رومانية فلجيون حليفة ، وهكذا على التتالي . وقد غطت هذه اللجيونات جبهة بعرض ١١٠٠ مقاتل ، وعمق ٥٠ مقاتلاً ، ووضعت الخيالة على الجانبين ، ٢٤٠٠ خيال روماني على الميمنة ، مستندين الى النهر بقيادة القنصل بولوس ، و ٣٦٠٠ خيال حليف على الميسرة . وكان يتناوب القيادة يوماً بعد يوم القنصل فارو والقنصل بولوس ، وكان دور فارو في القيادة ذلك اليوم .

أما التشكل القرطاجي فقد اختلف عن التشكل لدى الجانب الآخر . لقد وضع هانيبال خطته للمعركة على أساس تفوقه في الخيالة . لم يوزع خيالته على جناحيه كما فعل الخصم ، وانما وضع كل خيالته الثقيلة على النهر على ميسرته ، أي (٨٠٠٠) مقابل (٢٤٠٠) للطرف الآخر ، وليس على ميمنته مقابل القسم الأكبر من خيالة الرومان . وقد أعطاه هذا الترتيب ثقة شبه مؤكدة بتحقيق اختراق من ناحية ميسرته . ووضع على جناحيه الأيمن خيالته النوميدية الخفيفة ، وعددها ألفان .

كانت المسألة ، التي تواجه هانيبال ، هي كيف يقابل بثلاثين ألفاً من



هانيبال يعبر جبال الألب

المشاة سبعين ألفاً لدى الخصم. كان نصف عدد مشاة الرومان ، أي ٣٥ ألفاً تقريباً ، أحداثاً قليلي الخبرة والتدريب . وقد خطط هانيبال للمعركة بحيث جعل من هذه الناحية ومن التفوق العددي للرومان عاملين ضد أصحابهما . ولهذا فقد وضع أقل مشاته اعتماداً ، وهم الغاليون ، في الوسط ، والاسبان على جانبيهم . وعوضاً عن أن يرتب هؤلاء على تشكل تقليدي كما كان منتظراً ، تبعاً للتقاليد والأعراف في ذلك الزمن ، أي على تشكل مقعر تقوية لوسط جبهته ، فقد قذف بهم على العكس الى الأمام ، على شكل قوس محدب بارز صوب الخصم . ووضع على جانبي هذا القوس ، دعماً لطرفيه ، مشاته من الأفارقة المحنكين ، على عمق نسقين . وقد شرح لقادة المشاة ،

بوضوح ودقة، نواياه وخطته .

كان يتوقع اندفاع المشاة الرومانية الى مهاجمة وسطه المعرض . وكان على هذا الوسط ، المكون من الغاليين والاسبان ، أن لا يقاتل مستميتاً إلا ظاهرياً وشكلاً ، وأن يتراجع ببطء تحت ضغط هجوم العدو ، لكن على شرط المحافظة على سلامة جبهته . كان يريد للوسط القرطاجي أن يتحول ، بضغط الهجوم المعادي والتراجع البطيء المنتظم ، الى قوس مقعر عوضاً عن محدب نافر ، الى كيس ضخم يمسك الأفارقة بأكتافه ، والرومان بداخله مربكون ومعرقلون بكثرتهم . لم يكن ذلك مجرد تخطيط جيد فحسب ، بل كان أيضاً تعبيراً عن ثقة هانيبال الكاملة بمختلف العناصر التي كانت تؤلف جيشه .

جرت المعركة كما أراد هانيبال لها أن تجري ، وقد لعب الطقس دوراً هاماً فيها . كانت الشمس ساطعة ، محايدة بالنسبة للطرفين ، لكن ريح الفورتورنس ، وهو ريح صيفي عاصف ، كان يعصف بقوة في وجه الرومان ، محملاً بالغبار ، وقد ساهم في إرباكهم والحد من إدراكهم والاحساس بما يجري حواليهم . استمر القتال (٨) ساعات ، وانتهى بإبادة الجيش الروماني بكامله . وكان من بين قتلى الرومان القنصل بولوس ، والقنصل السابق جيمينوس سرفيليوس ، وسيد الخيل السابق مينوشيوس روفوس ، و ٢١ ضابطاً كبيراً من درجة ومرتبة تريبيون ، و (٨٠) عضواً من مجلس الشيوخ . أما القنصل فارو فقد استطاع الفرار مع سبعين خيالاً .

كانت معركة « كانه » هزيمة ساحقة لروما ، واشترك في تحقيقها عاملان : قصور القيادة العسكرية الرومانية ، والتفوق القيادي التكتيكي لهانيبال ، ويدين النصر القرطاجي أيضاً بنصيب كبير للمستوى الرفيع من الاعداد والانضباط ، اللذين ظهرا في المعركة لدى كل قطعة وكل وحدة في الجيش . وكما سبق فقلنا فإن هانيبال لم يستفد استراتيجياً من هذا الانتصار الساحق ، وكانت روما العاصمة على مقربة منه ، وعزلاء تقريباً من دفاع قوي ، وقد استحق لذلك من قائد خيالته ، مهاربال ، هذا القول :

ـ « لقد منحتك الآلهة نعمة المعرفة بكيف تنتصر ، ولكنها حرمتك من موهبة الاستفادة من انتصاراتك ! . »

والواقع أن هانيبال لم يكن يعرف كيف يستفيد من ثمار انتصاراته الميدانية في المجال الاستراتيجي . لقد كان تفكيره وتصوره غريبين في هذه الناحية . ويقف المارشال مونتغومري الى جانب مهاربال في انتقاد هذا الأخير لهانيبال بعد معركة « كانه » ، وكذلك هو رأي الكاتب والناقد العسكري الكبير الجنرال فوللر .

د ـ التكتيك والاستراتيجية

١ ـ لكي نقيم هانيبال كقائد ، ونعرف منزلته بين كبار القادة في التاريخ القديم ، علينا أولا أن نبدأ النظر في الخصائص والميزات التي توجد القائد العظيم . إن أولى هذه الصفات وأهمها هي الكفاءة المتفوقة في مجالي الاستراتيجية والتكتيك . فالقائد الناجح يجب أن يكون استراتيجياً جيداً وتكتيكياً جيداً كذلك . وعلى القائد أن يكون أكثر من جيد كي يعتبر من كبار القادة . إلا أن الاستراتيجي ، مهما كان متميزاً ، ليس هو حكماً بالتكتيكي الجيد أو الممتاز ، ولا التكتيكي الجيد هو بالحاصل استراتيجي قدير . وفيما عدا الاستراتيجية والتكتيك ، فإن هناك خصائص أخرى لا بد من حيازتها كشرط للنجاح والعظمة .

من أولى هذه الخصائص أن يكون القائد حسن الادارة ضليعاً في اللوجستيك ، وإلا راح جيشه مهزوماً لسوء التنظيم وانقطاع المؤن وتوقف الامدادات . ويطلب من القائد أيضاً أن يكون بعيد النظر ، عميق التفكير ، سريع الادراك ، واقعي التصور والتخيل والتخطيط ، عارفاً لما يريد ، محتفظاً بهدفه نصب عينيه ، فلا يفقده أو يتخلى عنه دون مبرر قاهر . وعليه كذلك أن يحسن الارتجال والتعامل مع الطوارىء والمفاجآت ، بارعاً في سياسة الآخرين وتسييرهم ، قادراً على فرض شخصيته والايحاء بحسن قيادته وعظيم كفاءته ، وعلى حمل الآخرين على مواجهة الشدائد والأخطار وهم واثقون من صحة

أوامره وصواب تخطيطه . وهناك أخيراً خاصتان أخيرتان لا بد منهما ، وهما الجرأة لكن دون تهور ، وانتهاز الفرص والسوانح حال حدوثها ، بالاضافة الى حاسة الشعور بتردد الخصم أو تخبطه ، واستغلال ذلك في التو واللحظة .

٢ ـ نصيب هانيبال من هذه المؤهلات

يحظى هانيبال في اعتبار كثير من الناس وتفكيرهم ، في أقطار الشرق العربي خاصة ، بسمعة وتقدير تزيدان جداً عن مكانته واستحقاقه ، وذلك رغم ما كان من أخطائه ، ورغم هزيمته آخر المطاف في معركة زاما ، ٢٠٢ ق م . وسبب ذلك ، كما أعتقد ، هو ما يحدثه ، لدى القارىء والسامع ، تاريخه ومصيره ونبل أخلاقه ، والنهاية المحزنة لقرطاجة ، من مشاعر الأسى والألم ، الى درجة تغمر الأخطاء والهفوات ، وتبقي فقط على البارز والمشرق من المشاريع والانجازات . وتأثرا بمثل هذه الأحاسيس ، فإن كثيراً من الكتاب والباحثين يعتبر أن هانيبال كان حائزاً على معظم ما تقدم ذكره من مؤهلات إن لم يكن كلها . وكنت أنا شخصياً من جملة المغالين في تقييم هانيبال وتقديره . ففي مقال لي في مجلة الحرس الوطني السعودي الغراء ، في عدد صَفَرْ ١٤٠٥ هـ ، قلت أن القائد القرطاجي يعلو مستوى على الاسكندر الأكبر ، وكان ذلك مني خطأ كبيراً ، وقد نتج وقتئذ عن تقصير ونقص في معلوماتي التاريخية ودراستي غير الكافية لحياة القائدين .

٣ ـ هانيبال في المجال الاستراتيجي

كان هانيبال استراتيجياً فاشلاً بقدر ما كان تكتيكياً لامعاً ، بل وأكثر . فتفكيره وتخطيطه الاستراتيجي ، لوحده أو بالاشتراك مع مجلس الحرب في قرطاجة ، كان كله خطأ ، ابتداء بهدفه من الحرب ، وانتهاء بهزيمته في زاما . ويبرز الخطأ الاستراتيجي مجسماً في النقاط التالية :

ـ جهل بقوة روما وامكاناتها الحقيقية ، وبطبيعة الكونفدرالية الايطالية ومتانة تركيبها ، ومغالاة ، بتأثير هذا الجهل ، في تقييم الامكانات

والاستطاعات الذاتية واستهداف غرض لا يمكن تحقيقه .

- التوجه الى مغامرة بعيدة ، دون الاستناد على قواعد مضمونة وطرق مواصلات مأمونة .

- تقصير في الاستعلام عن الناس والأرض .
- عجز عن اقتحام المواقع المحصنة .
- إهمال للخطورة الاستراتيجية والقيمة العسكرية للقوة البحرية وللسيطرة على البحار .
- طاقة عسكرية قيادية مقتصرة على هانيبال دون سواه .
- غياب كلي لسلاح الحصار .
- عدم اغتنام الفرص المتأتية عن الانتصارات التكتيكية .
- فقدان الاتصال والارتباط مع القواعد .
- عدم اعتراضه لشيبيو الأب على نهر الرون .
- قبوله بإجراء معركة مصيرية وهو على غير استعداد، ودونما مبرر قاهر ، في زاما ، ٢٠٢ ق م .

يقيم محبو هانيبال مستوى البطل القرطاجي ، من الناحية الاستراتيجية ، بناء على العاطفة ، وعلى أساس كثير من الافتراضات والتمنيات ، وعلى أن الصراع بين روما وقرطاجة كان صراعاً بين شرق وغرب . لقد كان الأمر مجرد تنافس ونزاع على البقاء ، وقد انتهى لجانب الأصلح ، وهذا هو ناموس الحياة .

هدف هانيبال من الحرب الى تغيير موازين القوى في البحر الأبيض المتوسط ، وذلك بتدمير الكونفدرالية الايطالية بزعامة روما ، واستبدالها بكونفدرالية أخرى بزعامة قرطاجة ، ورأى لذلك أن ينقل الحرب الى ايطاليا نفسها ، لا بقصد تدمير دولة روما واحتلال عاصمتها ، ولكن فقط بتحديها بوجوده في أراضيها ، واذلالها بتحطيم ما يعترضه من جيوشها ، ظناً منه أنه بذلك التصرف سيشجع أعضاء الكونفدرالية الرومانية على فصم علاقاتهم مع

روما ، والقبول بالدخول في مشروعه بكونفدرالية جديدة تضم ايطاليا وغاليا واسبانيا ، بزعامة قرطاجة كما تقدم القول . وكان هذا هدف غير قابل للتحقيق ، وتعبير عن سذاجة تفكير واضعيه ، كما كان دليلاً على جهل تام بحقيقة دولة روما ، زعامة وامكانات وجيوغراسية ، وجهل تام كذلك بحقيقة القوى والاستطاعات الذاتية ، زعامة ودولة وقواعد .

كان الرومان ، على وجه العموم ، أحسن ادارة ، وأكثر اخلاصاً وتفانياً لواجباتهم . وكانت مستعمرات روما ، والأقطار المتحالفة معها أكثر استقراراً وأعظم ولاء للعاصمة الرومانية . أضف الى ذلك أن الممتلكات الرومانية ، سواء في ايطاليا الكبرى الأغريقية ، في جنوب شبه الجزيرة ، أو في أتروسكا والسمنيوم ، في الوسط والشمال ، كانت أفضل تقدماً وأرقى حضارة من ممتلكات قرطاجة في اسبانيا وأفريقيا . لم تفكر قرطاجة يوماً في تحضير القبائل الأفريقية ، أو رفع مستواها والعمل على اكتساب ثقتها وحبها وولائها . وقد عمل هانيبال وأبوه من قبل على تحسين أحوال القبائل الاسبانية واكتساب عواطفها ، لكن لم يتوفر لهما الوقت الكافي لتنظيم هذه القبائل واستيعابها وصهرها في كل سياسي قوي متين . وكذلك كانت الهيمنة القرطاجية على القبائل الأفريقية وعلى المستوطنات الفينيقية ، على الساحل الشمالي للقارة ، قاسية مذلة ، بعكس الاحتلال الروماني في ايطاليا ، الذي كان قد جرى واستمر بطريقة أكثر انسانية مما عرف فيما بعد عن الاحتلال الروماني لمناطق أخرى من العالم . كان قسم كبير من المناطق الايطالية ، عند نشوب الحرب ، قد سلم راضياً بسلطة روما ، دون استياء أو ضغينة .

وهكذا نرى روما ، من جهة ، دولة فتية ، وحضارة صاعدة ، شعارها الفرد في سبيل المجموع . . ادارة ناشطة قوية وحكم تمثيلي يرضى عنه الجميع . . . وقرطاجة ، من الجهة المقابلة ، حضارة منهارة ، وحكم فاسد ، وسلطة استعمارية ، وكل مقاليد الأمور موروثة أباً عن جد ، في يد طغمة من التجار الشرهين الأنانيين ! . فكيف أمكن لهانيبال ، وهو ممثل لدولة من هذا النوع ، أن يفكر باحتمال النجاح بحمل الأقوام في ايطاليا على الانفضاض عن

الكونفدرالية الرومانية والانضمام الى كونفدرالية جديدة بزعامة قرطاجة ؟! . كان السبيل الى ذلك هو الغصب والاكراه بالقوة العسكرية ! . إلا أن القوة ، التي كانت مع هانيبال عند وصوله الى ايطاليا ، أو القوة التي كانت معه قبل أن يخسر نصفها ، في الطريق ما بين جبال البرنس ونهر بو ، كلتيهما لم تكونا كافيتين لتحقيق فكرته بالوسيلة العسكرية ! . فاذا كان هذا هو تفكيره فهو خطأ . واذا كان قد اعتقد بإمكان إنجاح فكرته برضى السكان في ايطاليا واختيارهم ، فإن ذلك كان خطأ أيضاً للأسباب التي تقدم بيانها .

وهكذا فإن هدف الحرب القرطاجية كان خطأ ، والخطأ في الاستراتيجية يؤدي الى الفشل حتماً ، وقد تم ذلك فعلاً في الحرب البونية الثانية ، حرب هانيبال . وكذلك كان الحال بالنسبة الى القاعدتين لهذه الحرب : اسبانيا المستعمرة القلقة وغير المستقرة ، وقرطاجة الدولة الفاسدة والحكومة العاجزة الفاشلة . وفيما يتعلق بالارتباط والاتصال والامداد ، فيكفي للدلالة على فشل هذه النواحي الهامة ، أن هانيبال ، خلال ١٦ عاماً ، لم يستطع أن يتلقى ، من اسبانيا وقرطاجة ، لا رسالة ولا نجدة ولا مدداً . . لقد استطاع مرة أن يبعث بتقرير الى قرطاجة بعد معركة « كانّه » ، مع أخيه ماكو على ظهر سفينة مصادرة . . واستطاعت قرطاجة مرة أن تتصل به لتأمره ، عام ٢٠٣ق م ، بالعودة مع قواته الى قرطاجة . ومن المحتمل أن يكون قد حصل نوع من الاتصال ، بين هانيبال وقرطاجة ، أكثر من مرة ، إلا أن المؤكد أنه لم يتلق أي امداد لا من قرطاجة ، ولا من اسبانيا ! .

وفيما يتعلق بنقاط الفشل الاستراتيجية التالية : نقص في المعلومات ، عجز عن اقتحام المواقع المحصنة ،إهمال للمسألة البحرية ، كفاءة عسكرية مقتصرة على شخص واحد ، عدم اغتنام الفرص السانحة المتأتية عن انتصارات تكتيكية ، فهي أمور ثابتة لا تحتاج الى نقاش . فقد اعترضه الغاليون عند نهر الرون ، ولم يكن من داع لذلك لو كان قد أجرى اتصالاً مسبقاً معهم . . وضل طريقه في جبال الألب واستيق الى كمين . . ولم يقم هانيبال بأي اجراء على سطح البحر قط . . ولم يغتنم سانحة الاستيلاء على روما بعد انتصاره الساحق في « كانه » ! .

وكان من جراء سماحه لجيش شيبو الأب ، عام ٢١٨ ق م ، بمتابعة طريقه لغزو اسبانيا ، أن صارت شبه الجزيرة الايبرية (اسبانيا والبرتغال حالياً) كلها محمية رومانية ، وفقد هانيبال بنتيجة ذلك كل أمل بإمداد من هذه القاعدة ، كما أصيب في سمعته وهيبة دولته ، من جراء الحادث ، لدى الشعوب في غاليا وايطاليا !.

والخطأ الاستراتيجي الأخير ، الذي حسم الأمر وأنهى الحرب لصالح روما ، فهو نزوله عند ضغط أهالي قرطاجة ، وقبوله بالتوجه الى خوض معركة حاسمة ، على الأرض التي اختارهـا الخـصم في زاما ، وهو على غير استعداد لذلك . لقد كان عليه أن يتبنى بدوره سياسة الرومان واستراتيجيتهم في الاحتواء والاعاقة ، التي قابلوه بها طول وجوده في ايطاليا . كان باستطاعة قرطاجة ، بكل تأكيد ، أن تصبر على شيء من الحرمان ونقص الأرزاق ، نتيجة لعبث شيبيو الأفريقي في مزارع وحقول وادي نهر مجردا . وأكبر دليل على ذلك أن المدينة قد صمدت ، مقطوعة عن كل اتصال مع الخارج ثلاثة أعوام كاملة ، قبل أن تدمر وتسوى بالأرض ، عام ١٤٦ ق م .

٤ ـ هانيبال في المجال التكتيكي

يعلق الناقد البريطاني الذائع الصيت ، ليدل هارت ، على معركة زاما بقوله « إن أستاذ حرب ـ هانيبال ـ قد لاقى أستاذ حرب آخر ـ شيبيو ، وكانت « زاما » المناسبة الوحيدة لالتقاء القائدين الخصمين ، وجهاً لوجه ، في ميدان القتال » .

ويقول المارشال البريطاني مونتغومري ، بطل حرب العلمين ، بتفوق هانيبال على شيبيو تكتيكياً ، وبصحة ادارته للمعركة في « زاما » : كان جيشه ، في هذه المعركة ، أضعف نوعية وتسليحاً من جيش خصمه ، وضعيفاً في الخيالة بنسبة واحد الى أربعة ، مما جعله عاجزاً عن العمل والمناورة بتكتيكات الاحاطة والتطويق ، وكانت سبيله الى انتصاراته السابقة . وفيما يتعلق بالفيلة ، فقد كان عليه أن يغامر باستعمالها ، لأنه لم يكن له بديل عن

ذلك ، وكل شيء كان معلقاً على سلوكها ، وقد حصلت هذه النتيجة بالفعل . فقد ارتدت الفيلة على أعقابها بدل أن تتقدم ، وكان ذلك أول الكارثة ، إلا أنه رغم ذلك ، رغم ما أحدثته الفيلة من فوضى وتقتيل في صفوف الخيالة القرطاجية ، فإن هانيبال ، باحتفاظه بخيرة مشاته حتى النهاية ، كاد أن يفوز .

وإن شيبيو ، بالمقابل ، لم يرتكب خطأ في زاما ، وكان قيامه باعادة ترتيب قواته ، وتنظيم صفوفها في إبان المعركة ، بهدوء وبرودة أعصاب ، عملاً رائعاً ، عمل معلم بارع وأستاذ قدير . وقد انتهت المعركة لصالحه بعودة الخيالة الرومانية والنوميدية من مطاردة الخيالة القرطاجية في الوقت المناسب ، وبتفوق مشاة اللجيون بالخواص القتالية . لقد قام هانيبال ، في تلك المعركة ، بكل ما كان من الممكن عمله ، وهو في عام ٢٠٢ ق م ، وبعد ١٦ عاماً من قيادة عليا وحروب متواصلة ، ربما كان التعب قد أثر فيه وأضعفه الاجهاد ، ولذا فإنه لم يستطع أن يعطي في زاما أفضل مما أعطى . أما شيبيو ، فقد كان على العكس من ذلك ، في قمة نضوجه وتألق عبقريته .

ويمضي مونتغومري فيقول متابعاً : ان شيبيو كان ولا جدال أحسن القادة الرومان ابداعاً في التكتيك . لقد أدرك منذ البداية أن الضعف الكبير في الجيوش الرومانية كان النقص في الخيالة . كانت مشاة اللجيون أفضل مشاة في ذلك الزمن ، غير أن هذه المشاة كانت معاقة ومحدودة الأبعاد لعدم إسنادها بسلاح فرسان قوي الى درجة الكفاية ، وكان هذا الضعف قائماً منذ زمن قديم ، وسبباً لعجز جيوش روما عن الوقوف نداً لجيوش مكدونيا في القرن الرابع قبل الميلاد . وقد عالج شيبيو هذا النقص ، ولو لمدة قيادته ، وربح من جراء ذلك معاركه في «مجردا» و«زاما» . وأن ادراكه للضرورة الماسة لسلاح الخيالة ، وتكتيكه في استعمال هذا السلاح لدليل على عقلية متفتحة وطبيعة عملية . كان شيبيو في ذلك مقلداً لهانيبال ، ولو بطريقة عفوية غير متعمدة ، وهو اعتراف ضمني باستاذية القائد القرطاجي وتقدير لنبوغه ومواهبه . وكان هانيبال نفسه مقلداً في هذا الصدد أيضاً لأستاذ أكبر ، للاسكندر الأكبر . فلقد استعمل شيبيو سلاح الفرسان تبعاً للتكتيك الذي اختطه الاسكندر من قبل

وهانيبال من بعد ، وكان ترتيب قواته في معركة « إيليبا » كثير الشبه بترتيب قوات هانيبال في « كانه » . ومن سوء حظ الرومان أن شيبيو ، نظراً لضيق الوقت ومحدودية مدة قيادته ، اضطر الى تدارك النقص في سلاح الخيالة اعتماداً على خيالة الأحلاف والمرتزقة ، بدل العمل على تجنيد الرومان وتعويدهم على هذا السلاح .

٥ ـ من الأفضل : هانيبال أم شيبيو ؟

كان هانيبال وشيبيو كلاهما موفقين في التعامل مع الجند والأحلاف . فقد غزا هانيبال ايطاليا بجيش كان خليطاً من الأجناس واللغات ، من مواليد جميع بقاع البحر المتوسط الغربية . وقد قام باعداد وتنظيم وتدريب هذا الجيش على أحسن وجه ، وانتصر بواسطته في معارك عديدة . لقد بقي يقاتل في ايطاليا مدة ١٦ عاماً بصورة متواصلة ، دون أن يتحرر جيشه ولا مرة من الميدان ، ودون أن تبدر منه أية بادرة جدية للتمرد والعصيان تجاه قائده الأصلي وضباطه القرطاجيين ، ولا تجاه عناصره بعضها ضد بعض ، وفي هذا دليل قاطع على استاذية هانيبال في قيادة الرجال وعلم النفس . ولم تكن هذه المقدرة مقتصرة على مجال الحفاظ على المعنوية واللحمة والتكامل في الجيش فحسب ، بل وشملت أيضاً مجال خداع خصومه والتغرير بهم ، كما فعل قبيل موقعة ترازيمين . كان هانيبال وشيبيو يتمتعان بالشجاعة والجرأة على حد سواء ، وبشعبية طاغية لدى المقاتلين على مختلف المستويات .

قد يتعادل شيبيو مع هانيبال نظرياً في مجال التكتيك ، ولكنه يتفوق عليه عملياً ، ولو بالنقاط ، نتيجة لانتصاره في زاما . أما من حيث الناحية الاستراتيجية ، وبموجب النتائج الحاصلة فعلاً ، فان شيبيو يعلو مستوى على هانيبال . وقد كان لهذا التفوق الكلمة الأخيرة والقول الفصل في مصير الحرب البونية الثانية ، وبالتالي في مصير قرطاجة وزوالها من دنيا الوجود كدولة وكأمة . وهو التفوق الذي جعل من شيبيو أحد أعظم قادة التاريخ في العالم القديم .

ونحن عندما نتصفح أحداث الحروب البونية كلها ، فلا يسعنا الا أن نلمس لدى الزعامة القرطاجية ، مدنية وعسكرية ، تقصيراً فاضحاً في المجال الاستراتيجي ، بصورة تكاد تكون عامة ، وقد لا نخطىء اذا قلنا بأن هذا العجز لدى هانيبال كان بمثابة ارث عنصري متوارثاً جيلاً بعد جيل .

٦ ـ معركة زاما

خاض شيبيو ، بعد نزوله الى البر الأفريقي القرطاجي ، ثلاث معارك كانت على التوالي :

ـ معركة أوتيكا ،

ـ معركة السهول الكبرى ،

ـ ومعركة زاما (زوارين) .

وكانت معركة زاما الأخيرة والحاسمة ، وقد انتهت بها الحرب البونية الثانية ، عام ٢٠٢ ق م .

سارعت قرطاجة ، على أثر هزيمة قواتها في معركة السهول الكبرى ، الى طلب الهدنة وانهاء الحرب ، وارسلت وفداً للمفاوضة . وقد توصل الطرفان الى اتفاق خطي بمصادقة روما ، لكن قرطاجة لم تتقيد به بل عمدت الى نقضه بعد وصول هانيبال وجيشه الى أفريقيا عائدين من ايطاليا .

وكان من جراء ذلك أن عاد شيبيو الى الحرب ، بادئاً عملياته بالسير صعداً في وادي بقراده (مجردا) ، يدمر الريف الغني بالنار والسيف ، ويقضي على مصدر أساسي للمؤونة كانت قرطاجة تعتمد عليه لطعامها . وكان لشيبيو هدف آخر من وراء ذلك ، وهو أن مسيره في ذلك الاتجاه كان يقربه من نوميديا ومن قوات مازينيسا ، وكان يرى أن اجتماعه بهذه القوات سيكون حاسماً في تقرير مصير معركته المقبلة مع هانيبال ، وقد صدق رأيه .

كان هانيبال ، في تلك الأثناء ، في هدراميتوم (سوزه) على الساحل ، محاولاً بجهد اليائس أن يعطي لجيشه الشكل اللازم والاعداد المناسب ،

وأن يجند خيالة كافية للعمل تحت قيادته ، لكن دون نجاح كما يشتهي ، وإن كانت قد التحقت به شراذم من أنصار سيفاكس . كان الوقت يعمل ضده ؛ فمن جهة كان ممثلون عن قرطاجة وعن المدن المنتشرة على طول نهر بكراده يتوسلون ويضغطون عليه لكي يوقف شيبيو عن عمل المزيد حرقاً وتخريباً . وكان من جهة ثانية يعتقد بضرورة خوض معركة مع شيبيو قبل أن تلتحق به قوات مازينيسا ملك نوميديا . وبناء على ذلك فقد تحرك من هدراميتوم ، في طريقه غرباً الى مكان يدعى زاما ، آملاً كما يظُن أن يتمركز بين خصميه الحليفين ، وأن يكره شيبيو على الرجوع على أعقابه باتجاه الساحل .

عند وصول هانيبال الى زاما ، عمد فأرسل الى شيبيو يقترح عليه لقاء للتداول في موضوع الحرب . وقد ادعى بعضهم أن ذلك كان منه حيلة لابقاء شيبيو حيث كان ، وبحيث يُستجلب الى المعركة قبل وصول مازينيسا وخيالته . هذا الادعاء مشكوك في صحته ، بدليل أن هانيبال لم يتحرك على أعقاب رسله ، باتجاه المعسكر الروماني ، الا بعد بضعة أيام ، بعد أن تم اجتماع شيبيو بمازينيسا وجواب هذا الأخير بالموافقة على اللقاء،وقد قام هانيبال على الأثر بفض معسكره والتحرك حتى جوار المعسكر الروماني . ولكننا نستنتج من ذلك أيضاً أن هانيبال ، عند وصوله الى زاما ، كان على مقربة من المعسكر الروماني ، وأن مازينيسا لم يكن قد وصل مع قواته بعد . ولذا فإننا نتساءل : لم لم يقم هانيبال بمهاجمة الرومان عندئذ اذا كان يعتقد حقاً أن خيالة مازينيسا ستقرر مصير المعركة ؟! . .

عقد شيبيو وهانيبال لقاءهما ، في مكان ما بين المعسكرين ، وكان ثالثهما مترجم واحد فقط ، وذلك رغم أنهما لم يكونا بحاجة الى وسيط للتفاهم بينهما ، فكلاهما كان يتكلم اليونانية بطلاقة ، وكان هانيبال ، كما يُعتقد ، يحسن اللغة اللاتينية أيضاً . وقد افتتح هانيبال الحديث بالثناء على منجزات شيبيو ، وبقوله له أنه كان لتاريخه محظوظاً ، لكن الحظ السعيد معروف بسرعة التقلب . ثم تساءل قائلاً ما الداعي الى المحاربة اذا لم تكن ضرورة لذلك ؟ ! . ! ثم قال إنه يقبل بنفس شروط السلام ، التي كان قد

اتفق عليها قبل قدومه الى أفريقيا ، باستثناء شرط واحد ، وهو تسليم الفارين . فالقبول بهذا الشرط كان يعني عملياً تسليم كل ايطالي في جيشه ، أي حوالي خمسين بالمئة من أولئك المحاربين القدامى المتمرسين ، الذين جاءوا معه الى أفريقيا ، وتعريضهم مؤكداً الى موت فظيع . لم يكن هانيبال مستعداً لانقاذ بلده ثمناً لخيانة كهذه . وقد رد شيبيو كما كان متوقعاً ، قائلاً إنهم القرطاجيون الذين نقضوا الاتفاق ، وثم تساءل لماذا يتوقع هانيبال أن يحصل على شروط أفضل من تلك التي سبق الاتفاق عليها ؟!. وباصرار كل فريق على موقفه انتهى الاجتماع الى طريق مسدود ، وافترق القائدان وهما على ثقة من أن القتال بينهما ناشب في اليوم التالي .

ولنا في هذا المجال تساؤل استغراب أيضاً !. لقد كتبوا قائلين أن هانيبال كان عارفاً بالنفس البشرية ، ملماً بخفاياها ، وأن هذه المعرفة كانت أحد أسباب نجاحه في التعامل والتعاطي مع الناس ، وخاصة مع عناصر الجيش المتعددة الألسن والأجناس . ولكننا نراه في هذا المجال يرتكب خطأ كبيراً ، عام ٢١٦ ق م بعد معركة كانه ، بتكليف روماني كبير مسموع الكلمة في روما ، وكان أسيراً لدى هانيبال مدة طويلة ، ومطلعاً بالتالي على أحوال الجيش القرطاجي أعداداً وتسليحاً وتجهيزات ومعنويات ، بحمل رسالة عرض صلح الى مجلس الشيوخ الروماني !. ونراه في زاما ، قبل نشوب المعركة ، وقبل اجتماع خصمه مازينيسا مع شيبيو، يطلب من هذا الأخير عقد لقاء معه للتداول في موضوع الحرب ، وللمطالبة بشروط صلح لم يكن من المحتمل أن يوافق عليها القائد الروماني . وفي كلتا الحالتين : بعد كانه ، قبل ١٤ عاماً ، وفي زاما بعد انقضاء نفس هذه المدة ، لم يكن من الممكن للرومان الا أن يروا فيهما دلالة على الضعف وخوار العزيمة !. وكيف نفسر هدف هانيبال بنقل الحرب الى ايطاليا لتحرير شعوبها من قبضة روما ، ومنحها الحرية وحكماً ديمقراطياً ، وهو الممثل لأسوأ سلطة استعمارية في ذلك الزمن !

عدد القوات

لا يُعرف بالضبط كم كان العدد لدى الجيشين المتقابلين في ساحة المعركة. ولكن إذا أخذنا بأقوال المؤرخ بـوليبيـوس ، وبأن خسائر هانيبال في زاما بلغت (٢٠) ألف قتيل و (٢٠) ألف أسير ، وبأن جيشه قد أبيد بكامله ، فباستطاعتنا ، بناء على ذلك ، أن نستنتج أن الجيش القرطاجي كان في حدود (٤٠) ألفاً . وقد ذكر عدد من المؤرخين أن النسق الأول ، في جيش هانيبال ، كان يعد (١٢) ألفاً . فاذا افترضنا أن كلا من النسق الثاني والنسق الثالث كان يتألف من مثل هذا العدد ، فإننا نخرج من الجمع بحاصل (٣٦) ألف مقاتل من المشاة . ومن المتفق عليه أن خيالة هانيبال في زاما كانت أقل كثيراً من خيالة الرومان وحلفائهم النوميديين بقيادة مازينيسا ، ولذا فلن نتجاوز الحقيقة اذا افترضنا أن عدد الخيالة القرطاجية كان في حدود (٤) آلاف فارس ، مع احتمال الزيادة أو النقصان في حدود ألف أو ألفين . وكان مع هانيبال ، اضافة الى ما ذكر ، (٨٠) فيلاً ، وهو أمر مجمع عليه .

وفيما يتعلق بعدد القوات لدى الرومان ، فإن من المعروف أن مازينيسا قد جلب معه (٤) آلاف خيال و (٦) آلاف مشاة . وهناك قول بأن أحد شيوخ القبائل النوميدية ، ويدعى داكاماس ، قد انضم الى الرومان ومعه (٦٠٠) من أفراد قبيلته . وكانت قوات شيبيو الرومانية الخالصة مؤلفة من (٢٨) ألفاً ، بما في ذلك ألف خيال . وبالمقارنة بين هذه الأعداد ، فإننا نرى أن هانيبال كان يتفوق ، الى حد ما ، بالمشاة والفيلة ، وأنه كان ضعيفاً بالخيالة . هذه الأعداد تبقى في حدود تقريبية ، وهي أحسن ما أمكن الحصول عليه .

واذا كان قد أمكن تكوين فكرة ولو تقريبية عن أعداد المقاتلين لدى الفريقين ، فهذه النتيجة لا تعطي أية فكرة عن نوعية المقاتل لدى كل فريق ، ولكننا نعرف أن شيبيو كان عظيم الاهتمام بتهيئة قواته وتدريبها ، وأنه كان لا يقدم على خوض معركة ، الا بعد أن تحصل لديه ثقة وقناعة من قدرته على خوض المعركة بنسبة عالية من احتمال النجاح ضد أي خصم يتعرض له .

ومن الممكن ، تلخيصاً ، أن نقول بأن جيش شيبيو ، في معركة زاما ، عام ٢٠٢ ق م ، كان بنفس قوة ومقدرة جيش هانيبال في موقعة كانه ، عام ٢١٦ ق م ، وكانت خيالة مازينيسا من نوع ممتاز ، وكانت هذه صفة الخيالة النوميدية في ذلك الزمن ، وكانت مشاة مازينيسا من النوع الخفيف ، صالحة لأعمال التماس والمناوشة والكمين .

في الطرف الثاني ، لدى هانيبال ، فان الجيش القرطاجي كان خليطاً عكراً من العناصر المجمعة معاً كيفما اتفق . كانت نواة هذا الجيش ، بالطبع ، مكونة من المتمرسين وقدامى المحاربين الذين كانوا مع هانيبال في ايطاليا ، والذين عادوا معه الى أفريقيا ، وكانوا لا يقلون مقدرة وكفاءة عن جنود شيبيو . وكان مع هانيبال أيضاً حوالي (١٢) ألف مرتزق كانوا في الأصل جزءاً من جيش ماكو ، وكانوا جنوداً نظاميين وعلى قدر جيد من اللياقة والكفاءة القتالية . أما بخصوص ما تبقى من الجيش ، فقد بعثت قرطاجة بحوالي (١٢) ألفاً من المواطنين المتطوعين ومن الأفارقة المجندين على عجل ، ممن لا مجال للشك في غيرتهم وشجاعتهم ، لكن كان هناك نقص كبير في اعدادهم وتدريبهم ، وشك في أهليتهم للوقوف كفوءاً ونداً في وجه اللـجيونـيين . لا توجد معلومات عما كان لدى هانيبال، في زاما، من الخيالة، لكننا لا نخطىء اذا افترضنا بأن خيالته النوميدية ، من أنصار سيفاكس ملك نوميديا المخلوع ، لم تكن أحسن أو أردأ من خيالة مازينيسا . وأخيراً فإن فيلته الثمانين ، وهي قوة ضخمة على الورق ، فقد كانت صغيرة السن ، قليلة الاعداد والتدريب ، ولم تكن قد أُعدت للقتال في ظروف القتال وشروطه .

التشكل للقتال

هانيبال

كان التشكل للقتال شبيهاً نوعاً ما لدى الطرفين . لقد قسم هانيبال مشاته الى ثلاثة أقسام ، واستعملها على أنساق منفصلة . وضع في النسق الأول جنود ماكو ، وكانوا بمعظمهم من الليكوريين والغاليين ، خليطاً من المشاة

شيبيو الأفريقي
يخطب امام
مجلس الشيوخ





لقاء هانيبال وشيبيو قبيل معركة زاما ۲۰۲ ق م .



تمثال نصفي
لشيبيو الأفريقي

الخفيفة ومشاة المناوشة ، والى الخلف من هذا النسق الأول ، على مسافة قريبة،وضع متطوعي قرطاجة الجدد ومجنديها الأفريقيين الحديثي العهد كنسق ثان ، ووضع في النسق الثالث ، على مسافة (٢٠٠) متر خلف المتطوعين ، مقاتليه القدامى كاحتياط . وفيما يتعلق بالخيالة ، فقد وضع النوميديين على ميسرته ، والقرطاجيين على ميمنته ، والفيلة مصطفة بفواصل على خط واحد ، في المقدمة وعلى عرض الجبهة . لقد استجلب هانيبال الى زاما ليقاتل على أرض لم تكن من اختياره ، وفي حالة ضعف في السلاح الراكب. كان وضعه مماثلاً لوضع القنصل « فارو » في « كانه » . لقد كان عليه أن يربح المعركة قبل أن تتسبب أجنحته الضعيفة بحدوث الكارثة المميتة .

شيبيو

احتفظ شيبيو بالتشكل المعتاد في كل لجيون ، لكن متكيفاً مع الموقف التكتيكي الذي كان يواجهه . فهو بدلاً من ترتيب قواته على شكل رقعة الشطرنج ، فقد عمد الى العكس الى وضع وحدات النسق الثاني تماماً خلف وحدات النسق الأول لتكوين دروب لمرور الفيلة القرطاجية . وكنسق ثالث ، فقد وضع وحدات الترياري كاحتياط بعيداً الى الوراء ، كي لا تُصاب بالبلبلة والارتباك في حال نجاح الفيلة بالاختراق . ووضع المشاة الخفيفة في الدروب ، وأمرها بالتراجع بانتظام في حال عجزها عن الوقوف في وجه الفيلة . أما الخيالة ، فقد وضع الرومان على ميسرته بقيادة لائيليوس ، والنومديين على ميمنته بقيادة ملكهم مازينيسا .

القتال

جرت المعركة في زاما على أربع مراحل :

١ ـ انقضاض فيلة هانيبال وهزيمة الخيالة القرطاجية .

٢ ـ القتال بين نسقي هانيبال الأول والثاني ، مع الهستاتي والبرنسبس في النسقين الرومانيين المقابلين .

٣ ـ القتال بين الاحتياط لدى الطرفين .

٤ ـ هجوم مازينيسا على مؤخرة جنود هانيبال القدامى ، وهم الاحتياط في النسق الثالث .

بدأ القتال باشتباك مناوشة بين النوميديين لدى الطرفين ، أعقبه هجوم الفيلة . وقد استقبل الرومان هذا الهجوم بدق الأبواق ، وزعيق النفير ، وكان من جراء ذلك ان ارتاعت الفيلة ونفرت ، الى حد ان فيلة الميسرة ارتدت خلفاً ، محدثة الارتباك والبلبلة في صفوف خيالة هانيبال النوميدية . وقد اغتنم مازينيسا الفرصة ، فانقض بخيالته على النوميديين القرطاجيين وطردهم من الميدان .

أما في الوسط الروماني ، فقد فتكت الفيلة بالمشاة الرومانية الخفيفة ،

ودفعت بها متقهقرة خلال الدروب . ثم كان دور لائيليوس ، الذي اغتنم فرصة هجوم الفيلة ، فأنقض بخيالته على الخيالة القرطاجية وهزمها ، وتبعها في مطاردة ضارية .

وبانطلاق مازينيسا ولائيليوس الى مطاردة خيالة هانيبال ، اختفت خيالة الطرفين عملياً من ميدان المعركة . ولما خلت الساحة من الفرسان والفيلة ، وقع الاصطدام على الأثر بين مشاة الطرفين على خطوطهم الأولية . كان القتال بين الفريقين شديداً ، كل فريق يقاتل بعزم وأعصاب اليائس المستميت . واستطاع الرومان ، بالتدريج ، أن يرجحوا كفتهم ويزيدوا من ضغطهم ، إلى ان تداعت مقاومة المرتزقة القرطاجية ، وتراجعت متقهقرة ، وكان هانيبال ، عندما لاحظ تداعي هذه المقاومة ، أمر قوات نسقه الثاني بعدم السماح للمرتزقة بالمرور خلال أرتالها ، وذلك حتى لا تحدث ، بالعدوى ، الخلل والارتباك في الأنساق التالية .

حمل الرومان ، بعد ان طردوا المرتزقة من الساحة ، على النسق الثاني القرطاجي ، المؤلف من قرطاجيين وأفارقة . ولم يكن حظ هذا النسق بأحسن من سابقه ، وقد انهارت مقاومته وتداعت صفوفه بعد قتال شديد ، فتراجع متقهقراً ، ليجد طريق تراجعه ، كما وقع للمرتزقة ، مغلقاً بالنسق القرطاجي الثالث ، بحيث لم ينج من هؤلاء القرطاجيين والأفارقة سوى الجزء القليل بطريق الأجنحة .

وبالرغم من ان نسقي هانيبال الأول والثاني قد قاتلا حتى أقصى الاستطاعة ، فإنهما لم يحققا كل ما كان يتوخى من قتالهما ، وهو قيام شيبيو بتوريط احتياطه الترياري في المعركة ، وبقي هذا الاحتياط سليماً . وكان من التهور ان يتصدى هانيبال ، باحتياطه ، لنسقي الرومان الأول والثاني ، دعماً لنسقيه المتقهقرين ، فيعطي لشيبيو من جراء ذلك فرصة لاستعمال تكتيك الالتفاف الأثير لديه . وكان شيبيو ، من ناحيته ، يود إعادة تنظيم صفوف قواته قبل خوض المرحلة الحاسمة من المعركة . وبناء على ذلك فقد أوعز الى أبواقه بوقف القتال ، وبعودة جنود الهستاتي والبرنسبس ، في نسقيه الأول

والثاني ، على طريق مفروش بالقتلى والجرحى ، حتى قاعدة انطلاقهم عند بدء الهجوم .

كان القتال ، حتى الآن ، قد ترك خير القوات لدى الطرفين سليمة متعادلة في الكم والنوعية ، وبعد هدوء استمر لفترة قصيرة من الزمن ، أصدر شيبيو الأمر لقواته ، وقد أعيد تنظيمها ، بالعودة الى الهجوم . استؤنف القتال عنيفاً ، ضارياً قاسياً ، وما كان هدفه النصر لأحد الفريقين فحسب ، وانما كان فوق ذلك مباراة وبرازاً بين قائدين كبيرين ، ولم يكن أي منهما مستعداً للتراجع قيد أنملة . استمر القتال على حاله من العنف والشدة ، لا رجحان فيه لهذا الطرف أو ذاك ، الى ان فوجئت قوات هانيبال من الخلف بفرسان مازينيسا ولائيليوس، وقد عادوا الى ساحة المعركة بعد ان انتهوا من مطاردة الخيالة القرطاجية الفارة . وكانت عودة وضعت نهاية للمعركة . وقد استمر قدامى الجنود القرطاجيين على المقاومة اليائسة حتى قتلوا وتساقطوا جميعاً في أرض المعركة . اما هانيبال فقد تراجع منسحباً مع بعض فرسانه ، متوجهاً الى مقره السابق في هدراميتوم .

لقد قضي في زاما على الجيش القرطاجي بكامله . وتقول بعض المصادر ان خسائره بلغت (٢٠) ألف قتيل و(٢٠) ألف أسير . أما المؤرخ أبيان فيقول إن قتلى القرطاجيين كانوا (٢٠) ألفاً ، والأسرى (٨,٥٠٠) فقط . وأياً كان الصحيح من القولين ، فإنه يدل على ضراوة القتال وقسوته ، وعلى ان هزيمة هانيبال كانت تامة كاملة . والمؤرخون على اختلاف في تعيين عدد خسائر الرومان في المعركة ، والمرجع أنها كانت حوالي (٥,٠٠٠) قتيل و(١٠,٠٠٠) جريح .

وقبل ان نختتم الحديث عن هذه المعركة ، لا بد لنا أن نتساءل لماذا سمح هانيبال لشيبيو بوقت لاعادة تنظيم قواته واعدادها لخوض المرحلة الثالثة والحاسمة من المعركة ، فلم يلاحقه بالهجوم لمنعه عن ذلك ؟ . كان ولا شك يعلم ان الوقت يعمل ضده ، وان عودة الخيالة الرومانية ، من مطاردة خيالته المهزومة ، منتظر بين لحظة وأخرى ، وان تضييعه الوقت بانتظار ان يكمل

شيبيو ترتيب قواته لم يكن الا تضييعاً لفرصة كان من الممكن ان ينتهزها للانتهاء من خصمه قبل ان تعود خيالة هذا الخصم لتكسب المعركة ! .

هـ - التقييم العام لهانيبال

خيّل لهانيبال ان الظرف ملائم استراتيجياً لخوض حرب ناجحة مع روما ، وكان ذلك في تقييمي خطأ كبيراً . وأعتقد ان هذا الخطأ قد نتج أساساً عن المغالاة في تقدير استطاعات جيش مرتزق قد ورثه عن أبيه وصهره ، ولم يكن له مثيل أو ند لدى الرومان . وكان هانيبال ، من جراء هذا التفوق التكتيكي ، في موقف قوي فعلاً ، لكن قوة محدودة ضمن إطار هذا الجيش وشخص قائده . وقد كان ذلك التفوق التكتيكي نتيجة لوعي هانيبال ، ووعي صهره وأبيه من قبل ، وتبنيهم للثورة التي أوجدها الاسكندر الأكبر في استعمال سلاح الخيالة ، وهي ثورة لم تحظ في روما بأي اهتمام .

بنى هانيبال استراتيجيته على فكرة استهداف فصم عرى الكونفدرالية الايطالية بزعامة روما ، واستبدالها بكونفدرالية أخرى أوسع وأكبر بزعامة قرطاجة ، وادعى لذلك انه يتحرك الى ايطاليا ، لا لمحاربة الايطاليين ، ولكن لتحريرهم من سيطرة روما وتصرفها بحريتهم وأمورهم . وقد تحرك ، لهذه الغاية ، على رأس جيش تألف من (٩٠) ألف محارب راجل ، و(١٢) ألف خيال ، و(٣٧) فيلاً .

وقد سلك طريقاً برياً عبر اسبانيا وغاليا (فرنسا اليوم) وجبال الألب . اما سبب اختياره لهذه الطريق ، عوضاً عن طريق البحر ، فربما كان لأن روما كانت تسيطر على البحار ، أو لأنه كان من الضروري له ان يثير الغاليين ضدها ، وان يقيم محطات تموين وقواعد تجنيد تكون أقرب ما يمكن الى غاليا ما وراء الألب ، وذلك كي لا يتعرض الى قطع مواصلاته مع اسبانيا . ومن المحتمل ايضاً انه لم يتخذ طريق البحر لاعتقاده بعجز البحرية القرطاجية عن وقاية حملته وايصالها سالمة الى البر الايطالي ، بطريق جزيرة صقلية ، أو رأساً

الى شبه الجزيرة عند الكعب الايطالي .

وقد عبر نهر الرون مع ٥٠,٠٠٠ راجل و ٩,٠٠٠ خيال ، ولكنه لم يكن قد بقي معه من هذه القوة ، بعد الخسائر التي ألحقها به رجال القبائل وجبليو الألب ، وبعد خسائره أيضاً بفعل الأنواء والثلوج ، عند وصوله الى غاليا ما وراء الألب ، سوى ٢٠,٠٠٠ راجل و ٦,٠٠٠ خيال ؛ أي تماماً تقريباً ربع مجموع القوى التي تحرك بها من قرطاجة الجديدة .

هل كانت هذه الخسائر الباهظة بفعل تقصير قيادي ، أو نتيجة لمستوى منخفض من الانضباط في الجيش ؟ لا يمكن الاجابة على هذا التساؤل ، وخاصة بعد تلك السلسلة من الانتصارات المذهلة التي أحرزها بواسطة هذا الجيش نفسه ، خلال السنوات القليلة القادمة ! .

وفي الدراسة لمعارك تريبيا ، وترازيمين ، و« كانّه » ، لن نجد أي شك بأن هذه الانتصارات ، في حد ذاتها ، كانت وليدة لعبقرية هانيبال التكتيكية ، وبأن هذه العبقرية قد استطاعت ان تحقق هذه الانجازات نظراً لمفهوم الرومان وتصورهم للحرب في ذلك الزمن . لقد كان ذلك المفهوم ميكانيكياً صرفاً ، وقام فقط على أساس الشجاعة الشخصية والانضباط والتدريب والتمرين . أما من حيث اللياقة القيادية ، فلا يكاد يظهر منها شيء . فقد كانوا في ذلك الوقت ينظرون الى القائد على أنه بمثابة أستاذ تدريب ، رجل باستطاعته ان ينجز بنجاح عدداً من الحركات الاستعراضية ، دون كثير اهتمام بالأرض أو المتطلبات التكتيكية . هكذا كان نوع القيادة الرومانية التي واجهت هانيبال حتى التقائه بشيبيو الأفريقي في زاما . لقد ربح الرومان معارك عديدة ضد برابرة فوضويين وغير مدربين ، بفضل الانضباط والتدريب . وبما أنهم كانوا لم يستفدوا شيئاً من حروب الاسكندر وخلفائه ، فقد كانوا لذلك دوماً عرضة للمفاجأة والتخبط بسبب جهلهم أو أخطائهم التكتيكية الفاضحة ، وكذلك نتيجة لتبصر هانيبال وحكمته وإبداعه . ولم يكن هذا التقصير نتيجة لأخطاء القادة الرومان أنفسهم ، فهم نادراً ما كانوا يفتقرون الى الشجاعة ، بل كان

خطأ النظام العسكري الروماني ، وكان نظاماً جامداً غبياً ، يعين فيه القادة بالانتخاب ، لا بناءً على مهارتهم وخبرتهم ، ولكن تبعاً لولائهم واخلاصهم للمصالح الحزبية .

أما هانيبال ، على عكس ذلك ، فقد كان في المجال التكتيكي قادراً على تكييف نفسه مع جميع الظروف ـ باستثناء حرب الحصار ـ وكان ، بإرادته ، ينتقل من جرأة لا تجارى كما ظهرت خلال معارك السنوات الثلاث الأولى من وجوده في ايطاليا، الى الدفاع العنيد والمطوق تقريباً، الذي اعتمده طوال الأعوام الثلاثة عشر التالية . لقد كان بارعاً في تكييف أعماله مع الظروف المتغيرة . ومما يقوله المؤرخ الروماني «بوليبوس» عنه : « كان تأثيره كانسان عظيماً مدهشاً ؛ وكان عقله مؤهلاً كما ينبغي ، بتكوين طبيعي ، للقيام بأي مشروع يكون في متناول الطاقات البشرية . . لقد ظل هانيبال ، لمدة ١٦ عاماً ، في حالة حرب مع روما في ايطاليا ، دون ان يحرر جيشه ولا مرة من العمل في الميدان ، بل استمر محتفظاً بتلك الأعداد الكبيرة من المقاتلين تحت سيطرته ، كقبطان بارع ، دون ظهور أية إشارة بالاستياء وعدم الرضى تجاهه ، أو تجاه هذه العناصر بعضها ضد بعض ، ولم تكن من قبيلة واحدة ، حتى ولا من عنصر بعينه . . . لقد كان من المهارة كقائد بحيث ان هذه الفوارق والتنوعات ، على كثرتها واتساعها ، لم تتردد في تنفيذ أي أمر لشخصه الواحد وارادته الواحدة» .

ويقول عنه المؤرخ المعاصر مُمْسن : « انه كان يتميز خاصة بتلك الفطرة المبدعة ، التي هي إحدى الخواص البارزة لدى الخلق الفينيقي . وكان مغرماً باتباع مسالك غريبة وغير متوقعة ، خبيراً ملماً حاذقاً بكل أنواع الأشراك والحيل ، ودارساً متمعناً لطباع خصومه . وكان له جهاز استخبارات لا مثيل له . . كان له عيون وأرصاد في داخل روما نفسها ، وكثيراً ما كان يرتدي لباس تنكر وشعراً مستعاراً ، لغرض الحصول بنفسه على بعض المعلومات . . ان كل صفحة من تاريخ تلك الفترة الزمنية لشاهدة على عبقريته كقائد ، وعلى

مواهبه كرجل دولة . . . لقد كان رجلاً عظيماً ، وكانت الأنظار ، أينما راح ، تنصب عليه» .

ما الذي كان باستطاعة النظام العسكري الروماني ان يفعل ضد مثل هذا الرجل ؟ لا شيء . . ورغم ذلك فإن الشخصية الرومانية هي كانت الغالبة في النهاية . ما الذي نرى بعد « كانه » ؟ هل نرى تصدعاً للجمهورية الرومانية كما هدف اليه هانيبال ؟ لا . . لم تثر ولا مدينة واحدة لاتينية . . لقد بقي الكل ممسكاً متيناً بروما رغم وصولها الى حالة الشلل . . ولو كان الاسكندر الأكبر بدل هانيبال ، بعد معركة « كانه » لكانت روما قد سقطت في يده . . كان قد أدرك ، أو كان عليه ان يدرك عند ذلك الوقت ، قوة ومتانة الكونفدرالية الرومانية ، وان عليه ان يختار بين روما أو لا شيء . لقد استحثه مهاربال ، قائد خيالته ، على التوجه الى هذه العاصمة رأس الأفعى ، فرفض ، فما كان من مهاربال الا ان صاح « حقاً ان الآلهة لا تجود بكل عطاياها على رجل واحد بعينه ! . انك تعرف ، يا هانيبال ، كيف تكسب انتصاراً ، لكنك لا تعرف أبداً كيف تستعمله ! » . وكما يقول المؤرخ الروماني ليفي في تعليقه على المعركة : « من المتفق عليه عموماً ان امتناع هانيبال عن العمل فوراً بمشورة مهاربال هو الذي أنقذ العاصمة والامبراطورية» .

لم لم يزحف هانيبال على العاصمة بعد « كانه » ؟ يجيب البعض على هذا السؤال بقولهم « كان ذلك لأن هانيبال كان قد وضع استراتيجية جديدة تتلخص كما يلي : تستعمل طاقة قرطاجة بكاملها لتوسيع مدى الحرب ونقلها الى مناطق جديدة ، لغرض ضرب الحصار على ايطاليا . . وفي حين يقوم هانيبال بالاستيلاء على المدن واحدة تلو أخرى ، تقوم حكومة قرطاجة بإعداد الطريق للصلح والسلام ، وذلك بطرد الرومان من اسبانيا ، وباستعادة سردينيا ، وبالعودة الى تمركزها في جزيرة صقلية » . وكان هانيبال لذلك قد قبل ، عام ٢١٥ق م ، عرضاً بالتحالف والتعاون من فيليب الخامس ، ملك مكدونيا .

ولكن هل كانت هذه السياسة أسرع السبل الى بلوغ هانيبال لغايته ؟ فلو

أن روما كانت قد استسلمت أو اقتحمت ، لكانت كل اسبانيا وسردينيا وصقلية قد وقعت في جعبته . لم يكن إحجام هانيبال عن السير على روما لأن هذه الاستراتيجية فرضت عليه بفعل افتقاره الى سلاح الحصار ! . كان يشك بقدرته على اقتحام روما ، ولذا اضطر الى التخلي عن سياسة التعرض ، والى مجاراة خصمه ، فابيوس شونكتاتور ، في تبني سياسة دفاعية ، واستهداف النصر عن طريق الاستنزاف .

لم لم تثر أية بلدة ضد روما ؟ لم يكن ذلك نتيجة لولاء كل مدينة لروما فحسب ، بل وأيضاً لأن المدن كانت مسورة وتربط بينها طرق جيدة . لم تكن المدن الايطالية في مأمن فقط من جيش هانيبال الميداني ، بل وكانت سريعة الامداد والتموين . كانت المدن المسورة الآن محاور الاستراتيجية الرومانية ، ومن الغرابة ان هانيبال لم يدرك ذلك . انه لو كان أدرك ، عام ٢١٥ق م ، عندما استقر في مدينة كابوا ، وقد سيطر على القسم الأعظم من الجنوب الايطالي ، لكان وجب عليه ، بكل تأكيد ، ان يسارع الى تأسيس وتنظيم سلاح حصار يدك به دعامات الخصم التكتيكية . لقد غدت الحرب منذ ذلك الحين ، وطوال أربع سنوات ، مسألة مسيرات وتراجعات ، تهديدات وانسحابات ، وفي عام ٢١١ق م ، عندما قام فولفيوس بمحاصرة كابوا والاستيلاء عليها ، كل ما كان باستطاعة هانيبال ان يفعله هو التقدم حتى جدران روما ، والتلويح بسيفه خارج باب الكابيتول ، في حركة بهلوانية ، لكن بعد فوات أوانها بخمس سنين .

لو صح ان هانيبال ، بعد انتصاره في « كانه » ، كان قد امتنع عن الزحف على روما لقناعته بأفضلية العمل على تطويق ايطاليا ، فقد كان عليه ، بعد هزيمة أخيه عند نهر ميتوروس (ميشورو) ، عام ٢٠٧ق م ، ان يدرك خطأه . فهو الذي كان قد أصبح مطوقاً ، وغدا ، في عام ٢٠٥ق م ، معزولاً عند الكعب الايطالي . كانت صقلية قد ضاعت ، وكذلك إسبانيا وعقد الصلح والسلام بين روما وفيليب الخامس ملك مكدونيا . وهكذا أرغم هانيبال على انتهاج دفاع سلبي ، وانتقلت المبادرة الى يد الرومان ، وبقي زمامها في

أيديهم منذ ذلك الحين .

اننا نحار كيف نعطي تقييماً صحيحاً لهانيبال ! . ان مؤلفين ومعلقين كثيرين يقولون بأنه كان استراتيجياً كبيراً ، ورجل دولة من الطراز الأول ، وذلك في حين اننا لا نرى ، في كل تاريخه العسكري ، سوى التخبط والفشل الاستراتيجيين متمثلين في كل خطوة تقريباً ، وخاصة في هدف الحرب وخطتها ، وفي الجمود على رأي وعدم التطور مع الظروف ! . وهو في معاركه الثلاث الأولى ، تريبيا وترازيمين وكانه ، بارز كعبقري تكتيكي بلا جدال ، لكن كيف نفسر عجزه عن الاستفادة من انتصاراته ، وعن عدم تزويد نفسه بسلاح حصار وقد أقام في ايطاليا ١٦ عاماً ، كان خلالها عاجزاً عن اقتحام أبسط الحصون والقلاع؟! . ويقولون إنه كانت لديه مصلحة استعلامات ناشطة قوية ، ونراه رغم ذلك ناقص المعلومات عن القبائل في غاليا وفي منطقة جبال الألب ، ويحمل فكرة مغلوطة ومفهوماً خاطئاً عن الوضع السياسي والاجتماعي في دولة روما وفي الكونفدرالية الرومانية ، ويتبنى على أساس ذلك هدف حرب غاية في الغباء والسذاجة ! .

ويقولون إنه يعلو خصمه وقاهره ، شيبيو الأفريقي ! استراتيجياً وتكتيكياً ، وذلك بالرغم من اعترافهم ، ومما نلمسه في سياق الأحداث وجريان المعارك ، من ان شيبيو لم يرتكب أي خطأ استراتيجي أو تكتيكي ، منذ أن تسلم قيادة ، وحتى ما بعد انتصاره على هانيبال في معركة زاما ! . اننا والحق يقال أمام مسألة عويصة محيرة لا نستطيع حيالها الا ان نتوقف بانتظار مزيد من المعطيات والمعلومات ! .

المـــراجع

- هانيبال ـ ارنلي برادفورد .
- حروب هانيبال ـ طوني باث .
- المعارك التاريخية الحاسمة في عالم الغرب ـ الجنرال فوللر .
- تاريخ المحاربة ـ المارشال مونتغومري .
- الموسوعة البريطانية .
- موسوعة كولومبيا .
- مجلة الجيش البريطاني .

الفهـــــرس